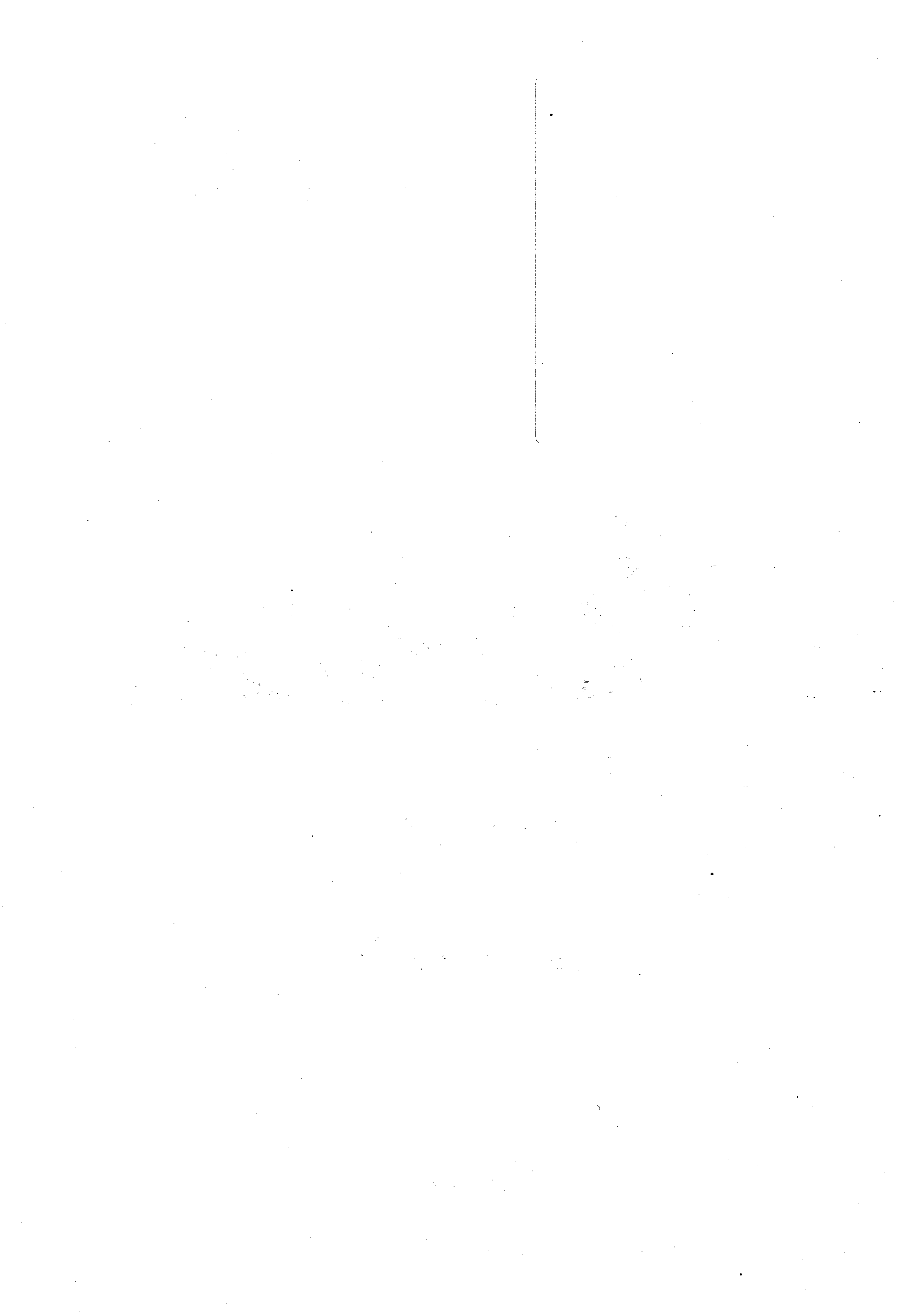
محمد المجذوب

علماء ومفكرون عرفتهم

الجزء الأول

الطبعة الرابعة

دار الشواف



علماء ومفكرون عرفتهم

- أصدرته عام ١٩٩٢م دار الشواف

طبع بالمطبعة الفنية ــ عابدين ــ القاهرة. ت: ٣٩١١٨٦٢

الناشر دار الشواف للنشر والتوزيع

دار الشــواف للنشر والتوزيع

الرياض – العليا – شارع الثلاثين – شرق بنده ت: ٤٦٢٢٦٣٠ – ٤٦٢٢٦٦٧ فاكس: ٤٦٢٢٨٦٦

Riyad - Olaiya, Thalatheen St., (East to Panda) Tel.: 4622630 - 4622667 - Fax.: 4622866

إهداء

إلى الرجل الذي وقف سنيه السبعين كلها على خدمة بيت الله، وعلى تعليم أجيال المسلمين في طرطوس ـ سورية ـ كتاب ربهم وسنة نبيهم، فكانت حياته سلسلة متصلة الحلقات من الجهاد الدائب لتبليغ الناس محكمات دينهم، من العقيدة والعبادة وأساليب التعامل الشرعية اليومية، في دروس لا تكاد تدع له متسعاً لشئونه الخاصة، فعمّت بخيراتها الرجال والنساء، آباء وأمهات وأبناء وحفدة، على السواء.. فلا يكاد بيت في ذلك البلد يخلو من أثر هذا الخير، إما مباشرة منه، أو نقلاً عنه.

إلى أحد أول شيخين تلقيت عنهما كتاب الله، وأحد اثنين بدأت على يديهما دراسة اللغة الكريمة التي بها وعن طريقها أتذوق وأتفهم كلام الله.

إلى روح عمي الشيخ عبدالله المجذوب أهدي هذا الكتاب. تقديراً لفضله وإحياء لذكراه.

عليه رحمات الله

محمد المجذوب



هذا الكتاب

إنه إحدى الثمرات الطيبة التي جنيتها من مقامي في طيبة المباركة، ولعله الكتاب العشرون الذي وفقني الله إلى إخراجه حتى الآن خلال الأربع عشرة سنة، التي طويتها في ظل الجو السعيد العابق بذكريات الإيمان والعزة والجلال، وفي خدمة الجامعة الإسلامية التي:

ردَّت إلى طَيْبةَ العُظمى رسالتَهَا   فكلُّ صُقعٍ به من نفْحها أثَرَ

● ومدينة الحبيب، منذ شرفها الله بحبيبه، صلوات الله عليه وسلامه، هي ملتقى أهل الإيمان من كل مكان، فالمجاور فيها معرَّض أبداً لنفحات الخير، التي منها لقاء من لم يكن يتوقع لقاءه في الحياة الدنيا من كبار حملة العلم ودعاة الهدى، الذين يتشوق إلى لقائهم بما علم من آثارهم.

● ولقد سعدت، والحمد لله، طوال هذه السنين بمشافهة العديد من هؤلاء الفضلاء، الذين زادتني الصلة الشخصية بهم علماً، ولهم تقديراً، فأضاف ذلك إلى الحب القديم صداقة جديدة، فكان من هذا وذاك معظم هذا الكتاب الذي أُقدم له بهذه الكلمة الوجيزة.

● كان التخطيط الذي صممته لهذا المشروع يشمل العشرات من الأخوة، ومن مختلف أرجاء العالم الإسلامي، ولكن ظروفاً قاهرة حالت دون تلقي إجابات الكثيرين ممن بعثت إليهم بالاستطلاع أو سلمته إليهم.. هذا إلى تأخر المنشود من بعضهم، حتى لم يبق ثمة متسع من الوقت لصياغته وضمه إلى ما أمكن إنجازه. وبذلك اضطررنا إلى إيساع التصميم حتى يكون الكتاب أكثر من مجلد نقدم منه لهذه الطبعة القسم الأول، على أمل أن يوفقنا الله إلى استئناف العمل في تأليف الجزء الثاني، وعسى أن يكون ذلك قريباً بمنه وتيسيره.

● أما المنهج الذي بنينا عليه هذه التراجم فقد كان قائماً على نماذج من الأسئلة، يكتب المترجَم أو يملي علينا خطوطها الكبرى، ثم نعمد إلى صوغها

وفق ترتيبها في الاستطلاع، رابطين كل جزء منها بما يتصل به من عوامل البيئة أو التربية أو الأحداث المؤثرة، أو بها جميعاً، فتبرز بذلك صور هذه العوامل كلها من خلال الربط التحليلي، حتى يتبين القارىء في يسر مجاري العمل الإسلامي في البيئات التي تتصل بحياة المترجَمين.

● ولقد أمكن، ولله الحمد، الحفاظ على روح ذلك المنهج إلا قليلاً، مما يتعلق بالترتيب. وذلك أن بعض الأخوة، أمتع الله بحياتهم، قد غفلوا عند تسطير الإجابة عن جدول النماذج، فحال ذلك بيننا وبين الالتزام المقرر. وهكذا اختلف نظام العرض، وتعددت مسالكه، مع الارتباط التام بأهداف المنهج من حيث التحليل والتصوير. ولعل ذلك كان خيراً إذ جاء أكثر تلويناً.

● وأما ترتيب الفصول فقد آثرنا له مراعاة حروف الأسماء وفق النسق الهجائي، بدلاً من تاريخ الورود أو حجم المعروض.

● بقي أن نذكّر القارىء العزيز بأن كل الذين تناولنا الحديث عن حياتهم المباركة هم ممن لقينا وعرفنا، إلا واحداً فقط هو الشيخ عبدالرحمن الإفريقي، الذي حال الأجل دون لقائه، وإنما سوّغ الكلام عنه ما انطوت عليه حياته الخصبة من أحداث تلفت النظر، وتسترعي التأمل الطويل، في ماوراءها من التدبير الخفي الحكيم. ويعود الفضل في معرفتنا ذلك إلى تلميذه الوفي فضيلة الشيخ عمر محمد فلاّتة، الأمين العام للجامعة الإسلامية.

● هذا، ومع أني كبير الرجاء بأن يلقى كتابي رضى أهل الفضل من القراء في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، فيسرني كل السرور أن أتلقى ملاحظاتهم عليه، لأنتفع بها في الطبعة المقبلة ــ القريبة ــ إن شاء الله.

والله اسأل أن يكرم عملنا بالقبول إنه خير مسئول

المدينة المنورة ــ قُباء ــ ١٠/١١/١٣٩٧هـ

محمد المجذوب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله وصلى الله على عبده الأكرم محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه وتابعيهم باحسان.

وبعد فهذه الطبعة الثانية أقدمها إلى القاريء العزيز مصححة ومزيدة، ولو كان الأمر إليَّ لكان عليَّ أن أتولى تقديمها قبل سنوات، إذ نفدت تلك الطبعة، وتوالى الطلب على الكتاب، حتى بلغ بعضها نسبة غير متوقعة.. ولكن الأمور تجري على قدر لا يملك الإنسان منه شيئاً إلا أن يشاء الله.

ثم لقد كان المقرر أن تخرج هذه الطبعة مع الجزء الثاني من الكتاب، وفيه كذلك تراجم عشرين من رجال الدعوة المعروفين في العديد من أنحاء العالم الإسلامي، إلا أن تكاثف الأعمال وتراكم المشاغل في مؤلفات أخرى لم يكن بد من إنجازها حالاً دون ذلك، مع أن مادة الكتاب توشك أن تكون جاهزة كلها... فعسى أن يبارك الله في بقية العمر فنستدرك مافات، وبذلك يقدر لنا لقاء آخر في هذا الجانب مع القاريء العزيز بمنه وتوفيقه.

ولله الحمد من قبل ومن بعد ولا حول ولا قوة إلا به.

المدينة المنورة ــ ساحة مسجد قُباء.

١٤٠٣/٧/١هـ

١٩٨٣/٤/١٤م

محمد المجذوب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

لا أزعم أن هذه الطبعة وهي الثالثة من «علماء ومفكرون عرفتهم» يشكل دليلاً على أن هذا الكتاب قد أحرز من الرواج ما كنت أتوقع له، وذلك لسبب واحد هو أن مجموع النسخ لكل من طبعتيه السابقتين لم تتعد ــ فيما أعلم ــ حدود الثلاثة الآلاف، مع أن إقبال القراء عليه لم يكن قليلاً، ولكن موقف بعض الناشرين منه لم يكن على المستوى المنشود، حتى ليمسك أحدهم عن إعادة طبعه لتأمين المقادير المطلوبة منه إلا أن ينزل مردودى منه إلى أدنى الحدود.. وهى محاولة على قسوتها تستحق الشكر بالقياس إلى مانعانيه لدى بعضهم من إجحاف قد يجعل العشرة الآلاف من المطبوع ألفين، ويهوى بالاستحقاق من عشرات الآلاف إلى مايقارب الصفر.. ولولا إسعاف القدر بكشف المحجوب لما وقفنا من حقوقنا هذه على عين ولا أثر..

ولعل الله أن يجعل هذه الطبعة أكثر توفيقاً وأوفر نسخاً على يد «دار الاعتصام»، التي تولت نشر الجزء الثاني من الكتاب، ثم رأت أن تستجيب لرغبة القراء الذين يريدون الحصول على جزأيه جميعاً، ففوضت لها الأمر، وهاهو ذا يقدم إلى القارىء مع أخيه الثاني، ويبقى الجزء الثالث الذي ينتظر اللمسات الأخيرة ليأخذ طريقه إلى المطبعة التي لايعلم إلا الله أي مطبعة هي، وأين مكانها ؟؟..

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات.

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الرابعة

هذا المجلد الأول من «علماء ومفكرون عرفتهم» بدأ صدوره من بيروت ثم مالبث أن انتقل إلى جدة ليخرج في طبعة ثانيه، ثم إلى القاهرة ليأخذ سبيله إلى ثالثة، وها هوذا اليوم يستقر في الرياض ليحظي بعناية «دار الشواف» الحديثة في طبعة رابعة.. ولو استجاب الناشر لطلب القراء لحقق الظهور في طبعات، ولكن لكل شيء أجل ولكل أجل كتاب.

ولعل هذه الكلمة تكون آخر ما أسطره في تقديم هذه الطبعة من الكتاب بعد أن أشرفت من العمر على المحطة التي صَوَّرتها بقولي في قصيدة (لحظة آمن) من ديواني الثالث (آلامٍ وأحلام):

إنني أسمع صوتَ المو تِ هدَّاراً بأذْني
وأري بي كل شيء هادماً ما كان يبني

ولم يبق لي من أمل في هذه الدنيا سوى أن يستجيب الله دعائي فيجعله وأخويه من الأعمال التي يحبها ويرضاها، ويرزقها من يتولاها بعدي بجميل الرعاية فيجدد حياتها كلما آذنت بالنفاد في طبعات جديدة تحقق لها صفة الدخول في زمرة الباقيات اللاتي أخبر

عنهن رسول الله صلوات الله عليه وسلامه عليه بقوله ـ في صحيح مسلم ـ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له».

ودعوة صالحة من قارىء صالح بعض ماينطوي عليه مدلول هذه البشرى النبوية الكريمة.. والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا به..

المدينة المنورة ١٩/١/١٤١٢هـ.

محمد المجذوب

الأستاذ أحمد محمد جمال

هو الكاتب الإسلامي المعروف بآثاره المتصلة أحمد محمد جمال ، ينتهي نسبه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، عضو مجلس الشورى في مكة المكرمة، وأستاذ الثقافة الإسلامية في جامعة الملك عبدالعزيز في مكة وجدة .

يقول الأستاذ : إن جداً له قد هاجر إلى الهند ، ثم عاد إلى مكة حيث استقر ، وتكاثر نسله ، واتصل مقامهم في جوار البيت الحرام حتى اليوم ، وإن بعض ذرية هذا الجد قد شغل منصب القضاء في جدة .

إلا أن الأستاذ لم يذكر لنا تاريخ تلك الهجرة فنعلم أهي في موجة الفتح الإسلامي الأول للقارة الهندية ، أم هي من الهجرات الأخر التي شملت العديد من علماء العرب ، الذين قصدوا إلى الهند في مختلف العصور ، لطلب العلم أو لتدريسه .

ويذكر الأستاذ أن ميلاده كان في مكة عام ثلاثة وأربعين وثلاث مئة وألف،ويعني ذلك أنه قد استوفى حتى الآن السادسة والخمسين من عمره المبارك، على الرغم من أنه يبدو للناظر دون هذه الحدود . فالأستاذ سليم البنية ، وافر النشاط ، محتفظ بالكثير الكثير من خصائص الشباب ولله الحمد .

نشأتــه :

ويصف الأستاذ بيئته التي فيها نشأ فيقول : إنهـــا محافظة ومتوسطة . وبالطبع إنما يريد بالتوسط حالتها المادية ، ولعل ذلك من العوامل التي ساعدتها على استمرار (المحافظة) ما دام الطغيان – في الغالب – مقارناً للغنى بشهادة العليم الحكيم .

وكنا نود لو تبسط المترجَم بالحديث عن الجانب العلمي من حياة أسرته ، لنرى الى أي مدى كان لذلك أثره في اتجاهه .

إن وجود قاض من هذه الاسرة في جدة لا يثبت غلبة اللون العلمي عليها ، ولكن لا ينفى أن يكون لهذا اللون حضور في حياتها غير مقطوع . وبخاصة إذا ذكرنا أثر الشعور الأسري في كيان الفرد المسلم ، الذي يعلم أنه مشدود برباط النسب إلى أحد عظماء التاريخ الإسلامي كالفاروق وإخوانه تلاميذ النبوة. أضف إلى ذلك أثر الجو المكي، الذي لم يتخل قط عن روح العلم المتميز بصدوره عن منبع الوحي من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ثم عن تراث المجتهدين من أئمة التابعين .

دراسته :

وعن دراسته العلمية يقول الأستاذ : إنه بدأها في المعهد العلمي السعودي بمكة المكرمة ، وكان آنذاك بمثابة الثانوية الوحيدة هناك .

وطبيعي أن امرءاً في مثل مواهب المترجم لا يروي نهمه إلى المعرفة استكماله مقررات أي المعاهد، وإنما يتخذ منها نقطة انطلاق لاستكشاف جديد من العلم في كل يوم ، وهكذا مضى الأستاذ يلتمس الموارد الشهية من مظانها الخيرة . فعلى المرحوم العلامة السيد علوي مالكي ، المدرس السابق بالمسجد الحرام، تلقى بعض تفسير القرآن العظيم. ومن أفكار الإمام الشهيد حسن البنا قبس غير يسير من أصول الثقافة الإسلامية العلمية . وكان ذلك من البواعث الحثيثة للأستاذ

على التزام سبيل العاملين لخدمة الإسلام في حماسة ونشاط يتميز بهما كل متأثر بمدرسة الشهيد البنا .

علومه المفضلة :

ويركز الأستاذ في جواب الفقرة السادسة على إيثاره دراسة القرآن والتشريع الإسلامي على سائر العلوم الأخرى . ويقول: إنه منذ عشر سنوات يقوم بتدريس مادة (الثقافة الإسلامية) بجامعة الملك عبد العزيز .

وانقطاع الأستاذ إلى هـــذا الاتجاه تعبير طبيعي عن تكوينه الفكري والروحي ، فدراسته بالمعهد العلمي في مكة حددت سلوكه في طريق الثقافة الإسلامية الخالصة ، وبخاصة في ذلك العهد الذي كان التعليم فيه مقصوراً على بقية من مشايخ الحرم ، الذين لا سبيل للتفريق بين دروسهم وسلوكهم .

على أن من الواجب الحتم تذكير القارىء بما أشرنا اليه في أكثر من موضع ، وهو أن انقطاع المفكر إلى هذا الضرب من الثقافة القرآنية لا يعني انفصامه عن مجالات الفكر الأخرى كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان، ذلك أن الثقافة الإسلامية لا تعرف الفصل بين الدنيا والدين ، فكل علم يساعد على إثراء المعرفة هو علم شرعي إسلامي دون خلاف . وإني لأعتقد بأن من أشد الناس جهلاً للإسلام ، أولئك الذين يقيمون الحواجز بين ما يسمونه علوم الدين وعلوم الدنيا ، فيوهمون طلابهم أن الإقبال على علوم الشريعة يقتضي الإعراض عن علوم المادة . ولو أن هؤلاء أنعموا الفكر في الآيات الكونية من كتاب الله ، لأدركوا أن أحق الناس بتفسيره أعلمهم بقوانين المادة، بعد الإحاطة بأصول التفسير والحديث والعربية، وما إليها من وسائل المعرفة الأولى .

وعلى هذا فكل مثقف إسلامي هو في الوقت نفسه مثقف عالمي . ولا شك أن المتتبع لآثار الاستاذ لا يغيب عنه هذا اللون في كل ما يكتب، تستوي في ذلك مذكراته الدراسية ومقالاته الاجتماعية، التي لا يفتأ يوافي بها الصحف والمجلات

بحثاً في دقيقة ، أو تعقيباً على زلة ، أو قمعاً لفرية ، وهو في كل أولئك حاضر الدليل ، نافذ الحجة ، عميق النظرة ، متعدد الأسلحة ، تشعر وأنت تلاحق أفكاره انه يطل بك على آفاق واسعة من المعرفة البشرية . فيذكرك بالسابقين من رجال الفكر الاسلامي ، الذين أطلوا من خلال الوحي على مسارب الثقافة العالمية جميعاً . وليس في ذلك من غرابة بالنسبة إلى مفكر شق طريقه على ضوء الإسلام ، ثم تولى تدريس الثقافة الإسلامية في وسط جامعي ، فهو بحافز التوق العلمي من جانب ، وحاجته المتجددة إلى تتبع الأحداث الفكرية العالمية من جانب ، لا يستطيع الانفصال عن مجرى الثقافة العامة ، بل لا يستطيع إلا الاتصال المستمر بمعطياتها القديمة والحديثة . ولا ريب أن ممارسة المترجم للعمل الصحفي – مع أخيه الاستاذ صالح – في جريدتي « حراء » ثم « الندوة » قد كانت أحد العوامل الفعالة في تفتيق مواهبه وتكثيفها معاً ، إذ لا مندوحة للصحفي من ملاحقة الأحداث ، وتحليلها ، والربط ما بينها ، والتفطن إلى مدلولاتها البعيدة ، حتى يصبح ذلك جزءاً لا يتجزأ من وجوده .

مؤثرات فكرية :

وحول السؤال الخاص بالأحداث التي أثرت في تكوينه الفكري والروحي يحصر الأستاذ إجابته في تخلف المسلمين ، ويحدد سبب التخلف بهجرهم للثقافة الإسلامية ، التي يقرر أنها « نظرية علم وسلوك ، وليست مجرد معارف ومبادىء » .

والإجابة نابعة من كيان الأستاذ كله ، فإذا كان لكل إنسان مؤثراته الخاصة التي توجهه إلى هذا أو ذاك من مسالك الحياة ، فلا جرم أن حصر مؤثرات المفكر المسلم في أوضاع الأمة التي هي مجال عمله ، ومركز اهتمامه بالدرجة الأولى . ذلك أن المفكر الأصيل هو الوحيد الذي لا يستشعر معنى للعيش إلا في نطاق الجماعة ، وعلى مدى صلاحية هذه الجماعة يتوقف نجاحه أو إخفاقه في تحقيق أحلامه المنشودة . وتركيزه على التخلف بجزىء عن الكثير من

التعابير ، لأن مجرد تصور واقع المسلمين في مؤخرة الركب البشري يؤكد استجماعهم لسائر أسباب الضعف دون تحديد . هذا إلى أن التخلف ينطوي على فقدان الوعي لحقائق الإسلام ، وهو الطابع الذي يميز سواد المسلمين في كل جزء من وطنهم الكبير ، ولذلك ربط هذا التخلف بسبب واحد هو هجرهم للثقافة الإسلامية ، ليؤكد فراغهم الفكري من الإلمام اللازم بحقائق الإسلام . وتتضح الفكرة أكثر عندما يعلل رأيه بخصائص هذه الثقافة المهجورة ، إذ يرينا إياها مزيجاً من الفكر والتطبيق ، على خلاف ما يعهد في النظريات العلمية التي لا تتجاوز نطاق المعارف المحضة .

وأي قلب أخلص للحق لا يتفطر ألماً لواقع هذه المئات من ملايين المسلمين ، وقد اقتصر سوادهم الأعظم من علاقتهم بالإسلام على تلك الهوية التي تعطيهم حق الدفن بمقابر المسلمين ، ثم جاءت الطامة الكبرى بذلك الجيل الجديد من أبنائهم الذي غملت أدمغته بمحاضن الغرب الصليبي ، أو الشرق الماركسي ، فلم يكتف بموقف الجاهلين من أهله ، بل راح ينفذ توجيهات أعدائه بإعلان الحرب على كل ما يمت إلى الإسلام بصلة ، دون أن يكلف نفسه تعرف حرف واحد من نظامه الخالد .

وهنا أحب أن أشارك فضيلة الأخ الأستاذ أحمد جمال نفثته اللاذعة بهذه الأبيات التي أتخذ منها أنشودة يومية أرددها على نفسي كلما واجهت الجديد من مصائب هذه الأمة ، وما أكثرها :

يا خليليَّ خلياني وأشجا	ني أناجي أطيافهن وحيدا
قد عصتني الدموع، لكن قلبي	في جحيم الأسى يذوب وئيدا
وجراحُ الإسلام من كل صوب	قاتلاتي وإن بدوتُ جليدا

أحداث وآراء :

ويذكر الأستاذ أن من أهم الأحداث التي واجهها أثناء عمله ما تعرض له من

سجن بسبب انتقاد اجتماعي نشره في مجلة مصرية عام ١٣٦٨ هـ. ثم فصله من الوظيفة عام ١٣٧٧ بسبب مقالات كتبها عن فلسطين ، وفيها يخطّىء العرب لعدم قبولهم مشروع التقسيم في حينه «لأنهم لو قبلوه يومذاك لكان للفلسطينيين الآن دولة قائمة ، ولاستطاعوا وهم على أرضهم أن يقذفوا باليهود إلى البحر » .

وكان بودنا لو أوضح لنا الأستاذ موضوع ذلك النقد الاجتماعي الذي أفضى به الى السجن قبل أكثر من ربع قرن. فان مواطن الخلل في جسم المجتمع الإسلامي أكثر من أن تحصى ، وكلها تتطلب النقد والعلاج ، ومهما يكن من شيء فإن كلتا الصدمتين اللتين تعرض لهما من سجن وتسريح إنما جرتها عليه صراحته في إبداء الرأي الذي يؤمن بصحته ، وتلك إحدى النتائج الطبيعية بالنسبة إلى كاتب يستشعر مسؤوليته أمام كل حالة تتصل بمصلحة أمته . على أننا نستميح الأستاذ عذراً إذا ناقشنا رأيه في قضية فلسطين بخاصة ، لأنه أوجزه بوضوح، بخلاف الصدمة الأولى التي أشار إليها من بعيد .

إن مقالاته عن فلسطين جاءت بعد نكبة التقسيم بما يقارب العشر من السنين ، وقد تمخضت هذه السنون عن مئات الأحداث ، وتكشفت عن العديد من التطورات ، فالحكم بخطأ الرفض الذي أجمع عليه العرب في حينه ضرب في فراغ ، إذ لم يعد للتخطئة من مردود سوى تثبيط الهمم في مواصلة الكفاح ضد الغاصب ومَن وراءه .

ثم: لماذا يعتبر انتصار الدولة الفلسطينية – لو قامت – على اليهودية العالمية من الحتميات الحاسمة ، ولا يذكر التقدير الآخر الذي لا يقل عن ذلك توقعاً .

لا يا أيها الأخ العزيز . إن إجماع العرب على رفض التقسيم في حينه كان هو الواجب الذي يعتبر كل شذوذ عنه خيانة قومية ، وانما طرأ الفشل من الثغرة التي أحدثها مندوب إحدى الدول العربية في مؤتمر عاليه ، الذي عقد في أعقاب الهدنة الأولى فراح يضغط على زملائه لقبول توجيهات أميركية بقبول الهدنة

الثانية ، حتى اضطرهم إليهـا تحت ثقل التهديد بانسحاب دولته من المعركة .
وهو موقف لم تكتب تفصيلاته حتى الساعة ويا للأسف !

أجل أيهـا الأخ العزيز ليس رفض التقسيم هو الخطأ الذي تتوهمه ، بل إن تخلخل الصف العربي في مواجهة الأحداث الدولية ، وتوجيه الضربات المتتالية إلى قوى الجهاد الإسلامي الخالص ، وهو في ذروة فاعليته ، هما المسئولان عن الكوارث التي أعقبت الهدنة الثانية وما تلاها من النكبات حتى اليوم .

إننا مع الرفض لكل وجود سياسي ليهود في ربوع الأقصى، ومع كل مقاومة مخلصة تزلزل الأرض تحت أقدامهم في كل مكان وزمان . ولن يضرنا أن يستمر نزيفنا الدموي طويلاً في هذه المعركة الطويلة ، إنما المهم أن نصمد، وأن نثبت، وأن ننهض بتبعاتنا في الجهاد حتى يأتي الله بالفتح الموعود .

وما أروع وأشرف كلمة ذلك الزعيم الإفريقي: « الموت وأنت رافع الرأس أشرف من الحياة وأنت خافضه » .

ولنتذكر دائماً قول ربنا من فوق سبع سموات : « ولا تهنوا وتدعوا إلى السَّلْم وأنتم الأعلَون والله معكم ، ولن يتِرَكُمْ أعمالكم » .

ثم إن إشارة الأستاذ إلى تسريحه من الوظيفة بسبب هذه المقالات يشدنا إلى النظر في نوع هذه الوظيفة وأثرها في تركيبه الفكري . ولكن المؤسف أننا لا نعرف عنها شيئاً ، فلا نعلم بالتالي شيئاً عن مردودها في نفسه وانعكاساتها في نتاجه العلمي والأدبي .

على أن وجوده عضواً في مجلس الشورى بمكة حتى الآن ولعدة سنين لا بد أن يكون له آثاره في مشاعره ، ومن ثم في ذلك التكوين الفكري الملحوظ في أعماله العلمية .

ومجالس الشورى في نظام المملكة السعودية بمثابة المجالس الادارية في مراكز المحافظات، فهي تتيح للعامل فيها أن يتعرف الكثير من خصائص مجتمعه ، فإذا كان هذا العامل من أولي الفكر الحي أمدته بمزيد من التجارب المحركة. فكيف

إذا كان ذلك المجلس في البلد الحرام ، الذي هو مثابة العالم الإسلامي على اختلاف ألسنته وتقاليده وألوانه؟.. وعلى هذا فلا مفر للمتعرف بهذه الشخصية من أخذ هذا الجانب من حياته بعين الاعتبار .

نشاطه العلمي :

ويحدثنا الأستاذ عن نشاطه في مجال العلم بإيجاز ، فيشير إلى عمله في التدريس بجامعة الملك عبد العزيز في مكة وجدة ، وإلى المقالات والأبحاث والمؤلفات ، وإلى محاضراته في المؤتمرات الإسلامية والمواسم الثقافية داخل المملكة وخارجها .

وإنه لنشاط مبارك يقف دونه الكثيرون من المدرسين الجامعيين ، الذين حبسوا أنفسهم في حلق الدروس وتأليف المذكرات — إذا اضطروا إلى ذلك — فإذا حثثتهم على الانتاج ووجهت نظرهم إلى الأحداث التي تتطلبه خدمة للإسلام ، وإيضاحاً لحقائقه ، ورداً لكيد العادين عليه ، لووا رؤوسهم ضيقاً بما يسمعون ، وتمتموا في جهد بليغ : حسبنا دروسنا وما نعانيه في تحضيرها !.. وحتى في قاعة الدرس قد يضيقون ذرعاً ببعض المسائل (الحساسة) فلا يستنكفون أن يقولوا : ما لهذا جئنا .. فدعونا نأكل العيش !

أجل ، إنه لنشاط مبارك أن تمتد جهود الأستاذ إلى كل هذه المجالات . وما كان ليتحقق له ذلك لولا شعوره بضخامة التبعة التي ألقاها القدر على عواتق أمثاله من رجال الفكر الإسلامي في هذه الظروف التي يحق لكل ذي علم مؤمن أن يردد فيها قول الشاعر :

تكاثرت الظباء على خراش فما يدري خراش ما يصيد

وثمة نقطتان لا نرى إخضاعهما لما آثره من الإيجاز في الإجابة على هذه الفقرة . أما إحداهما فتركيزه في مذكراته الدراسية على ما يمكن تسميته بأحداث الساعة ، مما يقع عليه خلال تتبعاته الدائبة من مذاهب وأفكار تتصل

بالإسلام من قريب أو بعيد . فالمطلع على هذه المذكرات يدرك بداهة أنه تلقاء صور حية من واقع الفكر الإسلامي المستمد من نور الله ، لكأن صاحب هذه الصور مكلف حراسة الثغور ، فهو لا يفتأ ساهراً عليها مراقباً لما يراد بها ، دافعاً عنها بكل ما يملك من أسلحة وقوة . وبهذه الروح يكتب الأخ مقالاته ، وينظم محاضراته وأحاديثه ، فلا تعزب عنك خصائصه هذه في كل ما تقرأ له .

وثانية النقطتين رحلاته العديدة مندوباً من قبل رابطة العالم الإسلامي إلى مختلف ديار المسلمين لدراسة أحوالهم على الطبيعة ، وتوثيق مشاعر الأخوة بينهم وبين الشعوب التي تمثلها الرابطة من عالم الإسلام .

وبديهي أن لهذه الرحلات أثرها الفعال في تعميق أفكار الأستاذ، واكتسابه المزيد من الخبرة في معالجة أدواء المسلمين ، ورصد ما يحيط بهم من عوامل وأحداث . ولكل ذلك انعكاساته الحية على آثاره الأدبية والفكرية لا يخطئها الناظر ولا السامع .

مؤلفـــاته :

يذكر الأستاذ من مؤلفاته الكتب التالية : « على مائدة القرآن » في أربعة أجزاء ، و « مفتريات على الإسلام » ، و « محاضرات في الثقافة الإسلامية » ، و « نحو سياسة عربية صريحة » ، ثم كتاب عن المرأة بعنوان « مكانك تحمدي أو تستريحي » ، ويقول إن له ديواناً شعرياً باسم « الطلائع » ختم بـــه حياته الشعرية ، فلم يعالج الشعر بعده .

أما الكتاب الأول فهو باكورة اتصالي بآثار الأستاذ ، وكان ذلك قبل خمس عشرة سنة ، إذ وقعت على الجزء الأول منه في إحدى المكتبات ، فاستهواني عنوانه ، وقرأته فأعجبت به ، ووددت لقاء مؤلفه .. ثم شاء الله أن يكتب لي الهجرة إلى ربوع الحرمين ، وأن يجمعني بـــه في ظلال البيت المطهر ، فلم يزدني

لقاؤه معرفة بـه ، إذ وجدت العقل الذي طالعني في كتابه هو نفسه العقل الذي أطالعه في حديثه.. حتى ملامحه الشخصية الراضية لم تفاجئني، لأني تنورتها من قبل خلال تعابيره الواضحة الصافية .

وثاني مؤلفاته – وهو من ثمراته الجامعية – كنت أتابع ما ينشر من بحوثه في بعض المجلات ، فأتجاوب معه في معظم بل في كل ما تتناوله من شئون وشجون . وكذلك كتابه الخامس عن المرأة ، وكان أول ما أهدي إليّ من مؤلفاته ، قرأته في إنعام فوجدتني أتلاقى وإياه في الكثير مما ذهبت اليه في كتابي « تأملات في المرأة والمجتمع » ولا عجب فإني وإياه لكما وصف أبو تمام صلته بابن طاهر :

إن نختلف نسباً يؤلف بيننا ... أدب أقمناه مقام الوالد
أو يفترق ماء الوصال فماؤنا ... عذب تحدّر من غمام واحد

ويبقى مؤلفه في السياسة العربية ، وهو ما لا أملك خبراً عنه فأدلي برأيي فيه . والبحوث السياسية أكثر ما تكون تشعباً واختلاف وجهات نظر ، ومن يدري فقد تتعدد بنا مواطن الاتفاق والافتراق حوله .. ولكن مهما يكن من شيء فالمنطلق الإسلامي الواحد كفيل بتقليص نطاق الخلاف ، حتى نكون – أنا وهو – كما يقول شوقي على لسان ابن الملوّح :

اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية

ومثل ذلك موقفي من ديوانه « الطلائع » فقد أخطأني التوفيق إلى الاطلاع عليه ، فلا رأي لي فيه ، غير أن المتوقع أن يكون من شعر الكاتبين الذين تغلب عليهم النزعة الفكرية ، ويقل فيه نصيب العاطفة والخيال. ولعل هذا هو السبب الذي أقنع الأستاذ بالإنصراف عن الشعر بعد الديوان ، ليهب نفسه كلها للجانب الفكري من مواهبه الحية .

الطريق الى البناء :

وعن مستقبل الجيل الإسلامي الجديد يجيب فضيلته قائلاً : « إذا استيقظ القادة والسادة والكبراء ، وأخلصوا في تربيــة الجيل الجديد ، وتوجيهه نحو الإسلام عقيدة وشريعة وخلقاً ، فسوف يكون جيلاً صالحاً نافعاً . وإلا فالعكس هو المنتظر ! » .

فالصديق العزيز هنــا يشترط لتكوين الجيل الصالح تحرك (القادة السادة الكبراء) لتولي هذه المهمة ، وهو يعتبرهم نائمين ، ولا بد من استيقاظهم للقيام بهذا الواجب العظيم .. ومع تقديري العميق لأفكار الأستاذ أجدني عاجزاً عن الإحاطة بمراده ، والسبيل الموصلة الى تحقيقه .

فأولاً – من الذي يتقدم لإيقاظ هؤلاء النيام ؟ ومن يضمن لنا أنهم مؤهلون لتلك المهمة الفادحة ؟

إن الأستاذ ليشاطرنا اليقين بأن بلاء المسلمين في هذا العصر إنمـا جاءهم من جهتين ، الأولى : جهل الكثير من أولئك (القادة السادة الكبراء) بتفوق الإسلام على كل نظام ، وقدرته ا- لا تنفد على العطاء الذي لا ينتهي إلى حد .

الثانية : امتلاء هؤلاء من الإيمان بأن لا حياة ولا قوة ولا نجاح إلا بالإقبال المطلق على فضلات الشرق والغرب ، هكذا على العمياء دون ما مقارنة أو تمحيص .. فلا ضمان لشيء من ذلك إلا بالتبعية الضريرة لهذا الجانب أو ذاك .

ومن هنا يتولد لدينا السؤال التالي : إذا كان هــذا واقع (القادة السادة الكبراء) من الإسلام فكيف يتوقع منهم أن يقوموا بتربية الجيل الجديد على مبادىء الإسلام ؟ والقاعدة التي لا خلاف عليها أن فاقد الشيء لا يعطيه ؟

إن حصر مهمة الإنشاء للجيل الصالح في أيدي هؤلاء الأصناف أو الصنف الواحد ذي الأبعاد الثلاثة يقتضي بداهة أن يكونوا هم أنفسهم ناشئين في هذا الجو الصالح . فمن أين لنا بهم ، ومن لنا بمن يتولى تنشئتهم وتوجيههم على تلك الأسس الصالحة ؟

الحق أن القضية لا تزال هي اللغز الذي حير عقول السابقين واللاحقين ، (إصلاح فساد الراعي أم إصلاح فساد الرعية ؟)

وما السبيل العملية لإصلاح فساد الراعي ونجاحه في هذه المرحلة المضطربة من حياة العالم الإسلامي ؟

العالِم الصالح :

وكأني بفضيلة الأستاذ يحاول الرد على هذه التساؤلات فيختم إجاباته الإثنتي عشرة بالكلمة التالية :

علماء المسلمين هم – مع الأسف الشديد – شركاء السادة والقادة والكبراء في مسؤوليتهم عن انحراف الشباب . وصدق ابن المبارك في ما يروى عنه أنه قال: « صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس ، وإذا فسدا فسد الناس : الأمراء والعلماء » .

يقول الأستاذ :« وفي مقدمة العلماء المدرسون على مختلف مراحل التعليم من الابتدائية إلى الجامعية ، فمسئوليتهم أكبر ، وواجبهم أعظم ، وأثرهم أعمق . فأعطني علماء ومدرسين صالحين أعطك جيلاً جديداً مسلماً صالحاً ناجحاً بإذن الله وتوفيقه » .

إنه يشير بأصابع الاتهام ، وفي غاية من الصراحة ، إلى علماء المسلمين وهو ، وإن لم يوضح مضمون التهم بالتفصيل ، يكاد يحددها بكونهم شركاء (القادة السادة الكبراء) في كل انحراف يعتور شباب المسلمين عن جادة الإسلام . وبعيد عن الظن أن يقصد بالعلماء إلى مجموعهم ، لما يعلمه من بقاء الكثير منهم فوق مستوى الشبهات ، محافظين على أمانة النبوة ، ظاهرين بالحق ، يقيم بهم الله حجته على الظالمين والزائغين ، على الرغم من سيول البلاء المتدفقة عليهم من كل صوب. وإنما يقصد إلى أولئك الساكتين عن الحق ، خشية على أنفسهم أو أهليهم أو أرزاقهم ، وإلى الآخرين المجروفين في موكب الباطل ، يهتفون للطواغيت مع الهاتفين ، ويفتونهم بما يسوغ تصرفاتهم الغاشمة ، وهم يعلمون أنهم كاذبون مضللون.

وأخيراً يعجبني تركيز الصديق الفاضل على مسئولية المدرسين في هذا الصدد، إذ يعتبرهم أكبر أثراً حتى من المنافقين في إفساد الشباب. وهي قولة صدق من حقها أن تهز ضمائر هؤلاء الذين يقول فيهم أمير شعراء العصر – رحمه الله –:

وإذا المعلم ساء لحظ بصيرة ... جاءت على يده البصائرُ حُولا

وإذا المعلم لم يكن عدلاً سرى ... روح العدالة في الشباب ضئيلا

ونحن معك أيها الصديق العزيز في تقريرك الحكيم، الذي يحصر مسئولية البناء الاجتماعي، المنشود في أعناق العلماء .. لأنهم كانوا ولا يزالون وسيظلون ورثة النبيين، وكل من سواهم فهمج رَعاع أتباع كل ناعق، بشهادة أمير المؤمنين ورابع الراشدين، رضوان الله عليهم أجمعين.



٢

الشيخ جابر أبو بكر الجزائري

غلبت عليه الكنية فعرف بأبي بكر الجزائري، وأبوه هو موسى بن عبد القادر ابن جابر. وُلد بقرية (ليوة) على أربعين كيلو متراً من (بسكرة) التي يدعونها عروس الجنوب الجزائري، وذلك عـــام واحد وعشرين وتسعمئة وألف للميلاد.

أبواه جزائريان من أسرتين محافظتين مشهورتين بالصلاح، ويكثر فيهما حفظ القرآن. وقد توارث آباؤه تعليم كتاب الله في تلك البيئة، وانفرد والده من بينهم بالتصوف

نشأ المترجم يتيماً إذ توفي والده وهو في السنة الأولى، فكان في حضانـة أمه مكفولاً من قبل أخواله وأعمامه.

بيئة الشيخ :

أما بيئته هذه فصحراوية تقع في الواحات الغنية بالمياه والنخيل وأصناف الشجر. ولهذا فهي ذات جو جاف يشتد برده شتاء، وتعظم حرارته صيفاً.

ومن الناحية الاجتماعية يغلب الجد على هذا الوسط، فلا يعرف من اللهو سوى لعبة الكرة، التي يمارسها الشباب في فصل الربيع، الذي تكثر فيه فرص

الراحة . ولكونها بيئة زراعية قلت فيها أو انعدمت الصناعات الحضرية . والصناعة الوحيدة هناك هي التي تتولاها النسوة من غزل الصوف ونسجه ، ويختص الرجال بعمل الزراعة ، في حين يقوم الأولاد برعاية الماشية ، إلى جانب ما يتعلمون في 'كتّاب القرية من كتاب الله .

دراسة المترجم :

بدأ الشيخ دراسته في قريته على هذا النحو ، فكان حفظه للقرآن الكريم باكورة زاده من العلم ، ثم أضاف إليه حفظ الأجرومية في النحو ، ومنظومة ابن عاشر في الفقه المالكي .. ومن ثَمّ انتقل إلى (بسكرة) التي سبقت الإشارة إليها ، فدرس على أحد شيوخها نعيم النعيمي . وفي أثناء ذلك قدم قرية (ليوة) شيخ فاضل يسمى عيسى معتوقي، فعاد إليها ليدرس عليه العربية والفقه والمنطق ومصطلح الحديث وأصول الفقه .

وكان الشيخ قد دخل في هذه الفترة مرحلة الشباب ، فرحل إلى العاصمة ليعمل مدرساً في إحدى المدارس الأهلية . وهناك بدأت مرحلة جديدة في حياته ، إذ جمع إلى عمله في التدريس مواصلة الدراسة على الشيخ الطيب العقبي من إخوان العلامة المجاهد الكبير ابن باديس ، وكان للعلامة العقبي شهرته أثناء ذلك في ميادين العلم والإصلاح ، فلزم دروسه في التفسير طوال سنوات.. فكان لهذه الملازمة أثرها الكبير في شخصية المترجَم، إذ يعتبره من أفاضل مشايخه ، والموجه الأكبر لسلوكه في النهج الإسلامي الصحيح .

ثم جاءت هجرة الشيخ إلى الحجاز فيما بعد، فاستأنف هناك مسيرته في طلب العلم والتعليم جميعاً ، وقد لازم في المدينة حلقات المشايخ : عمر بري ، ومحمد الحافظ ، ومحمد الخيال ، ورئيس قضاتها وخطيب مسجدها النبوي الشيخ عبد العزيز بن صالح . ثم بعد سنة من ذلك التاريخ حصل على إجازة من رئاسة القضاة بمكة المكرمة للتدريس في المسجد النبوي ، حيث لا يزال يقوم بهذه

المهمة حتى كتابة هذه السطور . وأثناء ذلك كان قد سجل انتسابه إلى كلية الشريعة بالرياض ونال شهادتها العالية (الليسانس) عام ٨١ هـ.

احب علوم الشيخ إليه :

وعلوم الشيخ كلها حبيبة إليه دون استثناء ، لأنها الأسس التي تنهض عليها ثقافة العالم المسلم . وما عداها – حتى المنطق – لا يعدو أن يكون أدوات مساعدة لتفصيل مجمل ، أو بيان غامض ، أو توكيداً لحقيقة أشار إليها الوحي من قريب أو بعيد .

إنها مرتكزات المنهج الإسلامي في طلب المعرفة، منذ أن وضعت أصوله في صدر الإسلام ، حتى عهود الانحراف التي صرفت المسلمين إلى مناهج الغرب الخاوية من روح الإيمان ، فعزلت عقولهم عن هذه المنابع الربانية ، لتحشوها بنتف من المعلومات الطيارة ، التي لا تكوّن عالماً ، ولا تنشىء باحثاً ، وتكاد تقصر مهمتها على تضخيم جوانب الغرور .

وعلى هذا فليس بوسع الشيخ أبي بكر أن يخرج من نطاق حبه أياً من العلوم التي كونت شخصيته وطبعت وجوده .

ولعل هذا هو السبب في إغفاله الجواب على سؤالنا السادس ، الذي لم نلف أي إشارة إليه في ما كتب لنا من إيضاحات .

الأحداث وأثرها :

وعلى السؤال السابع من استطلاعنا يقول أبو عبد الرحمن: إن أهم الأحداث تأثيراً في تكوينه الفكري والروحي هو « الاستعمار الفرنسي وضغطه على الأمة الجزائرية ، ومحاولة القضاء على الروح الإسلامية فيها نهائياً » .

وقد آثرنا إثبات عبارته التي أطلقها هكذا دون تعيين لضروب الأحداث وحدودها ، وهو تعبير لا يمكن تجزئته ، ولا يحسن تبديله ، لأن الاستعمار شر كلي لا يستطاع الفصل بين لون ولون منه . وعندما نتذكر أن هذا الاستعمار

إنما دخل الجزائر ليبقى إلى الأبد، ولو كلفه ذلك إبادة أهلها واستئصالهم جميعاً، كما فعل الأسبان بسلمي الأندلس وعذراء ماليزية - الفليبين - وفي المكسيك أثناء غزوهم للقارة الأميركية، حيث فتكوا بكل حي من أصحابها الهنود الحمر، فلم يبقوا منهم على طفل ولا شيخ ولا امرأة.

إلا أن الفرنسيين كانوا أبعد نظراً من الإسبان، فرأوا أن يكتفوا باستئصال بعض القبائل من الجزائر، ويسلطوا على بقيتهم رحى التحويل، فيخرجوهم من الإسلام إلى النصرانية، ومن العربية إلى الفرنسية، بكل وسيلة ممكنة دون تفريق بين ما يجوز وما لا يجوز، ولو بخطف آلاف الأطفال لإنشائهم على النصرانية، أو بتشريد السكان من بيوتهم ومزارعهم لإحلال الدخلاء مكانهم، ثم قذفهم إلى جوف الصحراء ليختاروا بين الموت جوعاً أو قبول التحويل المفروض بقوة الحديد والنار، وبذلك يوفرون لأنفسهم جيشاً عرمرماً من الخدم والأيدي المسخرة لتحقيق منافعهم، وللموت في الحروب دفاعاً عن مصالحهم الاستعمارية في المواطن الأخرى من بلاد المسلمين.

وعلى هذا فنحن نفهم مراد الشيخ من حصره الأحداث المؤثرة بتكوينه في نطاق الاستعمار كله .. ذلك لأن النشأة التي عاشها في ظلال القرآن وعلومه، وفي صحبة المصلحين من الشيوخ المجاهدين، لاستبقاء الإسلام والعربية في تلك المعركة الطويلة الرهيبة، ستستحوذ على سائر تصرفاته، وتطبع وجوده كله، فلا يستشعر الحياة إلا بها، ولا يتصور الوجود إلا من خلالها. وهكذا وجد نفسه على ثغرة من ثغر الإسلام، جندياً في صفوف المجاهدين، لا سبيل له إلى أن يغفل عن سلاحه أو موقعه لحظة واحدة.

بهذه الروح عاش ما عاش في وطنه الأول، يسهم مع تلامذة ابن باديس في تحريك الطاقات الإسلامية، وإلهاب مشاعر الكفاح في سبيل الله، لتطهير التراب الجزائري من دنس الاستعمار، وللحفاظ على دين الله، الذي صممت الوحشية الصليبية على استئصاله من جذوره.

وهل ثمة من مصنع للتكوين الفكري والروحي أكبر أثراً من هذا التحدي الدائب الرهيب .

إن روح الكفاح هذه قد طبعت الشيخ أبا بكر بميسمها المميز ، فهي منطلقة في جهاده الذي لا يفتر أبداً لخدمة الإسلام والدعوة إليه .

وإني لأنظر إلى هذا الصديق من خلال نشاطه العجيب في هـذا المضمار ، فأشعر كأني أضع يدي على مكمن الطاقات الجبارة ، التي ميز بهـا الله الشعب الجزائري ، فأقدره على الثبات في وجه السيول الهائلة من أرزاء أفظع استعمار طوال قرن وثلث قرن ، فلم يلن ولم يهن ، ولم يفت في عزيمته فقدانه مئـات الآلاف من صفوة شبابه ، حتى جاء نصر الله ، فانتزع حقه في الحرية والكرامة ، على الرغم من وقوف العالم الاستعماري كله في صفوف جلاديه .

الشيخ في خدمة العلم :

أخطر ما يعوّل عليه أعداء الإسلام ، في كل زمان ومكان ، هو تفريـغ العقول من معانيه السليمة حتى يتهيأ أصحابها لقبول أي توجيه يرمي إلى القضاء عليه . رأينـا ذلك في الدعاة الأولين للفرق المضللة كالقرمطية والبابكية والسبئية ، وعشرات الدعوات الهدامة في تاريخ الإسلام ، ونراها اليوم ماثلة في سائر المذاهب التي تهاجم هذا الدين عن طريق المخدوعين بهـا من أبناء المسلمين أنفسهم ، كالقاديانية والشيوعية والوجودية والفوضوية ، ولا أستثني من ذلك الطرقية التي استطاعت عزل الملايين ، بل مئات الملايين من المسلمين ، عن منابع الوحي ، بتحويلهم إلى أدوات مسخرة لتنفيذ أغراض الدجالين ، الذين أوهموهم أن لا سبيل للاتصال بالله إلا عن طريقهم وحدهم .

وهكذا تستحيل طاقات هـؤلاء المخدرين ركاماً من العقبات التي تعرقل حركة الجهاد الحق ، ثم لا تلبث أن تكون ألغاماً ناسفة في كيان المجتمع الإسلامي كله .

كذلك فعل غلاة التشيع في تدمير الحضارة العباسية، يوم فتحوا لمتوحشة التتار أبواب بغداد، فجاسوا خلال الديار، وجعلوها خلال ثلاثة وثلاثين يوماً مقبرة لمليونين من الأبرياء، بعد أن كانت عاصمة الدنيا.

وعلى غرار ذلك فعلت الماسونية اليهودية حين دفعت عملاءها من أبناء المسلمين لتقويض عرش الخلافة، في أعقاب الحرب العالمية الثانية، فمزقت وحدة المسلمين، وجعلت من الأسرة الواحدة أعداء يتصارعون ثم لا يتهادنون.

وليس من محنة تعتري هذه الأمة إلا إذا مُحّصت، تبين أن وراءها فقدان الوعي الإسلامي، الذي لا يلبث أن يجعل من جماهير المسلمين غثاء تتقاذفه مختلف التيارات.

ومن هنا كانت كل محاولة لتجميع المسلمين عن غير طريق التوعية الصحيحة عبثاً لا مردود له سوى الذلة والهزيمة والاستمرار في مهامه الضياع.

وعلى هذا الأساس نهضت حركة ابن باديس في الجزائر، حرباً على الخرافة والبدع وتثبيتاً للعقيدة السليمة، وتوجيهاً إلى منابع الوحي من قرآن وسنّة وبيان عربي كريم.

وفي ظلال هذه المدرسة نبت مترجمنا الشيخ أبو بكر، ومن مناهلها استقى وعلى ضوئها مضى في خدمة أمته.

لقد شارك الشيخ في مختلف ألوان النشاط الإسلامي، فعمل في (حزب البيان الجزائري) ثم في (شباب الموحدين) ومارس التعليم لكتاب الله مدة أربع سنوات، ثم في تعليم الأحداث من بنين وبنات لمدة سبع سنوات في العاصمة الجزائرية، وعمل في الصحافة فأنشأ مجلة «الداعي» التي لم يصدر منها سوى بضعة أعداد، كانت كاسمها دعوة إلى توحيد الأحزاب والجمعيات الجزائرية، وإهابة لتكوين «جماعة المسلمين». وبعد احتجاب «الداعي» أسندت إليه إدارة جريدة «اللواء» الناطقة بلسان «شباب الموحدين».. واستمر على إدارتها

حتى ترك الجزائر مهاجراً إلى الحجاز عام ١٣٧٢ هـ [1].

وها هو ذا لا ينفك دائباً على خدمة العلم وطلبة العلم منذ أن حل هذه البقعة المباركة قبل ثماني عشرة سنة ، علّم أثناءها في مدارس المملكة ومعاهدها ، حتى التحق بالجامعة الإسلامية للتدريس فيها منذ افتتاحها في عام ١٣٨١ هـ. وذلك إلى جانب دروسه المستمرة في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم ، مسجد رسول الله ﷺ وموضع ثوائه .

نشاطه في التأليف والدعوة :

ومثل الشيخ أبي بكر في نشاطه الفياض لا يستغرب أن يكون له غير قليل من الإنتاج العلمي في حدود تخصصه .

فللشيخ من المؤلفات التعليمية رسالة في الفقه المالكي عنوانها « الضروريات الفقهية » وكتاب « الدروس الجغرافية » وقد ألفهما لطلاب المدرسة التي كان أحد معلميها في الجزائر .

ويشير الشيخ من مؤلفاته — حتى كتابة هذه الأسطر — إلى كتيباته الكثيرة التي يسميها « رسائل الجزائري » ويقول : إن منها ثلاثاً وعشرين مطبوعة في الإسلام والدعوة ، ويخص بالذكر منها رسالة « لا إله إلا الله » و « الصيام » و « الحج المبرور » و « الأخلاق » و « الدستور الإسلامي » وقد جمعت كلها في مجلد واحد يقع في سبعمئة من الصفحات .

وهناك رسائل أخرى مستقلة هي : « كيف يتطهر المؤمن ويصلي » و « اتقوا الله في هذه الأمة » و « إلى الفتاة السعودية » و « هؤلاء هم اليهود » و « نصيحتي إلى كل أخ شيعي » و « القضاء والقدر » و « عقيدة المؤمن » و « الدولة الإسلامية » .

---

(١) استخرجنا هذا التاريخ استنتاجاً من قوله انه ما زال بعد الهجرة مدى ١٨ عاماً ينشط في خدمة العلم .

وأحب مؤلفاته إليه هو « منهاج المسلم » في سبعمئة صفحة ، وهو كتاب شامل لكل ما يعوز المسلم من فقه وآداب وأخلاق وعبادات ومعاملات ، وقد كثر الإقبال عليه من مختلف أنحاء العالم الإسلامي فطبع في المشرق ثماني مرات، واليوم يقدم طبعته التاسعة بالمغرب لتخرج في حرف مشكول .

ويصف الشيخ كتابه عن « الدولة الإسلامية » بقوله في المقدمة : إنه « يرسم الصورة الصادقة لما تكون عليه الدولة الإسلامية في عصر الحضارة والتقدم العلمي ، الذي غير كثيراً من معالم الحياة ، وبدل جوانب كبيرة من مظاهر الفكر البشري ، ويعطي العالم البشري نموذجاً للحياة السعيدة الفاضلة التي جاء الإسلام بتحقيقها للناس أجمعين ، متى آمنوا بـه ديناً ، وعملوا به منهجاً ، وحكموا به قانوناً ، وتقيدوا به نظاماً » .

والمتأمل في هذا المؤلف — الذي لا يتجاوز الـ ١٢٦ صفحة — يوافق مؤلفه على هذا التقديم له ، إذ أنه أودعه تصوراته عن المجتمع الإسلامي المتكامل نظرياً وعملياً ، فهو يبدأ بالجانب النظري فيعرض لمبادىء الإسلام وأصوله وأركانه .. وآثارها في تكوين الفرد والجماعة .. ثم ينتقل إلى التطبيق فيمضي بنا في سياحة لطيفة ضمن إحدى المدن — التي يتخذ منهـا أنموذجاً للدولة المنشودة — وأول ما يواجهنا منها المسجد الذي يطيل زيارته ، لاطلاعنا على فاعليته في بيان الدولة ، إذ هو مركز للتجمع ، ومصحح للسلوك ، وموجه للنفوس .. وطبيعي أن يكون لهذا التركيز على المسجد صلة وثقى بعمل الشيخ في مواعظه بالمسجد النبوي . ومن ثم يعرج بنا على مستشفى البلد ليرينا مدى عناية الإسلام بالصحة العامة ، ثم إلى سائر المرافق الأخرى . وله مع كل واحد من مديريها حديث مفصل عن عمله وأهدافه ، ومن مجموع هذه الأحاديث تشعر أن كل شيء في ذلك البـلد معد لتكوين الوسط النموذجي للمجتمع المسلم كما يتصوره الشيخ ، إذ يتخذ من هذه المحاورات فرصة لإطلاق أفكاره الإصلاحية في كل ما يراه واجباً وضرورياً . وبوسع القارىء أن يتبين في سهولة الملامح الأصيلة لثقافة الشيخ وتصوراته عن جوانب الحياة الاجتماعية ، فيقف على آرائه

في كل ما يمسها من الأعمال والصناعات والتجارات ، والتعلم .. وحق الملاهي ..

يقول عن الأمة – ص ٥٣ – :«هي الحقل العام للعمل الحكومي» والمعرض الصالح للإنتاج والتقدم ، وفيها يظهر مدى صلاحية الحكومة وقدرتها ومدى عجزها وفسادها.. فالأمة بمثابة المرآة التي يظهر فيها وجه الحكومة على حقيقته مشرقاً أو دميماً . وليس هـو أجهزة الدعاية من صحافة وإعلام وإذاعة وتلفزيون ، كما هي عليه أكثر حكومات الناس اليوم ، حيث الكذب والتزوير وتشويه الحقائق ..

وخلاصة القول .. إن الحكومة هي الحاكم والقانون والأمة ، إذ لا حكومة قوية رشيدة بلا حاكم قوي رشيد ، ولا حكومة صالحة بلا قانون صالح ؛ ولا حكومة عظيمة بلا أمة عظيمة » .

ويلاحظ أن تعريفه للأمة خاص ، فكأن الشيخ يجعل الحكومة هي الأصل والأمة فرع منها ، بخلاف ما اتفق عليه ذوو الاختصاص من أن الحكومة هي السلطة التنفيذية في الدولة إلى جانب السلطتين التشريعية والقضائية ، وتتحدد مهمتها في النطاق التطبيقي للنظام العام . وبذلك تكون الأمة مرآة النظام كله لا الحكومة وحدها ..

وفي هذا الكتاب آراء للشيخ نتمنى لو يعيد فيها النظر عند الطبعة الثانية . ففي ص ٥٥ (يرينا إمام المسجد ينصرف من صلاة المغرب إلى الدرس ... فما ينقطع عنه ولا ينفض عنه الناس طوال « ساعتين كاملتين » حتى نودي لصلاة العشاء ..)

واستمرار الدرس – وللعامة بخاصة – ساعتين أمر يئود ويهيض .. وهو مخالف لما عرف في عهد الوحي والصحابة ومَن بعدهم من التابعين . وحسبنا في ذلك قول ابن مسعود (رض) الذي أخرجه البخاري في كتاب العلم « كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا » .

ولو كانت الإطالة من المستحبات لكانت خطبة الجمعة أولى بذلك لكثرة المجتمعين لها ، ومع ذلك فمن هدي النبوة خلافه لقوله ﷺ في ما رواه مسلم عن عمار (رض) « إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مَئِنَّةٌ - علامة - من فقهه ، فأطيلوا الصلاة وأقصروا الخطبة .. »

وفي ص ٥٨ يقف بنا عند أجهزة الإذاعة ، فإذا هي « تذيع طول النهار وشطراً من الليل ، وتسمع في كل أرجاء البلاد ، لوجود سماعات في كل شوارع المدينة وساحاتها ، تنقل صوت الدولة وبرامجها الإذاعية » .

وهذا أيضاً غير معقول ، وما أعرف هناك دليلاً يؤيده من عمل السلف ، فضلاً عن أنه سيجعل الحياة في مثل ذلك الجو الصاخب بالمواعظ عبثاً لا يطاق. وفي ص ٥٩ يرينا أهل تلك المدينة النموذجية ، ما إن يفرغون من تناول طعام العشاء - بعد الصلاة - حتى يسقطوا على فرشهم نائمين .. ولو أن فضيلة الأخ - حفظه الله - لاحظ ما يعانيه النائم عقيب الطعام من إرهاق، ولو سأل طبيباً عن حصيلته في الصحة .. لتحول إلى هؤلاء ينصحهم بأن يبكروا في عشائهم وأن يتخيروه خفيفاً ، وأن يجعلوا بينه وبين النوم فسحة كافية .

وقصارى القول أن في هذا الكتيب مجهوداً طيباً ونظرات جديرة بالتأمل والتقدير ، وهو يذكرنا محاولات أفلاطون في كتابه « الجمهورية » والفارابي في مؤلفه الآخر « أهل المدينة الفاضلة » وإن اختلفت السبل في كل من الثلاثة ، إذ ذهب الأولان في سبيل من سبقهم من الفلاسفة ، وشق الشيخ طريقه بتفكيره الذاتي وتجاربه الخاصة ، على ضوء الإيمان بحقائق الإسلام .

هذا وإن المتتبع لنتاج الشيخ الصديق في رسائله وبحوثه ومحاضراته ومقالاته ، على اختلاف مناسباتها وأغراضها ، ليلمس عن كثب خاصته الأصيلة فيها جميعاً، وهي غيرته اللاهبة على دين الله.. فهو يكتب ما يكتب تحت ضغط الشعور بالمسئولية الكبرى أمام الله . إن الناظر إلى هذا الرجل قبل أن يعرفه لا يكاد يلمح في هيكله الضئيل البسيط ، ونظراته الهادئة الموحية بالطيبة ، أي

ميزة غير عادية .. إلا أنه لا يكاد يستمع إلى درس له في حلقته الغاصة بالمسجد النبوي ، أو يطالع أياً من رسائله ، حتى يتغير رأيه إذ يوقن أن في تلك البردة، التي قلما يفارقها ، فيضاً من المواهب الموفقة إلى كثير من الخير ..

إن الشيخ أبا بكر كتلة من الطاقة المحركة ، وقد وفقه الله بتوجيهها إلى خدمة الدعوة ، ففيها لذته ، وبانتصارها سعادته .. وشد ما توجعه كل عقبة تعترض طريقها . ولو أتيح لامرىء متابعة أحوال الشيخ لتساءل في دهشة : « أليس لهذا الرجل من عمل سوى التحرك لخدمة الإسلام ؟ » ..

وذلك شأنه في معظم أحواله وأوقاته في البيت وفي المسجد وفي الجامعة ، فإذا جاء فصل الصيف أخذ طريقه إلى الجزائر والمغرب وغيرهما ليواصل مهمته هذه التي لها خلق .

شيخ وصديق :

ومن توفيق الله للشيخ أن جعل لحديثه في شئون الدعوة قبولاً في الأسماع والقلوب ، فما إن يفتتح الكلام حتى ينجذب إليه الانتباه ، وتتفاعل معه النفوس . ومرد ذلك إلى انفعاله هو بما يدعو إليه ، تصديقاً للحكمة القائلة : « ما خرج من الجنان فمقره الجنان، وما خرج من اللسان فلا يتجاوز الآذان».
وما أراني مبالغاً إذا قررت أن الشيخ أبا بكر من أوفر المدرسين الإسلاميين نجاحاً في دروسه ، لا لأنه فوق غيره علماً وخبرة بل لأثره في قلوب طلابه وحسن تأنيه في معاملتهم .. فهو شيخهم في أداء المحاضرة ، ولكنه أبوهم وأخوهم ، وأكثر أصدقائهم اهتماماً بشئونهم .. فلا غرابة أن يبادلوه وداً بودّ ، واحتراماً باحترام .. وهذا الضرب من العلائق الروحية بين الأستاذ وتلميذه ، هو الذي نفتقده وندعو اليه ، ونلاقي العنت ممن يخالفنا فيه ، لأنه لا يرى للمدرس من مهنة تتجاوز حدود الدرس ، فإذا فرغ منه فرغ من كل اتصال بطلابه ، فكأنه يحقق في ذلك مبدأ المتنبي في معاملة القرين :

والخَود مني ساعة ثم بيننا فلاة إلى غير اللقاء تجاب

أجل .. إنها ظاهرة أخرى من تلك الخاصة التي أشرنا إليها آنفاً ، فهي تطبع دروسه ومواعظه وصلاته بالناس ، وتسيطر على مؤلفاته ، صغيرها وكبيرها .. فكما يستقطب القلوب بحديثه ، يستولي على قناعتها بكتاباته ، ولا تفسير عندي لذلك سوى ما أسلفته من تفاعله الحار مع أفكاره ، ولو كانت هذه الأفكار أحياناً قصيرة الموجة ، محدودة المدى .

وشيء آخر في مؤلفات الشيخ هو تصويرها لآفاقه الفكرية والنفسية ، إذ ترسم للقارىء مدى اهتمامه بشئون المسلمين، وتتبعه لأحداث العالم الإسلامي.. فهي أفكار حية لا تقوم على التكرار والشروح ، بل تتناول كل ما يراه أنفع للمسلمين ، وأكثر مساساً بحاجاتهم .

رأي الشيخ في مستقبل الجيل :

وننتهي إلى الاستطلاعين الأخيرين حول مستقبل الجيل الإسلامي، ومسئولية علماء الإسلام بإزائه ، ويؤكد لنا الشيخ أنه شديد التشاؤم بشأنه ، وهو كالكثيرين من العاملين في ميادين الإصلاح ، يرى أن هذا الجيل يواجه امتحاناً عسيراً من المتعذر عليه أن يخرج منه بالنجاح المنشود ، ما دام على شأنه الراهن مجرداً من الوعي الضروري لحقائق دينه .

وطبيعي أن ذلك التشاؤم عائد إلى ما يحيط بهذا الجيل من المؤثرات الجاهلية ، التي لم يتزود لها بالحصانة العاصمة . فهي تهب عليه من هنا وهناك ، في المنهج الدراسي ، والكتاب المنشور ، والصحافة الضالة ، ووسائل الإعلام المخططة في مكاتب الصهيونية العالمية والموجهة لتدمير المقومات الإسلامية .

ويقترح الشيخ لتدارك هذا الوضع تدبيرين لا مندوحة عنهما إذا أريد إنقاذ الجيل الإسلامي من محنته الرهيبة .

أما أحدهما فمنظمة عالمية للشباب الإسلامي تلفه برباط وثيق من تعاليم دينه ، وتوفر له كل ما يعوزه لبناء شخصيته المتميزة من وسائل الإصلاح التي تعده للعمل والجهاد .

وثاني التدبيرين خلافة إسلامية تجنده في خدمة الإسلام، وتملؤه شعوراً بواجبه نحو أمته، للنهوض بها إلى مركز القيادة العالمية.

ونحن مع عميق اقتناعنا باقتراح الشيخ لا يسعنا إلا أن نتساءل: أليس عليه أن يوضح لنا الطريق الموصل إلى هذين التدبيرين !..

أما منظمة الشباب الإسلامي فقد بدأت طلائعها في أكثر من قطر، وإن كان بعض الداعين إلى هذا التجميع في بعض أقطار المسلمين لا يحملون نحو الإسلام مثل شعور الشيخ وتصوره للإسلام. ولكن الذي يحسّن أملنا بمستقبل هذه التنظيمات أنها صائرة حتماً بمشيئة الله إلى التصاعد نحو الأفضل، بما تستفيده من الخبرات المتجددة، وبما يطغى على العالم من ضياع لا خلاص منه إلا بالعودة إلى الله.

ولكن الطريق إلى استعادة الخلافة الراشدة يظل مغلفاً بالغموض، فلا نعرف أين يبدأ.. وحتى الخلافة نفسها لا تزال حتى الساعة حلم الأقلية من مفكري الإسلام.



تذييل

يقول عبدالله بن مسعود (رض) من كان مستنا فليستنّ بمن قد مات...أولئك أصحاب محمد ﷺ ... فتشبهوا بأخلاقهم وطريقتهم ..[1]

وما ابعد هذه النظرة وأعمق لأن الحي لا يؤمن عليه تغير العمل والرأي ، وأنت لن تستطيع استكمال مفهومك عنه إلا أن يستكمل نصيبه من الحياة .

وأخونا الداعية الفاضل أبو بكر أمد الله بحياته ، وثبته على سبيل الصالحين من سلف الأمة ، يأخذه كما يأخذ الكثيرين غيرَه من رجال الدعوة ، بعضُ الرضى عن عمله عندما يرى النماف طلبة العلم من حوله ، وعندما يشاهد مؤلفاته في العقيدة والأخلاق يسع مدى انتشارها هنا وهناك .. فلا يرضى أن يقف عند حدود مادته التي أتقنها ونفع الله بها ، فإذا هو يتجاوز اختصاصه إلى ما ليس من اختصاصه ، فيكون ما لا مندوحة عنه من الاضطراب والالتياث .

وكان ذلك في أعقاب الهزة التي فوجيء بها عالم الاسلام يوم أقدم حاكم مصر على خرق الاجماع وتمزيق الصف ، بالقائه نفسَه في أحضان بيغن دون سابق إنذار أو تشاور .. ثم كانت المغامرة الكبرى بعقدِهِ مع ذلك العدو ما سمي بعد ذلك بميثاق (كامب ديفيد) .. ذلك الميثاق الذي أخرج مصر الشقيقة من المعركة ، وأطلق أيدي المجرمين ، ومَن وراءهم ومَن حولَهم أخيراً في أعناق الفلسطينيين وأنصارهم ، يقتلون ويدمرون ويقيمون المذابح التي أذهلت العالم حتى في قلب اسرائيل ...

وفي غمرة من النشوة بإصغاء مستمعيه إلى دروسه في مسجد رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، راح يعلن موافقته على عمل ذلك الخارق للإجماع ، ويبارك عقده ذلك الميثاق المدمر المتبّر ، الذي فتح سدود الرزايا على جماهير العرب والمسلمين ..

---

(1) رواه رزين

وحجته في ذلك ـ وهذا قوله ـ أن اليهود ذوو قوة ، والعرب والمسلمون في ضعف يُعجزهم عن حربهم ، فلا مانع والحالة هذه من مسالمتهم اتقاء شرهم .. وقد نسي هدانا الله وإياه أن قومَه يملكون أعظم عناصر القوة في العالم ، وإنما يفتقدون القدرة على تنظيمها واستغلالها .. فبدلاً من أن يلقوا بأيديهم لعدوهم كان عليهم أن يعيدوا بناء وجودهم على أساس من وصية ربهم في قوله تعالى : ﴿ وأعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ..﴾ وأول طريق القوة تنظيم صفوفهم وفقَ قوانين الأُخُوَّةِ الإسلامية ، التي فرضها الله بقوله : ﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ ثم تربية الأجيال على روح الاستشهاد في سبيل الله ، ثم إقامة الاقتصاد على قواعد الوحدة المتكاملة ، ومن ثم يأتي الرأي الموحَّد في تنظيم العلاقة مع دول العالم على أساس المقابلة بالمثل .

ولو أن أخانا الشيخ ابا بكر قد أحاط فكرا بهذه الحقائق ، ثم اطلق بيانه المؤثر في الدعوة اليها ، لجمع لنفسه بذلك خيري الدنيا والآخرة ان شاء الله .

ولكن ... وما أوجع لكن ... أبى الكثرة من دعاة الاسلام في هذه الأيام أن يتجاوزوا في زادهم الثقافي نطاق الكلام في حدود الأساسيات الاسلامية . فإذا ما أرادوا الحديث عن النُّظُم الواقعية ، والتيارات الفكرية ، والمذاهب السياسية ، عَرَّضوا أنفسهم للمآخذ ، وجاؤا بكل قول فطير .. ورحم الله أئمة السلف ، الذين كان الواحد منهم موسوعةً من العلوم ، إذا تكلم في أحدها حسب السامعون أنه وحده موضع تخصصه ..

ومع أن الكثرة من الذين استمعوا لأفكاره الغريبة هذه لم يكونوا موافقيه ، فقد منعهم من معارضته في حينهاخشيتهم اتساعَ الخروق ، لذلك آثروا محاورته على حدة .. وجاءته وفودهم إلى منزله تناقشه ، إلا أن مصرياً من ذوي الرؤية الإسلامية لم يستطع ضبط شعوره . فوقف يحاوره في المسجد النبوي مؤكداً له أن عملية (كامب ديفيد) لا تعدو كونها طعنةً نجلاء في صميم قضية القدس وفلسطين والمسلمين أجمعين ...

والعجب العجاب أن يلتقي أخونا الشيخ أبو بكر مع صاحب (كامب ديفيد) على الحافز النفسي الواحد في كلا موقفيهما .

أما حاكم مصر فقد أسكرته نشوة الانتصار في اقتحام الجنود المؤمنين خط بارليف عام ١٩٧٣ م تحت راية (الله أكبر) فراح ينسب كل توفيق أصابه جيش مصر برعاية الله إلى نفسه .. وحتى الجيش نفسه لم يعد يضيفه إلى مصر أو الإسلام ، إذا أشار إليه ، بل يضيفه إلى ذاته العبقرية وحدها ، فيقول جيشي فعل وجيشي يفعل و....

وأما أخونا الشيخ فقد عَرَضنا لحافزه المشابه ، إذ جعله الرضى عن النفس لا يبالي أن يقول بما لا يعلم من أمور السياسة ، التي لا يفقهها إلا أهلها ...

وأخيراً ليت فضيلة الأخ اقتصر في (نظرياته) الاجتهادية على ذلك الموقف الذي يرفضه كل محبيه من ذوي الفكر الإسلامي ، ولكنه أضاف إليه ما ضاعف أساهم ، إذ تناول في بعض هذه الدروس إخوةً وأبناءً له في الله كل ذنبهم أنهم يطالبون بتحكيم شريعة ربهم في ديارهم ، لينعموا من الأمن والعافية بمثل الذي تنعم به هذه المملكة السعيدة . فإذا هو يضم صوته إلى جانب جلاديهم من الطواغيت ، الذين لم يضنوا عليهم بألوان العذاب في أقبية السجون ، وبأنواع المخترعات من التهم ، التي لا أصل لها إلا في معاجمهم المستوردة من مدارس الماركسية واليهودية والصليبية ، التي تفترق في كل شيء وتتفق أبداً على حرب الإسلام ودعاته ، فلا تنفك تنبذهم بألقاب « المتطرفين والحنفاء والأصوليين والسلفيين » وما إلى ذلك من مصطلحاتٍ سلخها الإعلام الموجه من معانيها الأصيلة ، ليسبغ عليها الأصباغ المنفِّرة حتى لدى الكثير من (الطيبين) الذين لا يزالون يستمطرون شآبيب الرحمة على السادات وسلفه (المعلم) ..

ويا ليت أخانا الفاضل قرأ في العدد ٨٢/١/٣٠ م من جريدة الشرق الأوسط شهادة (محمد نجيب) الرئيس المصري لأول حكومة ثورية بعد انقلاب يوليو٥٢ م حيث يقول : (ان معظم المؤامرات التي أعلنت الثورة اكتشافها

لقلب نظام الحكم في عامي ٥٤/٥٣ م كانت وهمية ... ولأول مرة في التاريخ أعلن مقسماً أن مؤامرة اطلاق الرصاص على عبد الناصر في الاسكندرية كانت وهمية ـ أي مخترعة ـ من أولها إلى آخرها ، ومرتبة بواسطة رجل من أجهزة المباحث كوفيء على ذلك فيما بعد بمنصب من المناصب الحساسة ..) .

أقول ليت الأخ الشيخ قرأ هذه الشهادة الحاسمة ليستيقن أن كل تهمة توجه إلى جنود الإسلام يجب أن تكون موضع الريبة على الأقل .. وليس هذا خاصاً بعهد ثوري دون عهد ثوري آخر ، بل هو الطابع الأصلي لكل حكم يقوم على الحديد والنار في ديار الإسلام . ولا تعليل لذلك سوى خوف أصحابه من أهل الإسلام الذين جعلوا ولاءهم لله ورسوله ولكتابه ﴿فمنهم من قضى نحبَه ومنهم من يَنتظرُ وما بدَّلوا تبديلاً ..﴾ .

ولا أشك لحظة في أن فضيلة الشيخ ـ وأمثاله من العاملين للاسلام ـ لو قرؤوا تلك الشهادة الفاضحة لغيروا موقفهم من أبنائهم ، أولئك الشباب الذين رضوا أن يحترقوا ليضيئوا لأمتهم سبيل العودة إلى الله ، التي لا سبيل سواها لاستعادة مكانة المسلم في ميزان الحياة ، ولا مأمل غيرها لإنقاذ الإنسانية المتخبطة في حبائل البغاة الطغاة ... ويومئذ سيقوم من أوساط هؤلاء المشايخ الفضلاء من يكتب للمسلمين قصة (عودة الوعي) التي سبقهم إلى كتابتها عن عهد عبد الناصر توفيق الحكيم .

ولله الأمر من قبل ومن بعد ...

تعليق على التذييل

الحمدلله ، والصلاة والسلام على رسول الله . وبعد ـ أخي الأديب الكبير ، والمصلح القدير الأستاذ محمد المجذوب ـ هل تسمح لي ـ عفا الله عنك أن أقول لك مقسماً بالله تعالى أن كل ما ذكرت في تذييلك المذكور آنفاً أو أعلاه هو خلاف ما أخوك الجزائري عليه ، وما يعلمه الله تعالى منه . وإنما أوقعك فيما قلت في تذييلك : ظاهر قولي ، وسوء النقل عني ، مع شيء من عدم صلاح النيّة وبعض سوء الظن فيّ . وإلّا فالجزائري المسكين ، أبعد إخوانك المسلمين ، عن الرضا بحاله ، إذ هو لا يعتبر حاله مجردةً عن حال أمته وهي ترسف في الأغلال ، وتعيش في أسواء الأحوال .

كما أن الجزائري المعذب الروح والجسم معاً لم يكن ليرضى أبداً بوجود حكم يهودي على أي شبر من أرض الإسلام فضلاً عن صلح مع اليهود يطيل مدة احتلالهم لأرض هي من أغلى أراضي المسلمين وأقدسها . وإنما قال ما قال عن الاتفاقية اليهودية المصرية ، مما ظاهره الرضا وباطنه السخط والأسى لسببين الأول الضعف عن تحمل وقع الصدمة وشدة سوء واقعها في نفسه ، والثاني مبالغة بعض العرب في التشنيع على السادات وتقبيح عمله مما انعدم معه كل معنى للخلق والإنصاف في حين أن ما هم فيه ، وما هم عليه لا يقل قبحاً وسوءاً مما يقبّحونه على السادات ، ويشنّعون به عليه . مع العلم أننا لو تجرّدنا من العواطف الهوجاء ، واتبعنا الحق ولم نتبع الهواء ، لرأينا أن صلحاً مع اليهود ، وقد قهرونا وأذلونا جائز شرعاً وعقلاً معاً . ودليل الجواز الشرعي هو عقد الرسول ﷺ مع طوائف اليهود الثلاث بالمدينة معاهدة صلح وعدم اعتداء وحسن جوار حتى نقضوها بأنفسهم فاستوجبوا القتل والإجلاء والإبعاد .

وأما الجواز العقلي ، فإن العقل يتطلب من العرب وهم من ذكرتم في قوتهم البشرية ، والعسكرية والاقتصادية أن يبيّتوا اليهود فيقضوا على دولتهم ويُخضعوهم لحكم الدولة الإسلامية التي طالما عاش اليهود في ظلها سعداء آمنين قروناً طويلة .

ولما لم يشأ العرب ذلك لأن ذنوبهم قد أحاطت بهم فمنعتهم التحرك نحو السعادة والكمال فإن من الخير أن يصالحوا عدوهم صلحاً مؤقتاً ريثما يتوبوا إلى بارئهم فيتوب عليهم ، فينطلقوا من إسارِ ذنوبهم ، وينعتقوا من حكم شهواتهم واهوائهم ، ويومئذ يقهرون عدوهم ويستردون بلادهم ، وهاماتهم مرفوعة ، وكراماتهم موفورة .

هذا يا أخي الأستاذ عما بدا لك من رضائي بحالي ، ودفاعي عن اتفاقية « كامب ديفيد » .

أما قولك : اني تجاوزت ما هو لي من الدعوة إلى ما ليس لي من السياسة فاعلم يا أخي الفاضل أني قد قضيت أربعين سنة أتعايش مع السياسة والسياسيين وقد صدقت لي نظريات سياسية لا تعد كثرة ،وصحت لي آراء كدت أُعجب بها ويدل لذلك إصداري صحيفتين بالجزائر : الداعي ـ واللواء . وأنا لم اتخط الثلاثين من عمري وأن تفضلتم بقراءة عدد واحد من جريدة اللواء تجلى لكم أني لا أجهل السياسة وكيف وقد شاب راسي لا عن كَبَر ولا كِبَر ، ولا عن فرح ولا ترح ، ولكن عن هم السياسة وأتعابها تلك التي يتولاها من ليس بأهل لها ويحرمها من هو أهل لها . وكم كنت أتمثل بقول القائل : إلى الله أشكو أننا بمنازل ، تحكم في آسادهن كلاب . حيث كان الاستعمار الفرنسي يسوس بلادنا وأمتنا سياسة هوجاء انعدم فيها كل معنى للانسانية ، والكرامة الآدميّة .

أمّا إماءتك يا أستاذي إلى أنّي تعرضت بالطعن للإخوان فاعلم أني حقًّا غير راض عن سلوك أكثر الإخوان الحاليين الذين شوهوا دعوة الإخوان الصادقين من السالفين الأولين ، وهبطوا بها إلى مستوى أصبح الفرق بين الإخوان الموجودين والذاهبين الأولين في الكمالات الروحية ، والصدق والإخلاص في الدعوة

الإسلامية كما بين القصر والرمس ، والوحشة والأنس . ومع هذا فلست بطاعن في أحد ولا بمعترض بسوء لأحد ، وليس المسلم بطعان ولا لعان ولا فاحش ولا بذيء وإنّي حقاً لآسف حزين على إخوة الإيمان والوفاء الذين ذهبوا فآه على تلك الأخلاق الذاهبة ، والمروءات الزائلة ، وصنائع المعروف الغابرة . وآه على ذلك الحب الذي كان يمنحه الإخوان لكل من يدين بالإسلام ، وآه على تلك العواطف الجياشة التي كان يداوي بها الإخوان السالفين جراحات كل المسلمين .

فبكائي على السالفين ونحيبي على السابقين ، إخوان الوفاء والصفاء ، والبذل والعطاء ! !

أما إخوان اليوم يا أخي المجذوب المحبوب فإنهم وإن مسّني منهم نصب ولغوب ، إذ آذاني بألسنتهم صغارهم ، وأبغضني ـ بلا موجب ـ بعض كبارهم . فإني لا أكرههم ولا أبغضهم ، ولا أحب لهم إلا الخير الذي أحبه لنفسي أو أشد ، وهذا خلقي ـ والحمد لله ـ مع كل أحد . ومن هنا كان لي الحق أن أعتب عليهم أو أنحي باللائمة على بعضهم . وإن مثلي ومثلهم كمثل القائلة :

أدعو على ابني وقلبي : يقول يا ربِّ لا ، لا

والسلام عليك وعليهم يا مجذوبنا المحبوب ، ما لازم الصفاء القلوب . وما تاقت نفس أبيّة إلى المرغوب المحبوب !

في ٢٣/٣/١٤٠٣ هـ أخوكم المحب : **أبو بكر جابر الجزائري**

تعقيب صغير

ليت فضيلة الأخ قد أوضح مضمون اتهامه لأولئك المظلومين فلم يكتف بالقول (أنهم شوَّهوا دعوة الإخوان الصادقين ...) دون إعطاء أي دليل على ذلك . ولو أنه كان يملك بعض الدليل على ما ذهب إليه لما أمسك عن عرضه تسويغاً لموقفه ..

ولكن ....

غفر الله لنا وله ...

١٤٠٣/٣/٢٧ هـ

المؤلف

٣

الشيخ حمّاد محمّد الأنصاري

أبو عبد اللطيف حماد بن محمد الأثري .

وُلد عام ١٣٤٣ هـ في مدينة (تاد مكة) التي كانت تعرف بـ (السوق) من (مالي) بافريقية الغربية .

ولأسرته شهرة في (تنبكتو) عاصمة المنطقة الشرقية من مالي ، وينتهي نسبها إلى بني نصير الأنصاريين آخر من حكم غرناطة ، آخر معاقل الإسلام في الأندلس .

وقد عرفت هذه الأسرة في وطنها المالي بالعلم والفتيا والقضاء قبل الاحتلال الفرنسي وبعده .

دراسته :

باشر الشيخ دراسته في (تاد مكة[١]) بين الجزائر ومالي في وسط إسلامي صرف ، يتوارث أساليب السلف في بث العلم . فحفظ القرآن عن ظهر قلب وهو في الخامسة عشرة ، ولما بلغ التاسعة عشرة كان قد غيب الكثير من متون الفنون التي سيتفرغ لها، وعلى عدد من مشايخ تلك البيئة جعل يواصل دراسته،

---

(١) ومعناها عندهم (هذه مكة) لأنها واقعة مثلها بين أربعة جبال .

فأخذ عنهم العلوم الأساسية من العربية والتوحيد والفقه والحديث والتفسير والبلاغة وأصول الشافعي في الفقه . وعن بعض هؤلاء المشيخة تلقى المنطق ، الذي لا ينفك موضع العناية لدى الشيوخ في الكثير من بلاد المسلمين ، ودرس هناك بعض مبادىء الفلك ، التي تعتبر لديهم من متممات الثقافة .

ويطل بنا فضيلته على ظروف هذه المرحلة ، فإذا هي على غاية من القسوة بالقياس إلى ما يتمتع به طلابنا اليوم من الميسرات ، إذ كان يسهر الليالي يقرأ ويكتب على ضوء القمر أو وهج النار التي توقد لهذا الغرض عند انتشار الظلام. وكان على طالب العلم مثله أن يدوّن ما يقرأ ويحفظ ، بأقلام ينحتها بيده من العيدان ، وبمداد يصنعه من هباب القدور ممزوجاً بصمغ الشجر .. فلا عجب أن يكون للعلم قداسته في تلك البيئة بإزاء الجهود الفادحة التي تبذل لتحصيله .

ويخص بالذكر من أساتذته في هذه المرحلة عمه الشيخ محمد أحمد بن محمد الذي يلقب هناك (البحر) لتبحره في العلوم ، ثم خاله محمد أحمد بن تقي ، وابن عمه موسى بن الكسائي ، والفرضي حمود بن محمود الشريف الحسني .

ويقول الشيخ : « سمعت من هؤلاء بالأسانيد المتصلة إلى المؤلفين في معظم ما درست عليهم من العلوم» . وقد أجازوه في ما سواها وفق الطريقة المألوفة في الثقافة الإسلامية من قبل .

وبعد قدومه المملكة السعودية اتصل الشيخ بثلة من أهل العلم ، أخذ منهم ، وحصل على إجازة بعضهم . ويذكر من هؤلاء الشيخ عبدالحق العمري ، والشيخ عبد الشكور (الهنديين) ، والشيخ عبد الحفيظ الفلسطيني ، والسيد قاسم ابن عبد الجبار الفرغاني ، والشيخ أبا بكر التنبكتي ، والشيخ ابن تركي ، والشيخ محمد الخيال (النجدي) والشيخ عمار المغربي ، والأستاذ محمد الشعراوي البنجري المرتفوري ، ومحمد بن عيسى الفاراني الجاوي المكي ، والشيخ الأثري عبيد الله المباركفوري ، تلميذ المباركفوري صاحب تحفة الأحوذي « شرح الترمذي » .

ويقول الشيخ إنه جمع أسماء شيوخه من القارتين – آسية وأفريقية – مرتبة على الحروف الأبجدية في ثبت خاص .. هـذا وقد التحق الشيخ بدار العلوم الشرعية بالمدينة المنورة عام ١٣٦٩ هـ. في قسم التخصص بالحديث .

أثر البادية :

وفي استطلاعنا الشيخ عن أثر البيئة في نشأته لم يزد على الإشارة إلى طوابعها العلمية . وطبيعي أن المتأمل في هذا العرض السريع لصور تلك البيئة لا يفوته إدراك العوامل التي تعاونت على تكوين شخصيته ، وحددت لهذه الشخصية معالم السلوك وطرائق التفكير ، والإتجاه الملتزم الذي صار إليه !!

ولعل في مقدمة هذه العوامل واحداً لم يشر إليه في ما كتب إلينا وهو طبيعة البادية التي أحاطت نشأته ، فقد علمنا من أحاديث فضيلته الخاصة عن تلك البيئة ما لا يصح إغفاله عند ترجمته .

إن البادية هي أول ما فتح عينيه عليه من بقاع مالي ، وبالتالي من مشاهد الدنيا ، والبادية بما تنطوي عليه من قوة واتساع واستثارة للجهد الشخصي ، وبعد عن فتن الحواضر ومفاسدها .. وقدرة فائقة على الاحتفاظ بخصائص الفطرة أقرب ما تكون إلى السلامة ، ذات آثار لا سبيل لناشىء فيها إلى التخلص منها .

ولقد أتيح لنا أن نرافق الشيخ الصديق في بعض الرحلات الجامعية فأطرفنا بالكثير الشيق عن تلك الحياة الحافلة بروح الفروسية ، في صحبة الطبيعة الصافية ، والأنعام الناغية ، إلى جانب المناهل الروحية ، التي طالما أمدته بما يعوزه من غذاء العلم والمعرفة .

والذين يعرفون الشيخ عن كثب مثلنا يشعرون بهذه المؤثرات في مظهره وحديثه وتصرفاته .. وحتى في نبراته البريئة من كل تكلف . وأن ملامح البادية أول ما يطالع الناظر إلى الشيخ حماد .

هيكل نحيف أقرب إلى الطول ، ووجه أسمر منمنم لا تكاد الابتسامة تفارقه ، يخيل إليك أن سمرته أثر من لفح الشمس .. ينظر إلى محدثه بعينين سوداوين ، ينم صفاؤهما عن ود وذكاء وبساطة معاً ، ومع أنه تجاوز نطاق الشباب ، وأطلت من خلال لحيته أشعة الشيخوخة ، فما يزايله النشاط الذي يميز سكان الريف وراكبي الإبل .

وكم قلت لإخوان لي وأنا ألاحظ هذا الهيكل الضامر النشيط: إنه ليذكرني بجنود الدعوة أيام زحفوا من هذه الجزيرة يفتحون أرض الله لدين الله .

وما أن يتحدث إليك حتى تأخذ هذه الصورة في استكمال عناصرها النفسية ، من خلال تلك الصراحة الفطرية ، التي لا تكاد تقع على مثلها إلا في النادر .

من هذه الصراحة في دروسه مثلاً ، وبخاصة في حصص التوحيد ، شدته على القائلين بالمجاز ، وقسوته على المخالفين لمذهب السلف في تقرير صفات الله تبارك وتعالى .

فالقول بالمجاز في القرآن طاغوت بنظر الشيخ .. والانصراف عن صريح البيان إلى ملتويات التأويل في صفات الخالق سبحانه ، طاغوت .. لأنه في كلتا الطريقتين عدوان على حقائق الوحي .

وهو حين يسوق هذه الأحكام لا يلجأ إلى اللف والدوران، ولا يقدم علاجه المر مغلفاً في (برشامة) على طريقة المنفلوطي .. بل يصبه في نبراته الصارمة ، فتنزل على أسماع المخالفين — وما أكثرهم — كلذعات السياط، تنسيهم ما وراءها من الأدلة الدامغة ، فيذهبون يشيعون عنه ما لم يقله، لأنهم لا يستطيعون الفصل بين حجته وشدته .

لقد بلغني ذات يوم أن طالباً قد أشاع عن الشيخ القول بأن لله يدين كيديه .. وأنه جعل يمد يديه أثناء ذلك ويهزهما توكيداً لهذا التجسيم ، والعياذ بالله .

ولقيت ذلك الطالب فبينت له خطأه في ما ينقل عنه ، لأن مذهب الشيخ إنكار كل تجسيم وتعطيل .. وإنما كان يمد يده إشارة إلى أن لله يدين حقيقيتين لا كيدينا ، إبطالاً لما يراه المعطلون والمشبهون .. وبقليل من التروي تذكّر الطالب الواقع ، ورجع عما رمى به شيخه .. وطبيعي أنه لم يذع عنه تلك الفرية بسوء نية وإنما أخذ بوقع نبراته فاختلط عليه الأمر .

وعندما نذكر أثر الحياة البدوية في طباع الشيخ لا ننسى أن نضيف إليه موحيات العزلة التي عاشها مع قومه في تلك البيئة ، إذ كان للاستعمار الفرنسي أثره الآخر في إيثارهم إياها ، حفاظاً على دينهم وعربيتهم ، فما يكادون يتصلون به إلا على حذر أو كفاح ، وبذلك حموا أنفسهم وذراريهم من أرجاسه فلم تتسرب إلى أخلاقهم لوثة من مباذله ، ولم يتسلل إلى ألسنتهم حرف من لغته .

ومن هنا كان احتفاظ الشيخ بخصائص تلك البيئة في كل تصرفاته حتى اليوم ، فلم تغيره الأحداث قط ، على الرغم من كل التغيرات التي أحاطت به منذ هجرته إلى المملكة السعودية عام ١٣٦٦ هـ . وما أحسب في مستطاع أي تطور سلخه من تلك الخصائص مهما تبلغ من التأثير في سواه .. فهو من هذه الناحية كالكثيرين غيره ممن استولت مؤثرات البادية على كيانهم فلم تغيرهم الحضارة ، ولم يرضوا أن يتغيروا قط .. وقد سبق لأحمد بن الحسين — المتنبي — أن عاش الحياتين البدوية والحضرية ثلاثاً وخمسين سنة ، فالتهم الكثير من علوم الحضر ولابس الكثير من خصائص الحضارة ، ولكن ذلك عجز عن أن يغير من خلقه وأسلوبه البدوي قيد شعرة .

شيوخه المؤثرون :

وفي جواب الشيخ على سؤالنا الخامس بشأن الرحال الذين تركوا أثرهم في حياته ، ذكر الشيخ محمد عبد الله بن محمود المدني ، إمام المسجد النبوي السابق ،

وكذلك الشيخ الكبير محمد بن ابراهيم آل الشيخ مفتي المملكة السعودية الراحل، رحم الله الجميع .

ولعل الشيخ قد خص بالذكر هذين الفاضلين لمودة خاصة، أو لأثر قريب... والذي نراه أنه لا بد أن يكون لكل من مشايخه الذين عني بذكرهم أثره في توجيهه وتكوينه .. ذلك لأن الدراسة على المشايخ ، في نظام التعليم الإسلامي الذي توشك الطرائق المستحدثة أن تجهز عليه، إنما هي في الواقع – كما أسلفنا– أسلوب من التربية العقلية والنفسية . فهو من جانب تدريس للعلوم المطلوبة في تركيز وتعميق ، ومن جانب آخر ، تطبّع خلقي بمسلك الشيخ ، الذي أخذ نفسه بوقار العلم ، الحامل لطابع القداسة ، من حيث صلته بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ .

وقد لاحظ القارىء تعدد الجنسيات التي نسب إليها أولئك الشيوخ ، إذ نتصورهم يمثلون معظم العالم الإسلامي .. ومعلوم أن هؤلاء (الدوليين) الذين لقيهم الشيخ في ظلال الحرمين ، ليس ضرورياً أن يكونوا مستمري الاتصال بمواطنهم الأصلية ، بل لعلهم من المقيمين أو المولودين في هذه الربوع المطهرة ، ومهما يكن من اختلافهم في الهوية والأنساب فهم ملتقون على خاصة واحدة هي خلوص النية في طلب العلم ونشره ابتغاء مرضاة الله ، وكفى بهذا امتيازاً يجعل من هذه البيئة مركز إشعاع روحي لا مثيل له في سائر أنحاء العالم .. ولا غرابة إذن أن نجد أخانا الشيخ حماداً ثمرة طيبة مباركة لكل هذه المؤثرات المباركة الطيبة .

علومه المفضلة :

وما أرى القارىء إلا قد أحاط سلفاً بالذي سيكتبه الشيخ في الجواب على سؤالنا المتعلق بالعلوم المفضلة لديه .. فالتوحيد النابع من مفهومات السلف ، والحديث النبوي ، بكل ما يتصل بـه من علم بالرجال ومراتبهم ورواياتهم ومؤلفاتهم ، ثم الفقه ، وبخاصة القائم على الدليل من كتاب الله ، والثابت من

سنّة رسول الله ﷺ .. وما لا يتم ذلك كله إلا به من علوم العربية وأدبها وغريبها .. هي الفنون الأثيرة والملتزمة عند الشيخ . وهو لو شاء أن يخالف الطريق إليها لما وسعه ذلك ، لأنها سرت في دمه من أول طلبه للعلم ولم يحد عن سبيلها قط حتى طبعت عقله وخلقه جميعاً .

والذي يفهم من أجوبة الشيخ ونعلمه من صحبته أن الحديث الشريف يستقطب معظم جهوده ، بل هو المحور الذي حوله يدور سائر الفنون التي يعمل في خدمتها . ويتجلى ذلك مبكراً في البحوث التي كتبها وألفها مما نشر وما لم ينشر .

نشاطه العلمي :

ويتحدث الشيخ عن نشاطه في خدمة العلم وطلابه ، فيقول بأنه قد بدأ ذلك أيام الطلب ، إذ ولع في جمع المعلومات المتنوعة في الحديث والتوحيد ، نشر بعضها وظل بعضها مخطوطاً .

ثم يذكر هذه القائمة من مؤلفاته :

١ – سبيل الرشد في تخريج أحاديث ابن رشد في أربعة أجزاء .
٢ – فتح الوهاب في الألقاب .
٣ – إتحاف ذوي الرسوخ بمن دلّس من الشيوخ .
٤ – كشف اللثام عما ورد في دخول مكة بلا إحرام .
٥ – كشف الستر عما جاء في شد الرحل إلى القبر .
٦ – البت في الطواغيت الست .
٧ – دفع الاشتباه عن حديث (مَن صلى في مسجدي أربعين صلاة) .
٨ – الإعلان بأن (لعمري) ليس من الأيمان .
٩ – الأجوبة الوفية عن أسئلة الألفية .

إلى رسائل أخرى كثيرة في الحديث والتوحيد ، ولعلهـــا مشروعات لم تستكمل بعد .

على أن أحب مؤلفاته إليه كما يقول هو كتابه الذي يسميه (بلغة القاصي والداني في شيوخ الطبراني) . وقد استوعب أربعة أجزاء مرتبة على حروف الهجاء .. وهو يرد سبب إيثاره هذا المؤلف الذي لا يزال ينتظر النشر إلى ما عاناه في تأليفه من المشاق .

ونظرة فاحصة إلى عناوين هذه المؤلفات تمدنا بما لا ينبغي أن نجهله عن مسلكه العلمي وذوقه الأدبي . فأما الناحية العلمية فتوكيد لما أشرنا إليه من ألوان تخصصه ، وبخاصة في خدمة الحديث ، الذي هو قطب الرحى في كل ما يكتب . ذلك أن مؤلفاته كلها لا تخرج عن البحث في الحديث وفقهه ورجاله.. حتى التاسع وهو الخاص بقواعد العربية لا يعتبر بعيداً عن ذلك الاتجاه ، إذ هو لم يُعْنَ بالقواعد من أساسها إلا لعلاقتها الوثقى باختصاصه الأكبر .

وشيء آخر هو أن الشيخ لا يقف عند حدود العمل التقليدي في مسيرته العلمية ، كما يفعل أولئك الذين لا عمل لهم سوى أن يعيدوا ويبدئوا في ما سبق إلى تقريره فلان وفلان ، على طريقة (ما ترك الأول للآخر) بل هو على الضد من ذلك يحاول الانتفاع بكل معطيات النص ، ولو خالف بعض الأكابر من الباحثين فيه . ولتوكيد ذلك ألفت نظر القارىء إلى عناوين الثالث والرابع والسابع والثامن من مؤلفاته . فالبحث في موضوع التدليس ليس جديداً ، ولكن فيه مجالاً لجديد من الرأي في رجال رموا بالتدليس فاختلف في تقويم رواياتهم ، فلا بد أن يكون للشيخ تقرير في أنواعهم وأعيانهم ومدى الانتفاع بها .. وفي الحديث عن دخول مكة إزالة للبس كثر كلام الفقهاء به . وفي حديث الأربعين صلاة في مسجده ﷺ أخذ ورد كثير من حيث سنده وفقهه .. وقد ذهب إلى تضعيفه بل رده • شيخنا أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني . فالشيخ حماد مع تقديره الكبير للشيخ ناصر وسابقيه في هذا الصدد لا يرى مانعاً من خلافهم ما دام يظن الدليل في غير جانبهم .. وهكذا القول في (لَعَمري) التي يتوقف على معرفتها حكم شرعي في الإباحة أو الحظر .. وقد

أوضح الشيخ في العنوان ، دون أي لبس رأيه بأنها ليست من الحلف بغير الله ، بل هي ضرب من اللغو الذي جرى عليه العرب دون قصد إلى اليمين .

ومن هنا يتبين لك أن الشيخ ، مع شدته في الحفاظ على مذهب السلف في الأصول لا يسمح للتقليد بالسيطرة على تفكيره في كل ما يتسع للاجتهاد .

بقي أن نذكّر القارىء باللون الأدبي الذي يصوره اختيار الشيخ لأسماء كتبه . فلقد صبها جميعاً في قوالب السجع ، على طريقة المؤلفين في الأندلس وما بعد العصر العباسي . ولا غرابة في هذا ، فالشيخ مع تبحره في اللغة لم يعر الأدب من الاهتمام أكثر مما يحتاج إليه في نطاق الدراسات الأخرى ، فإذا أقبل عليه ففي حدود التفقه لمدلولات الألفاظ والتراكيب ، وما يصحب ذلك من التنقيب عن الشواهد .. وهذا الطراز من أهل العلم لا يكادون يتجاوزون نطاق الأدب القديم إلى أي لون آخر جديد .

الحافظة العجيبة :

ولاستكمال الصورة العلمية للشيخ نرى لزاماً أن نعرض للقارىء انطباعاتنا عن ثقافته بصورة أكثر تركيزاً .

في رحلة جامعية صحبناه فيها إلى ينبع – على الساحل ما بين مكة والمدينة – وفي إحدى الندوات العلمية بالمخيم ، استمعنا إلى فضيلته يحدثنا عن فاتحة الكتاب .

وأشهد، لقد تدفق كالسيل الهادر يقذف أفانين الدرر .. فما تلكأ ولا أرتج عليه ، فكأنما يقرأ في كتاب ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من كنوز هذه السورة ، فهو يتحف سامعيه من هذه الكنوز بما تتسع له المناسبة .

ربما أورد خلال حديثه ما يتسع لأكثر من تفسير ، فاكتفى بوجهة منه لا يقره عليها بعض الحضور ولكنه لم يدع قلباً هناك إلا ملأه رضى وانفعالاً وإعجاباً .

وبعد عام أو أكثر حدثني فضيلة الأخ الأستاذ محمد الصبّاغ – المدرّس

في جامعة الرياض– عن مثل إعجابنا به، وذلك أنه سمعه يحاضر في مخيم الجامعة عن معاني الفاتحة فسَحَر وبَهَر .

وقد لاحظت من خلال حديث الأستاذ الصباغ ما خيل إليّ أنني أقع على ميزة أخرى للشيخ حماد ، هي قوة الحافظة ، التي تسعفه باستحضار كل ما يعلمه عن الموضوع الواحد في المناسبات المتباعدة . وهي ميزة يكاد ينفرد بها بعض المتفوقين من علماء الإسلام في أفريقية الغربية .. وهي بقية من الخصائص التي عرفت في سَلف هذه الأمة ، حتى كان منهم من يحفظ نصف مليون حديث بأسانيدها .. وقصة الإمام البخاري مع علماء بغداد أشهر من أن تذكر في هذا الصدد . وقد كان شيخنا محمد الأمين الشنقيطي صاحب « أضواء البيان » ، تغمده الله بواسع رحمته ، أنموذجاً عجيباً لهذا الحفظ العجيب .

وقصارى القول في ثقـــافة الشيخ أنه واحد من بقية الجيل ، الذي نقل ولا يزال ينقل إلينا تراث الإسلام الحي ، وفق النظام التعليمي الذي امتاز به أهل العلم في حضارة الإسلام .

وبهذا كان أنموذجاً للرجل الذي وقف وجوده كله على خدمة العلم ، فلا ينفك بين تحقيق لكتاب ، واستنباط لحكم ، واستقصاء لدليل .. حتى ليكاد ينسى حق نفسه .. بل حق أي فن آخر في هذا المضمار .

أهم الأحداث في حياة الشيخ :

وحول الفقرتين ٧ و ٨ من الاستطلاع قرر الشيخ أن أهم الأحداث التي عاصرها كانت في الحرب العالمية الثانية ، إذ ضاعف الفرنسيون ضغطهم على قومه ، وشددوا تضييقهم عليه ، حتى اضطر إلى الهجرة من مسقط رأسه إلى المملكة السعودية ، التي يصفها بأنها البقية الباقية للإسلام على وجه البسيطة .

ولاستكمال الحديث عن الشيخ لا مندوحة من تسجيل بعض الجوانب من حياته كما نعرفها ويعرفها المكثرو ملازمته من الطلاب والإخوان ، لتتوافر للقارىء صورة مركزة عن الخصائص التي تميزه .

لقد وهب فضيلته نفسه للعلم ، فهو يقضي جل يومه بين كتبه وطلابه إلى وقت متأخر من الليل ، يحقق ويناقش ويوجه . وقد أضاف إلى ذلك — أيامنا هذه — انشغاله بطلبة الدراسات العليا الوافدين اليه من مختلف أنحاء المملكة ، والمترددين عليه من طلابه في الجامعة الإسلامية .

وهو إلى ذلك شديد الحرص على لقاء العلماء من زوار المدينة ، فإذا بلغه قدوم أحدهم هرع إليه للاجتماع به والمذاكرة في كل ما يتصل باختصاصه . ومن هنا كان بعده عن حياة الناس خارج هذا النطاق ، فلا يكاد يعرف شيئاً من مشاغلهم الدنيوية ، بل لا يكاد يعرف الأصول التي تعارفوها في شراء الحاجات اليومية، فلا يساوم بائعاً ، بل يؤدي إليه ما يطلبه دون جدال . ولعلي لا أسوء الشيخ إذا قلت للقارىء أن قارورة من الطيب اشتريتها أنا بأربعة ريالات قد اشترى هو أختها بمئة ريال . على أن الشيء الوحيد الذي يمتاز بإتقانه في هذا الجانب هو شراء المطبوعات والمخطوطات، التي يوشك أن يؤثرها بمعظم موارده، حتى تجمع لديه منها مكتبة عامرة لا تقل عن خمسة آلاف كتاب ، وكلها في التوحيد والحديث اللذين ينقطع إليهما هذه الأيام .

وفي هذا الجو المميز يعيش الشيخ بأخلاق السلف من أهل العلم ، تواضعاً كريماً ، وخلقاً حليماً ، ودماثة تحبب به كل من عرفه من طلبة العلم في مختلف أقطار العالم الإسلامي .

نماذج من نظمه

وحتى الآن كان حديثنا عن الشيخ تلخيصاً لعبارة ، أو استنتاجاً من فقرة ، أو لمحة عن فكرة . وقد آن لنا أن ننقل إلى القارىء صورة أصيلة من قلمه الذي هو أقدر على رسم ملامحه . وقد اخترنا الأبيات التالية من منظومتين تفضل بهما. وإنما آثرناها لما تحمل من طوابع أدبه وتخصصه .

انها جزء من منظومة (علمية) في موضوع طريف هو ضبط الأسماء المتشابهة لرواة الحديث ، تيسيراً لطلبة العلم ، الذين قد يجدون صعوبة غير قليلة في ضبط

هذا الضرب من المؤتلف والمختلف . وقد بلغت أبياتها كما أخبرنا مئتين وخمسين . وهاك بعضها :

إقرأ أسيداً بضم الهمز منحصراً	في أربع تستفد ما يشبه الدررا
منها سليل ظهير ، ثم من سبأ	إلى حضير أبي يحيى بذا اشتهرا
والساعدي له في الصحب منقبة	بمالك وسمُوه أيـنما ذكرا
في غير ما مر فتح الهمز ملتزم	لدى ذوي الحذق في ذا النوع منتشرا
أمـا أنيس أبو رُهم فهمزته	مفتوحة ، وانضمامُ غيرِه سطرا
كذا بَدِيل ففتح الباء يلزمه	معْ كسر دالٍ بموضعين فانتظرا

ففي الأبيات كما ترى طبيعة العالم الذي يمتطي متن النظم إلى غايته التعليمية ، دون أن يعبأ بخصائص الشعر من العاطفة والخيال وما إليهما . والذي أتيح لنا الاطلاع عليه من منظومه في غير هذا النحو يكاد لا يختلف عنه كثيراً من حيث الصياغة والروح ، ومـا ذاك إلا صورة من واقعه النفسي الذي سيطر عليه التخصص في نطاق معين فلا يحسن تجاوزه إلى ما سواه .

آراء تناقش :

ونختم هذه الترجمة بآراء الشيخ في مستقبل الجيل الإسلامي ، وواجب علماء الإسلام المعاصرين نحوه .. وقد أوجز الجواب على هذه النقاط بما يلي :

إن الغزو الفكري وما وراءه من المغريات الوافدة من خارج العالم الإسلامي يشكلان خطراً كبيراً على مستقبله ، ويبدو من تعبير الشيخ أنه شديد التشاؤم في مـا يتصل بهذا الجانب ، ولكنه مع ذلك غير يائس من إمكان الإصلاح (إذا قيض الله لهذا الدين حماة مخلصين ربانيين ..) فهو يعول كثيراً على وجود الحماة من طراز خاص ، إلا أنه لا يخبرنا كيف وأين ومتى نجدهم ؟..

وفي رأي الشيخ كذلك أن أمضى الأسلحة التي تمكن علماء الإسلام من الوقوف بوجه الزحف الهدام ، هو تركيزهم في مخاطبة القلوب على كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ .. ويزيد على ذلك القول « بأن لا يسمح لأي شاب ولا شابة

أن يخرج في تعاليمه ودراساته عن هذين الأصلين، إذ هما في رأيه السبيل الوحيدة لتكوين المجتمع الإسلامي المتكامل ».

إلا أن كلامه في هذا الصدد يظل بنظرنا يحتاج إلى تفسير .. فالتركيز على الكتاب والسنّة حقيقة لا مناص من استيحائها في بناء الجيل الإسلامي المنشود، ولكن لا مندوحة عن التساؤل « كيف يستطيع العلماء إيصال معاني الكتاب والسنّة إلى القلوب؟» لقد ورد في الأثر وصف كتاب الله بأنه « نبأ من قبلنا، وخبر ما بعدنا ، وحكم ما بيننا ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ».

ومعنى هذا أن لا بد من تفصيل مجمله ، وإيضاح مشكله ، وإبراز كنوزه ، وتجلية محاسنه ، لإثبات تفوقه ، وكونه الهادي أبداً للتي هي أقوم .. فقبل أن ندعو العلماء إذن لمحاربة الإلحاد وصيانة الجيل من الفساد ، علينا أن نُعدّهم لهذه المهمة العالمية بكل ما يساعدهم على تحقيقها .. وأنى لهم ذلك إذا لم تتوافر فيهم صفة القوم الذين بشر بهم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه إذ قال : « إن الله يبعث على رأس كل مئة سنة لهذه الأمة من يجدد أمر دينها »[1].

أما طلب الشيخ ألا يسمح لأي فرد من أبناء المسلمين بالخروج عن تعاليم الإسلام.. فذلك أمر فوق طاقة العلماء بعد أن فاتهم القطار، وسيطر على أزمّة التربية والتعليم والإعلام من لا يعلم عن دين الله نقيراً ولا قطميراً .

---

(١) رواه أبو داوود في آخر سننه



٤

الشيخ عبد الرحمن الأفريقي

لا شك أنه مركز مرموق ، يود كثير من الأفارقة أبناء وطنه وجلدته أن يحصلوا على مثله .. فليس بالشيء اليسير أن يكون أفريقي سكرتيراً في مصلحة الأنواء الجوية .. لأن وظيفة كهذه لا يبلغها الملوّن إلا بعد جهود مضنية ، يثبت فيها تفوقه في الدراسة ، وحصوله على أعلى الشهادات ، وبوجه خاص من مدارس التبشير ، التي ليس سوى شهاداتها مؤهلاً يمكّن الأفريقي من الحصول على وظيفة مرموقة .

ولقد كان من حكمة الله أن وهب لهذا الفتى حظاً غير قليل من الذكاء ، استرعى انتباه الفرنسي المسئول عن مقاطعته ... وكان ذلك يوم مرّ هـذا بقريته (ففا) وأقبل على كُتّابها الأهلي الوحيد يتفقد تلاميذه ، ويراقب ما بأيديهم من الكراريس خشية أن يكون فيها ما ليس في مصلحة الاستعمار . وجعل يوجه إلى الصغار بعض الأسئلة بلغتهم السونغوية فتأتيه الأجوبة معبرة عن مستوياتهم المختلفة ، حتى جاء دور عبد الرحمن هذا ، فإذا أجوبته فوق مستوى غلام في الثانية عشرة ، وإذا هي لا تقف عند حدود الدروس التي يتلقاها من شيخ الكتّاب حول الأصول الدينية من عقيدة وعبادات ، بل تتجاوزها إلى انطباعاته عن القرية وأهلها وأعمالهم وعن الأخلاق والسلوك ...

مما أثار إعجاب المسئول ، فسأل عن اسمه وبيته ، واستدعى والده الشيخ ، فأبلغه رغبته في تحويل ولده الذكي إلى أحدث المدارس العصرية في حاضرة لأقليم ، ليتزود منها بالعلوم التي تعده لمستقبل سعيد يحسد عليه .

وجعل عبد الرحمن يستعيد من أعماق ذاكرته مشاهد ذلك اليوم ، الذي غادر فيه قريته الساذجة المنفية على أحضان الجزيرة ، التي من حولها يتعانق النهران الخيران : النيجر وجوليبا ، فينشران الخصب والجمال في كل شيء . وقد تجمع حوله الكثير من سكانها شيوخاً وشباناً وأحداثاً من رفاقه في الكُتّاب .. يودعونه في تأثر لم ينقصه البكاء . ولعل أشد هذه الذكريات تفاعلاً في قلبه منظر أبيه الشيخ الصالح الوقور ، وهو يمسح دموعه ويوصيه بتقوى الله ، والحفاظ على دينه في تلك المدرسة التي قال له : إنها لم تنشأ إلا للقضاء على عقيدته الإسلامية .

وها هي ذي ثلاث عشرة سنة تنطوي على ذلك اليوم ، قضى ثمانيَ منها في نطاق ذلك المعهد التبشيري الصارم ، يتدرج في فصوله بتفوق ملحوظ ، حتى نال كلتا شهادتيه الإعدادية والثانوية ، وانتقل من حيز الدرس إلى حيز التدريس ، إذ عُين في المعهد نفسه معلماً للغة الفرنسية ، التي أحسنها كأحد أبنائها ... وبعد ثلاث سنوات من التزامه ذلك العمل لم يجد بداً من البحث عن مسلك آخر ، ينقذه من ذلك الجو الذي لم يعد قادراً على تحمل ضغوطه المرهقة ، وقد أتيح له ما أراد حين تيسر له أن يشارك في مسابقة لوظيفة في مصلحة الأنواء الجوية ، فأحرز الدرجة الأولى . وما هي إلا أشهر قليلة حتى رقي إلى مركز السكرتير فيها ، حيث لا يزال إلى اليوم قائماً بهذه المهمة ، وقد أحاط بها خبراً ، حتى بات مديرها المساعد الذي لا غنى عنه .

وما إن تعرض لذهنه صور ماضيه في ذلك المعهد حتى يعتريه غير يسير من الانفعال ، لأنه لا يستطيع أن ينسى ذلك التركيز المستمر على تصغير الشخصية الأفريقية وتكبير الصفات الأوروبية ، سواء في مناهج المعهد ، أو في

سلوك الأوروبيين ، من المكلفين بالتدريس أو الإدارة .. وبوجه أخص ذلك التحامل المكشوف على الدين الإسلامي ، الذي لا يدّعون مناسبة تعرض لهم إلا استغلوها للطعن عليه ، وإلصاق التهم بدعاته السابقين واللاحقين ، مع التوكيد على أن كل تخلف في أوضاع الأفارقة إنما مرده إلى هذا الدين ، الذي أكرهوا على اعتناقه – بزعمهم – بقوة الحديد والإرهاب .. كما أن كل تقدم حضاري حققته الشعوب النصرانية إنما مرجعه إلى دينهم ، الذي شق لهم سبل التفوق ، وذلل لهم العَصيّ من السنن الكونية .

وعلى الرغم من قلة المعلومات التي يحملها عن دينه ، الذي تُوجَّه إليه كل هاتيك الاتهامات ، لم يجد مجالاً للاقتناع بمزاعم هؤلاء المبشرين ، الذين لا ينسى كلمة والده : إن مهمة مدارسهم هي القضاء على عقيدة المسلمين .

أجل .. إنه لا يسعه إنكار واقع التخلف الذي يتمثل في حياة المسلمين ، من الناحية العمرانية والاقتصادية بخاصة .. ولكنه مع ذلك لا ينسى أن المسئول عن ذلك ليس دينهم ، بل التحيز الذي يلتزمه المستعمرون ، فيحولون بـه بين المسلمين وبين كل وسيلة تؤدي بهم إلى النهضة الصحيحة . ثم هل يستطيع هؤلاء المزوّرون أن ينكروا على قومه تلك الفضائل الخلقية التي ترفعهم درجات فوق سوية مستعمريهم !..

إنهم فقراء ... ولا يملكون شيئاً من السلطان ، الذي يؤمن لهم المدارس الصالحة ، المساعدة على إبراز مواهبهم ، ولكنهم يملكون كل ما من شأنه توفير السعادة الروحية التي لا يتذوق طعمها هـؤلاء ، الذين يتبجحون بتفوقهم العسكري والمادي !.

إن لديهم التواضع ، والوفاء ، والحب ، والتطلع الى مرضاة الله .. ووضوح الرؤية التي بها يعرفون ما أحل الله لهم ، وما حرم عليهم .. فيقبلون على طاعته ، ويحجمون عن معصيته جهد ما يستطيعون .. ويتقربون إليه بكل ما ينفع عباده على اختلاف ألوانهم وألسنتهم .

أما هؤلاء المستكبرون ، المدلون بألوانهم وبتفوقهم الصناعي ، فلا يكاد يلمح لديهم شيئاً من هذه الفضائل .. إنهم لا يبالون سوى منافعهم وشهواتهم ، فلا حلال ولا حرام ، ولا حق ولا باطل ، ولا فضيلة ولا رذيلة ، وإنما هي المصلحة والهوى ، اللذان على أساسها يقيمون علاقتهم مع سائر الناس .

إن شعوره الحادّ بهذه الفوارق العميقة ، بين أهله وهؤلاء الدخلاء ، هو الذي ينغص عليه حياته في (باماكو) ، ويحول بينه بين الاطمئنان النفسي . لقد قضى أكثر من نصف حياته حتى اليوم في صحبتهم ، يعايشهم ويحاورهم ، ويتلقى علومهم ، ويساعدهم في إدارة مصالحهم .. ولكن هذه السنين على طولها لم تستطع أن تقتلع من أعصابه حب البساطة التي نشأ عليها في مسقط رأسه ، وإيثارها على التعقيدات المصطنعة التي تتمثل في كل ظاهرة من حياة هؤلاء المتغطرسين ، الذين لا يستطيعون أن يكتموا شعور الاستكبار على كل مخلوق لم يجبل جلده من طينتهم . ولعل ذلك عائد بالدرجة الأولى إلى استمرار صلته بقريته (ففا) التي اعتاد أن يقضي في أحضانها إجازاته الطويلة جميعاً .. فيتاح له أن يظل على ارتباط وثيق بتلك المشاعر المتوهجة أبداً ، والتي توحي إليه بأنه مسلم قبل كل شيء، وأن من حق الإسلام عليه أن يحافظ على ذاتيته النقية، فلا يشوهها بالمفاسد ، التي ينشرها أولئك المستعمرون حيثما حلوا ، كما يتسلل الطاعون إلى الناس الأصحاء عن طريق الجرذان الموبوءة .

ولقد كان لهذه الإيحاءات العميقة أثرها البعيد في تماسك شخصية عبدالرحمن، فلم تتخلخل كما تخلخلت شخصيات الكثير من فتيان قومه ، الذين تولى تربيتهم أولئك المبشرون ، ولا انهار أمام المغريات كما انهاروا . وهذا ما ركز عليه اهتمام عارفيه من معلميه ورؤسائه الفرنسيين، فكان منهم الكاره له والمعجب به. وقد طالما عانى من كليهما ما يحزن ويسر . على أن كل ما مر به من ذلك قد تضاءل بإزاء الصدمة الجديدة التي فوجىء بها صباح اليوم .. وقد ضاعف من وقعها صدورها عن رئيسه نفسه ، ذلك الفرنسي الذي اقتصرت علاقته به على

شئون الوظيفة وحدها ، فلا يكاد يتجاوز معـــه حدودها طوال العامين اللذين طواهما في دائرته .

لقد دعاه هذا الرئيس العجوز ليبلغه رضاه عن نشاطه، وليسمعه لأول مرة كلمة الشكر على نجاحه في ضبط الوثائق ، وتنظيم أضابيرها ، وحفظ أرقامها ، وتصنيف أنواعها .. وكأنه استكثر عليه أن يكون أهلاً لكل هذا الإطراء ، فقال : يؤسفني يا عبد الرحمن أن يظل مثلك متشبثاً بتقاليد المتخلفين !

وأدرك الفتى (المالي) مراد صاحبه ، إلا أنه آثر أن يتجاهله فأجاب : « لو أوضحت ما تقصد إليه » . ويبدو أن الرجل قد ألفى في كلمة مرؤوسه ما يشجع ، فأشار اليه بالجلوس ، ثم أثبت في وجهه عينيه الزرقاوين العابثتين ، وسحب مصة طويلة من غليونه الملتهب، ثم قال: إسمع يا عبد الرحمن .. ألا ترى معي أنك تلتزم بالإسلام أكثر مما هو ضروري !.. إن الملونين من زملائك يكتفون بالانتساب إلى هذا الدين ، أما أنت فلا ترضى إلا أن تربط تصرفاتك بقيوده الجامدة الثقيلة .

وكانت صراحة مزعجة ، تركت أثرها بارزاً في ملامحه ، التي يغلب عليها الهدوء عادة . ودون تردد رد على صاحبه بمثل صراحته : الإسلام دين رباني سمح ، لا يقيد المؤمن به إلا عن المفاسد ، ثم يطلق مواهبه في ميادين الخير والعمل الصالح إلى أقصى حدود الإمكان !..

– هذا دفاع عاطفي، ولكنه لا يستطيع تغيير الحقيقة ، وهي أن الإسلام ديانة المتخلفين ، بقدر مـا يعلم الناس أن النصرانية ديانة المتقدمين والمتفوقين .

– ولمَ لا يكون كلام الرئيس هو العاطفي !.. لقد درست الكثير من تعاليم النصرانية ، ووقفت على أصولها ، فلم أجد فيها مـا يخاطب العقل ، بل هي مجرد استسلام لأقوال رجال يمثلون سلطة الكنيسة .

- « سلطة الكنيسة ! » وأطرق قليلاً كأنه يلاحق أبعاد هذه الكلمة .. ثم ما لبث أن استأنف يقول :

- نعم ، نعم . وهذا سر تفوقها ، لأن هذه الأقوال لا تحمل طابع الإلزام. فأنت تستطيع أن تكون نصرانياً دون أن تدخل الكنيسة.. أو تتقيد بسلوك معين .

- ولكن هذه ليست ميزة يا حضرة الرئيس. إنها توكيد على أن النصرانية ليست وحياً إلهياً ، بل هي مجرد اجتهادات شخصية ، يقوم بتحضيرها طائفة من ذوي الاختصاص .. كأي شأن بشري آخر .

- حسناً.. أليس الاجتهاد المتطور أبعث على التقدم، من الجمود على أحكام لا تسمح للإنسان بالتحرك إلى أبعد من حدودها المغلقة !.. أجل يا سكرتيري العزيز .. إن الإسلام محاولة صارمة لتجميد الحياة ، فأين هو من نصرانيتنا التي لا تعرف الحدود ، ولا تسمح بالجمود !

ولم يكد الفرنسي يفرغ من عبارته حتى بسط راحتيه على نضده ، ثم نهض واقفاً إيذاناً بانتهاء الحوار ، فلم يسع الفتى الأفريقي إلا أن ينهض بدوره ليغادر المكتب ، وفي صدره انفعالات ، وفي رأسه أشتات من الأفكار ، شد ما آلمه ألا يجد مجالاً للتعبير عنها .

●

وكانت (ففا) تتهيأ لوداع أبنائها الذين سمحت لهم السلطات الاستعمارية بالسفر لأداء فريضة الحج .. فلم يتردد عبد الرحمن في اختيار طريقه . وما هي إلا أيام حتى كان واحداً من قافلة تشق طريقها عبر السودان باتجاه البلد الأمين. وعلى الرغم من طول المسافة، وتتالي الأيام عليه في هذه الرحلة الشاقة ، لم يمسسه السأم ، ولم يكد يستشعر التعب ، بل على الضد من ذلك كان يمارس غبطة روحية لا يستطيع وصفها، ولا سيا عندما يستمع إلى هؤلاء المئات من بني قومه

يجأرون بالدعاء والتسبيح والشكر لله الذي أتاح لهم هذه الفرصة .. فلا يسعه سوى الإنسجام في هذا الجو المشرق فيردد ما يرددون . فإذا ما ارتفع نداء مؤذنيهم للصلاة من مختلف الجوانب خيل إليه أنه لا يسمع الكلمات التي ألف سماعها في (ففا) و (باماكو) فحسب ، بل إنه ليعيش معانيها الكبيرة بانفعال لم يحس مثله قط . ويتعاظم ذلك الانفعال أثناء اندماجه في صفوفهم للصلاة ، وتعمق غبطته وتتسع حتى ليفلت من إرادته زمام دموعه .

وبهذه الروح الجديدة استقبل عبدالرحمن مطالع البيت، الذي دعا الله عباده لحجه، وبهذه الروح الواسعة الشاعرة جعل يلاحظ أمواج البشر المتلاطمة حوله، وقد امتلأ الفضاء بالأزيز المتصاعد من قلوبها تكبيراً لله وتحميداً وتمجيداً ، حتى إذا وافى موعد التجمع في بسيط عرفات ومِنى، كانت نفسه قد انصهرت نهائياً في الروح الكلي ، الذي استحوذ على تلك المئات من الألوف، فجعل منها كياناً تاماً ، متحد الزي والشعور والاتجاه... قد تجرد من مغريات الدنيا ليفرغ إلى مناجاة واهب الوجود ، في ضراعة المؤمن الذي عرف مبدأه وغايته ، فهدي إلى الحقيقة الكبرى ، التي طالما شغلته عنها تفاهات الحياة .

لقد استبان عبد الرحمن ، من خلال ذلك الحشر الهائل ، الكثير من أسرار هذا الدين ، الذي أراد مبدع البشرية أن يكون الوسيلة الوحيدة إلى سعادتها الحقة ، وإلى تفتيت الفوارق المصطنعة التي أقامها الطغيان بين مختلف الأجناس والألوان . ومع أن مشاهد هذا التلاقي العظيم لم تخل من بعض المنغصات المؤذية لقلبه ، فإنها لم تزده إلا إيماناً بجلال الإسلام وقدرته الخارقة على السمو بالإنسان ، إذ استيقن أن كل خلل في ما شاهده هناك إنما يعود إلى جهل صانعيه وقلة حظهم من الوعي ، الذي من شأن هذا الدين أن يضيء به عقول أتباعه ، حتى يكونوا القدوة العليا للجنس البشري كله .

وعز على الفتى المالي الموهوب أن يفارق مكة الحبيبة بمثل هذه السرعة ، التي يعمد إليها الحجاج في أعقاب فراغهم من المناسك . وزاد من شعوره هذا

ما سمعه من مواعظ، كان يلقيها على وفود (مالي) وما جاورها بلغتهم السونغوية، ذلك الشيخ الملون الوقور، الذي علم من بعض تلاميذه أنه مهاجر من إفريقية لطلب العلم في الحرمين، وقد بارك الله جهاده فأصبح أحد الناشرين لعلم رسول الله في مسجده.

لقد كانت مواعظ من طراز جديد، تقرع القلب والعقل جميعاً، فتثير السامع من ناحية، وتقنعه من ناحية أخرى، فإذا هو سعيد بما وفق إليه من الإيمان، معتز بنسبته العملية إلى هذه الهوية العالمية، التي كرم الله بها المسلم، فسما به إلى ما فوق حدود المنافع العابرة التي تمزق الناس.

وانطلق في أعماقه سؤال حائر: أليس هذا هو المَعين الذي يجب أن ترتوي منه القلوب العطشى إلى المعرفة؟ فلمَ العجلة إذن؟ وما يمنعك الالتحاق بإحدى هذه الحلقات، التي يموج بهـا المسجد الحرام، فتفيض على عالم الإسلام أشعة هادية شافية!

وأطرق يتأمل في واقعه، ويزن طاقته، ويفكر في ما سيتعرض له من حاجة فيما لو قرر المقام لبضع سنين.. وكأنما فتح بذلك منافذ نفسه لنفحات من المجهول، ما برحت تنساب في أعراقه حتى غمرت وجوده، ثم لم يلبث أن نهض ليؤدي ركعتي الاستخارة، ويدعو الله أن ينقذه من التردد إلى ما هو خير له وأفضل، في عاجل أمره وآجله.

●

وكان على عبد الرحمن بعد اعتزامه البقاء أن يستجيب لأشواقه المتطلعة إلى زيارة مسجد رسول الله ﷺ في ذلك الحرم الآخر، الذي منه انطلقت ألوية الخير إلى أنحاء العالم. وهناك في تلك المدينة، التي إليها يأرز الإيمان كما تأرز الحية إلى جحرها، أحس الفتى بقوة غامضة تشده إلى كل ذرة في هذه البقعة المباركة، ولا سيما ذلك المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم. وسرعان

ما وجد في روضته المكرمة روحاً من الأنس سرّى عنه الكثير من حُرق الفراق لأهله ولمرتع صباه ... ولم يلبث أن اندمج في إحدى الحلقات العلمية، التي تنتشر كالنجوم بإزاء هذه الأساطين الحاملة لقبابه. ومن ثم جعل يتنقل بين الواحدة والأخرى ليتخير ما هو أحوج إليه من تلك الدروس، التي ما برح يتعهدها الدعاة الهداة من أعلام هذا المنطلق النبوي، فيتداولون مشاعلها جيلاً عن جيل، وإماماً عن إمام، إلى إمام الأمم صاحب الرسالة الأعظم.

بيد أن ضعفه في لغة القرآن قصر به عن الإحاطة بما يسمع، فلم يجد بداً من أن يبدأ من الصفر. وهكذا أقبل على دراسة العربية حرفاً فكلمة فعبارة فكتاباً، حتى إذا استوثق من قدرته على الفهم لزم حلقة أحد فقهاء المالكية، فتزود بما يحوج قومه من فروع هذا المذهب، الذي درجوا عليه وأسلافهم. واستمر على ذلك مدى أربع سنوات، لم يجد بعدها بداً من العودة إلى أهله، فحزم أمره وودع شيوخه وزملاءه، وانتهى إلى جدة ليمتطي منهـا إحدى السفن القافلة إلى إفريقية. ولكن القدر تدخل في اللحظات الأخيرة فإذا هو راغب عن السفر، ومصمم على الإقامة، إلى أن يتزود بما يكفي للخروج من مثل هذا المأزق الجديد.

لقد شاء الله أن يجمعه في فندق متواضع بأحد المسافرين مثله. وسَر هذا أن يكون رفيقه من أهل العلم، فراح يستوضحه عن دراسته وشيوخه، والعلوم التي آثرها باهتمامه، ثم قال له: « ليتك عنيت بعقيدة السلف عنايتك بفقه مالك ».

وكأنه لم يفطن إلى أبعاد ما يريد الرجل فلم يزد على أن قال: لم أر ضرورة للإيغال في هذا الجانب من العلم فكلنا ولله الحمد مسلمون موحدون.

ولكن الرجل لم يقتنع بجواب رفيقه فأردف: العقيدة أساس الإسلام يا بني، ولو أنت أنعمت الفكر في واقع المسلمين، والعوامل التي أدت إلى تمزيق وحدتهم على مدى التاريخ، لأدركت انهم لم يؤتَوا إلا من قبل الخلاف على العقيدة!

– الخلاف على العقيدة !

– أجل .. إن الله ابتعث رسله لتحرير الإنسان من كل عبودية لغيره ، وبهذا التحرير ضمن لعباده السعادة والكرامة . غير أن الشياطين لم يعدموا وسيلة لإفساد هذا المنطلق الرباني ، فدسوا في عقيدة الناس بذور الضلال ، حتى هبطوا بسوادهم إلى هاوية الهوان والشقاء .

– ولكن الله تدارك الناس برحمته ، فردهم بخاتم أنبيائه إلى جادة التوحيد.

– ذلك ما حدث للصدر الأول من هذه الأمة ، إذ طُهرت عقيدتهم من كل شائبة ، فكانوا الدم الجديد في شرايين الإنسانية . ولكن هذه الحال لم تستمر إلا ريثما تدفقت على المسلمين سموم الأفكار الدخيلة، من ضلالات فارس والهند واليونان وأساطير أهل الكتاب ، فإذا هي تفسد على الكثيرين عقولهم ، وتشوه فطرتهم ، فتدفع بهم بعيداً عن حقائق الإسلام .

– ومع ذلك .. أليس المسلمون هم وحدهم الثابتين اليوم على هذه الحقائق ؟

– دعني أسألك يا بني.. هل تعلم أن في المسلمين من يرفض الإقرار بما أثبته الله لذاته من الصفات ؟

– لو مثّلت لذلك .

– حسناً .. إن ربك يقول : « ما قدّروا الله حق قدرهُ ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه » . وقد جاء في الصحيحين « إن الله عز وجل يجعل السموات على أصبع ، والأرضين على أصبع ، والشجر على أصبع ، والماء على أصبع ، وسائر الخلق على أصبع ، فيقول : أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الملك ، أنا العزيز ، أنا الكريم .. ومن هذا يتبين بالنص القاطع أن لله يداً وأصابع .. فهل يقر بذلك كل مدع للإسلام ؟

وفي دهشة عميقة كان عبد الرحمن يتلقى كلمات صاحبه ، وقد أخذ منه العجب أنه لم يفكر بهذا الأمر طوال وجوده في المدينة . ثم راح يتمتم في نفسه: لعل مرد ذلك أن الناس هناك لا يجدون أية مشكلة في فهم هذه الأصول .

وتابع الرجل حديثه : ثم دعني أسألك أيضاً ، أثناء حياتك في المدينة ، ألم تر قط مسلمين يتمسحون بجدران المسجد النبوي ، يتوهمون في ذلك الخير لأنفسهم ؟ ألم تر قط مسلمين يستغيثون ببعض الموتى لدفع ضر أو جلب نفع ؟ أو لم تشهد ذات يوم أو تسمع أن مسلمين يسوقون النذور إلى القبور ، رجاء التوفيق وطلباً للشفاء ؟

وبصورة عفوية أجاب عبد الرحمن : بلى والله .. رأيت وسمعت الكثير من هذا وذاك .

- أفيتفق هذا مع العقيدة الصحيحة التي بعث الله بها أنبياءه ؟ يا بني ، إن الله قد ميز الإنسان بالكرامة حين خلقه على صورته ، فإذا رضي لنفسه مثل هذا الهوان تجرد من امتيازه الرباني ، وهبط إلى أدنى دركات الحيوان .

يا بني .. إن فقه مالك لن ينفعك ولا قومك ، حتى تحققوا في أنفسكم قول مالك: « لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ».

ومرت تلك الليلة على الفتى المالي بطيئة ثقيلة ، لم تدع للكرى سبيلاً إلى أجفانه . فلما وافاه فجرها أخذ سمته إلى المسجد القريب ، حتى إذا قضيت الصلاة عمد إلى أمتعته فعاد معها إلى البلد الذي لا يستطيع أن ينساه .

واستأنف الفتى من جديد ما انقطع من حياته في ظل المسجد النبوي . ولكنه لم يقصر حضوره على فن دون آخر ، فعمد أولاً إلى التبحر في أصول العقيدة ، فلزم مدرسها الذي وقف بوساطته على طريق السلف في فهم كل ما يتعلق بأسسها وتفاصيلها ، وكان لا مندوحة له أن يستزيد من علوم العربية ، التي كان شيخه هذا حريصاً على تمكينه منها . وأعجب الشيخ بتلميذه النجيب ،

فضمه إلى دار الحديث، التي أنشئت لتعليم الإسلام المصفى، حيث يتولاه بالرعاية عميدها الدهلوي ، الذي ما لبث أن شمله بحبه وتقديره ، فأخذ بيده إلى أقصى ما تبلغ مواهبه . وعن مشايخ هذه الدار تلقى ما ينقصه من مختلف العلوم العربية والشرعية ، وبخاصة الحديث ومصطلحاته ، ذلك الفن الذي أولع به ليصبح من ثقاته المعدودين .

وذات أصيل بينما كان عبد الرحمن في حلقة الشيخ (ألفا هاشم) أستاذ شيخه سعيد بن الصدّيق، وافى ساعي البريد يقدم إلى الشيخ الكبير رسالة واردة إليه باللغة الفرنسية . ولم يكن باليسير العثور على من يحل رموزها . وتوقع الشيخ أن تكون منطوية على استفتاء قد ينفع الله بجوابه بعض المسلمين ، لذلك آسفه ألا يجد من يحسن ترجمتها له . ثم أودعها جيبه الداخلي ومضى في درسه حتى استوفاه ، فانفض أفراد الحلقة ولم يبق سوى عبد الرحمن ، الذي راح يسأل الشيخ : هل يسوغ لمسلم أن يستعمل لغة أعداء الإسلام في حرم رسول الله ؟

وتبسم الشيخ ضاحكاً من قوله وأردف: أنسيت يا عبدالرحمن أن رسول‌الله قد عهد إلى بعض صحابته بتعلم لسان يهود ؟.. وددت يا بني لو أني أحسن الفرنسية .. إذن لأسرعت بقراءتها ، ورجوت أن يكون ذلك من العمل الصالح .

وفي بساطة بالغة أجاب الفتى : إذن فاسمح لي بالرسالة ، وسأقدم إليك ترجمتها في الحال .

وانفرد عبد الرحمن بالرسالة في جوار إحدى الإسطوانات الخالية ، وخلال دقائق أنشأ الترجمة المنشودة ، وعاد بها مع الأصل إلى الشيخ .

وسرعان ما انتشر خبر الفتى والرسالة على أفواه الناس.. وجاءته العروض بتعيينه للترجمة ، ولكنه اعتذر عن القبول، لأن الوظيفة قد تشغله عن مواصلة

الدراسة ، بخلاف الأعمال الأخرى التي ألف اللجوء إليها للإستعانة بها على سدّ حاجته ، وعلى مساعدة أمثاله من المهاجرين في طلب العلم .

وهكذا استمر الفتى في السبيل التي اختطها لنفسه ، يخصص للعلم أوقاته المناسبة ، ويعطي العمل الضروري ما يقتضيه من الزمن والجهد، غير ملتزم منه صورة ثابتة ، فحيناً يُرى ناقلاً للماء ، وآناً أجيراً في بعض المخابز ، وتارة مساعداً لخياط.. وهو مع ذلك مكب على الدرس لا يكاد يفارق القلم والكتاب كلما وجد إليها سبيلا . وبهذه المهمة اجتاز الاختبار ، ونال اجازات العلماء ، ثم أصبح أستاذاً في الدار التي فيها تخرج ، ومدرساً بين العلية من مشايخ الحرم النبوي ، يلتف حوله بغـــاة العلم فيجدون لديه شفاء الغليل ، وترد إليه الاستفتاءات من أنحاء العالم الإسلامي فيؤلف فيها ما ينير السبيل.. وكان عليه أن يكف عن العمل الجسدي ليفرغ لخدمة العلم ، وبخاصة بعد أن أجري عليه من الرزق ما يسد خلته ، ويؤمن له الاستمرار على عادته ، في مساعدة أولي الحاجات من الطلبة وفقراء المجاورين من أبناء جلدته .

على أن «دار الحديث» ــ كمثيلاتها من مؤسسات البر والعلم القائمة في رحاب الحرمين ــ لم تسلم من أرزاء الحرب العالمية الثانية ، إذ انقطع عنها معظم المدد الذي كانت تتلقاه من أثرياء العالم الإسلامي ، وحجاج بيت الله الحرام ، فبات على طلابها ومشايخها أن يبذلوا جل إمكاناتهم لطلب الرزق ، ريثما يكشف الله الغمة .. وكان نصيب الشيخ عبد الرحمن أن ينقل سكناه إلى ينبع ، بتوجيه من الإمام عبد العزيز آل سعود ، للقيام بالإرشاد والتعليم ، وبذلك أتيح له أن يمد مجال نشاطه إلى مناطق هي أحوج ما تكون إلى العقيدة السليمة والتوجيه الصحيح.. فلم يقصر عمله على البلد وحده، بل شمل به الأنحاء المجاورة والبعيدة، ثم لم تكد تضع الحرب أوزارها حتى كان الشيخ قد سجل هناك أروع نجاح في تصحيح المفاهيم ، واقتلاع البدع ، في أسلوب من الحكمة طوّع له الأفكار ، ومكن له في القلوب . وبعد أربع سنوات من الجهاد الدائب أعيد إلى المدينة

بأمر الإمام ليجدد شباب الدار التي أحبها ، وليسهم مع بقية العلماء في سد الثغرات التي أحدثتها وفاة العديد من إخوانهم .

وكانت مآثر الشيخ ، في التدريس والإصلاح والتأليف العلمي ، قد سار ذكرها، فأكسبته ثقة أهل الفضل من الحكام والعلماء داخل المملكة وخارجها، لذلك لم يكد ينشأ أول معهد علمي حديث في عاصمة المملكة – الرياض – حتى اختير للتدريس فيه . ولما برزت للوجود أول كلية جامعية للشريعة هناك ألحق بها لتدريس علوم الحديث .. ولكن الشيخ لم يستطع الانقطاع عن المدينة التي خالط حبها شغاف قلبه ، فما يكاد يظفر بإجازات الصيف حتى يأرز إليها ، ليجدد صلته بمسجدها المبارك ، وبعلمائها الصالحين ، وبطلبتها الجاهدين .

ودرّت أخلاف الرزق على الشيخ المهاجر .. فدرّت معونته للمحاويج ، حتى ليكاد ينسى مسئوليته نحو بيته وذريته، فإذا قيل له: دع بعض هذا لآلك. قال : إني تارك لهم خيراً من ذلك .. الله .

على أن الجهود التي أرهق بها جسده وأعصابه طوال السنين الست والعشرين، التي قضاها في هذا المهجر الحبيب ، ما لبثت أن أسلمته إلى ضروب من الأدواء لم تجد فيها براعة الأطباء ، فاستقبل أجله المقدور راضياً مطمئناً ، وهو يوصي ذويه وتلاميذه بالصبر ، وأن لا ينسوه من الدعاء والاستغفار .

وصدق الله ظن الشيخ ، فتولى عنه رعاية بنيه الأربعة وبناته الأربع ، فغمرهم بالفيض من نعمائه، وساق إليهم ضروب التوفيق من حيث لا يحتسبون .

٥

الشيخ عبد العزيز بن باز

عبد العزيز أبو عبد الله بن عبد الله بن عبد الرحمن بن باز . أحد الثلة المقدمة في علوم الشريعة الإسلامية ، ومرجع المستفتين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي .

وُلد في الرياض عاصمة نجد يوم الثاني عشر من ذي الحجة عام ثلاثين وثلاثمئة وألف للهجرة ، في أسرة يغلب على بعضها العناية بالزراعة ، وعلى بعضها عمل التجارة ، وعلى كثير من فضلائها طلب العلم . ومن أعيان هذه الأسرة الشيخ عبد المحسن بن أحمد آل باز ، تولى القضاء بالحلوة (الحوطة) والإرشاد في الهجرة الأرطاوية في قبيلة مطير . ومنهم كذلك الشيخ المبارك بن عبد المحسن ، تولى القضاء في بلدان كثيرة من المملكة ، منها : الطائف ، وبيشة ، وحريملة ، والحلوة .

وبالإجمال فإن الطابع الغالب على هذه الأسرة هو طابع الجد في ممارسة الخير سعياً في نشدان الكسب الحلال ، ومذاكرة في مسائل الدين ، والتزاماً لفضائله . فهي بيئة إسلامية تذكر الناسي وتعلم الجاهل ، وتنبه الغافل .

وقد شاء الله أن يحجب عن المترجم ضياء البصر وهو في مطالع الصبا [1] ، فضاعف ذلك من أثر هذه البيئة المنزلية في نشأته الخلقية ، إذ طالت ملابسته إياها فكثر اقتباسه من فضائلها ، وانطباعه بسلوكها ، ثم أتم الله عليه نعمته فوصله بطائفة من صفوة أهل الصلاح ، عنهم أخذ العلم ، وبهم تخرج ، فجمع بين الحسنَيين ، ممـــا جعله أنموذجاً حياً لما تصنعه التربية الكريمة اذا التقت بالتثقيف السديد .

نشأته العلمية ومشايخه :

كان القرآن العظيم ولا يزال هو النور الذي يضيء حياة الشيخ ، بـــه بدأ دراسته فحفظه عن ظهر قلب قبل أن يبدأ مرحلة البلوغ ، وعنه ، مع سنّة رسول الله ﷺ ، يصدر في كل ما يأتي وما يذر .

وبحفظه لكتاب الله باشر انطلاقه في طلب العلم ، وجهاده فيه ، فما ينفك عالماً ومتعلماً ، وواعظاً ومذكراً ، لا يكاد يجد في غير سبيله هـــذه متعة ولا فائدة

لم يحبس الشيخ وقته على أستاذ واحد ، بل اتصل بالعديد من المشايخ يتلقى عنهم العلم كلا في حدود تخصصه . وكان أكثرهم من الأسرة التي لا تزال قائمة على رعاية الأمانة ، التي تداولت رايتها منذ حاملها الأول مجدد القرن الثالث عشر محمد بن عبد الوهاب عليه رحمة الله .

---

(١) في كتاب الأدب العربي للسنة الثـــانية من الجامعة فسرت قول امرىء القيس في فرسه (له .. ساقا نعامة) بأنه قصير الساقين طويل الفخذين ، وهو ما ذهب اليه الأصمعي ، فاعترض مراجعا الكتاب ، ذلك بأن العكس هو الصواب . وقال الشيخ يومئذ أنه كان قد رأى في حداثته النعامة بالرياض ، وفي ظنه أن ساقها أطول من فخذها .. ومن هنا نعلم أن فقدان البصر كان بعد استثباته للأشكال . بل إن أحد المرافقين للشيخ يؤكد لنا أنه لم يفقد البصر إلا في التاسعة عشرة من سنيه .

ويعدد الشيخ من أساتذته من هذه الأسرة المباركة الشيخ محمد بن عبداللطيف ابن عبد الرحمن ، ثم الشيخ صـــالح بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن حسن ، ثم الشيخ محمد بن ابراهيم بن عبد اللطيف، مفتي المملكة السعودية إلى عهد المغفور له الملك فيصل بن عبد العزيز رحمهم الله .

ويشيد المترجم بمشايخه هؤلاء وآثارهم في عقله وتوجيهه ، وبخاصة تشجيعه على المثابرة في تحقيق الخير والعلم والتبحر في عقيدة السلف .

أما مشايخه من غير آل الشيخ فيذكر منهم الشيخ سعد بن حمد من آل عتيق، وكان قاضي الرياض اثناءئذ . ثم الشيخ حمد بن فارس ، وكان وكيل بيت المال فيها ، ثم الشيخ سعدو البخاري بمكة المكرمة ، الذي أخذ عنه علم التجويد .

على أن أطول سنيه الدراسية تلك التي قضاها في التتلمذ على سماحة المغفور له الشيخ محمد بن ابراهيم آل الشيخ ، الذي استمر يلازم دروسه نحو عشر سنوات ما بين ١٣٤٧ هـ. – ١٣٥٧ هـ. إلى أن رشحه رحمه الله للقضاء .

عمله في القضاء :

ولي القضاء في منطقة الخرج ما بين عامي ١٣٥٧ – ١٣٧١ هـ. حيث قضى في عمله ذاك أربع عشرة سنة ونيفاً ، كان خلالها كأنه في كل مكان ، مصدر خير وبركة وإصلاح لكل ما حوله ومَن حوله . وقد ساعده على ذلك – كما وصف – طيب قلوب النـــاس وتقديرهم لأهل الفضل ، وميلهم الفطري إلى العدل .. فكما ينظر في القضايا المعروضة عليه في المحكمة ، فيقيم قسطاس العدالة بين المتقاضين ، كان يولي اهتمامه مصالح الناس في كل ما يهمهم ، ويكتب إلى المسؤولين في كل ما يراه ضرورياً لإصلاح المنطقة ، فيجد لديهم من التجاوب ما يحقق رغبته الخيرة في الإصلاح العام .

عمله في التدريس :

ومثل الشيخ المترجم لا يستطيع الانقطاع عن إشاعة العلم كلما وجد إلى ذلك

سبيلا .. وهكذا حرص على نفع الطلبة أثناء قيامه بمهمة القضاء . وتعد تجربته في هذه الفترة درساً ذا قيمة عملية ، إذ يقول لنا : « إن من الصعوبة بمكان محاولة الجمع بين القضاء والتدريس » .

ومردُّ ذلك في تقديرنا إلى أهمية كل من العملين . فالقاضي ، الذي يحب أن يكون في فريق الجنة ، لا يسعه الوقوف عند حدود دراسته ، بل لا بد له من مواصلة البحث والدرس وملاحظة النفوس والأحداث، لكي يأتي قضاؤه موافقاً لأصح الأحكام الشرعية .

وكذلك شأن المدرس ، المقدر لأمانة العلم ، لا يسمح لنفسه بإطلاق الآراء دون تثبت ، ولا يرضى لها التقاعس عن الاستزادة من ضياء المعرفة ، إذ هو موقن بأن العلم هو الوسيلة المثلى لتحقيق امتياز الإنسان بين سائر عمّار الأرض، لأنه إنما يخشى الله من عباده العلماء ... وقد يضاف إلى هذا وذاك ما يقتضيه القضاء من سلوك خاص قد يعزل صاحبه عن الناس وبخاصة العامة ، حتى لا يطمع أصحاب المصالح بلطفه الذي لا يمكن عزله عن أهل العلم .

ومن هنا كانت صعوبة الجمع بين هذين الأمرين في تقديرنا ، لأن كلاً منهما يتطلب من صاحبه التفرغ التام ، فكل تكامل في أحدهما إنما يتم بالحيف على حق الآخر .

ونحن حين ندلي بهذا التقدير إنما نضع في حسابنا أهل العلم والقضاء في مفهوم الإسلام .. وإلا فالأمر أيسر من ذلك ، حين تتجاوز هؤلاء إلى غيرهم من الذين يتخذون من القضاء حرفة ، ومن التعليم مهنة ، فيعدد كل منهم أيامه ليقبض راتبه .

وتخلى الشيخ عن عمله في القضاء عام ١٣٧١ هـ. ليفرغ للتدريس في المعاهد والكليات ، مفتتح عهدها بالرياض . وقد استمر هناك الى عام ١٣٨٠ هـ. إذ انتقل بعده إلى(طيبة) المباركة نائباً عن أستاذه، سماحة الشيخ محمد بن ابراهيم مفتي المملكة ، في رئاسة الجامعة الإسلامية سنة افتتاحها ، ثم لم يفارق الجامعة

إلا عام ١٣٩٥ حيث عهد إليه برئاسة إداراتها . فأصبحت الرياض مقره الدائم، لا يكاد يغادره إلا لحضور المؤتمرات التي يكلف رئاستها ، أو لأداء العمرة ، أو الحج ، الذي لا أعرف له انقطاعاً عنه منذ صحبته .

جهوده في خدمة الجامعة :

لما زار الملك فيصل بن عبد العزيز – تغمده الله بواسع رحماته – الجامعة الإسلامية للمرة الأولى عام ١٣٨٤ هـ. أتيح لي أن ألقي في استقباله قصيدتي التي نشرت في الصحف وفي ديواني الثاني « همسات قلب » وفي كتاب الأدب للسنة الأولى من الجامعة بعنوان « دنيا ودين » وقد جاء فيها الأبيات التالية ، التي عرضت فيها انطباعاتي عن الجامعة ورسالتها في العالم :

هذي الحديقة من أغراس بيتكمُ ... وقد أنى ينعُها واخلولَقَ الثمر
رُدَّت إلى طيبة العظمى قيادتَها ... فكل صُقْعٍ بـه من نفحها أثر
فانظر إلى أمم الدنيا بساحتها ... في وحدة لم يَشُبْ إيلافها كدر
جاءت طلابَ الهدى من كل ناحيةٍ ... ظمأى إلى النور تحدوها المُنى الكُبَر
فيومُها دأبٌ في الدرس متصلٌ ... ومعظمُ الليلِ في تحقيقه سهر
لا ترتضي الرأي إلا أن تؤيده ... طريقةُ المصطفى والآيُ والسور
جيلُ الهداةِ الذي تهفو لمطلعه ... سُوحُ الكفاحِ ويرنو نحوه القدر

وها هي ذي إحدى عشرة سنة تنقضي على ذلك اليوم فلا تزيدني إلا توكيداً لهذه التوقعات ، التي أشرت إليها من رسالة هذه الجامعة . فبها استعاد مهبط الوحي مركزه المشع على عالم الإسلام ، وإلى خريجيها المنتشرين في مختلف القارات ، وبخاصة أفريقية الإسلامية ، تتطلع الأنظار .. وعلى فروعها المتلاحقة من الكليات المختلفة يتعلق الكثير من آمال المسلمين من سائر أنحاء العالم .

ومما لا خلاف عليه أن للشيخ بن باز أثره العميق في كل تقدم أحرزته الجامعة تحت إشرافه نائباً لرئيسها ، ثم رئيساً مستقلاً لها بعد وفاة رئيسها الأول الشيخ محمد بن ابراهيم آل الشيخ – تغمده الله بعفوه – .

إنه ليتفقد الفصول بين الحين والآخر ، فيستمع إلى دروس المشايخ ، ويلقي توجيهاته الحكيمة هنا وهناك ، وقد يلحظ في دروس بعضهم ما لا يأتلف مع أفكاره الوثيقة ، فيعقب على ما سمع بما يؤدي الغرض في منتهى الكياسة والتقدير .

ويتردد على قاعات المدرسين فيسألهم عن صحتهم وراحتهم ، ويحاورهم في شئون التعليم ، ويشجعهم على المزيد من الجهد في خدمة الطلبة ابتغاءَ ما عند الله .

ويدعو المدرسين في مطلع كل عام دراسي لاجتماع عام يضم أساتذة المعاهد مرة ، وأساتذة الكليات الأخرى ، فيتداول معهم أمور الجامعة ، وضرورة الانتفاع من الخبرات الماضية ، مؤكداً على وجوب الاهتمام بأصول العقيدة ، التي يعتبرها الشيخ منطلق العمل لتكوين شخصية الطالب ، ثم العناية بلغة القرآن التي عليها يتوقف نجاحه في الفهم عن الله ورسوله .. وبخاصة في هذه الجامعة التي معظم طلابها من غير العرب ، فلا سبيل لتثبيت العربية في ألسنتهم وأقلامهم إلا عن طريق القدوة والمحاكاة ، فعلى المدرس إذن أن يجتنب كل لغة ملحونة ، وأن يلتزم الفصحى وحدها في كل حوار مع الطلاب .

وهكذا الشأن في نهاية العام الدراسي ، إذ يعقد مع المدرسين اجتماعاً عاماً آخر ، فيتدارس وإياهم شئون المقررات وملاحظاتهم عليها ، ورأيهم في مسيرة الدروس ، وفي سلوك الطلاب ، وما قد جمعوه من الانطباعات أثناء العام ، ويحثهم على الكتابة عن كل ما يرونه مفيداً للجامعة ، ليعرض على مجلس الجامعة لدراستها والانتفاع بكل صالح منها .

وفي « دار الحديث » التابعة للجامعة تلقى المحاضرات الأسبوعية من قِبل الأساتذة في مختلف الموضوعات ، على مدار العام الدراسي إلا فترة المذاكرة[1]. ويشرف الشيخ بنفسه على محاضرات الموسم هذه ، لا يكاد يغيب عن إحداها إلا تحت ضغط الضرورة ، ولا تعدم المحاضرة تعقيباً منـــه يوضح غامضها ، ويوسع بعض جوانبها على قدر ما يرى لها من الأهمية .

فإذا كانت المحاضرة له اختار لها الموضوع الذي يمس به القلوب والعقول .. حتى إذا جاء موعد الأسئلة حول بعض النقاط أفاض على مستمعيه بمـا يكفي ويشفي .. وكثيراً ما ينتهز السامعون هذه الفرصة ، فيوردون على الشيخ ألوان الاستيضاحات التي تحمل صفة الاستفتاءات ، فتأتي أجوبته عليها جامعة مانعة لا تلبث أن تتردد على الأفواه .

وقد كتب عنه أحد الأساتذة في مقدمة محاضرة ألقاها الشيخ عن سيرة المصلح الإسلامي الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله : « وفي العقائد كان – الشيخ بن باز – مثال الاعتدال ، لا هو من أولئك المتطرفين الذين يطلقون عبارات الشرك على كل صغيرة وكبيرة ، ولا هو من المتساهلين الذين يغضون النظر عن صغار الأمور ، بل إنه لينبه على الصغيرة والكبيرة ويضع كل شيء في موضعه » .

والذين يعرفون الشيخ مثلنا عن كثب يدركون هذه الخاصة في أسلوبه ، ومرد ذلك فيما نرى إلى سجيته السمحة التي تعامل، حتى المخالفين، بروح الطبيب الذي يعلم أن ثقة المريض به أول أسباب الشفاء .

وفي العالم الاسلامي :

ولا يقف نشاط الشيخ العلمي عند حدود الجامعة وحدها ، على الرغم من عظم أعبائها ، بل إن نشاطه هذا ليمتد إلى الأقاصي البعيدة من وطن الإسلام

---

(١) تحولت المحاضرات أخيراً إلى القاعة الخاصة في الجامعة نفسها .

ومهاجر المسلمين .. فهناك المدرسون الذين ينتدبهم باسم الجامعة للتدريس في أكثر من مدرسة وجامعة ، وبخاصة في الهند وإفريقية وباكستان .. وهناك المتفوقون من متخرجي الجامعة الذين يقدمهم الشيخ إلى مجلس الدعوة الإسلامية بالرياض من أجل انتدابهم لخدمة الدعوة في بلادهم وغير بلادهم ، وقد تجاوز عددهم حتى اليوم المئة ، وهم يعملون ليل نهار في تعليم المسلمين دينهم الحق ، وتحصينهم من التيارات الهدامة، سواء منها الطرقية الضالة أو القاديانية المرتدة، أو التبشيرية الخادعة .. وقد اطلعت ، بحكم عملي في لجنة القبول والمعادلات بالجامعة ، على رسائل من مشايخ أفارقة يشكرون الجامعة على أن هداهم الله للتوحيد الخالص عن طريق أولئك المبعوثين المجاهدين من خريجيها .

ولقد بذل الشيخ قصارى جهده لإمداد المسلمين بالكتب التي هم بحاجة إليها في نطاق التدريس أو المطالعة .. واستجابت المؤسسات الحكومية لاقتراحاته، فوضعت لتوزيع الكتب نظاماً شاملاً يتيح لكل منها أن تسهم في هذا المضمار بالقسط المناسب . وفي دار الطلبة التابع للجامعة الإسلامية بجدة اليوم مركز خاص ، يتلقى الكتب والمطبوعات الإسلامية من مختلف الدوائر المعنية بالدعوة في المملكة ، ليقوم بتوزيعه على الجهات المحتاجة في مختلف أنحاء العالم .

وهكذا أصبحت الجامعة الإسلامية بفضل الله ، ثم بجهود هذا الداعية الصالح ، مركز إشعاع لا على نطاق المدينة المنورة وحدها ، بل على مستوى العالم الإسلامي كله .

يضاف إلى ذلك عمله الجاد في مد نشاطات الجامعة ، فهو لا يرضى الوقوف بها عند حد مهما يبلغ من الجلال ، بل يريد لها تحركاً متصلاً في طريق النمو .

أقسام وكليات :

لقد بدأت الجامعة عام واحد وثمانين ذات مرحلتين ، ففي جانب معهد للدراسة الإعدادية والثانوية ، وفي الجانب الآخر كلية لعلوم الشريعة .. وهي

الآن تضم مع المعهدين شعبة خاصة لتعليم العربية لغير العرب ، وإلى جانب كلية الشريعة أربع، إحداهن لأصول الدين والدعوة ، والثانية لخدمة القرآن الكريم باسم (كلية القرآن والدراسات الإسلامية) وهي الوحيدة من نوعها في العالم كله، وقد استقبل افتتاحها بموجة من الاستبشار في أنحاء العالم الإسلامي ، وتلقت الجامعة فيها تهانىء أكابر علماء الإسلام ، ثم ثالثة للعربية وآدابها ، ورابعة للحديث الشريف .. هذا غير القسم الخاص بالدراسات العليا .

ومع أن بعض هذه المنشآت قد تم بعد انتقال الشيخ إلى عمله الجديد الضخم في الرياض ، إلا أن التخطيط له سبق انتقاله ، وكان له الأثر البعيد في التوجيه إليه ، ذلك أنه يرى للجامعة رسالة علمية تستدعي تجهيزها بكل الإمكانات التي تساعدها على أدائها .

وقد أعانه الله على هذه الخطة بإدارة تشاركه نظرته إلى رسالة الجامعة ، وبتقدير من المسئولين لإخلاصه وفضله ، يدفعهم للإستجابة إلى كل ما يطلب من الإعتمادات المالية لتحقيق هذا الطموح .

بقية السلف :

والحديث عن المترجم لا يكون مستوفى إذا لم يوف الجانب الخلقي عنه حقه .

لقد أشرت قبل قليل إلى سجيته السمحة التي يعامل بها ، حتى المخالفين .. وكانت إشارة عابرة لا بد من الوقوف عندها ولو لحظات ، ذلك لأن الرجل بسجاحته وحلمه وبعيد أناته ، يكاد يكوّن صورة أنموذجية للتوجيه النبوي القائل : « تعلموا العلم وتعلموا له السكينة والوقار، وتواضعوا لمن تتعلمون منه ، ولا تكونوا جبابرة العلماء » .

إن السكينة والوقار أبرز صفات الشيخ ، وهما أول ما يواجه به الناس القرباء منهم والبعداء ، جلساءه الأدنين أو زواره العابرين .

يقول أحد الشعراء في ممدوح له :

يا من له ألف خل ... من عاشق وصديق
أراك خليت للنا ... س منزلاً في الطريق

وما أعلم أحداً أحق بهـذا الوصف من الشيخ ابن باز .. إن الناس ليتكبكبون حوله أينما وجد، في المسجد ، في المنزل، في الجامعة.. وأنه ليصغي لكل منهم في إقبال يخيل إليه أنه المختص برعايته، فلا ينصرف عنه حتى ينصرف هو .. ومراجعوه من مختلف الطبقات، ومن مختلف الأرجاء ، ولكل حاجته، هذا يقصد إليه من أطراف المملكة يسأله الفتيا في أمر ضاق به العلماء ، وذلك يفضي إليه بحاجة لا يغني فيها سوى الحلماء الكرماء .. وربما كان بين هذا وذاك من لا يستحق اهتماماً ولا إصغاء ، ولكنه لا يعدم منه الرعاية التي تجبر قلبه . وقد يكون بين المراجعين من يغلب عليه الحق فيسخط ويغلو لغير ضرورة ، فلا يغير ذلك من حلم الشيخ ، ولا يزيد على الدعاء له بالهداية ، ودعوته إلى الأناة .

وليس بالنادر أن يزدحم عليه هؤلاء حتى لا يدعون له متسعاً لراحة ، ومع ذلك لا يحاول التخلص من مقامه الضنك ، بل تراه يصغي لحاجة كل منهم بهدوئه المعهود ، ويجيب كلا بما يرى أنه الحق .

لقد دخلت سرادقه في مِنى ذات يوم ، فإذا هو محاصر بهجمة من الناس ، قد أحاطت به من كل صوب ، بعضها مكب عليه ، وبعضها قائم ينتظر دوره، وهو راض يسمع ويجيب ، دون أن يبدو عليه أي تذمر .

ومع أن الشيخ يعطي كل زائر ومراجع حقه المناسب من مجلسه وإقباله ، فالملاحظ أن له عناية خاصة بالفقراء والضعفاء، حتى لقد رأيت منهم من تأخذه نشوة الاعتزاز ، بما يجده من انبساطه إليه واهتمامه بشئونه الخاصة كأنه واحد من أقرب الناس إليه .

ولا أذيع سراً اذا قلت أن نصيب هؤلاء من الشيخ لا يقتصر على تحدّبه وتلطفه ، بل كثيراً مـا يتجاوز ذلك إلى العون الذي يسد الحاجة ، ولو كلفه ذلك الحيف على ميزانيته.. وإذا سمحت لنفسي برواية ما يتناقله عارفوه قلت: إن ذلك كثيراً ما يرهق الشيخ بتحميله ما لا يطيق .

ومما يندرج في هذا النطاق من أخلاق الشيخ طبيعة الكرم التي لا يملك لها تغييراً ولا تعديلاً . فعلى مائدته يلتقي الصغير والكبير ، والغريب والقريب ، وما أحسب طعاماً له خلا من عديد الضيفان ، حتى لكأنه هو القائل :

إذا ما صنعت الزاد فالتمسي له ... أكيلاً . فإني لست آكله وحدي
أخا سفرٍ أو جار بيتٍ فإنني ... أخاف مذمات الحوادث من بعدي

وبهذه الخلائق الرضية يستجيب الشيخ لدعوات الآخرين ، فلا يستنكف عن حضورها إلا لعذر قاهر ، وقد يكون الداعي تلميذاً له أو واحداً من غمار الناس .

وأذكر أني حللت في ضيافته أياماً بمدينة الرياض ، فلم يتح لنا الغداء معه إلا على مائدة غيره من الداعين له .. إذ كانت الدعوات تتوالى عليه من كل صوب، فيأمر بتحديد ما يمكن إجابته منها في جدول خاص ، فلا ينفك يعتذر به كلما زادت الدعوات عن عدد الأيام .. وذلك واحد من المشاهد الكثيرة التي أرتني مدى حب الناس لهذا الرجل .

وقد كان — وما يزال — وقته مباحاً للمراجعين يأخذون منه ما يشاؤون كما يشاؤون ، ولكل منهم حاجته الخاصة ، مما قد يحيف على أعماله الرسمية ، فكان لا بد من تنظيم أفضل لهذه الجوانب . وهكذا قسم وقت الشيخ حسب الإمكان ، فجزء للعمل الرسمي ، وآخر للمستفتين والمراجعين ، وثالث للمراسلات والأمالي .

ويتناوب على الكتابة للشيخ عدد من المساعدين يقرؤون له ما يريد من نصوص المراجع ، وما يرد إليه من الرسائل ، ثم يتلقون منه الأمالي التي لا يكاد يخلو منها يوم .

وإذا كان كتّابه هؤلاء يستحقون الإشفاق لوفرة ما يتحملون من هذه المتاعب ، فهو إذن أحق منهم بإشفاق محبيه ، لعلمهم أن الجهد الذي يعانيه تنوء به العصبة أولو القوة . والحق أن أحدنا ليتساءل في دهشة : كيف يستطيع هذا الرجل النهوض بكل هذه الأعباء ؟ ثم يتذكر أنها البركة التي يختص بها الله مَن يشاء من عباده ، فتحقق لأحدهم من أعمال اليوم الواحد ما تضيق به الأسابيع بل الأشهر من أعمار الآخرين . وعلى ضوء هذا الواقع الملموس من حياة الشيخ نجد التفسير المعقول لذلك الإنتاج الضخم الذي خلفه للأجيال أولئك السابقون ، من أمثال ابن تيمية وابن الجوزي والكثيرين من صالحي المؤمنين .

عمل اليوم والليلة :

ولكي تتوافر للقارىء الصورة المقاربة لأعباء الشيخ أضع بين يديه هذه القائمة التي تكاد تستوعب عمل اليوم والليلة من واقعه الذي يوشك ألا يتغير .

يبدأ دوام الشيخ الرسمي قرابة الساعة التاسعة من ضحى كل يوم ، فإذا ما وافى مقر الرئاسة وجد المراجعين يملئون الأمكنة المعدة لهم بانتظاره ، فيحييهم ويستقبل مصافحيه ومعانقيه منهم ، ثم يأخذ مجلسه وإلى جانبيه كاتبان ، مع كل منهما كدس من الأوراق المقدمة من هؤلاء ، وكثير منهم يجتزىء عن الكتابة بالعرض الشفهي . فيبدأ بالاستماع إلى مضمون كل معروض على حدة ، حتى إذا ما فرغ الكاتب من التلاوة المهموسة أملى عليه التوقيع – أي التعليق – الذي يراه .. فإذا ما استوفى الكاتب بعض أوراقه تركه ليستريح ، والتفت إلى الآخر الذي يشرع في عرض ما لديه ، وتلقي ما يملى عليه .. وهكذا حتى تنفد العرائض أو يحين وقت صلاة الظهر . وقد تكون هناك اجتماعات لبعض اللجان

تستدعي حضوره ، فينهض إليها ، ثم يعود ليستقبل بقية المراجعين المشافهين.. وكثيراً ما يمتد دوامه هذا إلى ما بعد انصراف الموظفين ، فيظل هو ومن لا بد من بقائه من مساعديه .. حتى ينصرف إلى البيت مع ضيوفه الذين لا يخلو غداء له ولا عشاء من بعضهم .. وبعد الطعام يدعو بالقهوة فالشاي والطيب ، ويتحدث إلى جلسائه المرافقين والمنتظرين في مصالحهم ، حتى إذا وافى موعد صلاة العصر أخذ سبيله إلى المسجد ، فصلى وراء الإمام – في المدينة – أو صلى بالناس في مسجد الرياض الكبير. وكثيراً ما رأيته يعقب الصلاة بموعظة قصيرة، ثم يعود إلى المنزل لمواصلة ما انقطع من حديث ، أو لاستقبال مراجعين جدد ، وقلما يخلو ذلك الوقت من قراءة في بعض الكتب القيمة يتلوها عليه بعض المشايخ من خاصة طلبته ، إلى ميعاد المغرب ، فيمضي معهم إلى المسجد ثم يعود معهم إلى المنزل للقراءة والنظر في شئون الناس ، حتى وقت العشاء ، وبعد أداء الصلاة يتناول مع الحضور طعام الليل . ثم يقبل عليه أحد مساعديه بالمعاملات الخاصة بالمساجد ونحوها ، فيستمع ويملي .. ولا يزال بين قراءة وإملاء وحديث نافع حتى وقت متأخر .. وقلما يتاح له الإخلاد إلى النوم قبل منتصف الليل .

ويحين موعد صلاة الفجر في اليوم التالي فيتهيأ لها، ثم يأخذ سمته إلى المسجد مع مرافقه ، فإذا ما عاد إلى المسكن جلس للنظر في الإستفتاءات الواردة إلى مكتب البيت من مختلف الأرجاء والأقطار ، فإذا ما فرغ منها نظر في طلبات المستشفعين من أصحاب الحاجات ، فأوردها مواردها اللازمة ، وهنا يوافيه موعد الدوام الرسمي فينهض إليه على عادته التي وصفنا .

تلك هي الصورة المقاربة ليوميات الشيخ نقلنا بعضها من مشاهداتنا ، ومعظمها عن أخ كريم طويل الصحبة له .. ومن حق القارىء أن يستشعر العجب بإزاء هذه الوقائع التي تكاد لا تصدق ، ولكنها مع ذلك حقيقة يعرفها عن الشيخ كل من خالطه عن كثب . كان الله في عونه ، وبارك في حياته ، وأمتع به .

الشورى في حياة الشيخ :

وصف الله المؤمنين بقوله الحق : « وأمرهم شورى بينهم » وألزم نبيه وهو المؤيد بوحيه أن لا يفارق الشورى في كل شأن هام ، فقال له : « وشاورهم في الأمر » وقد استمرت مسيرة المجتمع المسلم في صعد ، حتى أسقطوا هذا المبدأ من حياتهم ، فباتوا عرضة لتقلبات الأهواء ، يتخذهم المستبدون مطايا لشهواتهم ، فيمضون في عمياء لا هادي لها .. حتى انتهوا إلى المصير الذي لا مندوحة عنه للخابطين في الظلمات .

والشيخ الذي أخذ نفسه بأدب الإسلام ، عزائمه ورخصه ، ما كان له أن يتخلى عن مبدأ الشورى في أي شأن يقتضيه . وقد شاء الله أن أصحبه في مجلس الجامعة عدد سنين ، فقيض لي أن أشهد من فضائله ، وبخاصة في هذا الجانب من خلقه ، ما لا يصح إغفاله من أي ترجمة تكتب عنه .

أول ما نواجهه من شيم الشيخ في هذه المجالس ذلك الأنس الذي يشيعه في نفوس الأعضاء ، بسؤاله كلا منهم عن حاله وصحته ، ووقوفه على ما سمع من الأنباء العالمية وأحوال المسلمين .. فإذا ما بدأ النظر في جدول الأعمال ، أخذ بكل منها على حدة ، فعرضت للمناقشة ، وأعطى كل عضو رأيه فيها بصراحة ، فإذا انعقد على وجه منها الإجماع أثبت ذلك في المحضر ، وإلا طرح كلا من الوجوه المختلفة للتصويت ، وتقرر في شأنها الوجه الأجمع للأصوات .

وكثيراً ما يكون هذا الترجيح مخالفاً لرأي الشيخ ، ولكن ثقته بأعضاء المجلس ، والتزامه مبدأ الشورى ينتهيان به إلى الرضى التام بكل ما تم .

وذات ليلة احتدم النقاش حول إحدى القضايا المطروحة ، وتباينت الآراء فيها ، وكأني بالشيخ قد خشي أن يكون في إبدائه وجهة نظره إحراج للآخرين فقال بلهجة ملؤها الود : أرى يا إخوان أن يأتي رأيي ورأي نائبي آخر الآراء ، لئلا يكون في غير ذلك حرج لكم .

وهي كلمة عميقة الدلالة على سماحة الرجل ، واحترامه النبيل للعاملين معه ، ورغبته الصادقة في الانتفاع بخبراتهم إلى أقصى الحدود . وليس ذلك شأنه في مجلس الجامعة فقط ، بل هو مسلكه الطبيعي في كل شأن يتسع للتشاور ، حتى القضية يسأل بها في الفقه ، وهي من صميم اختصاصه ، يطارحنا بها الرأي على ضوء النصوص الواردة في شأنها ، حتى يطمئن قلبه إلى الوجه الأمثل .. وقد يعترضه الأمر فيه الإبهام فيطرق ملياً يتأمله في صمت ، ثم يدلي برأيه ، أو يقول لمن حوله ممن يثق به : أشيروا عليّ .

شجاعة الشيخ في الحق

هذا الرجل السهل السمح الحليم محب الفقراء ، سرعان ما ينقلب أسداً لا يرده عن إقدامه شيء ، إذا علم بظلم يقع على المسلمين ، أو عدوان على شريعة الله .

إن مسلك الشيخ في هذه الناحية هو مسلك العالم الإسلامي الذي يوقن ملء جوارحه أنه مسئول عن حماية محارم الله ، والدفاع عن حقوق أهل الإسلام بكل ما يملك من طاقة .. وبدافع من الشعور الكامل بهذه المسئولية يتتبع أحوال العالم الإسلامي ، فلا ينال المسلمين خير إلا فرح به ، ولا مسهم سوء إلا اضطرب له . ويرتفع غضبه إلى القمة حين تتعلق الأمر بدين الله ، لذلك تراه أسرع العلماء إلى إنكار البدع ، لأنها بنظره عدوان على حقائق الوحي ، وتغيير لدين الله ، وفي النهاية هي إبعاد للمسلمين عن جادة الإسلام .

عندما أصدرت محكمة البغي قرارها بإعدام سيد قطب وإخوانه اعترى الشيخ ما يعتري كل مؤمن من الغم في مثل هذه النازلة ، التي لا تستهدف حياة البرآء المحكومين ، بقدر ما تستهدف الإضعاف من منزلة الإسلام نفسه ، بإرهاب المعتصمين به لتخذيلهم عنه .

وكلفني الشيخ يومئذ صياغة البرقية المناسبة لهذا الموقف ، فكتبتها بقلم يقطر

ناراً وكرهاً وغيرة، وجئته بها وملئي اليقين بأنه سيدخل على لهجتها من التعديل ما يجعلها أقرب إلى لغة المسئولين منها إلى لغة المنذرين، ولكنه حطم كل توقعاتي حين أقرها جميعاً ، ولم يكتف حتى أضاف إليها قول الله تعالى في سورة النساء : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً » .

وأرسلت يومئذ البرقية التي كانت – فيما أظن – الوحيدة من أنحاء العالم الإسلامي بهذه المناسبة ، بما تحمله من عبارات أشد على الطغاة من لذع السياط .

وينفخ الشيطان في سَحْر أحد الحكام فيعلن ترهاته بالطعن على كتاب الله وعلى رسوله ، بتوجيهاته التي تقيأها في مؤتمر للمعلمين عام ١٣٩٤ هـ. وكان المجلس الاستشاري – الذي يضم ثلة من كبار علماء العالم الإسلامي – يواصل اجتماعاته بالجامعة الإسلامية لدراسة المناهج وتطويرها ، ولإصدار توصياته بشأن الإحداثات التي تتطلبها المرحلة الجديدة . فوجه المجلس عدداً من برقيات الاحتجاج والاستنكار لمزاعم الطاغية ، حملت توقيعات الأعضاء جميعاً ما عدا واحداً اكتفى بالدعاء عليه !

على أن الشيخ لم يستطع الاكتفاء بذلك فخلا إلى كاتبه يملي عليه مقالاً في تفنيد تلك الأباطيل وفضح مزاعم الطاغية ، التي تنم عن منتهى الجهل بالإسلام ولغة العرب .. وقد نشرت الصحف والمجلات ذلك البيان الذي كان قطعة بارعة من فقه الشيخ وأدبه وغيرته اللاهبة على دين الله .

ويتلو تلك الهجمة الطائشة عدوان طواغيت الصومال من الشيوعيين على شريعة الإسلام ، إذ ألغوا أحكامها العادلة في موضوع الإرث والحياة الأسرية ، ليحلوا مكانها أحكام الجاهلية الماركسية . ولما أعلن علماء مقديشو حكم الله في عدوانهم هذا ، أخذت الظالمين العزة بالإثم ، فأحرقوا عشرة منهم وهم أحياء ، وزجوا بالعشرات الآخرين في السجون .. فكان لهذا الطغيان الرهيب أثره

العميق في قلب الشيخ، لم يملك بإزائه سوى القلم الذي حمل إلى البغاة ما يجب أن يتلقوه من مثله .

وقبل ذلك كان للشيخ صولة في رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة خرج منها بالقرار التاريخي ، الذي يدين طغمة الشيوعيين الذين يفرضون وجودهم بقوة الحديد والنار وطواغيت موسكو على مسلمي الجنوب العربي ، الذي لم تقف فيه حمامات الدم منذ استيلاء هذه العصابة الحاقدة على زمام السلطة في عدن وحضرموت .

وعلى هذا الغرار يمضي الشيخ في مواجهة الأحداث التي تلم بالإسلام وأهله على مستوى العالم الإسلامي كله .

خطاب وكتاب :

في العام ١٣٩٣ هـ. استقبلت الجامعة الإسلامية رئيسها الأعلى المغفور له الملك فيصل بن عبد العزيز أثناء زيارته الثانية لها ، وفي المظلة الكبرى أمام المباني الإدارية ، وقف الشيخ يحييه بكلمة ضافية ، جامعة ، أوجز فيها تاريخ الجامعة منذ نشأتها حتى يومها ذاك ، وعرض لأطوارها المختلفة ، وجنسيات طلابها ، وعدد خريجيها ، ومصايرهم بعد التخرج ، حيث انطلقوا يحققون رسالتها في مختلف أنحاء العالم الإسلامي.. فأبرز بذلك أهمية هذه المؤسسة وآثارها البعيدة في تركيز معاني الإسلام ، والوقوف بوجه الزحوف المعادية له من الشرق والغرب .. ثم عرج من هناك على واجب حكام المسلمين نحو الإسلام في حمايته وتنفيذ شريعته .

وما أروع تلك اللفتة المباركة التي ركز عليها الشيخ عندما عرض لأهمية الإعلام الحديث في تبليغ الدعوة وإبراز محاسنها للسامعين والناظرين والقارئين، وراح يذكّر الملك والأمراء الذين معه بمسئوليتهم الضخمة في هذا الصدد ، ولم يكتمهم ملاحظاته الصريحة حول واجب صون الإعلام السعودي من

الإنحراف في المزالق التي سبق إليها الآخرون ، الذين لا يستشعرون أي مسئولية نحو الإسلام .

كان الشيخ يتدفق بهذه المعاني في حرارة توحي إلى السامعين أنه يؤدي أمانة ويبرىء ذمة ، وكأنما انتصب في ضميره مشهد الحشر حيث يسأل كل إنسان عما عمل ، وتكون مسئولية العلماء أضخم المسئوليات .. ولقد كان لأسلوب الشيخ ساعتئذ أروع الأثر في القلوب ، إذ سلك إلى غرضه أحكم المسالك فجمع بين اللطف والقوة ، وقدم مواعظه ونصائحه ملفوفة بظروف من نور .

وكنت ألاحظ وجه الملك الراحل – غفر الله له – وهو يصغي بانتباه عميق إلى كلمات الشيخ ، فألمح عليه انطباعات الرضى والقبول . ولا غرابة في ذلك فقد كان الملك فيصل – فيما نعلم – على يقين من فضائل الشيخ وعظيم إخلاصه للحق . وكان الملك كبير التقدير لكل نصيحة مخلصة ، رحمه الله .

تلك هي ذكرياتي عن الخطاب .. أما الكتاب فله ذكرى أخرى .

وكان ذلك يوم قرىء على الشيخ في إحدى الصحف نبأ حدث أهمه كثيراً ، إذ خشي أن يجر وراءه ما لا تحمد عقباه .

وعلى دأبه في الشورى عرض الموضوع على مجلس الجامعة فلم يخرج عن توقعاته . واستقر الرأي على أن يرفع إلى المقامات العليا ما ينبغي تذكيرهم به في مثل هذه الحال .

وفي اجتماع تال أطلع الشيخ المجلس على النص الذي أعده . وكان على جانب من الصراحة كبير ، إذ أوضح فيه الشيخ كل الذيول التي يتصورها ، وذكّر أولي الأمر بموقعهم من عالم الإسلام ، ومسئوليتهم نحوه .

وحقاً لقد أدهشتني تلك الصراحة فلم أتمالك أن قلت : « الحمد لله الذي حفظ للإسلام من يقول مثل هذا الكلام » .

وما هي سوى ايام حتى وردت الردود من الجهات العليا ، وقد كان كل منها قطعة نفيسة من أدب مؤمني الحكام في مخاطبة الأعلام من علماء الإسلام .

لقد أوضحت هذه الردود البواعث التي اقتضت ذلك الأمر ، وما أحيط به من تدابير حازمة لا تدع مجالاً للشك في صلاحيته .

وبذلك انتهينا إلى القناعة التامة بأنها ضرورة لا مندوحة عنها ، وأن تحقيقها على النحو الذي صارت إليه بالغ منتهى السداد .

ولعمر الله ان المفكر المتدبر حين يعمد إلى تقويم كل من الكتاب والردود عليه ، ليحار في أيها هو الأرجح في موازين الخير .. على أنه يظل مقتنعاً في سائر الأحوال أن المملكة ستظل بخير ما بقي لها هذا الضرب الشجاع من الأعلام ، وذلك الصنف النادر من الحكام .

الشيخ الخطيب :

في تضاعيف ما أسلفت بعض الإشارات إلى بعض مميزات الشيخ الأدبية ، وهنا أضيف إلى تلك الإشارات ما يوفر للقارىء صورة ولو مصغرة عن هذا الجانب من شخصيته .

ومن نوافل الأمور أن يقدر القارىء ثقافة الشيخ في اللغة والأدب ، لأنها من الأسس الرئيسية في نظام التعليم الإسلامي ، ومرد ذلك إلى أن كل جهد يبذل لفهم الآية أو الحديث أو استنباط الحكم الفقهي، ذاهب سدى إذا لم يدعم بتعمق مماثل في قواعد العربية وآدابها وغريبها ، وما يستتبع هذا وذاك من علوم البلاغة والنقد والشعر .. وبهذا كان للشيخ أدواته الكافية الوافرة لإجادة الكتابة والخطابة .

والمألوف في عالم الإسلام أن الذين يحرمون بصرهم من اهل العلم أكثر ما تنمو قدرتهم الأدبية في نطاق الخطابة ، لأن معظم اعتمادهم عليها في الدرس والوعظ والدعوة . وهذا ما يتجلى واضحاً في مواهب الشيخ بن باز .

إنه لخطيب مصقع سواء في محاضراته الكثيرة ، أو تعقيباته على محاضرات غيره ، أو في توجيهاته الحكيمة التي تشرئب إليها الأسماع .

ومن خصائصه الخطابية قدرته على ترتيب أفكاره حتى لا تتشتت ، وضبطه لعواطفه حتى لا تغلب عقله ، ثم سلامة أسلوبه ، الذي لا يكاد يعتريه اللحن في صغير من القول أو كبير ، وأخيراً تحرره من كل أثر للتكلف .

لقد أشرت إلى لباقته البليغة في عرض مواعظه أمام المغفور له الملك فيصل ابن عبد العزيز ، الأمر الذي لا يتاح لكثيرين من الموهوبين في مخاطبة الملوك .

وأستطيع القول إن ذلك ديدنه في كل محاضرة أو تعقيب يريد به تقويم خطأ أو نقد بدعة .

إن هذا الرجل من أشد من عرفت وقرأت غيرة على حقائق الوحي واستمرارها سليمة من كل شائبة . وفي طبعه النفور من كل شذوذ عن هذا السنن . فإذا ما سمع أي شيء من ذلك لم يلبث أن ينهض التعقيب عليه بما يبين وجه الحق ، ولكن لا يتجاوز في أي كلام له نطاق الحكمة والموعظة الحسنة ، مع أتم المراعاة لمشاعر الجانب المخالف .

والشيخ من نجد في الصميم ، وفي علماء نجد شدة في الحق قد تبلغ حد التنفير . وقد شاركهم شيخنا في الشطر الأول ، فهو لا يعرف المهادنة لأي شذوذ عن مهيع الحق .. ولكن يخالف الكثيرين منهم في أسلوب التبليغ ، ففي حديثه اللين واليسر والتقدير والبعد عن كل تنفير ، وهي صفات الخطيب البليغ .

في التمهيد لإحدى المحاضرات في دار الحديث تلا مقرىء سورة (البلد) وقرأ على طريقة ورش قوله تعالى : « فلا اقتحم العقبة . وما أدريك ما العقبة . ... بة . أو إطعام في يوم ذي مسبغة يتيماً ... » . فقاطعه الشيخ طالباً منه أن يتلوها كما هي في مصحف عثمان (رض) ولكن المقرىء لم يفعل ، ولعله لم يتنبه لما قاله الشيخ ، حتى أتم السورة . وهناك وقف معرف الحفل ، وهو أحد نوابغ

طلابنا المتخرجين في كلية الشريعة ، يعقب على طلب الشيخ ببيان جميل ، يؤكد به صحة القراءة على أنها إحدى المتواترات السبع ، وضرورة إشعار الناس بها، وبخاصة في مثل هذه المناسبة، كي لا يكونوا على جهل بالقراءات التي لا يسمعونها في العادة.. ومع أن للشيخ – لو شاء – حجته في الوقوف عند القراءة المشهورة خشية التشويش، كما قرر مجمع البحوث في القاهرة. مع ذلك فقد تلقى ملاحظات تلميذه بصمت الراضي عما سمع .. وإنها لإحدى المزايا التي لا يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ من العقل عظيم .

منهج الشيخ في البحث :

ومما يتصل بهذا الخلق من الإنصاف والسجاحة مقالاته في موضوع دوران الأرض ، ومناقشاته لأنصار الهيئة الجديدة من المعارضين لأفكاره .

لقد كثر التراجع بينه وبين هؤلاء ، وألف في ذلك كتاباً خاصاً يدعم به ما وصل إليه من رأي في هذا الأمر بالأدلة الحسية والنقلية .. ومع يقينه بما ذهب إليه لم يقل في مخالفيه إلا أنهم مجتهدون مخطئون . بخلاف غيره من الذين يرون رأيه ولا يرون وسيلة للحوار بغير السب واللعن والتكفير .

وقد سبق اني فصلت موقف الشيخ ومناظريه من هذا الموضوع في كتابي « مشكلات الجيل في ضوء الإسلام » ونبهت إلى منهجه الذي يعتمد ظواهر النصوص ، مع احترامه لكل اجتهاد يخالفه ، ما دام قائماً على دليل أو شبهة من دليل .

وقبل أن أتهيأ لكتابة هذا الفصل عن الشيخ سألته فيما سألت عما اذا كان قد غير رأيه في شأن دوران الأرض ، ولما علمت إصراره عليه ذكرته بأن للدوران دلائل شبه قاطعة في كتاب الله ، وذلك أنه سبحانه لم يقل : « وكل في فلك يسبحون . إلا وقد ذكر الأرض قبل ذلك فيما ذكر من السابحات ، فهي داخلة فيهن .. فكان جوابه : أن الأرض في كلا الموضعين

من كتاب الله مذكورة على بعد من السبح ، فلا يرى مناسبة لإدخالها فيه .

فالخلاف إذن يكاد ينحصر في الدلالات اللغوية لنصوص يرى الشيخ أنها تتسع لأكثر من اجتهاد ، وقد اختار أحدها إقتناعاً منه بأنه الأسد ، دون أن يشهر بمن ذهب في فهمها غير مذهبه .

ومما تقدم يتضح أن منهج الشيخ في البحث قائم على التزام النص في كل ما يتصل به . وبما أن النصوص مع ثبوتها القطعي قد تتفاوت في دلالاتها ، فله حق الاجتهاد في فهم الدلالة كما لغيره ذلك ... وهو منهج لا غبار عليه عند أولي العلم .

ولعل من هذا القبيل موقف الشيخ من موضوع الطلاق ، إذ هو ينظر إليه على ضوء الدليل فيذهب فيه مذهب الذين لا يرون التفريق به إلا بشروطه .. وبذلك يخالف اجتهادات المذاهب لاقتناعه بما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية وأشباهه . وقد عرف له قضاة المملكة هذا الإجتهاد فهم يأخذون به دون تقيد بالمذهب .

وقد حدث أن استفتاء من هذا الشأن عرض على الشيخ فكتب جوابه فيه وفق اجتهاده ، ولم يكن قد علم بأن ثمة فتوى مخالفة صدرت بالموضوع من أستاذه المرحوم الشيخ محمد بن ابراهيم مفتي المملكة ، فلما رفع الأمر إلى المغفور له الملك عبد العزيز ، وجه إلى الشيخ خطاباً قاسي اللهجة بسبب ذلك ، ورد الشيخ على الخطاب الملكي بما يؤكد احترامه لشيخه ، وأنه لم يسبق إلى علمه أن له في القضية فتيا ، أما حجته في فتواه فقائمة على الأدلة الثابتة من كتاب الله وسنة رسوله ، وفهوم الكثيرين من أئمة العلم ، ولا سبيل له إلى مخالفة قناعته .

وهكذا انتهى الخلاف الفقهي بتقدير كل من الأطراف موقف الطرف الآخر .

وهكذا نواجه مشهداً آخر من صور الحياة الإسلامية ، يتعاون فيها العلم مع الحكم بصورة لا تطمع بلقاء مثلها في أي بلد خارج حدود المملكة العربية السعودية .

الشيخ والنشاط العلمي :

لقد أتى على المسلمين عهد كان العلم فيه يقوم على المدارسة الشفهية ، وكل محاولة لتقييده في الكتاب خروج عن المألوف يشهد بضيق حافظة العالم وبحاجته إلى الأداة المساعدة .. فلما أقبل بعضهم على التدوين عرض نفسه للمآخذ الكثيرة . ومن أجل ذلك رأينا الجاحظ يصوغ في محاسن الكتاب الصفحات الطويلة دفاعاً عن بدعة التأليف .

أما بعد ذلك العهد فقد بات الكتاب هو الشاهد المحدد لمنزلة العالم والأديب ، لأنه الوسيلة المثلى لحفظ العلم وضمان استمراره في الأجيال

ونحن اليوم نتعجب من إنسان يحمّل الإجازات العليا في مختلف الفنون ثم لا نجد له من النشاط العملي ما يملأ رسالة !

على أن للظروف حكمها في ألوان النشاط ، فرب أخي علم لا يجد متسعاً للإكباب على التأليف لأنه مشغول عن ذلك بضروب من العمل العلمي تستغرق وقته كله . وهذا جمال الدين الأفغاني أقرب شاهد على ذلك.. لقد حرك القوى، وهز العقول على امتداد العالم الإسلامي كله ، ولم يترك لنا مع ذلك سوى القليل من المدوّنات ، لأن ظروف الرجل وما أحاط به من فقدان الاستقرار ، ركز معظم اهتمامه على الخطابة ، فلم يستطع تجاوزها إلا في النادر . على أن الشيء الذي لا يعذر به ذو العلم أن يحبس نفسه في حدود (الوظيفة) فلا يعرف له أي نشاط خارج نطاقها ، اللهم إلا أن يكون قصور ناتجاً عن العجز ، فيكون عذره أنه من غير أهل العلم ، ولو حمل أطول الإجازات !

والشيخ المترجَم واحد من كبار أهل العلم بإجماع الكبار من علماء المسلمين،

فلا بد أن يكون لديه من فيوض المواهب ما يمكن نقله عنه والانتفاع به خارج مكانه وزمانه. ونسرع إلى القول بأن على القارىء ألا ينتظر من الشيخ شعراً لأنه – كما أخبرنا – جربه قليلاً ثم غلب عليه العلم.

على أن المنشور من مؤلفاته قليل بالنسبة إلى ذخائره العلمية، فهي حتى الآن مقصورة على المطبوعات التالية:

١ – الفوائد الجلية في المباحث الفرضية.

٢ – نقد القومية على ضوء الإسلام والواقع.

٣ – الأدلة الكاشفة لأخطاء بعض الكتاب

٤ – الجواب المفيد في حكم التصوير.

٥ – الأدلة العقلية والحسية على جريان الشمس وسكون الأرض وإمكان الصعود إلى الكواكب.

٦ – التحقيق والإيضاح لكثير من مسائل الحج والعمرة والزيارة على ضوء الكتاب والسنة.

وفي ما أسلفنا على الحديث عن جهود الشيخ وأبعاد مسئولياته ما يفسر السبب في قلة تواليفه من الكتب بخاصة. على أننا حين ننظر إلى نشاطه العلمي من خلال الواقع نجد أنفسنا تلقاء مساحة أكبر من هذه المؤلفات الستة، فللشيخ بحوث علمية وردود فقهية واجتماعية نشرت في العديد من المجلات والصحف داخل المملكة وخارجها. هذا إلى المقادير الضخمة من الفتاوى التي رد بها على مستفتيه المنتشرين في مختلف أنحاء العالم. وفي ظني ان هذه الآثار المكتوبة لو ضم بعضها إلى بعض لأضافت إلى مؤلفاته المذكورة عدداً غير قليل من المجلدات، والمتوقع أن يتم ذلك قريباً أو بعيداً إن شاء الله.

تآليف غير مكتوبة :

أما آثار الشيخ غير المكتوبة فمن المتعذر إحصاؤها ، وأقلها هو الذي تحفظه المسجلات الحديثة ، مما يتطلب نسخه الوقت الطويل والتتبع الذي يمتد إلى خارج حدود المملكة كذلك .

وقد سألنا سماحة الشيخ عن أحب كتبه إليه فأشار إلى السادس (التحقيق والإيضاح) وعلل ذلك بعموم نفعه وشدة حاجة الناس إليه .

وفي تعيينه هذا الكتاب بالذات دلالة على طبيعة الشيخ ، والميزان الذي يقوّم به العمل . ذلك أن قيمة الإنتاج بنظره عائدة إلى مدى خدمته للشريعة ، وهو إنما عمد إلى تأليف «تحقيقه» هذا لما رأى من الأخطاء الكثيرة ، والبدع الوفيرة التي يتعرض لها حجاج بيت الله ، وزوار مدينة رسوله . فالهدف منه إذن هو دلالة الناس على الحجة الواضحة من عمل رسول الله ﷺ ، وصيانة عبادتهم من مؤثرات الجاهلية والدجالين والمتاجرين . وهو نفسه الهدف الذي يرمي إليه في سائر أعماله ، ولا ينفك عن التزامه في كل ما يحدّث ويكتب ويعلّم . وقد عرف المسئولون بالمملكة لهذا الكتاب أثره فتولت الجامعة الإسلامية طبع مئة ألف نسخة منه للتوزيع العام ، هذا فضلاً عن العديد من طبعاته السابقة .

مجالات الشيخ العلمية :

وحين استوضحنا سماحة الشيخ عن أحب العلوم إليه لم يزدنا على ما نعرفه عنه من خلال حياته وآثاره . فالعقيدة المستمدة من الكتاب وصحيح السنّة في رأس العلوم ، والعلم بها وتعليمها هما العمل المفضل لديه . إذ على العقيدة السليمة تنبني بقية العلوم ، فصحتها سبيل لصحة ما وراءها ، وفسادها هو المنزلق إلى معظم الفساد الذي تتعرض له علوم الدين الأخرى . ومعلوم أن العقيدة التي يؤمن بها الشيخ ويدعو إليها في كل مناسبة هي التي تلقاها الرعيل الأول عن

صاحب الرسالة ﷺ وقررها القرآن العظيم على لسان كل نبي أرسله الله لهداية الخلق ، فكل انحراف عـن حقائقها محبط للعمل وصارف عن نور الله . ومن أسس هذه العقيدة إمرار صفات الله على مـــا وردت دون تكلف لتأويل أو تعطيل ، إذ ليس كمثله - سبحانه - شيء ، مع أنــه السميع البصير . فإثبات السمع والبصر والصفات العلى، التي أثبتها الله لذاته في القرآن والسنة الصحيحة ، هما قرينة النفي لكل مشابهة بينه وبين خلقه سبحانه، فهو سميع ولكن لا يشبه سمعه سمع ، وهو بصير ، ولكن لا يشبه بصره بصر ، وسمعه وبصره وسائر صفاته العلى إنما هي مما يليق بكمالاته التي انفرد بها كما انفرد بوحدانيته .

والشيخ لا يرى وسيلة لتثبيت العقيدة الصحيحـــة كالدلالات الحاسمة من الكتاب والسنة ، فعليها يجب الإعتماد ، وعندها تقف المحاولات . وكل تعويل على سواها ممـــا ذهب إليه علماء الكلام مؤد الى الاضطراب والتشويش .. إلا أنه لا يرى بأساً في الإلمام بعلم الكلام لأهل العلم الذين لديهم من الحصانة العقلية ما يصونهم من ذلك التشويش .

ثم يلي علم العقيدة - في تقويم الشيخ واختصاصه - علوم التفسير والحديث والفقه .. وفي الفقه بخاصة يقول أنه يأخذ بأصول أحمد رحمه الله ، غير أنــه لا يتقيد بالمذهب إذا ظهر له الدليل على خلافه .

ويقول الشيخ : إن الإجتهاد في تقصي الأدلة مفضل لديه ، لأن واجب أهل العلم الأخذ بالدليل من الكتاب والسنة ، ورد ما تنازع فيـــه الناس إليهما ، ففي ذلك طمأنينة القلب وراحة الضمير . لإيمان طالب العلم بأنه يأخذ الحكم عن الله ورسوله لا عن الرجال .

السبيل الى بناء الجيل :

وسألنا الشيخ رأيه في مستقبل الجيل الإسلامي في المملكة وسائر أنحاء العالم، فأملى علينا سماحته ما خلاصته :

« إن الجيل المعاصر من شباب الإسلام يتعرض لخطر عظيم إن لم ينشط العلماء والمعلمون والحكام لتداركه » .

وهذا الخطر بنظر الشيخ متشابه الأصول في جميع أرجاء العام الإسلامي ، وإن تفاوتت أحجامه وأشكاله هنا وهناك . ويخص بالذكر من هـذا الخطر مناهج الدراسة التي لا ترتكز على قواعد الإسلام . ولهذا كان لا بد من إصلاح هذه المناهج بتحويلها إلى منطلقات إسلامية تتولى بنـاء شخصية الطالب ، وتحصينه من الضياع بالتصور السديد لمهمته التي من أجلها خلق ، وعلى تحقيقها يجب أن يقف حياته ، ألا وهي إعلان حقائق الإسلام، واجتذاب أبصار الناس وبصائرهم إلى محاسنه ، حتى يعلموا أنه النور الذي لا سعادة إلا في ظله، ولا سلام إلا في كنفه .

وطبيعي أن المناهج مهـما تبلغ من الصلاح لا تؤدي مهمتها إلا عن طريق المدرس الصالح ، ولهذا يلح الشيخ على ضرورة العنـاية باختياره على هذا الأساس .

أما مسئولية علماء الإسلام تجاه الجيل ، وواجب حمايته من سموم التيارات الغازية ، فكبيرة هائلة ، وهي تقتضيهم تعبئة كل ما يملكون من الطاقات لهذه الغاية . ويؤكد الشيخ على الجانب الإعلامي من وظيفة العلماء ، فيرى أن عليهم إمداد الجيل بكل ما يعوزه من الغذاء الفكري ، الذي يشعره بعظمة الإسلام والاعتزاز به ، سواء في ذلك المؤلفات والمحاضرات والمؤتمرات .

ولا سبيل في تقدير الشيخ إلى تمكن العلماء من تحقيق ما عليهم في هذا المضمار إلا أن يكونوا على علم بمختلف التيارات الحديثة ، وعلى إلمـام باللغات التي تحمل هذه التيارات . وطبيعي أن يسبق ذلك التضلع من علوم القرآن والتزود العام بمختلف الأدلة العقلية والنقلية .

والشيخ إلى ذلك على أتم اليقين بأن القرآن العظيم أنجح وسائل الدعوة إطلاقاً ، لأنه يخاطب الإنسان كله ، عقله وعواطفه ونفسه ، وفيه الأدلة المقنعة

للفطرة بأن النظام الإسلامي هو السبيل الوحيدة الموصلة إلى سعادة الدارين ..

وأخيراً لا ينسى الشيخ أن يذكر إخوانه العلماء بأخطار البدع والخرافات، التي لا تقل أثراً عن أخطر التيارات الهدامة، لأنها تحجب حقيقة الإسلام، وتشوه ملامحه، حتى تنفر منه النفوس التي تجهله. فهي لذلك تستدعي من علماء الإسلام الاهتمام البالغ برصدها والقضاء عليها لإنقاذ الإسلام والمسلمين من شرها.

بدعة وسنة :

والكلام عن موقف الشيخ من البدع، وحماسته في الذود عن حقائق التوحيد يشدني إلى ذكرى يتعذر عليّ نسيانها .. ذلك أنني كنت أصغي إليه ذات يوم في الصفوف المتقدمة من المسجد النبوي، يتحدث إلى المصلين في أمور العقيدة ومنهج السلف في العبادة، مؤيداً كل حكم بشاهده من آيات الله وسنة رسوله ﷺ..وتوقف سيل الناس الذين تحولوا بوجوههم إليه يتابعون موعظته. وكأن هذا المشهد قد أحرج بعض (الطرقيين) من نزلاء المدينة فجعل يهيب بمن حوله للخروج وهو يتمتم بما يترجم سخطه.

لقد هز هذا المشهد مشاعري فلم أتمالك أن أصوغها في أبيات جعلت عنوانها «بدعة وسنة» وأثبت في ذيلها التذكرة التالية: «ولدت هذه الأبيات عقب سماع موعظة للشيخ بن باز في الحرم النبوي، وقد انسحب من بين المستمعين بعض المخرفين». وأنا إذ أوردها في ما يلي إنما أسجل بذلك واقعة تضاف إلى أشباهها من مواقف الشيخ في خدمة الحق الذي وقف نفسه عليه:

أرضيتَ ربك والرسول وكل من	نبذ الضلال وبالكتاب تقيدا
لكن أسرى الابتداع تنكروا	لما أغرت على الخرافة بالهدى
جعلوا أكفهم على آذانهم	وتسللوا مثنى هناك وموحدا
يتخافتون: أن احذروا لا تذهبوا	ما قد ورثتم عن شيوخكم سدى

سر الحقيقة ملك سادتنا ، ومــا عند الدعاة الآخرين سوى الصدى
فإذا هم وردوا الحديث فحسبنا قرب المشايـخ والمسابح موردا
ومضيتَ تنذر بالكتاب مذكرا وبسنة المختــار تهتف مرشدا
والدين : قـال الله قـال رسوله لا مــا يرقشه الغواة على المدى
والحق مثل الشمس يحمل ضوؤه للناظرين ولا يروق لأرمــدا
فجزاك ربك عن حقائق وحيه أسنى الثواب ، وعن شريعة أحمدا

مشهد لا ينسى :

ونختم هذه الرحلة مع الشيخ بتلك الصورة التي ما أحسب واحــداً ممن شهدوها بقادر على نسيانها .

كان انتقال الشيخ إلى منصبه الجديد في الرياض مفاجأة لكل من في الجامعة مدرسين وطلاباً وموظفين ، لا يشبهها إلا فقدان أسرة راعيها الحليم الرحيم .. وذات يوم عـاد إلى المدينة في زيارة عابرة ، فكانت فرصة مرموقة للاجتماع على وداعه .

وفي مسجد الجامعة احتشد هؤلاء ليعبروا عن تقديرهم للرجل الذي خالط حبه دماءهم ، فكانت هناك كلمات أملاها الاخلاص دون إعداد، حتى جاء دور الشيخ للتعقيب عليها ، فإذا هو يتعثر في التعبير ، إذ غلبه التأثر فلم يتمالك أن يبكي .

لقد كانت تلك الدموع الحارة أبلغ خطاب سمعته للشيخ .. وأشد خطبه المبينة تحريكاً لمشاعر سامعيه ، حتى غمر التفاعل كل من في المسجد ، فهم بين باك في صمت ، ومعول في نشيج .. وما أحسب ثمة بياناً أدل على مدى الترابط الروحي بين الشيخ وهذا الجمع من مثل ذلك الموقف .

ووجدت في نفسي دافعاً لا يُدفع إلى الكلام في أعقاب هذا المشهد المثير ، فكان مما جرى به لساني هذان البيتان :

بكينا وفاةً لامرىء قل أن يُرى	له في الدعـاة العاملين نظيرُ
فخلوا ملامي إن ألح بي البكا	فإن فراق الصـالحين عسير

وحقاً لقد كان فراق الشيخ ابن باز للجامعة الاسلامية عسيراً ، لأنـه فرق بينها وبين الرجل الذي باشر غرسها من أول أيامها ، ثم مضى يسقيها ذوب قلبه ، ويبذل لها من الجهد ما لا يضاهيه إلا سهر الأم على طفلها الحبيب . فجزاه الله عن الجامعة وأهلها ، وعن الاسلام الذي وهب نفسه كلها له ، خير ما يجزى الدعاة العاملون المصلحون .

٦

الشيخ عبد الله القرعاوي

التاجر العالم :

بدأت طلائع هذه القصة في أواخر العقد السادس من هذا القرن – الرابع عشر – وما أدري بالضبط السبب الذي دفع الشيخ عبـد الله القرعاوي إلى اختيار هـذه البقعة النائية من جنوب المملكة .. ولم يفسر لي ذلك أحد من تلاميذه ومعارفه ، ولكني أتوقع أن يكون قصد إليها في واحدة من رحلاته التي اعتادها للتجارة أو الاستطلاع . ذلك أنه كان رجلاً جواباً رحالاً لا يكاد يستسيغ القرار ، وقد مكنته جولاته هذه من أن يجمع الكثير من الخبرات والمعلومات عن مختلف أنحاء هذه البقاع الممتدة ما بين حلب - شمال سورية – وجازان – جنوب المملكة العربية – مضافة إلى مشاهداته في الهند ، حيث أقام بضع سنين في تلقي العلم . وشاء الله أن ألقـاه ذات يوم في ظل الكعبة المشرفة أثناء الثلث الأخير من رمضان عام وفاته ، فوجدتها فرصة صالحة لأن أسمع وأرى عن كثب الرجلَ الذي أحببته كثيراً وتشوقت إليه طويلاً . ومن خلال حديثه الطبيعي جداً أدركت الكثير عن حقيقة هذه الشخصية الفطرية ، ووضعت يدي على بعض الأسرار التي بها أثرتْ على القلوب فتركت فيها آثارها العميقة . ولما علم هويتي السورية جعل يحدثني عن بلادي وأخلاقها

وفضائلها ، ووقف شطراً من كلامه على حلب وأسواقها وباديتها ، ولم يفته أن يطرفني ببعض الأحداث التي شهدها هناك وشارك فيها ، فإذا هو يعلم عن هذه الأنحاء من سورية ما لم يتح لمثلي أن يعلمه إلا عن طريق مثله !

كان الرجل من أهل العلم والتجارة ، ولعل أبرز صفاته ذلك الصفاء العقلي الذي به يواجه الحياة ، ويعالج ما يعترضه من مشكلاتها .. وقد وسعت تجارته ألواناً شتى من السلع ، فأتاح له ذلك أن يتصل بأصناف العقول والأخلاق بدويّها وحضريّها على سواء .. وقد آتاه الله من حب الخير والرغبة في أهله ، إلى جانب نفاذ البصيرة ، ما قربه من قلوب عارفيه والسامعين بأنبائه قبل لقائه .. حتى إذا قيضت لهم صحبته ازدادوا به إعجاباً وتأثراً .. وما أكثر ما غيّر من تصرفات الناس بهذه المميزات النادرة ، إذ أقنعهم بخطأ سلوكهم في ضوء الحق الذي لا يستطيع أحد له رداً ، ولا تجد نفس منه نفرة ، ما دام فيها بقية من حب الله ورسوله .

الداعية الحكيم :

ولنتذكر هنا أن الشيخ كان أحد ثمرات المدرسة السلفية ، التي لا ترى سبيلاً لخلاص العالم الإسلامي من ويلاته المركبة إلا بالعودة إلى صفاء العقيدة ، التي يقررها كتاب الله وسنة نبيه . ومن أجل ذلك لا يستطيع السكوت على أية محدثة من البدع التي تسللت أو تحاول التسلل إلى عبادات المسلمين .. ولكن يمتاز إلى ذلك بما ينقص الكثيرين من دعاة هذه المدرسة . فهو يعرف كيف يلامس القلوب دون أن يجرحها ، فيحقق من النجاح ما لا يحلم به الجفاة القساة ، الذين يملكون الإخلاص والعلم ، ويفقدون الروية والتلطف !... ولا أنسى هنا ذلك الخبر الذي كان يحدث به تلاميذه ليروضهم على الحلم والحكمة في سلوكهم لتصحيح انحرافات الناس ، إذ يقص عليهم نبأ أحد شيوخه الذي كان يتلقى عليه العلم في إحدى مدارس الهند ، فلا يمر به ذكر الإمام محمد ابن عبد الوهاب إلا صب عليه سياط غضبه ، ثم يختم ذلك بالتضرع إلى الله أن

ينقذ الإسلام والمسلمين من شر دعوته إلى يوم الدين .. حتى ليكاد يجعل من ذلك ورده الملزوم في أعقاب كل درس !

يقول الشيخ : « ولم يكن معقولاً أن أواجه الرجل بأي اعتراض على فكرة يمتلىء صدره وصدور سامعيه إيماناً بهـا ... لذلك عمدت إلى الحيلة ، فأخذت كتاب التوحيد تأليف الإمام محمد بن عبد الوهاب ، ونزعت عنـه غلافه الذي يحمل اسمه ، ثم تركته على منضدة الشيخ دون أن يعلم مصدره ... وشاء الله أن يقرأ الشيخ ذلك الكتاب ويستوعبه بدقة ، فراح يبدي به إعجابه ويسأل عن مؤلفه العظيم .. حينئذ أعلنت له الواقع ، فما كان من الرجل إلا أن قال : لقد ظلمنا هذا المصلح كثيراً ، ولا نجد كفارة لما أسلفنا إلا أن ندعو له بمقدار ما دعونا عليه !

في جازان :

وشاء الله أن يطيب للشيخ المقام في منطقة جازان ، فيحط هناك رحله ثم لا يرفعه إلا بعد ثلاثين أو ما يقارب ذلك من السنوات السمان ، التي أكلت ما سبقها من آثار السنوات العجاف ، وتركت للناس وراءها مثل الذي يترك الغيث في الأرض الصالحة بعد ظمأ طويل محرق .

لقد لمس الشيخ في تلك الأنحاء الكثير من رواسب الجاهلية ، والقليل جداً من مظاهر النشاط الإسلامي ، الذي لا مندوحة عنه لمطاردتها ، ومن هنـا جاءت رغبته في البقاء ، تحقيقاً لنزعته التي لا يستطيع لهـا مقاومة حيثما رأى جهلاً أو بدعة .

ففي تلك القرية .. الواقعة على جانب من (خُلَب) ذلك الوادي الرائع الخصب ، والذي يشق تهامة مغرباً باتجـاه البحر الأحمر ، وجد الشيخ عبد الله نقائض تسترعي انتباهه ، وتشد بـه شداً إلى ملاحظاتها والتفكير في آثارها وعواقبها .. ففي أخلاق الناس غير قليل من الخير ، وأبرزها صدق المعـاملة والأمانة والتعاطف الاجتماعي في داخل القبيلة ، حتى ليكاد يكون من المألوف

جداً أن الرجل إذا أراد معونة آخر بقرض يسد حاجته تواعد معه على فرصة من الليل ، حيث يسلمه إياه في معزل عن الأعين ، ويشترط عليه أن يرده إليه كذلك في مثل هذه العزلة .

ولكن إلى جانب هذه الفضائل شواذ غير يسيرة أيضاً ، فالجهل هو السائد الأعم ، إذ تكاد المنطقة تخلو من أي مركز للتعليم ، أللهم إلا بعض الكتاتيب البدائية تقوم في بعض المدن ، وإلا بعض الحلقات الصغيرة التي بقيت من مخلفات المشايخ السابقين في بعض القرى المشهورة كأبي عريش وضمد وجازان .

موالد وشعوذات :

والجهل منذ كان هو المباءة المواتية لنمو الخرافة والتشبث بالأوهام ، والتطلع إلى الحظوظ المغيبة عن طريق أصحاب القبور !.. وكذلك كان الأمر في عرض هذه المنطقة وطولها، إذ لا يزال هناك بقية من مخلفات القرن الذي سبق دخول الحكم السعودي الحديث .. فالقباب المزورة لطلب النفع ورد الضر ، والرايات المنصوبة فوق الأضرحة ، ولا يجرؤ أحد على مسها ، فضلاً عن انتزاعها .. وعشرات المعضلات التي تسمم معين الإيمان الصحيح ، فتحجب ضياءه ، وتحرم النفوس من آثاره النيرة الخيرة !.. هذا إلى قلة المدركين لسيئات هذا الواقع ، وعجزهم حتى عن التفكير بأية محاولة للتصحيح .

وغير مستغرب في هذا الجو المؤنس أن يلقي الشيخ بعض الذين يحسنون تلاوة شيء من القرآن دون أن يفهموا له معنى ، ومع ذلك يسمون أنفسهم ويسميهم الناس فقهاء ، وكل ما عندهم من « فقه » هو قراءة الموالد التي توارثوها عن أشباههم ، ثم القيام بظواهر من الشعوذة التي بها يستحوذون على ثقة العامة !..

وطبيعي أن هؤلاء « الفقهاء » كانوا يرون مصلحتهم في الإبقاء على سلطان تلك الخرافات ، لأنها الأسباب الموجبة لاستمرار استغلالهم لجهالة الناس ..

ومن هنا كان تشديدهم على تقديس قبور من يسمونهم بالأولياء ، إذ يجعلون لها مواسم دورية يستعدون لها بكل ما يكنّ للأوهام في تلك القلوب .. فإذا حان موسم الزيارة هرعوا نحوها بالطبول ، وساقوا إليها الأنعام ، حيث يقضون من كل موسم يوماً وليلة في طعام ولعب، واختلاط لا يجد من ينكره!.. وتبلغ هذه الاحتفالات الجاهلية قمتها بالتمثيليات السحرية ، التي يقوم بأدوارها السيد – وهو من سلالة صاحب القبر – والمزود – في اعتقادهم – بالقوى الخارقة !.. تعاونه مجموعة من اللاعبين ، ممن يطلقون على أنفسهم اسم (عبيد السيد) وخدمه .

تمثيليات رهيبة :

وتبدأ هذه الألاعيب عادة بالتجمع حول الشيخ السيد ، ثم تقرع الطبول ، ويأخذ المنشد الخاص بإطلاق بعض الأرجاز السوقية ، يرددها وراءه جمهور المتفرجين ، فإذا ما حميت الحلقة أقبل السيد على بعض (عبيده) وضرب على ظهورهم ، فينطلقون لفورهم إلى وسطها في ضروب من الرقص المألوف في مثل هذه التجمعات ، وفي يد كل منهم سكينه المشهورة ، ثم لا يلبثون أن يعملوها في أجسادهم طعناً وتجريحاً، فتنفجر دماؤهم وتسيل على مشهد من مئات الأعين. على أنهم ما يكادون يمسحون على تلك الخروق حتى يعود كل شيء إلى طبيعته ، فلا دم ولا جرح ولا أثر لشيء من هذا أو ذاك !.. وكثيراً ما يُسألون عن سر ذلك فيزعمون أن أشباحاً من الجن الذين يستخدمهم السيد هم الذين يتلبسونهم ، فيعملون ما يرونه بأمر سيدهم ، الذي يستطيع أن يسلطهم على من يشاء !..

وقد لا يعدم هذا النزيل الجديد من يشاركه التذمر من هذه الأضاليل على خوف من إظهاره ، بيد أنه لا ينسى أن يعلن رضاه عن التطور الجديد الذي جاء به عهد حكومة التوحيد ، فمحا من سيء التقاليد ما لو رآه لتمزق قلبه أسى.

ويسأله أحدهم قائلا : « هل سمعت أو شهدت قط إحدى عمليات الختان ، التي كان الناس يمارسونها حتى قبيل أيام الحكم السعودي !.. ودون أن ينتظر جوابه يعمد إلى وصفها له « لكأني أشهد خالي ، وكان في العشرين من سنيه ، وقد قدم إلى هذه الرحبة في موكب من الزغاريد والطبول التي يؤذيك منظرها وسماعها .. وهنا يتقدم الفتى الضحية وبيده حربة مشحوذة ، وبعد خطوات من الرقص الذي يظهر به قوته ، يقف على هذا المرتفع نفسه ومعـــه الخاتن ومساعده ، وعلى مشهد من الجمهور المترنح من السرور ، يأخذ هذا بسلخ منطقة الشعر بدءاً من السرة حتى يأتي على غلاف الذكر كله!.. وعلى المسلوخ المسكين ألا يغمض عيناً ، ولا يسمح لوجهه أن يحمل أية ظاهرة من الضعف ، بل عليه ألا ينقطع أثناء سلخه عن التبجح بأمجاد الآباء والأخوال والأجداد !.. وليس غريباً أن يبالغ في تجلده حتى يغرز حربته في ظاهر قدمه ، ليتحقق الناظرون من شجاعته ، فتكون حديث الألسن ، ومبعث التأسي لكل من سيأتي دوره من الفتيان !... »

ويستمع الشيخ عبدالله إلى قصة الختان العجيبة هذه في تأثر بالغ ، وفي عصبية لا يستطيـع إخفاءها يسأل محدثه : « ألم يكن ثمـــة من سلطة تحول بين الحمقى وهذه الجرائم ؟ » . فيقهقه الرجل ثم يقول : « لا تنس أنهـا سلطة الإدريسي الذي لم يستطع السيطرة على القوم إلا بإلغـاء عقولهم ، وتمكين الخرافات من قلوبهم !.. ثم ما كان لقوة أن تحول بينهم وبين هذه المآسي لولا حزم عبدالعزيز الذي جعل عقاب الواحد من أولئك الختانين قطع اليمين!.. وتحت طائلة الخوف من تلك العقوبة عـــاد الختان إلى موضعه من السنة ، وإن بقي من آثاره التي نتوقع زوالها بين يوم وآخر ، ذلك التجاوز اليسير في حدود المقطوع ، وإجراء العملية في المرتفعات البارزة على ملأ من الناس ، الذين يتجمعون للاحتفال بها من مختلف القرى .. وإكراه المختون أثناء ذلك على إعلان صرامته بكل الوسائل الممكنة !..

المحتسب الجديد :

ورأى الشيخ من المتعذر عليه تغيير شيء من تلك المناكير في مثل هـــذه الأوساط القبلية ما لم تكن له صفة رسمية. وأعون شيء له على ذلك أن يلتحق بهيئة الحسبة بوظيفة مطوع، على أن يقوم بعمله في نطاق هذه الجماعات خاصة.. وهكذا صدر تعيينه من قبل أمير منطقة جازان .

ولم تكن المهمة بيسيرة ، فالقبيلة التي آثر العمل في وسطها من أكبر قبائل المنطقة ، بل ربما كانت أكبرها جميعاً ، قد رُتب لها ثلاثة وثلاثون عريفاً ، على رأسهم كبيرهم الذي يسمونه شيخ الشمل .

وبدأ عمله بالاتفاق مع رأس العرفاء هـــذا على افتتاح مدرسة في قريته ، يتولى هو تعليم من يلتحق بهـا من أبنائهم ، وفي الوقت نفسه جعل يؤمهم في المسجد ، ويكثر من المخالطة لرئيسهم وجماعته في مجالسهم ، التي لم يكن براض عن كل ما يشاهده فيهـا ، وبخاصة التدخين ومضغ القات .. ذلك الوباء الذي لا يكاد يفلت من شره أحد ، غنياً أو فقيراً ، حتى ليعرف الكثيرين ممن ضاقت بهم سبل المعيشة ، ويؤثرونه على الضرورات الأساسية ، فينفقون عليه أكثر ممـــا ينفقون على أنفسهم وأهليهم في نطاق هذه الحاجات . ولكنه ما كان ليستطيع أكثر من الموعظة ، يرسلها بين الحين والآخر .. على الرغم من يقينه التـــام بحرمة هذه الخبائث . بيد أن مواعظه على رقتها لم تكن لتسر معظم المقربين الى شيخ الشمل ، فشكوه وأكثروا من شكواه ، طالبين إليه ردعه عن التدخل في شئونهم وتقاليدهم ، التي لا يريدون لها تغييراً أو تعديلاً .. ثم بلغت المشكلة ذروتها بقدوم العيد .

مغامرة ومؤامرة :

والعيد من المناسبات الهامة لسكان هذه المنطقة ، إذ يتوافدون من قراهم الثمانين ، كل فئة تتقدمها طبولها إلى المسجد . فإذا قضيت صلاة العيد استأنفوا

قرعهم وأناشيدهم البدوية الحماسية ، ممزوجة بطلقات البنادق ، حتى ينتهوا إلى منزل شيخ الشمل .. وقد اختلط الحابل بالنابل ، والنساء بالرجال .

ولأول مرة يفاجأ المطوع القرعاوي بهذه المشاهد، فلم يتصور إلا أنها مقدمة لبعض تلك المهرجانات الشيطانية ، فلم يطق التحكم بأعصابه ، وإذا هو ينطلق إلى وسط الجموع حتى ينتهي إلى حملة الطبول فيخرقها دون أن يجد أية مقاومة! فكأنما كانت مباغتة للقوم لم تدع لهم فرصة للكلام أو التفكير . ولكن ما أن سكتت الأصوات وزالت المفاجأة حتى رجعوا إلى أنفسهم ، وكثر اللغط ، واتجه كبارهم إلى مقر شيخهم يبلغونه سخطهم على الرجل، الذي لم يفهموا لعمله من معنى سوى أنه عدوان على كرامتهم وتحد لقبيلتهم!.. ثم لم يلبثوا أن انتهوا إلى اتفاق تام على إصلاح الطبول ، والخروج بها عقيب صلاة العصر في عرضة ترد لهم مهابتهم مهما جر ذلك من العواقب !

وتسرب النبأ إلى الشيخ ، وخلا به من يثق بعقله وإخلاصه ليعلمه أن القوم يأتمرون به ، ونصح له بألا يتعرض لهم في هيجتهم . وبإزاء ذلك لم يجد بدأ من ترك القرية ومدرستها ، وأخذ سبيله إلى (صامتة) النائمة على مبعدة عشرين كيلاً إلى الجنوب .. ولكنه آثر ألا يأتيها مطوعاً ، بل تاجراً صغيراً ، في حانوت صغير .

في صامتة :

وكان على الشيخ أن يوثق صلاته بأبناء صامتة ليتمكن من تحقيق أفكاره ، فكان حانوته أفضل وسائله إلى ذلك ، إذ جعله مثابة للنـــاس ، يستقبلهم ببشاشته ، ويؤنسهم بطرائفه ، ويبيعهم حاجاتهم بأرخص الأثمان ، بل ربمـــا بأرخص من ثمنها الأصلي، وهو إلى ذلك لا يضيق عليهم في التسديد، بل يعاملهم بما يناسب حال الزراع ، الذين قلما يملكون النقود في غير مواسم الجني . وبذلك استحوذ على رضاهم جميعاً ، بما فيهم أولئك الحرفيون الذين اختصوا دون أهل المنطقة بالاقبال على الصناعة، وبخاصة صناعة الأواني الفخارية، مما يستكبر عنه

غير هؤلاء الذين رضوا ، تحت ضغط التقاليد القبلية ، أن يشكلوا طبقة منعزلة لا تمد أعينها إلى مـا وراء حدودها في زواج أو تعليم ، أو أي لون من ألوان المشاركة الاجتماعية !

طليعة الزحف :

وتعرف الشيخ أثناء ذلك رجلاً من أهل الخير أقعده العجز عن التجوال ، فكان له جماعة من الصحاب يترددون عليـــه في أوقات فراغهم ، ينتفعون بمعلوماته ، ويستعينونه على فهم ما يشكل عليهم من أمور دينهم ، فيقرؤون القرآن ، ويطالعون في بعض كتب الفقه الشافعي . وسرعان ما التحق بهم وجعل يشاركهم في مجالسهم ، وهم لا يعلمون عن أمره سوى مـا يظهر لهم من مهنته ، إلا أنه مثلهم ذو رغبة في العلم .. وقد مكن له في حلقتهم نشاطه في خدمتهم ، وإكرامه إياهم ببعض الهدايا الصغيرة بين الحين والحين ، ثم ما يرونه من اهتمامه بما يسمع من ذلك الخير .

وأتيح للشيخ مناسبات للمشاركة في تفسير بعض العبارات الفقهية بصورة لفتت انتباه القوم ، ولا سيما شيخ الحلقة الذي لاحظ في الجليس الجديد أكثر من ظاهرة ، فجعل يخصه بالتكريم ، ويستحثه على إبداء مـــا لديه من العلم ليسترشدوا به ، حتى انتهى فيهم إلى المكانة التي هو أهل لها ، فرضوه مدرساً لهم ، وأقبلوا عليه يغرفون مما عنده ، وأقبل هو عليهم بكل ما يستطيع من رعاية وتوجيه وتسديد ، وكلما استوثق من قدرة أحدهم على تبليغ بعض الحقائق دفع به إلى ناحية من المنطقة « ليصحح ما التوى ، ويقوم ما اعوج ضمن حدود طاقته ، وتحقيقاً لوظيفة المؤمن من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهدايــة الضال » . فكان ذلك طليعة الزحف المقدس على جيوش الأوهام والانحرافات ، ذلك الزحف الذي ما زال يتسع ويمتد حتى تجاوز حدود المملكة إلى ما جاورها من اليمن .

المدرسة الأولى :

وتحرك الشيخ في خطوته الثانية ، التي طالما خطط لها وقدر .. فعرض على الجماعة التعاون لإنشاء مدرسة أولية تستقبل الراغبين في العلم ، لتخرجهم من الجهل إلى المعرفة، وتخرج بهم الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور التوحيد الحق. وكانت الثقة به قد رسخت جذورها في قلوب تلاميذه جميعاً ، فلم يترددوا في قبول فكرته ، ولم يتلكأوا في تنفيذها ، ومـا هي إلا أيام حتى كانت المدرسة الأولى قائمة تفتح ذراعيها لطائفة من المتعطشين إلى العلم .. وقد بنيت على شاكلة معظم بيوت صامتة ، التي لا تعدو آنذاك هيئة الأكواخ الكبيرة من القش ، يُسحبَك على أعمدة من الأغصان يؤتى بها من بعض الأدغال القريبة ، ثم تقبب سطوحها ، وتطين من الداخل بما يصونها من الحر والقر والمطر .

الجهود المثمرة :

ولم تقتصر المدرسة على الأحداث ، بل قبل فيها كل ذي رغبة في العلم مهما علت سنه ، إلا أن أوقاتها قسمت حسب الحاجة ، فجُعل ما قبل الظهر للصغار ، وما بعد العصر للكبار .. وكان الشيخ مدرسها ومؤلف مناهجها ، ومنظم مواعيدها . ولم يشأ أن يتناول التعليم فيها كل ما ألفه أهل المدارس الحديثة ، بل تخير من المواد مـــا وجد الحاجة إليه أمس ، فركز على القرآن والحديث والتوحيد والفرائض ، إلى جانب قواعد العربية من نحو وصرف ونصوص ، مع الأعمال الحسابية الأربعة . وقسم هذه المواد على وفق الفصول ، فألحق بكل فصل المؤهلين له ، ثم استدعى أعضاء الجماعة الأولى وشيخهم القديم ، فاستعان بهم في تعليم الصغار ، وتولى هو تعليم هؤلاء في حصص ما بعد العصر . وكلما تهيأ منهم أحد للعمل رفع له مدرسة جديدة كهذه، وولاه شأنها تحت إشرافه . وهكذا ، لم تمض بضع سنوات من سبعينات القرن الرابع عشر حتى غطت مدارس الشيخ القرعاوي منطقة جازان بأسرها ، بل تجاوزتها إلى نجران وأبها وما حولها من أرجاء عسير ، حتى لم يدع قرية دون مدرسة ومعلم ، أللهم إلا

هاتيك القرية التي كانت أول منازله ، والتي حاول أن يجعل منها المنطلق الثاني لحركته ، فحالت إرادة عريفها دون رغبته ، لأنه رأى من غير المصلحة إعطاء الشيخ فرصة لإحداث أي تغيير في حياة جماعته . وبإزاء ذلك لم يجد مندوحة عن تحويل بصره إلى (وادي بَيش)

أول الغيث :

وقد تم له هذا كله بما يشبه الأعجوبة ، إذ كان كل رأسماله تلك الحماسة التي قوبلت بها نواياه الإصلاحية لدى أولئك الشباب، الذين آمنوا بأهدافه، فوضعوا أنفسهم تحت تصرفه ، وانطلقوا يجاهدون ليل نهار لإنقاذ عباد الله من أوبئة الجهل والخرافة التي لا تدمر الأجسام، ولكنها تحطم الأرواح ، وتشوه الفطرة، وتصرف الطاقات البشرية في طريق الشيطان . ولعل أول عون مادي وصل إلى الشيخ في غمرات ذلك الجهاد الصامت هو تلك الهبة التي أكرمهم بها الملك عبد العزيز إعراباً عن إعجابه بشروعاتهم، التي نقل إليه نبأها أستاذ القرعاوي المغفور له الشيخ محمد بن ابراهيم كبير علماء المملكة ومفتيها الأعلى، وعلى الرغم من أنها لم تتجاوز في مبدئها سبعة آلاف ريال سنوياً ، فقد كان لها أثرها ووزنها أيامذاك ، إذ أتاحت للشيخ أن يوفر بعض المدد لأولئك المتطوعين، يستعينون به على الأقل في تنقلاتهم لخدمة الدعوة بين مختلف القرى .

اكتشاف نابغة :

وتكاثرت أعباء الشيخ تبعاً لاتساع مساحة الجهاد ، فلم يعد عمله مقتصراً على التدريس والإعداد في نطاق صامتة وحدها ، بل وجد لزاماً عليه أن يكون على صلة تامة بمراكز العمل ، يتفقد حاجاتها ، ويراقب مسيرتها ، ويشدد عزائم القائمين عليها .

وكان الشيخ شديد الحرص على أصحاب المواهب ، لا يفتأ ينقب عنهم بين تلاميذه ، وفي أوساط الناس خارج مدارسه ، لما يتوسم فيهم من القدرة على

مضاعفة النتائج التي يسعى إليها . وما كان أسعده يوم عثر على أحدهم في إحدى جولاته تلك ، إذ مر ببعض الرعاة فتحول عن دابته ليتحدث إليهم ، ولاحت منه التفاتة إلى كومة من العشب فإذا عليها مصحف ! وسأل عن صاحبه ، فإذا هو غلام صغير اسمه حافظ الحكمي ، ولما أحضروه له وسمع كلامه لم يتمالك أن يفاتحه برغبته في أخذه إلى صامتة لإنشائه على العلم . وسر الغلام جداً بهذه الرغبة ، ولكنه أعلن عجزه عن تحقيقها لأنه مضطر للبقاء مع أمه التي ليس لها سواه . ولكن الشيخ لم يدعه حتى أقنعه بمرافقته إلى أمه ، التي ما زال بها حتى رضيت لولدها ذلك المصير .

ولم تخب فراسة الشيخ في ذلك الراعي ، فإذا هو في مقدمة رفاقه ، اجتهاداً وفهماً وصلاحاً ، وقد مكنه ذكاؤه الحاد أن يحقق من التقدم في الزمن القصير ما لا يتاح إلا للقليلين من الموهوبين في الزمن الطويل ، وهذا ما ضاعف قلق الشيخ على تلميذه ، إذ لم تنقطع أمه عن المطالبة بعودته إليها ، على الرغم من كل المحاولات والترضيات التي يبذلها لإقناعه بتركه .. ولكم كان سروره كبيراً يوم نعيت إليهم ، إذ كانت مصيبة (حافظ) بوفاتها مبدأ الاستقرار في طريقه العلمي ، الذي لم يلبث أن أخرج منه واحداً من كبار النبغاء ، ومنح الشيخ عبدالله بـه مساعداً أميناً قوياً في مهمته التي لا يصلح لها سوى الأقوياء الأمناء .

سراج ينطفىء :

ولم يتردد الشيخ في الإفادة من تلميذه النجيب الحافظ ، فأسند إليه إدارة مركز (وادي بيش) ليحمل عنه مهمة الإشراف على مؤسساته التعليمية هناك ، وكان أمله أن يخلفه في إدارة سائر أعماله في المستقبل .

وأثبت الحافظ صحة رأي شيخه في مواهبه ، إذ كان كتلة من النشاط الفياض ، يدعو ويدرّس ويؤلف . ولما نقل لإدارة أول معهد علمي أنشأته دار الإفتاء في صامتة أبدى من الكفاية ما جعله أنموذجاً يحتذى . ولكن شاء الله أن ينطفىء السراج في إبان توهجه ، فوافته المنية قبل أن يبلغ أشده !

الملايين في خدمة الدعوة :

واستمرت دفقـــة النور على ذلك الطريق القويم ، يحمل مشاعلها شباب أنشئوا على حب التضحية في سبيل الله ، فلم ينتظروا على جهـــادهم أجراً ولا شكوراً ، وفي صمت يكاد يحجب ذكرهم عن كل سمع خارج ميادين عملهم ، قانعين بالعون اليسير الذي يتلقونه بين الحين والحين ، حتى وسع الله نعمه على الدولة القائمة بشريعته ، فوسعت معونتها إياهم ، ثم حولتها إلى مخصصات ثابتة ، وما زالت تنمو وتكبر حتى وصلت إلى بضعـــة ملايين من الريالات ، وُضعت بأجمعها تحت تصرف الشيخ ، الذي أحسن النهوض بعبء الأمانة فجعل لكل مدرس أجوره ، ولكل طالب مكافأته وفقاً لمسيرة المخصصات .. ولكي يضمن حماية مدارسه المنثورة في عشرات القرى ، خصص لكل عريف قرية مرتبـاً خاصاً يتلقاه باسم الرعاية لمدرستها ، مما كان له أحسن الأثر في نفوس هؤلاء العرفاء ، الذين منحوها تأييدهم ، وواصلوا على مساجدها ترددهم !

الخاتمة الكريمة :

وكانت النهضة التعليمية قد أخذت بالامتداد في كل اتجاه من أنحاء المملكة، حتى إذا بلغت طلائعها ميادين النشاط القرعاوي وجدت السبل معبدة ، والاستعداد على أتمه ، ثم ما لبثت أن تسلمت من يدي الشيخ رايـة الكفاح ، الذي كان قد حقق أفضل النتائج الممكنة ، إذ أخرج جيـلاً من صفوة شباب المملكة عقيدة وخلقاً ودأباً لا يفتر في خدمة الإسلام .

ولقد ظل الشيخ الرائد يمارس عمله في خدمة تلك الأنحاء حتى أقعده المرض، فنقل بالطائرة من جازان إلى الرياض حيث وافاه الأجل في بهرة الخامسة والسبعين من ذلك العمر المبارك ، بعد أن ترك صامتة وما حولها ناطقة بآثاره ، مخصبة بأفكاره ، مترجمة عن سيرته بأنصع بيان وأبلغ لسان .

كتبنا هذا العرض الموجز من حيـاة الشيخ (ر ح) منذ عدة سنين ، وكان ذلك في أعقاب اجتماع به في المسجد الحرام ، ولم يكن تأليف هذا الكتاب في تفكيرنا إذ ذاك ، فلمـا قدر الله الاتجاه إليه كان من الإنصاف لهذا الداعية ذي الأثر الكبير أن ننقل صورة عنه وعن جهاده إلى قرائه ، ومن هنـا كان إثباتنا لهذه الصفحات ، وهي خالية من آرائه الشخصية .

على أن خير ما يصور أفكار الفقيد المجاهد ما نلمسه في مميزات خريجيه من الفضائل الخلقية ، وللدأب المتصل في خدمـة الإسلام على أساس من العقيدة المصفاة ..

وقد أوشك بعضهم أن يتخرج في قسم الدكتوراه من جامعة الملك عبدالعزيز في مكة المكرمة ، متخصصاً في هذا الموضوع ليتولى تدريسه في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .. ففي هؤلاء الذين خبرناهم وأحببناهم في الله ، ما يكفي لمعرفة الخطوط الكبرى من مبادىء ذلـك المصلح الإسلامي الكبير .. غفر الله له ، وجزاه عن دينه خير ما يجزي العاملين الصالحين .

٧

الشيخ عثمان أحمد العسيلي

هو شيخ أرواد – الجزيرة الفينيقية مقابل طرطوس على الساحل السوري– وكبير علمائها فيما نعلم وما بلغنا من العارفين والرواة، وكان مولده حوالي العام ستين وثمانمئة وألف للميلاد، وكانت وفاته على التحقيق عام تسعة وأربعين وتسعمئة وألف.

لم يعقب من الأبناء سوى بنات ثلاث، لذلك عرف باسمه دون كنيته. وقد ولد ونشأ وشاخ وتوفي في جزيرته تلك، وبيته من أوسط بيوتها مكانة .. كان والده من كبار تجار أرواد، أيام كانت أرواد هي المركز التجاري لجزء كبير من الساحل السوري وما وراءه، لأنها مجمع السفن التي كانت وسيلة النقل الكبرى طوال حياة الشيخ، وكان جده لأبيه من مشايخ الجزيرة، وكذلك والد جده. أما والدته فمن آل حمود الذين توارثوا العلم الشرعي، وتتالوا على الدراسة في الجامع الأزهر. ومن هنا كان اتجاه الشيخ عثمان في طريق العلم تأثراً بمسلك أسرتيه الكريمتين.

ثقـــافته :

حفظ القرآن في 'كتّاب أحد شيوخ أرواد ، ثم أقبل على مبادىء العربية والعلوم الدينية يتلقاها عن أحد أجداده لأمه من آل حمود . ولمـــا بلغ السن المساعدة على الاغتراب شخص إلى مصر ليلتحق بالأزهر ، ولكنه لم يتمكن من البقاء هناك سوى بضعة أشهر ، إذ توفي والده وترك له أسرة هو أكبر المسئولين فيها ، فعاد إلى أرواد ليسد الفراغ الذي خلفه والده . ومع ثقل التبعات التي كان عليه أن يتحملها ، لم يستطع الانصراف عن سبيل الدراسة التي استهوته واستقطبت مواهبه ، فمضى في متابعتها بنشاط لم تلبث آثاره أن برزت في دروسه وخطبه وعمله في القضاء الشرعي .

شاء الله أن أتعرف الشيخ عن كثب ، وأن نتذاكر في بعض الأمور المتعلقة بالعلم ، وبخاصة مـا يتصل منها بمواقف المبشرين بالنصرانية في ظل الانتداب الفرنسي ، فألفيت لديه حيوية أفتقدها في الكثير من الشباب المعنيين بالعـلم والأدب ، وأعجبني منه بوجه خاص سعة ثقافته التي لا تقف عند حدود المعلومات الدينية ، بل تمتد منهـــا إلى مختلف فروع المعرفة ، من لغة وأدب وتاريخ وطبيعيات .. وما إلى ذلك مما ينم عن تتبعه للكثير من روافد الثقافة العصرية ، في دقة تمكنه من الأخذ والرد ، والتفريق بين الحقائق والأباطيل .

قبل الاحتلال :

قضى الشيخ رحمه الله معظم عمره المديد في ظل السيادة الإسلامية ، قبل أن تفاجأ أرواد ببعض قطع الأسطول الفرنسي تفرض عليها سلطانها عـام ١٩١٥ لتتخذ منها قاعدة انطلاق ، تغير منها على الساحل ، الذي ظل في قبضة الجيش العثماني حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، وبذلك أتيح له أن يلمس طلائع التحول الخطير الذي طرأ على حياة النـــاس في سائر البلاد ، التي خرجت في سهم الفرنسيين من الشام تنفيذاً لمؤامرة (سايكس بيكو) .

عاصر أولاً ذلك الرخاء الذي قيض لأرواد بسبب مركزها البحري، الذي جعل من سكانها كتلة من النشاط الملاحي والتجاري ، منذ عهود الفينيقيين ، فسفنهم ترود مختلف سواحل المتوسط حاملة منها وإليها أصناف البضائع ، وقد ازدهرت فيها صناعة السفن ، من الصغيرة المعدة للزينة ، الى الزوارق المبنية للمواصلات المحلية ، إلى الكبيرة الصالحة لارتياد الآفاق .. إلى التخصص في حرفة الغطس على الإسفنج ، التي ينصرف إليها نفر غير قليل من الفتيان الأشداء ، منقطعين إلى نشدان مواطنه من أعماق البحر في رحلات تستغرق الأشهر ذوات العدد .

ومن هذا وذاك يأتي التحرك التجاري الذي أشرنا إليه في ما تقدم .

وطبيعي أن وسطاً كهذا من شأنه أن يفتح المواهب ، ويدفع إلى الاهتمام بما لا بد منه من العلم المساعد على ضبط العمل ، وتحديد الواجبات ، ومعرفة ما لا يستغني عنه مسلم من مبادىء الدين ، ولا سيما إذا تذكرنا ضيق المساحة التي تتألف منها تلك الهضبة البحرية التي سماها الأقدمون « أرادوس » وما يفرضه هذا الضيق من أنماط معينة من السلوك الاجتماعي يتعذر الخروج عليه . ومن هنا كان للشيوخ مكانتهم في الجزيرة ، وكان للعلم قدره ووقاره في نفوس الكافة من قطانها ، ولعل ذلك من أهم الأسباب التي وفرت لأرواد الاحتفاظ بطائفة من أهل العلم وطلابه قل نظيرهم في البر المقابل حتى نهاية الربع الأول من القرن العشرين .

ولقد كان لهذه الأوضاع ، مضافة إلى موحيات البيئة العائلية ، آثارها البارزة في أخلاق الشيخ وسائر تصرفاته . إذ كان كثير الوقار ، طويل الأناة ، لطيف المعشر ، لا يمنعه خلق الجد من التبسط مع تلاميذه وأصدقائه إلى الحد المعقول ، وربما نظم بعض مزاحه لهؤلاء في أبيات يتسابقون إلى حفظها فتقوي صلتهم به وتشدد من روابط المودة فيما بينهم .

بعد الاحتلال :

وجاءت المرحلة الثانية - عقب الاحتلال الفرنسي - ففقدت أرواد كثيراً من مزاياها الأولى ، فمن الناحية الاقتصادية جمدت أخطار الغواصات سفنها فلا تتحرك إلا في حدود جد ضيقة .. وحيل بينها وبين الساحل، الذي هو سوقها الطبيعي، فلا تحصل على الضروريات إلا عن طريق التقنين الذي فرضه المحتل . واضطر غير قليل من شبابها النشط إلى العمل في خدمة المستعمر ضد أبناء دينهم في العدوة المواجهة ، حيث أخذوا يغيرون معه على الشواطىء لانتزاع ما يمكن من الغنائم ، ولو أدى ذلك ، وكثيراً ما أدى، إلى الصدام المسلح ، الذي لم يخل من سقوط القتلى والجرحى بين الجانبين .

وهكذا سلبت أرواد ذلك الرخاء الذي طالما نعمت بظله ، وانتهت إلى وضع من الحرمان والقلق لم تألفه ولم تتوقع مثله قط ، يضاف إلى ذلك ما جره الاحتلال الأجنبي من تطور في الأخلاق، لا يتفق مع ماضي الناس في هذه الخلية الحية العاملة من ديار الاسلام في الشام .

غيرة وانتصار :

وتحقيقاً لمبادىء الحضارة الغربية ، المتحدرة من وثنية رومة وأثينة ، كان لا بد لهؤلاء المئات من جنود فرنسا في أرواد أن يجدوا كل المرفهات والمسكنات . ولذلك فكر (ترابو) - حاكم الجزيرة العسكري الفرنسي - في تأمين أولى هذه (الضروريات) وهي إقامة دار للبغاء يرتادها جنوده للتنفيس من ضغط الكبت . ولكن الفكرة لم تلبث أن تسربت إلى أوساط الأرواديين الذين استقبلوها بمختلف المشاعر . وكانت أشد ما تكون وقعاً على الشيخ عثمان، الذي كان بوصفه قاضي أرواد الشرعي، والمستشار الشرعي في المحكمة المدنية التي أنشاها الفرنسيون عقيب الغزو ، كان أكبر السكان مسئولية تجاه الأخلاق والدين الذي يعتبر بنظرهم ممثله الحق بل الوحيد .

وهنا تحركت غيرة الشيخ الإسلامية ، وتحركت معهـا مواريث العزة التي اكتسبها من أهل بيته . ولعله تذكر ساعتئذ موقف أحد أصوله من مشايخ آل حمود . وقد بلغه ذات يوم أن رجلاً من المستخفين بفضائل المجتمع يتعاطى الخمر علانية ، فما كان منه إلا أن قصد إليه ، وحطم قارورته على رأسه ، دون أن يستطيع هذا جواباً أو دفاعاً ، على الرغم مما عرف عنه من الشراسة . وكان ذلك درساً طهر أرواد من رجس الخمر إلى حين .

وجمع الشيخ على رأيه بعض أعيان الجزيرة ، ثم مضى على رأسهم إلى الحاكم (ترابو) يقدمون احتجاجهم على ذلك الأمر ، ولكنه نظر إليهم من خلال منصبه وقوته ، فردهم معلناً تصميمه على التنفيذ ، فلم يبق أمام الشيخ سوى التحول إلى القيادة العليا القائمة في بور سعيد ، يرفع إليها احتجاج البلد واستنكار الشريعة لهذا الخرق . ولم يجد (ترابو) مناصاً من الإفساح لشكوى الشيخ فسمح للبريد بحملها ، وأتبع ذلك بتدبير خاص من شأنه أن يلغيها كلياً ، ذلك أنه استعان ببعض الضعفاء والنفعيين من سكان الجزيرة ، فوقعوا عريضة يؤيدون بها محاولته ، وبعث بها إلى القيادة العليا . ولبث الفريقان ينتظران عاقبة شكوييهما .. ولقي الشيخ الكثير من المضايقات بسبب من موقفه هذا ، إذ وقف مرتبه ، وصودر بريده ، وأحيط بالمراقبة المزعجة .

وذات يوم فوجئت أرواد بزيارة الجنرال (بيوت) القائد العـام ، إذ خرج من مقره في بور سعيد بجولة تفتيشية . وانتهز (ترابو) هذه الفرصة فحشد الأنصار المؤيدين له ، ودفعهم إلى مواجهة القائد ، وإبلاغه موافقتهم على مسعى الحـاكم العسكري ، الذي يرون فيه خدمة للبلد وحماية لأعراض الناس !..

وما إن علم الشيخ بالمؤامرة حتى انطلق مع إخوانه إلى مقر الحاكم يطلبون مواجهة الجنرال . بيد أن الحارس حال بينهم وبين الباب ، ورفض إبلاغ طلبهم إلى المسئولين .. فلم يبق إلا الدخول بالقوة . وهكذا انتهى الشيخ القاضي إلى المكتب الذي فيه القائد العام ، ومعه رئيس البلدية ، وقدم إليه نفسه وزميله ،

وبادره بعرض الأمر في لهجة أشعرت القائد بأهميته .. وسرعان ما أدرك هذا أن الحاكم قد غشه بإبعاد الرجلين عنه، والاكتفاء بأولئك المؤيدين له ممن لا وزن لهم في المجتمع الأروادي .

والظاهر أن الجنرال كان على قدر من الحنكة لم تتوافر لذلك المتغطرس ، فلم يفرغ من مقابلة الشيخ ورفيقه إلا بعد أن أكد لهما تحقيق ما طلباه. وهكذا غادرا مكتبه منتصرين .

علم ورياضة :

والحديث عن نشاط المترجم في خدمة العلم متسع الجوانب يمكن اختصاره بكلمة صغيرة هي أنه كان واحداً من بقايا السلف في هذا المجال . لا يدع فرصة تفوته في إبلاغ الخير والحق إلى كل ذي استعداد لهما .

كان رحمه الله مدرسة مفتوحة لكل طالب في أي وقت وفي أي مكان ، ففي حجرته الخاصة من المسجد الغربي بأرواد يحتشد حوله المختارون من ذوي النباهة والرغبة في العلم، فيقبل عليهم بلطفه وتواضعه ووده الصادق، في دروس منظمة من القرآن والتفسير والحديث والقواعد العربية، وما يتصل بها من علوم البلاغة.. وللعامة من دروسه حصص خاصة في الأحيان المناسبة، يتلقون خلالها ما هم أحوج إليه من شئون دينهم وعباداتهم ، وما إلى ذلك مما يساعدهم على تنظيم حياتهم اليومية .

وكان للناس على اختلاف مشاربهم في أرواد تعلق قلبي بالشيخ، يعبرون عنه بكل مظاهر الاحترام والتقدير. وكثيراً ما يخرج في صحبة المقربين من تلاميذه إلى البر ، في مواسم الربيع والصيد يستمتع معهم بنزهات رياضية تعود على كل منهم بما لا يقدر من السرور والفائدة .

ولعل مما يذكر في صدد نشاطه العلمي اهتمامه العميق بالتطبيقات الشرعية في الأحكام التي يصدرها ، وقد ظهر ذلك في القضايا التي يصدر فيها مقرراته ،

فيستأنفها بعض المحامين إلى المراجع العليا ، فلا تلبث أن تعاد مؤيدة بتصديق القضاة الذين أحيلت إليهم . وإنما يدل هذا على مدى عناية الشيخ رحمه الله بهذا الجانب الهام من فقه الأحكام .

تآليفـــه :

أما عمله تغمده الله برحمته في نطاق التأليف فمحدود لا يتجاوز بضع رسائل في الرد على بعض المبشرين ، وفي قواعد العربية ، إلى جانب بعض البحوث التي لم تطبع ، ولم نقف منها على أثر عند تسطير هذه الترجمة .

وأول ما عرفت فضل المترجم أحسن الله جزاءه عن طريق رسائله في الرد على مبشر بروتستانتي متنصر من سكان الجبل ، وقد كتبت أيامئذ رسالة في الرد على ذلك المضلل تحت عنوان « فضائح المبشرين » . وكان لرسائله هذه أثر طيب في قلوب أهل العلم من المسلمين في مختلف المدن السورية ، إذ وجدوا فيها تفريجاً عن كروبهم بإزاء تلك الحملات المسعورة ، التي يشنها أولئك السفهاء على الإسلام ورسوله صلوات الله وسلامه عليه في ظل الحماية الفرنسية ، التي تضيق عليهم في بلادها ، وتغدق عليهم ألوان التأييد والعون في بلادنا .

ومما يحسن ذكره تسجيلاً لمآثره ، أكرمه الله بجواره ، أنه كان يتولى تأليف هذه الرسائل والإنفاق على طبعها وتوزيعها بالمجان على مختلف الأنحاء .

والناظر في مضمون هذه الرسائل يدرك المدى الذي بلغته ثقافة الشيخ ، والعناية بتتبع كل ما يكتب في الموضوعات التي يريد إنشاءها . وقد أخبرني بعض تلاميذه أنه كان يتخذ لهذه البحوث مصنفاً خاصاً يودعه كل ما يقع عليه منها في الكتب أو المجلات أو الصحف .

ويؤسفنا أن مكتبة الشيخ قد عبثت بها الأيدي حتى لم يبق منها إلا ما فاتها ، ولذلك اكتفينا من الكلام عنه بما نعلمه وما ننقله عن الأكثر علماً منا به .

نماذج من منثوره :

المخطوط الوحيد الذي أتيح لنا الوصول إليه من آثار المترجم هو كتيب يقع في ما يقارب مئة صفحة من القطع المتوسط ، وقد انتزعت عدة صفحات من أوله وآخره ، وهي تنطوي على أصول بعض الرسائل التي كتبها في الرد على المبشر الذي أشرنا إليه . وها نحن أولا ننقل منها بعض الأسطر .

١ – يقول رحمه الله في بعض كلامه عن رسالة محمد ﷺ :

« من المتواتر الذي لا شبهة فيه أنه ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب كما قال تعالى : « وما كنتَ تتلو من قبله من كتاب ولا تخطـُّه بيمينك . إذاً لارتابَ المبطلون » نشأ بين قوم ليس لهم كتاب ولم يعهد اشتغالهم بالعلوم والفنون كغيرهم من الأمم ، فلا كليات ولا مدارس ولا فلاسفة ولا حكماء ، ولم يغب عن قومه مدة يتيسر له فيها تحصيل العلوم . بغضت إليه الوثنية من مبدأ عمره ، وحبب إليه مكارم الأخلاق من صغره . لم يعهد عليه كذب ولم يعرف عنه سوء ، حتى دعاه قومه بالأمين (كما بشر به يوحنا إصحاح١٩ عدد١١) ثم أتى قومه بعلوم ومعارف لم تكن بينهم معروفة ، وأبان عن كثير من المسائل التي لم تصل إليها أفهام الحكماء ، وأتى بشرع مبين لم يغـادر من الأحكام صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وجاء بدين حوى من المحاسن في المعاملة مع الله ومع عباده أقصاها ، مكنه الله في الأرض ، وأظهره على الأديان كلها . فمن نبذ التعصب وترك التقليد وطرح الأوهام والمغالطات التي يوردها الأعداء ، وطلب الحق لذاته ، وفكر في حاله صلوات الله وسلامه عليه ، وما أتى به .. جزم يقيناً أن هذا الصادق الأمين المستقيم الأحوال ، الذي يلعن الكاذبين ، ويذم المفترين ، ما كان ليفتري على الله الكذب ، وهو يدعو إلى توحيد الله وتقديسه وتمجيده ، وحتم قطعيـاً أنه رسول الله حقاً ، وأنه لم يصل إلى هذه الدرجة العلياء ولم يحقق ذلك النجاح العظيم إلا بمدد من الله وتوفيق منه سبحانه » .

٢ – وفي مفتريات المبشر كلام عما يتناقله العامة والمتصوفة في موضوع النور المحمدي من مثل قول بعض المؤذنين « يـــا نور عرش الله .. » وقولهم إن الله خلق الخلق من نور محمد .. فيعقب الشيخ على تلك المفتريات بقوله :

« لم يرد لهذا النور ذكر في القرآن المجيد ولا الأحاديث المتواترة فلا يجب علينا اعتقاده ، قال تعالى : « قل إنما أنا بشر مثلـُكم يُوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد » .. فمحمد ﷺ بشر مثلنا لا فرق بيننا وبينه بشيء إلا بالرسالة .. هذا ما يجب على المسلم اعتقاده ، وما عدا ذلك من النور ، وما يذكر في بعض قصص المولد فهو غير قطعي الثبوت ».. ثم يضيف إلى ذلك أن مرد هذه الأخبار إنما هو الأحاديث الموضوعة أو الضعيفة ، ويقارن بينها وبين أشباهها من الأخبار الخرافية التي تتضمنها كتب النصارى وأساطير الفرس .. وهو بذلك إنما يعبر عن طريقته في النقد العلمي ، الذي لا يقبل من الأخبار إلا مـــا صح سنده ومتنه .

٣ – وعلى دأب المبشرين في التقاط الأخبار الكاذبة أخذ المضلل المأفون قصة أم المؤمنين زينب ، فجعل يلوح بـــا أضاف إليها الأفاكون من المفتريات للإساءة إلى مقـام الرسالة .. وفي هذا الصدد يقول ، رحمه الله ، رداً لهذا الأفك :

قال تعالى : « فلما قضى زيدٌ منها وَطَراً زوجناكَها لكيلا يكون عـلى المؤمنين حرجٌ فى أزواج أدعيائهم إذا قَضَوا منهنْ وطراً » .. فهذا نص صريح في أن الله تعالى أباح لرسوله ﷺ تزوج مطلقة زيـــد ليعلم المؤمنون أن تزوج نساء الأدعياء حلال لا حرام كما كان عرب الجاهلية يعتقدون، جاعلين الابن المجازى كالحقيقي في الأحكام افتراء من عند أنفسهم لا بشرع من عند الله .. وإنمـا أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بفعل ذلك ، ولم يكتف بالقول لأجل أن يقتدي به المؤمنون ، ولا يحجموا عن ذلك بالنظر للعادة الراسخة ،

كما أحجموا في غير هذه الحادثة حتى ابتدأ بالفعل فاتبعوه [١].. هذا ما يجب على المسلم اعتقاده وهو عين الحكمة والصواب ، وما ينسب إليه ﷺ من حب لزينب فهو محض افتراء عليه من أعدائه » .

ولا جرم أن هذا هو عين اليقين لا ما ذهب إليه بعض المتنطعين المخمنين من السابقين واللاحقين .

٤ – ويزعم المضلل المأفون أن كتبهم أصل ماء الحياة وأن القرآن (مورد معكر كدر) فلنستمع إلى زأرة الشيخ في تفنيد هذه الأبطولة الحقيرة :

« إن هذه دعوى يدعيها كل أصحاب كتاب لكتابهم ، ولكن المميز النقاد هو العقل السليم والوجدان النقي .

لماذا كان القرآن مورد ماء معكراً؟.. ألكونه يفند العقائد الفاسدة ويدحض الضلالات الوثنية ، ويحتوي على مكارم الأخلاق ، وينهى عن قبائحها ؟!

أم لكونه يعلـّم أن الله سبحانه هو الإله وحده لا شريك له ولا ابن ولا أب، وأن عيسى عليه السلام محض عبد من عباد الله.. وأن طريق الخلاص هو الاعتقاد بالتوحيد الحق والأعمال الصالحات واجتناب السيئات ؟

أو لعل القرآن كان مورد ماء معكر مكدر لكونه لا يعلـّم بأن المسيح نصفه إله ونصفه إنسان ، كما كان الوثنيون من الهنود واليونان والرومان يقولون عن عظمائهم ؟!

أفي لكونه لا يعلـّم أن الإله حباً بسواد عيونكم قدم ولده ذبيحة بشرية عنكم ، كما كان الصينيون يقدمون أولادهم ذبائح بشرية لآلهتهم ؟!

أو لكونه لا يعلم أن أبناء الله الملائكة تزوجوا ببنات الناس ففسقوا ، فلم يحفظوا رئاستهم فقـُيدوا بقيود أبدية تحت الظلام عند نهر الفرات ؟!

---

(١) يشير الشيخ بذلك إلى امتناع الصحابة عن الحلق يوم الحديبية حتى حلق فحلقوا . (المؤلف)

أو لكونه لا يعلم أن الإله خاف من الناس لما بنوا برج بابل فنزل إلى الأرض وبلبل ألسنتهم وفرق كلمتهم ؟!

أو لكونه لا يعلم أن الإله صارع يعقوب فلم يقدر عليه حتى فك حق فخذه، وجهل اسمه فلم يعلمه حتى سأله عنه ؟

أو لكونه لا يعلم أن القديسين قاموا من قبورهم ودخلوا المدينة أفواجاً ليخلصوا الإله من الصلب والقتل ؟!

أو لكونه لا يعلم انه حدثت حرب في السماء بين ميخائيل وملائكته وإبليس وجنوده ؟!

أو لكونه لا يعلم أن الخلاص ينال بمجرد الإيمان بأن إنساناً منذ أمد مديد قتله أعداؤه وصلبوه ؟!

إن الكتب التي تعلم هذه التعاليم الفاسدة، وتحتوي على هذه الضلالات الواضحة، هي المورد العكر الكدر القذر من نجاسات عقائد الوثنيين وخرافاتهم، لو أنكم يا أعداء الإسلام تنصفون » .

وكان في الوسع أن نمضي مع هذه الضربات الدماغية أكثر لو استوعبنا تساؤلات الشيخ كلها، وفي ما نقلنا منها ما يكفي للدلالة على سعة علمه بهنات تلك الكتب، التي تنطوي على كل هذه المفارقات، وتظل مع ذلك موضع تقديس أهل الكتاب .

وجدير بنا، ونحن نطالع هذا التقريع المخجل، أن نتذكر الظروف السياسية التي نشر فيها، أيام كان التبشير محمياً بحراب الجيوش الفرنسية ومرتزقتها، ولم يكن قد مضى إلا القليل على تحديات الجهلة من النصارى، الذين اتخذوا من ظروف الاحتلال فرصتهم لتجريح مشاعر المسلمين، ومحاولة إذلالهم، إذا اقتحموا أحياءهم في تظاهرات مثيرة تتقدمها الصلبان والطبول .. وبخاصة في طرطوس، التي كانت أول بقعة من البر الإسلامي وطئتها قدم المحتل من القطر الشامي .

وحين نستحضر تلك الظروف نحسن تقويم الشجاعة التي تحلى بها ذلك الشيخ الوقور في نشره مثل تلك الردود الصريحة . ولكن هـذا من حقه أن يذكرنا كذلك برحابة صدور الفرنسيين الذين لم يبدوا أي محاولة لخنق هـذا الصوت الشجاع ، فلم يحظروا على آلة طبع هذا الكلام ، ولم يوعزوا إلى بريد بالامتناع عن نقله إلى مختلف البلدان !

ولا أرى تجاوز هـذا المقطع قبل أن أشير إلى أثر ذلك التكرار في جمال الحوار.. فهو أسلوب من التعبير لا يغني فيه الخبر عن الإنشاء، لأن في كل استفهام منه صدمة أشبه بالصفعة على وجوه المفترين ، تجعلهم يخجلون لو كانوا يعقلون..

نماذج من منظومه :

ولقد أسلفنا الاشارة إلى ممارسة الشيخ للشعر ، ونضيف الآن إلى ذلك أن هذا الشعر لا يعدو المحاولات التي عرفت لدى المشايخ .. فقد أدركنا العديد من هؤلاء رحمهم الله وكلهم يقوم بهذه المحاولة ، على تفاوت في مقدار الاجادة . وللشيخ المترجم مقاطع من المنظوم يمكن اعتبارها من أشعار المناسبات العارضة.

قام بعض الفتيان بتمثيل المسرحية التاريخية « كسرى والعرب » التي تروي بعض مآثر السلف ، فارتاح الشيخ إلى عملهم ، ورأى أن يشجعهم على المضي في هذه السبيل كوسيلة لتوعية الناس وتذكيرهم بماض توشك التغيرات الطوارىء أن تمحو أثره من أذهانهم ، فبعث إليهم بهذه الأبيات :

إن العظيم كريم القـــوم سيدهم	من كان للوطن المحبوب نفـّـاعا
بذّال كل نفيس في محبتـــه	لكل داع إلى الأوطان سمّاعا
.. شكراً لكم يا شباباً مثلوا ـ فبدا ـ	مجداً لنـــا كان في الآفاق لماعا
أيام كنا مـــلوكُ الأرض َترهبنا	كسرى لسطوتنا قد خرْ مرتاعا
هيا انهضوا يا شباب العرب وارتجعوا	موروث مجد لنا بالأمس قد ضاعا
مرحى لشعب عزيز النفس متحد	من أجل أوطانه الأرواح بياعا

ولا أستبعد أن يكون الشيخ قد تعمد سلوك هذا الأسلوب المبسط لابلاغ أفكاره واضحة إلى هؤلاء الشباب، الذين كانوا وأمثالهم في البلاد السورية عصب العمل في مضايقة المستعمر ، بعد أن تحطمت أسلحة المجاهدين له في دمشق وجبل الزاوية وبقية مناطق الثوار .. وفي ترديده لكلمة وطن وأوطان والمجد والاتحاد ، رموز فقدت اليوم دلالتها ، وكانت أيامذاك هي اللغة التي تحرك الضمائر وتهيج السرائر .

ومن إخوانياته الظريفة هذان البيتان اللذان يخاطب بهما أحد الصيادين من تلاميذه ، وقد فارقه صقره فأحزنه :

لا تكثرنْ أسفاً على الصقر الذي	قد فر خوفاً من نبال الراشق
من كان صياداً بنبل لحاظه	لا يأسفنّ على ذهاب الباشق

رحم الله الشيخ عثمان العسيلي وعوض أرواد عنه من يسد فراغه من أهل العلم والشجاعة والأخلاق .



٨

الشيخ علي أبو الحسن الندوي

وُلد في قرية (تكية) من مديرية (رائي بريلي) من الولاية الشمالية بالهند، وذلك في المحرم من عام ١٣٣٢ هـ. من أسرة ذات أصل عربي عريق ، تعيش في الهند منذ قرون . وهو ابن العلامة الشريف عبد الحي الحسني أحد كبار مؤلفي عصره .

كان أول من هاجر إلى الهند من هذه الأسرة الشيخ السيد قطب الدين ابن محمد المدني عام ٦٠٧ هـ. وكانت أم هذا الشيخ بنت الإمام الشيخ عبد القادر الجيلاني، ويصل نسبه من الطرفين إلى السيد عبدالله المحض بن السيد الحسن المثنى ابن الحسن بن علي بن أبي طالب (رض) .

وكان سبب هجرته إلى الهند أنه رأى في منامه رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة يأمره بالتوجه إلى الهند للجهاد ، ويبشره بالفتح المبين .

وقد حافظت الأسرة طوال القرون على فضائلها الموروثة والمكتسبة ، إذ عرفت بالتزام السّنن الواضح من التوحيد والسنة والوقوف بوجه البدعة والحرص على مبادىء الدعوة إلى الإسلام . وقد شارك رجالها في الجهاد ونال الكثير منهم شرف الشهادة في سبيل الله .

ونبغ من هـــذه الأسرة عدد من العلماء والدعاة سجلت أسماؤهم ولا تزال تسجل في تاريخ الدعوة الإسلامية والكفاح من أجلها ، من أشهرهم السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، قائد كبرى حركات الإصلاح والجهاد في الهند .

ولا ريب أن لهذا المنبت الكريم أثره العميق في نشأة الشيخ وانصرافه التام إلى خدمة الإسلام والاهتمام بأمور المسلمين . وقد شاء الله أن يحفظ للمترجم هذا الجو الفاضل فأتم نعمته عليه بالشيوخ الصالحين ، الذين كانوا امتداداً طيباً لتلك البيئة الطيبة .

دراسته العلمية :

تلقى الشيخ دراسته الأولية في العربية من الشيخ خليل محمـد اليماني ، حفيد المحدث الجليل الشيخ حسين بن محسن الأنصاري ، وأتم دراسته الأدبيـة على الدكتور محمد تقي الدين الهلالي ، رئيس تدريس الأدب العربي بندوة العلماء يومئذ ، ثم تعلم في دار العلوم ندوة العلمـاء ودار العلوم في ديوبند ، وجامعة لكهنئو ، بتفوق ممتاز ، والتحق بمدرسة الشيخ أحمد علي في لاهور حيث تخرج عليه في علم التفسير .

وقد استفاد في الحديث من الشيخ حيدر حسن خان ، ونال الإجازة منـه ومن الشيخ عبد الرحمن المباركفوري صاحب (تحفة الأحوذي) وحضر دروس العالم الكبير الشيخ حسين أحمد المدني في الحديث بدار العلوم في ديوبند ، فجمع بين جهابذة الأدب والحديث والتفسير .

الرجال الذين أثروا في توجيهه :

ويسمي الشيخ من الرجال الذين أثروا في توجيهه أخاه المرحوم الدكتور عبد العلي الحسني ، ويصفه بأنـه جمع بين الثقافتين الدينية والعصرية ، إذ تلقى دراسته في المدارس الدينية والجامعات العصرية . وأنه كان ذا فضل كبير على ثقافته .

ثم المشايخ أحمد علي اللاهوري والشيخ محمد إلياس مؤسس حركة الدعوة والتبليغ بالهند وفي العالم الإسلامي، ثم المربي الجليل الشيخ عبدالقادر الرائيبوري، ثم شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال، ثم السيد طلحة الحسيني أحد كبار الأساتذة في جامعة البنجاب.

ويدع الشيخ أثر هؤلاء الفضلاء دون تحديد، فلا يعلمنا في أي اتجاه، ولا من أي نوع، ولكن ذلك لا يحجب عنا الواقع الذي نعرفه من خلال آثار الشيخ، ومن خلال مسلكه في خدمة الدعوة، ثم من خلال ما اشتهر به بعض الذين نعرف آثارهم من أساتذته هؤلاء.

وفي ما كتبه الشيخ أبو الحسن عن روائع إقبال وأفكاره الإسلامية وتأملاته الفلسفية ما يكفي لاستخلاص الصورة المنشودة عن تأثيره في توجيهه الأدبي والفكري.

وقصارى القول في ذلك أن أبا الحسن قد وفق من ملابسته لهذه الثلة الممتازة إلى أن يجمع بين الثقافة الصحيحة والأسوة الحسنة. وإنها لبقية من منهج التعليم الإسلامي، الذي لا يقبل التفريق بين التعليم والتربية، ذلك المنهج الكريم الذي مسخه، بل نسخه، نظام التعليم الغربي، حتى أوشك أن يستحيل أثراً بعد عين – ويا للأسف – !

العلوم التي يؤثرها :

ويحدد العلوم التي يؤثرها بحبه فيحصرها في : القرآن الكريم، والحديث الشريف، ثم التفسير، والتاريخ، والأدب.

ولو سكت الشيخ عن هذا الجانب لأمكننا استخلاصه من مؤلفاته وبحوثه ومحاضراته وأحاديثه. وقديماً قيل :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه   فكل قرين بالمقارن يقتدي

ولا قرين أعمق أثراً في قلب الإنسان وعقله وسلوكه من العلم الذي ينسجم

معه ويصدر عنه . ونحن بقليل من الممارسة والملاحظة نفرق بين امرىء وآخر عن طريق الحديث الذي نسمعه أو نقرؤه لكل من الاثنين. وقارىء أبي الحسن لا يفوته الإدراك بأنه ثمرة مونعة من حديقة الثقافة الإسلامية الأصيلة .

ثم إن الشيخ بجمعه بين هذه العلوم المتعددة في نطاق التفضيل ، إنما يفعل ذلك إيماناً منه بما يشملها من وحدة الإطار ، فهو « لا يؤمن بالانفصال بين هذه العلوم، بل يرى كداعية إسلامي أن التاريخ مرآة الأمم البائدة ، وخزانة العبر المبرزة لأسباب النهوض والهبوط في حياتها ، فليس ثمة من سقوط أو نهوض يحدث عفواً أو اتفاقاً ، وإنما هي سنن وقوانين مرتبطة بتصرفات الأمم وأعمالها ، فعلى هذه التصرفات والأعمال تتوقف مصايرها في مسيرة التاريخ ».

وعلم القرآن والحديث ، فضلاً عن كونه المصدر الرئيسي والمنبع الأول للثقافة الإسلامية ، فهو كذلك الدليل الهادي إلى أسرار هذه السنن الإلهية وعملها في حياة البشر ، وكل منهج لدراسة التاريخ لا يستمد من هذه الضوابط سيظل جهداً ضائماً ينقض بعضه بعضاً .

والتمكن من علوم الأدب والتمرس به أداة لا ممدى عنها لإبراز هذه الحقائق والإفادة منها على أفضل الوجوه .

والشيخ ، بارك الله في حياته وجهاده ، قد علم كيف يستخدم هذه الأداة في خدمة مثله العليا أروع استخدام . ومتتبع ما يكتب يشعر بأن لعبارته الأدبية سحراً لا يتوافر في العادة إلا للعِلْيَة من أصحاب المواهب، الذين تعمقوا سر الكلمة ، وتفاعلوا به ، وكان لقلوبهم أكبر الأثر في ما يصوغون . وتلك هي الخاصة الرئيسية التي يمتاز بها أبداً أولو الأذواق الروحية من المتخرجين في مدرسة القرآن .

وبهذه الخاصة يتناول الشيخ الأحداث التاريخية ، فإذا هي مائجة بالحياة وبالعبر .. وقلما تقرأ له بحثاً أو قصة أو حديثاً لا تلمس أثناءه هذه الصور الناطقة بالحكمة ، وهذا ما يكاد الكاتبون عنه يجمعون عليه .

أم الأحداث التي عاصرها :

ويعتبر الشيخ سقوط الخلافة على يد الطاغية اليهودي الأصل أتاتورك أكبر الأحداث التي عاصرها ، فهو يقول في ذلك : « أعتقد أنه كان نقطة تحول في تاريخ الإسلام والمسلمين ، وتحولاً لعجلة الحياة ، إذ كان له الأثر العميق في خضوع العالم لحضارة الغرب .

ومهما تكن عوامل هذا التحول فمن جرائه تمّ إسلاس قيادة المسلم للغرب، حيث لا يزال العالم الإسلامي يقاسي تبعيته . ثم كانت الأحداث القاسية التي واجهتها الأمة الإسلامية نتيجة لهذا الحدث المؤلم، فالحركة الكمالية والثورة (...) إنما تستمدان جذورهما من الأرضية التي خلفها المستعمر ، فاعتبرهما امتداداً لهذه المؤامرة » .

ويتحدث أبو الحسن عن بعض الفتن التي فجرتها فيما بعد تلك الكارثة فيقول: « إن الحروب التي تلت هذه المأساة الإنسانية ، وغزو الفكر الغربي للأمة الإسلامية ، وجرأة الحاقدين عليها ، إنما حصلت بسبب من رجحان كفة ميزان القوة ، وانسحاب المسلمين من معترك الحياة . وقد امتدت هذه المؤامرة ، التي اقتلعت جذور الوحدة المتأصلة في قلب العالم الإسلامي ، إلى العهود الأخيرة .. وكان يوم احتلال اليهود القدس ، وزحف القوات الصهيونية إلى الضفة الشرقية للقناة ، أحلك يوم في حياتي . لقد تحققت المهزلة ، وبلغت المؤامرة ذروتها . وقد بحثت ذلك في مؤلفاتي ، وأوضحت الأسباب التي تمخضت عنها المأساة الإسلامية الكبرى بعد سقوط الخلافة ، بإبعاد الإسلام ورابطته عن الحياة ، والاستخفاف بقيمه ومظاهره ، وقمع العاملين في سبيله . وإني أعد هذه الفترة من أحرج الفترات التي عشتها ، كما فصلت ذلك في كتابي « الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية » و « المسلمون وقضية فلسطين » وقد دعمت هذه الأحداث إيماني بأن الإسلام لا بد أن يتولى الزمام لإنقاذ العرب والعالم ، لأن الحل الوحيد لمأساة الإنسان يكمن في تحول قيادة العالم إلى أبد مؤمنة

بقيم الإنسانية ، أمـــة وسطاً لتكون شاهدة على الناس ، كما يصفها كتاب الله ٦.

وقـد يتساءل القارىء – ومن حقه ذلك – كيف يعدّ أبو الحسن سقوط الخلافة أكبر حادث في حياته ، وهو في سن المراهقة أثناءئذ ؟

والجواب على ذلك بالنسبة إلى الشيخ أنه يقيس الحادث على مجريات الأحداث التاريخية ، التي شهدتها الحقبة الممتدة حتى أيامنا هذه ، فلا يرى أكبر منـه في سائر الوقائع العالمية .

ثم إن لتقويم الشيخ هذا الحدث على هذا الوجه علاقة هامة بموقف مسلمي الهند أثناء ذلك من موضوع الخلافة . فالمعروف أن هؤلاء كانوا أشد مسلمي العالم حرصاً على بقائها ودفاعاً عنها وألماً عليها . وقد وصل بهم ذلك الحرص إلى حد أن الانجليز ، وهم المسيطرون على أرجاء الهند ، قد عجزوا أن يجدوا في مسلميها من يقبل التطوع في صفوفهم لقتال الدولة العثمانية ، أثناء الحرب الكونية الأولى ، لأنها في يقينهم تمثل الخلافة التي لا يجوز لمسلم الخروج عليها ، حتى اضطر الإنجليز لتوسيط زعماء العرب – الذين استباحوا التحالف معهم ضد الخلافة – لإقناعهم بما يريدون فلم يجدوا منهم إلا الصد والنقد وتوجيه أخطر الاتهام ، فعادوا من وساطتهم تلك مخفقين بخفي حنين .

فمن الطبيعي إذن أن ينشأ كل مسلم هندي عاصر تلك المأساة على هذا النحو من الشعور بهولها. فكيف اذا كان مثل هذا الفتى الناشىء في أشد بيئات المسلمين الهنود إحساساً بتلك الفاجعة !..

وجاءت الأحداث تترى في أعقاب هذه المحنة ، فإذا هي أرزاء متلاحقة تدمر كل رابطة بين المسلمين ، حتى لتستحيل الأسرة الواحدة أحزاباً وشيعاً كل حزب بما لديهم فرحون !

نشاط الشيخ في خدمة العلم :

وتجاوز الشيخ الصديق مضمون السؤال الثامن عن أهم الأحداث ، التي قد تكون عرضت لفضيلته أثناء عمله في التدريس ، مكتفياً بأنه لا يذكر من ذلك ما يستحق الذكر .

وعن مدى نشاطه في خدمة العلم وطلابه يشير إلى بعض مجهوداته في (مكافحة الغزو الفكري، وبث روح الاعتزاز بالاسلام في المسلمين ، وبخاصة طبقة المثقفين والشباب ، ومقاومة الردة وآثارها ...[1]) .

وهذه المجهودات مما يدركه كل قارىء لكتب الشيخ في مختلف أنحاء العالم ، سواء بلغاتها الأصلية أو المترجمة ، فليس ثمة كتاب له إلا وهو توكيد لهذا الاتجاه الاصلاحي على أرفع المستويات .

ومع ذلك فقد أغفل الجواب جانباً هاماً من نشاط أبي الحسن في خدمة العلم وطلابه ، فلم يشر مثلاً إلى آثاره في ندوة العلماء ذات الماضي العريق في إذاعة العربية ، وفي توضيح حقائق الاسلام ، سواء في قلوب طلاب الندوة ، أو عن طريقهم بعد التخرج بين جماهير المسلمين ، في مختلف مواطنهم من شبه القارة الهندية .

الشيخ والندوة :

ومن جميل الاتفاق أن أكتب هذه الأسطر باللاذقية ـ حيث أقضي إجازة الصيف ـ في حين يحتفل العالم الاسلامي بالمهرجان الذي نظمته ندوة العلماء في الهند ما بين ٢٥ و ٢٨ شوال ١٣٩٥ هـ . لمناسبة مرور خمسة وثمانين عاماً على إنشائها وبدء رسالتها العالية ، فكانت فرصة سعيدة لتلاقي رجال الفكر الاسلامي من المعنيين بقضايا التربية والتعليم ، وشد ما كنت حريصاً على

---

(١) ورد في جواب الشيخ على هذا الاستطلاع نقاط هامة رأينا إرجاءها إلى السؤال ١٢ .

المشاركة فيها استجابة لدعوة كريمة ، لولا أقدار محكمة صرفتني إلى اللاذقية بدل (لكهنؤ) . وليس ثمة من ريب في أن تدفق وفود العالم الاسلامي أثناءئذ على ذلك المهرجان ، إنما ينطوي خلال تكريمه لتلك المؤسسة المرموقة ، على تقدير كبير لجهود ذلك الشيخ الفاضل ، الذي تسلم رايتها ، فكان خير خلف لأولئك السلف الذين نهضوا برعايتها على مدى تلك العقود التسعة من السنين ..

لقد أحسن الأستاذ سعيد الأعظمي الندوي في مقاله الذي صدّر بـه العدد الخاص بتلك المناسبة من جريدة (الرائد) تحت عنوان « في رحاب المهرجان » إذ أبرز ما لا يجهله خبير من فضل أبي الحسن فيقول :

« الشيء الأصيل الذي كان يعمل في المهرجان ويعمل في كل ما يتصل به أولاً وآخراً هو ذلك القلب الواسع الكبير الذي يخفق في جنب سماحة أستاذنا العلامة السيد أبي الحسن علي الندوي . فلولا عبقريته العميقة ، ونظرته الواسعة ، وفهمه الدقيق .. وفوق ذلك إيمانه الراسخ القوي ، وإخلاصه في خدمة قضايا الإسلام ، وتفانيه في حب الله ورسوله ، عن دراسة وتفقه .. فلولاه ولولا هذه الصفات العالية لم يكن لهذا المهرجان أي قيمة أو أهمية . ولولاه لما كان له أثره البعيد في تاريخ التعليم والتربية في هذه البلاد بوجه خاص ، وفي العالم الإسلامي بصفة عامة .

ليس من سعادة الهند أو ندوة العلماء فحسب أن يوجد فيها مثل هذا الرجل العظيم المخلص المؤمن ، بل أن وجوده سعادة لتاريخ العلم والثقافة والتعليم والتربية ، وصفحة ناصعة في سيرة العلماء الأعلام والدعاة العظام . وأن العالم المعاصر لفي أمس الحاجة إلى أمثاله حتى يتبين هداه في مسيرة العلم والمدنية ، ويعين خطاه في زحمة الصراعات والاتجاهات التي تموج بها المجتمعات الانسانية اليوم » .

ولا مبالغة في هذا الاطراء لذلك العامل الجليل الذي –كما قال شيخ الأزهر الدكتور عبدالحليم محمود في تلك المناسبة – « أخلص وجهه لله » وسار في حياته

سيرة المسلم المخلص لله تعالى ورسوله ﷺ فدعا إلى الإسلام بالقدوة الحسنة ، ودعا إلى الاسلام بكتبه النقية ، ودعا الى الاسلام بسياحاته التي حاضر فيها ووجه وأرشد . فجزاه الله خير ما يجزي عالماً عن دينه » .

ولا جرم فقد اطلع الله على إخلاص هذا العبد الصالح – ولا نزكي على الله أحداً – فبارك في مساعيه ، وبارك في مواعظه ، وبارك في محاضراته العميقة الغور ، الغنية بالحقائق ، التي يلقيها هنا وهناك ، في الهند ، وفي البلاد العربية ، وفي إنجلترة .. وفي مختلف المؤتمرات الإسلامية ، التي لا ينفك يشارك فيها ، ويسافر إليها ، مضحياً براحته ، ومغامراً بصحته ، فأكرمها سبحانه بالرضوان والقبول ، حتى صارت المورد العذب لناشدي الحق .. لأنه لا ينشد من ورائها شهرة ولا منفعة .. ولا شيء إلا ابتغاء رضوان الله .

وأنا لا أذيع مجهولاً من حياة الشيخ عندما أذكر أنه ، وهو العضو الدائم في المجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، لم يقبل أن يصرف له فلس واحد من المكافآت السخية المخصصة لمثله ، ولم أعرفه نزل فندقاً قط على حسابها ، على تعدد المرات التي حضر فيها اجتماعات هذا المجلس حتى الآن . وأنا لا أدري كم في علماء الإسلام من نظير لهذا الزاهد الكبير !

إن خاصة الزهد والترفع عن حطام الدنيا ، في هذا الجسد النحيل اللطيف ، الذي يكاد ينطق بقول ابن الرومي عن نفسه :

أنا من خف واستدق فما يُثْـ ـقِلُ أرضاً ولا يسد فضاءَ

هذه الخاصة هي التي مكنت له في مضمار الاصلاح والنقد الاجتماعي ، فلا يهادن باطلاً ، ولا يكتم حقيقة .. وجعلت لكلامه مساغاً في الأسماع فلا تنكر عليه ما يقول .

وهو كالشيخ ابن باز في حسن تأتيه عند توجيه النصيحة الواجبة ، يطرق بها

أبواب القلوب في أسلوب من الحكمة والموعظة الحسنة ، لا يسخط ولا ينفر ، ولكنه يبعث على التأمل والتدبر والتفكر .

عالمية الشيخ :

والاشارة إلى مشاركة الشيخ في عضوية المجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية بالمدينة منذ تأسيسها، توجه الذهن إلى مشاركاته في العديد من المنشآت العلمية الأخرى .

إنه عضو مراسل في مجمعي اللغة العربية بدمشق والقاهرة . وهو مؤسس المجمع العلمي الإسلامي بالهند ورئيسه ، كما أنه يرأس المجلس التعليمي لولاية (أتر بردلش) هناك ، وهو عضو في المجلس التنفيذي لمعهد (ديوبند) ، ومن أعضاء المجلس التنفيذي لدار المصنفين في أعظم كرة بالهند أيضاً .

والشيخ أحد رؤساء التحرير لمجلة (معارف) تلك المجلة العلمية الأكاديمية للمسلمين في شبه القارة الهندية .

هذا وقد أخرج المجمع الإسلامي بالهند سلسلة من ترجمات كتب الشيخ باللغة الإنجليزية تعميماً لفوائدها ، وسبق لمجلة المجمع اللغوي بدمشق أن نشرت عدة فصول من آثاره .

وهذه المشاركات الواسعة إنما تؤكد الصفة العالمية لهذا الرجل ، الذي أجمع على تقديره رجال الفكر من مختلف الأقطار .

عمله في التأليف :

وإلى القارىء هذه القائمة بأشهر مؤلفاته المطبوعة :

١ – مختارات في الأدب العربي (وهو من المقررات الدراسية في كثير من المدارس والجامعات) .

٢ – القراءة الراشدة (ثلاثة أجزاء) .

٣ – قصص النبيين للأطفال (خمسة أجزاء) .

٤ – مذكرات سائح في الشرق العربي. ٥ – حديث مع الغرب.
٦ – روائع إقبال. ٧ – الأركان الأربعة .
٨ – الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية .
٩ – ربانية لا رهبانية . ١٠ – المسلمون في الهند .
١١ – إذا هبت ريح الإيمان .
١٢ – رجال الفكر والدعوة في الإسلام .
١٣ – القادياني والقاديانية . ١٤ – إلى الإسلام من جديد .
١٥ – المسلمون وقضية فلسطين . ١٦ – الطريق إلى المدينة .
١٧ – النبوة والأنبياء في ضوء القرآن .
١٨ – الصراع بين الإيمان والمادية .
١٩ – تأملات في سورة الكهف .
٢٠ – العرب والإسلام . ٢١ – النبي الخاتم.
٢٢ – ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين .
٢٣ – السيرة النبوية .
٢٤ – نحو التربية الإسلامية الحرة في البلاد الإسلامية .

وهذه الكتب نشرت كلها بالعربية ، وترجم معظمها إلى مختلف اللغات كالتركية والإنجليزية والفارسية .

على أن هناك عشرات من مؤلفاته الأخرى باللغة الأردية،لم يذكر عنوانها.. ومحاضرات عدة نشرت منفردة في كراسات تتداولها آلاف الأيدي ، ولم نشر إليها في هذا الجدول .

ويقول الشيخ أن أحب هـذه الكتب إليه هي : « الطريق إلى المدينة » و « النبوة والأنبياء في القرآن » وآثرها إطلاقاً هي « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » و « الأركان الأربعة » و « الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية » .

والحديث عن مؤلفات أبي الحسن لا تغني فيه الإشارة المجلى ، بل يتطلب الوقوف على كل منهـا بكلمة تحليلية تكشف عن قيمته العلمية والأدبية ، وما ينطوي عليه من خصائص ذلك القلب الحي . إلا أن هذا أمر متعذر في عرض سريع كهذا ، وحسبنا أن نسترعي انتبـاه القارىء الواعي إلى صيـغ العناوين وما توحي به من أبعاد وأعماق .

لما صدرت الطبعة الأولى من كتاب « ماذا خسر العـالم .. » سمعت الأخ الأستاذ محمد المبارك يقول في وصفه : « إنه واحد من خير الكتب التي صدرت في هذا القرن » .

وقرأت الكتاب في أناة محاولاً التحرر من إطراء الأستاذ المبـــارك إياه ، ولكني لم أستطع ذلك لأني لم أجد تعبيراً أكثر إنصافـاً للكتاب من تلك الكلمة .

وأشهد لقد أعدت قراءة هـذا السفر النفيس عدداً من المرات ، بين قراءة كلية وأخرى جزئية ، ولا أزال أحس عطشاً نحوه . وقد أثبتت طبعاته الاثنتا عشرة حتى الآن أنه جدير بكل إطراء يستحقه عمل عبقري ، وحسبه تقديراً ما ظفر به من أقلام كبار العلماء كأحمد أمين ، وأحمد الشرباصي ، ومحمد يوسف موسى ، والشهيد سيد قطب .

وإني لأعتبر هذا الكتاب أنموذجاً لعقلانية الشيخ ، فقـد جمع بين التاريخ والفقه والبلاغة والنقد والتحليل ، في انسجام تام بين عناصره جميعاً .

وإن القـارىء المتدبر ليطل من خلال الكتاب على مواكب البشرية تتوالى نحو غاياتها كالسيول الدافقة في طريقها نحو المصب ، وقد اختلفت بهـا السبل ، فسيل يتحدر على غير هدى فيدمر كل ما يمر به ، ثم يتلاشى في أعماق المحيط . وآخر يتدهدى في نظـام على غاية من الدقة والعظمة ، فيشيع الخير والخصب والجمال في كل بقعة تعترضه .

إنهـا حركة الإنسانية في اضطرابها بين الخير والشر ، بين الصراط المشرق بنور الوحي، والمهامه الضائعات في ظلمات الجاهليات. بين القيادة النبوية العاصمة الراشدة ، والقيادات الإبليسية الطاغية الحاقدة .

وعلى ضوء هذا المنهج يحسن النظر إلى بقية الخمسة المفضلة من أسفاره ، مع التذكير بأني لا أجد تعليلاً لإيثاره إياها على سائر كتبه سوى العلاقة النفسية ، التي كثيراً ما تربط بين المنشىء وأثره لمناسبة لا يكاد يذكرها .

السبيل إلى الانقاذ :

وحول مستقبل الجيل الإسلامي ومهمة علماء الإسلام نحوه ، جمع الشيخ في الإجابة بين السؤالين ١١ و ١٢ على النحو التالي :

يقول فضيلته : إن الجيل الإسلامي الجديد سواء في بلادنا – الهنـد – أو سواها من وطن الإسلام ، يمر بمرحلة انتقالية على غاية من الأهمية .

لقد تجرع هذا الجيل مرارة الأفكار الأجنبية ، وعاش في ظل نظم الحكم غير الإسلامي . ولا يختلف بعضه عن بعض في أي قطر وآخر ، لأن هذه النظم في جميع البلدان تستمد جذورها من الحضارة الغربية ، فهي على منوال واحد. لكن الصورة اليوم تختلف عما كانت عليه في الماضي . إن تطبيق هذه النظم قد سهل عملية إقناع الجيل الحاضر بضلالها وبكونها جافة وجوفاء .

لقـــد أخفقت الحضارة الغربية في إسعاد المسلم كلياً ، وذلك من فضل الله علينا ، إذ كلما عرف العاملون للدعوة الإسلامية كيف ينتهزون هذه الفرصة ، بتوجيه قواهم إلى الكشف عن مساوىء هذه النظم وما تقاسيه الشعوب في ظلها . . كلما فعلوا ذلك أحرزوا نجاحاً جديداً لدعوتهم .

والمهم الأهم لقادة الفكر الإسلامي، بعد فضح الحضارة الغربية، أن يحسنوا تعهد قلوب المسلمين ، بإلهاب العاطفة الدينية ، وتعميق الإيمان بالآخرة على

منهاج الدعوة الإسلامية الأول، على أن يستخدموا لذلك جميع الوسائل الحديثة والقديمة ، وطرق النشر والتعليم والاستعداد المادي .

ويقول الشيخ : من أجل تحقيق هذا الهدف لا مندوحة عن إعداد الكتب المفيدة في أسلوب عصري ، وتربية الشباب الروحية بتوطيد الصلة بينهم وبين الربانيين ، وتضييق الفجوة بين الاسلام وغير المسلمين ، وذلك بتنظيم اللقاءات معهم ، وتزويدهم بما يجهلونه من حقائق الإسلام .

ويختم فضيلته توصياته الرشيدة بقوله : إن القرآن العظيم وسيرة محمد ﷺ ، قوتان في وسعها أن تشعلا في العالم الاسلامي نار الحماسة والايمان ، وتحدثا في كل وقت ثورة مظفرة على العصر الجاهلي ، وتجعلا من أمة مسلمة مخذولة أمة فتية مائجة بالحياة والحماسة والغيرة » .

وفي هذه الخطوط المركزة خلاصة عميقة الغور تحمل ضروباً من تجارب السيد أبي الحسن في دراسة الواقع الاسلامي ، وطرق معالجته وتصحيحه .

لكن .. من لهذه العقبات !

إن ها هنا نقداً حاداً للحضارة الغربية ، التي أفسدت الضمير الإنساني ، فجنت على الإنسان بعامة والمسلم بخاصة ، وهي نظرة ثابتة في أفكار الشيخ لا ينفك يعرض لها في كل ما يؤلف ويحاضر . وبذلك يلتقي مع كبار مفكري الإسلام والغرب المعاصرين ، كالمرحوم محمد إقبال ، والشهيد سيد قطب ، وأخيه محمد، ومحمد محمد حسين، ومحمد البهي، وأنور الجندي، وألكسيس كاريل مؤلف « الإنسان ذلك المجهول » و ...

وها هنا كذلك توكيد على مفاسد النظم الحاكمة في بلاد الإسلام ، بوصفها صوراً ممسوخة من تلك الحضارة المدمرة للروح . ويريد الشيخ من علماء الإسلام ومفكريه أن يستفيدوا من إخفاقها الذريع في معالجة قضايا المسلمين ، لإبراز عظمة النظم الاسلامية ، وقدرتها على تقويم كل عوج ، وتصحيح كل فساد .

وفي سبيل هذه الغـــاية يحث على الانتفاع بكل الوسائل الإعلامية ، وبخاصة الكتاب الذي يعتمد الأساليب العصرية لنشر هذه الحقائق ، إلى جانب التربية الروحية القائمة على الأسوة الحسنة .

ولا جرم أن في هذه التوجيهات الحكيمة ، لو أمكن ترجمتها إلى الواقع ، خيراً كثيراً..ولكن..وما آلـمَ «لكن»هذه؟..ما السبيل إلىهذه الترجمة؟.. وما الوسائل الموصلة إليها ؟..

إن أهم أدوات الاعلام في ظل الحياة الاسلامية تتركز في هـذه المنطلقات الأربع : المسجد ، المنهج التعليمي ، الكتاب ، السلوك الاجتماعي .

ففي المسجـــد تبنى النفوس المؤمنة على مراقبـــة الله ، والعناية بشئون عباده .

وبالمنهج الاسلامي في التعليم يتكون اليقين بقداسة العلم ، على أنـــه النور الذي يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام .

ثم يأتي الكتاب الاسلامي تفصيلاً لهذه المبادىء وإيضاحاً لحقائقها .. ومن هذا وذاك يتكون السلوك المثالي الذي يميز مجتمع الاسلام .

والأربع المنطلقات هذه قد ارتفع عنها سلطان الاسلام في معظم أقطاره . لأن النظم الطاغية قد فرضت رقابتها عليها جميعاً ، فليس لخطيب المسجد أن يعلن كلمة الله إلا ملفوفة بألف غشاء .. وكثيراً مـا يكره على ترديد أفكار الطواغيت أنفسهم ، وقد يعرض نفسه للعزل والسجن ، بل والإحراق حياً ، إذا جرؤ علىالاشارة إلى حكم الله في قوانينهم –كما حدث في الصومال منذ مدة– ولم يبق للفكر الاسلامي أي صلة بمنهج التعليم ، لأنه أخضع للأيدي الملحدة أو المضللة تعبث بـه كيف تشاء ، وإذا استبقت للإسلام فيه من أثر فللتمويه على البسطاء ، ولابرازه في مركز الضعف بإزاء المواد الأخرى التي استغرقت معظم المنهج ، وفيها الكثير مما يصادم حقائقه البديهية .

وأي كتاب إسلامي يتاح له الظهور في مثل هذه المباءات المغلقة ، إلا أن يحمل من مسوغات الظهور ما يقصم الظهور !

ولا حاجة للإسهاب في وصف المجتمع الذي يرزح تحت هـذه الكوابيس ، بعد أن فسدت عناصر تكوينه جميعاً .

ذلك هو واقع المسلمين في كل مكان إلا من رحم الله .. ولا بد لنـــا من ملاحظته في كل ما نصف له من علاج .

وكلمة أخرى في شأن الكتاب .

من فضل الله على القلم المؤمن أنه لا يزال قادراً على التصريح ولو ببعض الحق ، وفي بعض المواطن .. إلا أن في مقدمة العقبات التي تواجهه قـــلة القراء الذين يعنيهم أمره .

لقد سلكنا الطريق إلى مكافحة الأمية ، وكدنا نغرق البـــلاد الاسلامية بالمدارس على اختلاف أقسامها ، وبذلك كثر الذين يحسنون القراءة . ولكن حظ الكتاب الاسلامي من هؤلاء القراء ظل قليلاً محدوداً ، لأن التوجيه المدرسي والاعلامي قد سبق إلى عقله فصرفه إلى الترهات ، فما لبث أن فقد القدرة على استساغة الحقائق .. ثم جاءت الدعايات الساذجة ، التي يتطوع لاشاعتها عـــن حسن نية كتاب مسلمون ، ليوهموا بقية القراء أن ميدان النشر خال من الأدب الاسلامي والفكر الاسلامي ، فلا قصة إسلامية ، ولا شعر إسلامي ... ولا من يحزنون !

أجل ... إن هذا هو واقع المسلمين .. وتلك هي الفجوات التي تمترض سبيل المصلحين .

فمن لنا بإزالة هذه العقبات ؟

وما السبيل إلى تحقيق هذه المقترحات ؟!..

في التربية والتعليم :

والذي أعلمه من أفكار الشيخ ، ومن خلال الأحاديث الخاصة التي يتيحها لنا لقاؤه في المناسبات الإسلامية ، أن جوابه على تساؤلنا الآنف يكاد ينحصر في الناحية التربوية .. ذلك لأنه شديد التركيز على هذا الجانب في معظم أعماله الفكرية ، فهو بنظره المعوّل الأهم في تكوين الجيل الصالح لإقامة المجتمع الصالح . ونظرة مستوعبة إلى أحاديثه الكثيرة في هذا الموضوع كافية لاستبانة هذا الواقع ، ولامداد الباحث بما يكاد يؤلف منهجاً متكاملاً للتربية والتعليم كما يريده أبو الحسن ، بل كما يتراءى له في ضوء الإسلام ، ومن خلال تجاربه العميقة في هذا الميدان .

وبين يدي الآن صورة المحاضرة التي ألقاها في مهرجان الندوة-٢٦/١٠/٩٥ هـ بعنوان «أهمية نظام التربية والتعليم في الأقطار الإسلامية ..» ومنها أنقل للقارىء الفقرات التالية :

منابع السموم :

يتحدث الشيخ عن عمل المستشارين الأجانب في نظم التعليم المفروضة على العالم الإسلامي ، فيقول عن أصحاب السلطان : انهم «حكّموا في تخطيط برامجهم التعليمية ومؤسساتهم العلمية الإخصائيين أو المستشارين من البلاد الأجنبية ، ولم يستوردوا منها المقررات الدراسية فحسب ، بل النظرات التعليمية والتصورات التربوية ، وأرسلوا البعثات إلى الخارج لتنشأ في أحضان المربين الغربيين والأساتذة الأجانب ، ثم أطلقوا أيديهم ومنحوهم كل حرية في تخطيط البرامج وسياسة التعليم .. فكانت النتيجة وجود طبقة مضطربة العقائد والأفكار والسيرة والأخلاق ، أحسن أحوالها أن تكون مذبذبة بين الفكرة الغربية والفكرة الإسلامية ، وإلا فهي في أكثر الأحيان تنسلخ من كل ما يدين به مجتمعها وأمتها » .

التربية لدعم العقيدة :

وينقل هنا عن (دون آدامس) في أمر هؤلاء الموجهين طرفته التالية : « زعموا أن فيضاناً قد اجتاح بعض الأماكن ، وكان هناك قرد وسمكة ، فأما القرد فقد استفاد من سوابق تجاربه فتسلق شجرة ونجا ، ثم وقع بصره على السمكة تكافح التيار فأشفق عليها ، وحملها إلى الشاطىء وهو يظن أنه ينقذها، فكان في ذلك القضاء عليها » .

ويعقب على ذلك بقوله : « إن عملية التربية في أمة أو بلاد ليست بضاعة تصدر إلى الخارج ، أو تستورد إلى الداخل ، كالمصنوعات أو المواد الخام ، أو الحاجيات أو المخترعات التي لا تختص ببلد دون بلد ، وإنما هي لباس يفصل على قامة هذه الشعوب ، وملامحها القومية وتقاليدها الموروثة ، وآدابها المفضلة وأهدافها التي تعيش لها وتموت في سبيلها ، وأن التربية ليست إلا وسيلة راقية مهذبة لدعم العقيدة التي يؤمن بها شعب أو بلد ، وتغذيتها بالاقتناع الفكري القائم على الثقة والاعتزاز .. »[1] .

وعلى الرغم من ثقته التامة بصحة هذه الأفكار لم يرض إلا أن يؤيدها بموافقات أساطين الخبراء في هذا الشأن ، من أميركيين وبريطانيين وحتى الشيوعيين ، مما يؤكد أن ارتباط التربية والتعليم بمقومات الأمم قضية لا خلاف عليها ، بل هي القاعدة الأساسية في بنائها عند كل أمة تريد لنفسها البقاء في معركة الحياة .. وما دام الأمر كذلك فأحق الأمم بالاستقلال في هذا الميدان هي الامة التي حملت أمانة الله إلى البشرية ، وبدينها الخالد الكامل ختمت رسالات السماء إلى الأرض ، فلا سبيل لها إلى أداء هذه المهمة إلا عن طريق استمساكها بالتميز ، الذي يحفظ لها أصالتها سليمة من كل تميع أو تبعية أو تقليد . ذلك هو المنطلق الرئيسي الذي عنه يصدر الشيخ في كل ما يتناوله من شئون التعليم منهجاً وأسلوباً وغاية ، ولا جرم أن لوسطه الندوي إيحاءه الفعال

---

(١) صفحة ١٠ و ١٢ من المحاضرة .

في هذا الإتجاه، بما كان لندوة العلماء من أثر ضخم في إحياء هذه المثل وإخراجها من حيز النظر إلى مجال التطبيق .

تجربة رائدة :

ويصف أبو الحسن هذه المؤسسة فيقول : انها « تمثل فصلاً من أروع الفصول في تاريخ الوعي الإسلامي » . إذ كان قيامها – ١٣١١ هـ. – لغرض واحد هو إنقاذ الكيان الإسلامي من عملية التدمير التي شنها (دعاة التغريب والردة الفكرية والحضارية من المسلمين والقوميين وغيرهم) [١] .

والمتتبعون لأعمال هذه المؤسسة ، والمطلعون على نشاطها الواسع في خدمة الفكر والخلق والعربية ، يؤيدون أبا الحسن في ما ذهب إليه من تقديرها . ولا أذيع سراً إذا قلت إنني أحدهم ، فعن طريق معرفتي بمناهجها ، وصلتي بخريجيها الملتحقين بالجامعة الإسلامية ، أدركت عظم المهمة التي تنهض بها في خدمة الإسلام. (إن هؤلاء الفتية في مقدمة طلاب العالم الإسلامي التزاماً لأدب الإسلام ، ورغبة في العلم ، وتقديراً لمدرسيهم ، وتقديساً للغة القرآن ، التي لا يكاد يضاهيهم في سلامة النطق بها عربي من نوابغ الطلاب .

إنها لتجربة رائدة نهضت بها تلك المؤسسة، فقدمت للعالم الإسلامي أنموذجاً للتربية والتعليم يستحق الدراسة ، ويمكنه أن يقيم لدعاة الإصلاح معالم على الطريق ذات دلالات لا تنكر .

ولقد حفلت مناهج الندوة بكل جديد مفيد من المواد العصرية، إلى جانب المقررات الإسلامية الضابطة ، مع مراعاة الاحتمالات النفسية لطالب العلم . إلا أن عامل التفوق في عملها هو دستورها التربوي ، الذي جمع بين التعليم والتطبيق على أفضل الوجوه . وأن في خريجيها ، الذين تسنموا أرفع المنازل بين أساطين العلم في العالم الإسلامي كله ، لأبرز الأدلة على أننا منها تلقاء واحد من أنجح المشروعات التعليمية في هذا العصر [١] .

---

(١) من بحث قدمناه إلى المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي المنعقد في مكة المكرمة – ربيع الآخر ١٣٩٧ هـ.

تقدير وحب :

ولا حاجة إلى التذكير بأن فضيلة الشيخ أحد ثمرات هذه المؤسسة المباركة، وقد شاء الله أن ينتهي إليه لواؤها ، فيتابع طريق أسلافه في دفعها إلى الأعلى يوماً بعد يوم . وحسبه من ذلك وهذا ثروة لا تقوم من الخبرات الحيـة ، التي تمده بكل سديد من الرأي في مجال التعليم الإسلامي . ولا عجب بعد ذلك أن يحظى هذا المفكر العملاق بكل التقدير الذي تحفه به أوساط العلية من مثقفي العالم الاسلامي ، حتى ليجمعون على تقديه للكلام باسمهم في أكبر المؤتمرات .

ثم لا غرو أن ينـال هذا (المعلم) الممتاز مثل الحب الذي لمسته من طلابه نحوه ، حتى ليتسابقون إلى خدمته في سعادة لا توصف ، وحتى ليكون وقع الألم في أعينهم أخف عليهم من أن يلم به أي أذى مهما يكن قليلاً .

وذلك بعض فضل الله عليه في الدنيا، وللآخرة أكبر درجات -إن شاء الله- وأعظم تفضيلاً .

٩

الدكتور علي محمد جريشة

هو علي بن محمد جريشة ولد في مدينة (دكرنس) من أعمال الدقهلية بمصر في ١١/٤/١٩٣٥ .

أسرتـه :

يغلب على أسرته الاشتغال بالعلم ، ويكثر فيها العاملون في سلك التدريس ، وكان أبوه من خريجي (دار العلوم) ، ومدرساً للعربية والدين في التعليم العام ، ويصفه ابنه بأنه متدين ومحب للعربية ، وأن له مؤلفات لم تطبع في السيرة ، وبخاصة حول زوجات الرسول ﷺ . وكان على شيء من الموهبة الشعرية إذ ترك عدداً من القصائد في أغراض محدودة .

بيئته :

تنقل مع والده ما بين مسقط رأسه دكرنس - وفارا سكو والسنبلوين ، وقد قضى في هذه اثنى عشر عاماً من صباه تركت في نفسه أثرها عميقاً بما يغلب عليها من طابع المحافظة ، ومن ثم انتقل إلى القاهرة ليتخذ منها مقره الدائم .

ويصف جو البلاد ، وبخاصة القاهرة أثناءئذٍ ، بأنه عهـد تحاك بين الماضي الموروث بكل ما فيه من القيم والتقاليد، والحاضر الطارىء بما فيه من التخلخل

والتفتح ، وما بين هذا وذاك من ردود فعل أبرزها زيادة الحرص على الدين ، ولعله بذلك يحدد خواص الوسط الذي كان يحتويه من القاهرة .

ويضيف الصديق إلى ذلك أثار التفاعل الذي بلغ أشده أيامئذ بين الوفد والأحزاب السياسية الأخرى ، ثم ظهور حركة (الإخوان المسلمين) وتصاعد نشاطها على مختلف المستويات الشعبية .

دراسته :

بدأ دراسته الابتدائية في السنبلاوين ، ولما انتقل سكنهم إلى القاهرة كان قد استكمل هذه المرحلة فالتحق بإحدى الثانويات الحكومية حتى حصل على شهادتها ، ومن ثم انتظم في كلية الحقوق بجامعة القاهرة ، ولم يقف عند حدود الإجازة ، فتابع سبيله بالدراسات العليا في قسم الشريعة والقانون ، ثم مضى في طريق التوسع حتى أحرز شهادة الدكتوراه في التخصص نفسه ، وكان ذلك عام ١٩٧٥ بعد مضي ثلاث عشرة سنة على تسجيله لها ، قضى معظمها في ضيافة السجون ، فلم يتح له حضور المناقشة إلا بعد مغادرته المعتقل ، إثر زوال الكابوس الكبير.

مؤثرون في حياته :

وعن الرجال الأكثر تأثيراً في حياته يخص بالذكر عدداً من أهل العلم ، في مقدمتهم والده الذي عنه تلقى أوليات التوجيهات العملية مربياً ومدرساً ، فوضع في قلبه البذور التي لا يزايل آثارها كيانه. ويلي والده مدرس له في الفترة الابتدائية هو الأستاذ محمد عبدالحليم أحمد، ويقول : إنه كان أحد زملاء الشهيد حسن البنا، وقد ترك في نفسه أثراً عميقاً بما كان يتصف به من الفضائل التي تجعل منه أسوة حسنة لتلاميذه، ومن أساتذته الثانويين يذكر الأستاذ عبدالعزيز خليل — المدرس الأول — الذي بسبب من استقامته وحرصه على التزام الفصحى كان له — مع والده — أكبر الفضل في تحبيبه بلغة القرآن ، فإذا ما وصل إلى المرحلة الجامعية أشاد بأثر أستاذيه العلامتين عبد الوهاب خلاّف ومحمد أبي زهرة في

الجانب الديني من عقله وقلبـــه ، وفي الجانب الفكري يشير إلى بعض أساتذة القانون ولا سيما الدكتور عبد الفتاح عبد الباقي ، والدكتور محسن شفيق ، ويخص الدكتور سيد صبري من حيث أثره في توجيهه نحو العمق العلمي .

علومه المفضلة :

أما العلوم فأحبها إليه كما يقول : أصول الفقه ، ويعلل ذلك بأنه لا مثيل له بين العلوم الوضعية والغربية ، إذ يقدم الميزان الدقيق لرجل الفقه ولرجل القضاء ، فيمكنهما من إصدار الحكم الصحيح على الأشياء ، ويلي ذلك بنظره علم (السياسة الشرعية) وما يقابلها في الغرب من (الفقه الدستوري) ويقول إن أولى مطالعاته في هذا الفن كان كتاب (السياسة الشرعية) لشيخ الإسلام ابن تيمية ، ثم (الأحكام السلطانية) للماوردي ، ولعل إقباله هذه الأيام على دراسة (المذاهب الفكرية المعاصرة) مما يتصل بهذا الاتجاه ، من حيث علاقة ظل من هذه العلوم بالإنسان فرداً ومجتمعاً ، وبالدوافع الفكرية إلى تقصي المجاري الخفية بين الأسباب .

أحداث عاصرها :

وفي حياة المترجم أثار عميقة الغور لأحداث عاصرها منــذ مطالع صباه ، وكان أشدها فاعلية في نفسه هو ما يتصل بحركة الإخوان المسلمين ، وما تعرضت له من صدمات تركت في أعصابه وخياله دوياً لا ينقطع ، بل جراحاً يتعذر اندمالها .

يتحدث عن بعض وجوه النشاط التي جدد بها الإخوان حياة المجتمع المصري ، وبخاصة في الأقاليم ، حيث عملت الدعوة عملها في إيقاظ ما هجد من روح التدين ، وما غفا أو كاد من بواعث الوعي لمعاني الإسلام . ومن ذكرياته في هذه الناحية تلك الظاهرة المؤثرة التي توسل بها شباب الدعوة لإحياء جماعة الفجر ، فقد كان أفراد منهم ينطلقون خلال الأحياء لينبهوا النـاس إلى الصلاة في نداءات عذبة محببة سرعان ما تحرك الهمم ، وتجتذب القلوب ، فتعمر بيوت الله بعد أن كانت شبه مهجورة في مثل تلك المناسبة .

ويركز على آثار الجماعة في تصحيح ما وقر في أذهان الناس من فصل بين الدين والسياسة ، حتى باتوا يدركون إلى حد بعيد مهمة الحكم في حراسة الأمن، وتحقيق مصالح الأمة ، بعد أن كان في حسبان الأكثرين لا يعدو منصباً فخرياً يتنافس عليه أولو المال والجاه والزعامة الشعبية ، دون أن يترتب على أصحابه أية مسئولية نحو الأمة .

وتتصاعد حركة الاخوان حتى تستقطب أنظار المجتمع ، الذي بات يعلق عليها كبار الآمال، ولا سيما بعد رؤيته شباب الدعوة في مسيرتهم لقتال اليهود ، واستنقاذ الأرض المقدسة من براثن الاستعمار المتكالب عليها من ورائهم .. لذلك كان للغدرة التي أوقعها أعوان فاروق في مجاهدي الأخوان عام ١٩٤٩ ، وهم في قلب المعركة ، هزة عنيفة في قلوب المتتبعين لأوضاع هذه الجماعة وعملها الدؤوب في خدمة مصر والإسلام. ثم تلاحقت الأحداث المزلزلة، فكان اغتيال النقراشي، ثم أعقبه اغتيال الإمام البنا برصاص خلفاء النقراشي ثأراً وإرهاباً ، وما سبق ذلك من عدوان على مراكز الجماعة، والزج بكبار مسئوليها في ظلمات السجون .

وكان جو الرعب هذا كافياً ليشحن صدور المصريين بقوارع النقمة والاستعداد للتفجر ، الذي ما لبث أن تحقق في ثورة عام ١٩٥٢ ...

ولقد صادفت تلك الثورة ارتياح الكثيرين من المصريين آنذاك، وذلك أمر طبيعي على اعتبار أنها حركة تغيير تتيح للناس أن يأخذوا نفساً طويلاً ، ويثير في نفوسهم أملاً جديداً ، وإن كان مغلفاً بالغموض .

توقعات ووقائع :

على أن أخانا الدكتور جريشة يقول بأنه كان يخالف الناس في شعورهم ذاك، إذ كان في قلبه تخوف كبير من حكم العسكريين ، ويزيد على ذلك أنه كان يستشعر توقعات غير مريحة بالنسبة إلى بعض القادة دون أن يعرف لذلك سبباً ملموساً ، وقبل ظهور أي من تصرفاته المعروفة ، ثم تأيد هذا الشعور بإلغائه

لدستور ١٩٢٣ الذي دفعت مصر ثمنه سيلاً من العذاب والدماء ، وعلى الرغم من أن هذا الإلغاء قد مر دون أن تثار بوجهه أية معارضة ، فقد ضاعف من ريبته في الرجل ، إذ كان يخشى أن يساعده فراغ البلد من الدستور على تثبيت سلطته الاستبدادية ، التي يتعذر الخلاص منها فيما بعد .

ويستشهد لموقفه ذاك بأبيات لشوقي ألقاها في الكلية عقيب الفراغ من دروس مادة القانون الدستوري عام ٥٢ – ٥٣ وفيها تمجيد للشورى التي هي الضمان الأكبر للعدالة والكرامة ، ومنها :

الحق أبلج والكنانة حرّة	والعز[1] الدستور والإكبار
والأمر شورى لا يعيث مسلّط	فيه ولا يطغى بـه جبار
إيمان آباء مشَوا بسلاحهم	وبنين لم يجدوا السلاح فساروا

وتتفاعل في صدره التوقعات المزعجة ، فيسجل ما يتصوره منها في أبيات ينفث خلالها كل كرهه وشكه في نوايا ذلك الرجل ، منها :

هذي السجون شكت لربك ظلمكم	ودعت عليك بخيبـة وبوار

وكان ميلاد هذه الأبيات في العام ١٩٥٢ نفسه ، إذ كان كل ما هنالك ينبىء باتجاه الانقلابيين نحو هذه الغاية الرهيبة – كما يقول الدكتور – .

سياط ومسدسات :

ويصف حادثة ذلك اليوم قائلاً : لقد دأبت الجامعة على إحياء ذكرى شهدائها في معركة القناة كل عام ، ويقوم شباب الإخوان في الجامعة بإعداد الحفل والإشراف على تنظيمه .. وفي اليوم المعين فوجئت الجامعة بكوكبة من (هيئة التحرير) تحاول القيام بهذه المهمة ، على اعتبار أن الشهداء من حزبها !..

---

(١) وهذه من هنات شوقي (رح) فالعزة لله ولرسوله والمؤمنين .

ولكن شباب الاخوان لم يلبثوا أن استولوا على الموقف ، وبدأوا الاحتفال على الوجه المعتـــاد في تنظيم دقيق ، يقوم على رأسه زعيم طلبة الجامعة الأستاذ حسن دوح ، ويحضره من الضيوف الشهيد نواب صفوي، قائد حركة فدائيان إسلام في إيران .

وبينما الناس يتابعون الاحتفال في غمرة من الذكريات العزيزة المفيدة – إذ هم بمجموعة من شباب منظمات التحرير تقتحم فناء الجامعة في حركة شبه عسكرية ، وخلفهم سيارة جيب للجيش عليها ضابط المخابرات كمال يعقوب ، وتحمل شحنة من السياط السودانية والمسدسات ، وجعل هـذا الضابط يطلق الرصاص باتجاه التجمع ، ويقوم بتوزيع السياط على شباب المنظمات .. وهناك تقدم أحد الأخوان المدربين في معارك القنـــاة وفلسطين – فتحي البوز – واستطاع بالمصارعة اليابانية أن يهوي بالضابط المعتدي من أعلى السيارة إلى الأرض، ويجرده من مسدسه.. وتلا ذلك قيام بعض الشباب بإحراق السيارة .

أكاذيب ومحاولات :

وفوجىء الناس مساء اليوم نفسه ببيان مجلس قيادة الثورة يصور الحادث مقلوباً، إذ يجعل الإخوان هم المعتدين ، ويعلن القبض على المرشد العـام بتهمة أشد بعداً عن الواقع، وأدل على ما يبيت الثوريون من شر للجماعة ، فقد زعموا في بيانهم هذا أنه اتصل بالإنكليز من وراء ظهر الثورة ... وكان معلوماً عند الواقفين على مجاري الأمور أن اجتماع المرشد بالمستشار الثقافي للسفارة البريطانية (ايفانز) قد تم بتوجيه من قيادة الثورة ، ومن جمال عبد الناصر ذاته ، الذي وجد في هذا الاتصال فرصة لتقوية مركز المفاوض المصري، فطلب إلى المرشد أن يتغالى في شروطه ومطالبه من الإنجليز في قضية الجلاء ، حتى يبدوا هم متساهلين معهم بالنسبة لتشدد الإخوان .

وكان لذلك الاعتقـال أثره الكبير في الوسط الجامعي فلم يلبث أن تفجر بالتظاهر احتجاجاً على ذلك التصرف الأحمق ، ومطالبة بالحرية والإفراج عن

المعتقلين ، وشملت القضية هيئـــة التدريس فشارك بعض أفرادها بالاحتجاج ، وأصدروا البيانات الصارخة بمعارضة الاستبداد، والإلحاح على إطلاق الحريات. وبدلاً من أن يجد ذلك صداه لدى العسكريين فيعدلوا من خطتهم المنذرة بأصناف الشرور ، أبوا إلا الإصرار على مسلكهم الطائش ، وبعثوا بأحـــد أعضاء القيادة ليقنع مجلس الجامعة بالموافقة على دخول قوات من الجيش حرم الجامعة لإخماد حركة الطلاب ، ولكن المجلس رفض بإباء تلك المساومة ، بل رفض خروج أحد من الأعضاء للقائه أثنـاء الاجتماع ، وعندما التقى الوفد بالمسئول أسمعه هذا رداً جافاً ، كان عاقبته أن اعتقل في اليوم نفسه .

تظاهرة وشهداء :

وبلغت النقمة الشعبية ذروتها في التظاهرة الضخمة التي قادها عبدالقادر عودة إلى ميدان عابدين عـــام ١٩٥٣ ، وعلى الرغم من الرصاص الذي أطلق على الجموع ، وأصاب العديد من طلاب الجامعة هناك ، لم تزل تتصاعد في اضطراد حتى لم يجد المسئولون مندوحة عن الانكسار أمام ضغطها ، وأعلنوا تراجعهم عن التدابير التي اتخذوها لمقاومة الإرادة الشعبية ، وانطلت الحيلة على قـــادة التظاهرة ، ففوتوا على البلاد فرصة الخلاص من الحكم العسكري ، كما فوتوها من قبل ومن بعد ، وتركوا للمتسلطين المجال فسيحاً لاختلاق ظروف أخرى تمكنهم من القضاء على جذور المعارضة والمعارضين .

من القضاء إلى السجن :

ولقد عرف قراء العربية الكثير مما عاناه هذا الأخ في ظل الحكم الماضي في مصر ، حتى أصبحت قصته من المعالم التي تعيّن مسار الحياة السياسية في مصر . وهنـا يحدثنا فضيلته ببعض هذه الأحداث التي لا بد من تسجيلها في عصر كهذا .

يقول : إنه عقيب تخرجه في الحقوق عين في النيابة العامة بمدينة السويس ، ومن هناك أتيح له أن يشهد الكثير من صور المأساة التي أنزلها العدوان الثلاثي في وطنه ، ومـــا رافق ذلك من أضاليل السياسة المهيمنة على مقدرات هذا الوطن .

لقد رأى بعيني رأسه طائرات الجيش المصري تحترق في مرابضها دون أن تقوم بأي عمل للدفاع عن نفسها وعن بلادها .. ومع ذلك لم يتورع كبير المسؤولين عن هذه الكارثة التاريخية أن يعلن للشعب أن الطائرات التي احترقت لم تكن سوى طائرات هيكلية وأن الطائرات الحقيقية لا تزال سليمة لم يمسسها سوء .

يقول : إنه سمع هذا التصريح من فم الرئيس نفسه إذ كان يخطب على منبر الجامع الأزهر ، فلم يستطع ضبط نفسه ، فإذا هو ينطلق بقهقهة محترقة أصابت مسامع من حوله ولم تخطىء سمع الرئيس نفسه .

وخلال عمله في النيابة لمدة ست سنوات أتيح له الاحتكاك بمختلف الطبقات ، ويخص منهم بالذكر ضباط الشرطة وضباط الجيش ثم رجـــال القضاء ، وقد زودته خبرته تلك بتجارب واسعة وعملية ما كان يوفق إليها لولا وجوده في ذلك العمل .

ويرى من أهم الأحداث التي واجهها في هـــذه الفترة تلك التي نلخصها في ما يلي :

ذات يوم ، وكان وكيلاً للنيابة ، تلقى بلاغاً من المباحث العامة يقول بأن أحد الموظفين قد أرسل برقية سباب إلى رئيس الجمهورية ، فطلب إليهم إحضاره لاستجوابه ، وقام بالتحقيق في جو مشحون بالرهبة . وبينما كانت الشرطة تترقب منــه أقسى الإجراءات بحق هذا الموظف ، إذا هم يفاجأون بقراره القاضي بالإفراج عنه دون ما كفالة ، على الرغم من إقراره بالبرقية ومــا تضمنت . وعلل ذلك بانعدام عنصر الجريمة في الموضوع .

يقول الصديق : وكانت ردود الفعل كثيرة في أعقاب ذلك القرار ومتعددة المصادر ، إلا أن الله حفظني من عواقبه ، فلم يتخذ بحقي أي تدبير مضاد ، وكأني بقراري ذاك قد شجعت بعض الناس على التنفيس عن صدورهم ، فراح يجرب حظه في هذا المضمار. وذهب أحدهم إلى دار المحافظة يصرخ بشتم الرئيس، ظناً منه أن النيابة لا تحبس من يشتمه ، ولكن خاب فأل ذلك المسكين ، إذ أحيل إلى وكيل نيابة آخر لم يلبث أن أصدر قراراً بحبسه .

ثم يتابع : لقد نقلت عقيب ذلك من النيابة للعمل في مجلس الدولة بوظيفة قاضٍ عام ١٩٦٠ وظللت في عملي هذا إلى يوم اعتقالي سنة ١٩٦٥ .

في أتون العذاب :

ولا حاجة إلى التحقيق في مسببات اعتقاله ، إذ أصبحت العلة المشتركة بين معتقلي الإخوان كلهم معروفة .

أما التهمة المباشرة فادعاء مشاركته في التآمر لقلب نظام الحكم ضمن مجموعة المتهمين بالعمل لذلك تحت قيادة الشهيد سيد قطب .

وبعد زمن مشحون بألوان التعذيب ، الذي تعجز الأقلام عن استيعابه ، يصدر الحكم على المتهم البريء بالسجن مع الأشغال الشاقة لمدة اثني عشر عاماً ، قضى منها ثمانية ثم فرج الله عنه بقرار العفو الذي شمله مع الكثيرين، بعد إذ تبين لأولي الأمر الجدد أن القضاء على الإسلام ليس سبيله الإرهاب والقتل وتعريض الأسر الكريمة للسقوط ، كما اقترحت ذلك عصبة الطواغيت .

فإن مثل هذا النكال لا يعدو أن يخيف الناس ، فيحول صراخهم إلى غليان داخلي يترقب الفرصة المواتية للانفجار ، وها هي ذي الشواهد قائمة في كل مكان من مصر على أن الأتون الأحمر لم يزد الإسلام إلا تألقاً ، ولم يزد المؤمنين به إلا تفانياً في حبه وتصميماً على الموت في سبيله .

ولقد كان من حق هذه التجارب الحاسمة أن تقنع من لم يقتنع بها حتى الآن من حكام المسلمين ، فيعدلوا عن طرائقهم في حرب هذا الدين . ولكن المؤسف أن العبرة أبعد ما تكون عن القلوب المغلقة . وإني لأكتب هـذه الكلمات وفي سمعي دوي التصريح الذي يتهم بـه ذو الفقار بهوتو العلامة أبا الأعلى المودودي بتوزيع السلاح على اعضـاء الجماعة الإسلامية لنشر الإرهاب ، وفي النشرة الإذاعية نفسها اتهام الشيخ المودودي رجال بهوتو الرسميين بمحاولة إلقاء السلاح في بيته ، لتأليف التهمة الباطلة ضده وضد جماعته ... وهذا يعني أن هناك خطة شيطانية جديدة يدبرها أعداء الإسلام لإحداث مجزرة جديدة في صفوف الأبرياء ...

مأثرة القضاء المصري :

وخيراً فعل هذا الشهيد الحي حين لجأ إلى القضاء المصري بملاحقة المجرمين ، الذين تعاونوا على تعذيب الأبرياء ، فأغرقوا مصر الحبيبة في بحر لا ساحل له من الإذلال والقهر .

وخيراً فعل القضاء المصري حين رد لمصر كرامتها السليبة ، بما سجله من فضائح العصبة الطاغية ، وبما أعلن من براءة الفئة المؤمنة ، فضمد بذلك الكثير من الجراح التي ما برحت تنزف بالدماء .

وفي مقالة تحت عنوان «مرحى لقضاء مصر» كتبتُ أثر صدور ذلك القرار الكريم ما يلي :

« أيام محنة الإخوان في مصر استُصرخت ضمائر الهيئات العالمية لما يجري في المعتقلات من أفانين التعذيب الوحشي ... ورأى الجلادون أن يأذنوا لبعضها بدخول مصر للاطلاع ، ولمجرد تضليل الرأي العـام ، وفعلاً واجهوا بعض نزلائها ، ثم خرجوا يعلنون على ألسنة الوكالات العالمية سلامة الوضع ، وتمتع المعتقلين بكل حقوقهم الإنسانية !

ولا حاجة إلى القول بكذب تلك التكذيبات ، بعد أن ثبتت الوقائع باعتراف المسؤولين، وعن طريق المشوهين، الذين أتيح لهم أن يغادروا سراديب الموت في السجن الحربي ، ومعتقل الطور ، وظلمات أبي زعبل وأخواتها ... ولكن الشيء الذي لا يزال ملفوفاً بالغموض هو نوعية الأكاذيب التي أعلنتها تلك المنظمات ، أقد تعمدتها وهي بها عالمة ، أم أن الجلادين قد جمعوا ممثلي الصليب الأحمر ببعض سجناء اليهود ، الذين كانوا ينعمون بمستوى عال من الرفاهية هناك ، كما يروي مؤلف كتاب « أقسمت أن أروي » وأوهموهم أنهم أمام معتقلي الإخوان بالاتفاق مع أولئك السجناء اليهود طبعاً ؟..

وهكذا خرجت مخابرات القاهرة يومئذ ظافرة في ذلك الامتحان، فلم يشر إليها حتى بكلمة استنكار . واليوم ، وبعد انقشاع سحب الإرهاب عن ربوع مصر العزيزة، رأينا الدكتور عبدالله رشوان، الخارج من ظلمات السجن الحربي، يحاضر في نقابة المحامين بالقاهرة عن عهود التعذيب التي وضعت مصر كلها في القيود ، ويكشف عن أسراره ما فاق كل معلوم من أخباره .

وفي نهاية المحاضرة يعلن الأستاذ نقيب المحامين أن النقابة سترفع الدعوى على جلادي مصر أثناء تلك الفترة الحالكة . وانتظرنا ، ولا نبرح ننتظر ، دون أن نلمح أي بادرة تبشر بتحقيق ذلك الوعد .

على أن أسعد ما لمسناه حتى اليوم من انتفاضة الضمير المصري في نطاق هذه الأحداث ذلك القرار الذي أصدرته إحدى محاكم القاهرة في قضية الدكتور علي جريشة ، أحد ضحايا تعذيب السجن الحربي طوال ثماني سنين ، فسجلت به أول انتصار في التاريخ الحديث على السلطة الخفية . إذ كان مضمون القرارات إدانة فاضحة لذلك العهد ، ومن ثم للهيئات الدولية التي أعلنت نظافة تلك السجون من فنون المنون .

لقد قضى القرار للدكتور جريشة بثلاثين ألف جنيه تعويضاً له عن مصادرة حريته ، وتعريضه لألوان التعذيب خلال سنوات اعتقاله الظالم ... وتقدم في

نصرة العدالة خطوة أبعد فقضى بوجوب إحالة وزراء العدل لذلك العهد إلى القضاء بتهمة التستر على تلك الجرائم ، ثم توج تلك المفخرة بالإصرار على ضرورة هدم السجن الحربي ، بوصفه رمز الذل الذي فرض على مصر طوال ذلك العهد الدامي .

أجل لقد كان هذا القرار العظيم أول انتصار للحرية على عبودية القهر ، فاستحق أن يخلد بجانب الانتصار العسكري ، الذي حققه الجيش المصري على خط بارليف تحت راية (الله أكبر) بعد الهزائم التي مني بها أيام كان يزحف تحت راية الطغيان ، مزوداً برسوم الرقعاء من (نجوم الرقص) والغناء ... إنه الضربة الأولى في أساس (باستيل) حمزة البسيوني وشمس بدران وصلاح نصر وبقية الطواغيت ... ولا بد أن تتبعها قريباً أو بعيداً الضربات التي تأتي عليه من القواعد ، فيخر ملعوناً مذؤوماً ، كما خر من قبله (باستيل) الطواغيت في فرنسة على رؤوس جلاديه .

بهذا القرار العظيم دخل المسلمون مرحلة التحرر من كابوس المخابرات ... فبات من حقهم أن يترقبوا الخطوات التالية ، التي ترد للإنسان المسلم الكرامة التي قررها له الإسلام ، وسلبه إياها الظُّلام في عهود الظلام .

أما ما سبق ذلك من إحراق أشرطة التجسس فلا يعدو أن يكون محاولة لإخفاء الحقائق الرهيبة بدلاً من إبرازها — على رأي الدكتور رشوان — .

فمرحى لقضاء مصر . ومرحى لقراره الذي كان أكبر فضيحة لحاكم جمال سالم وزكريا محي الدين وبقية السفاحين .

وتوقف التعذيب :

ويطرفنا فضيلة الأخ أكرمه الله من أحداث السجن — ولا حاجة لعرضها بعد صدور كتابه عنها « في الزنزانة » — يطرفنا بالأقصوصة التالية :

يقول: في غمرات التعذيب الهائل صارحه المشرفون على الجلادين أن السبيل الوحيدة لدفع البلاء عنه محصورة في أن يقدم معلومات مفصلة عن ثلاث تنظيمات، على أن يكون أفرادها ممن عرفهم أثناء أعماله السابقة في الشرطة ، والجيش ، والمباحث . ونازعته نفسه لحظة ... بين أن يستمر في التحمل أو يفضي بالذي يريدون ، فيريحها من أثقال العذاب . وكاد يقهره الضعف ، ولكن الله سلم ، وألفى نفسه ينطلق بنكتة ساخرة لم تلبث أن غيرت مجرى حياته .

قال لجلاديه : نعم . سأخبركم ... فاسمعوا .

وراح يسمي بعض الضباط ويشير إليهم بيده : هذا... وهذا... وهذا... وكلهم ممن يقوم بتعذيبه وإخوانه !

وأدرك مدير الشرطة العسكرية أن محاولتهم لن تأتي إلا بمثل هذه النتيجة، التي لن تكون في مصلحتهم ، لأن مجرد ذكر المتهم أي اسم كاف للقبض على صاحبه ، وإخضاعه لأفانين التحقيق .

وهكذا توقف التعذيب ، وجاء فرج الله من حيث لم يحتسب .

المدرس العالم :

ولم يعد إلى القضاء بعد مغادرته المعتقل ، بل اتجه إلى العمل في التدريس ، فبدأ ذلك في كلية الشريعة والقانون التابعة للأزهر ، وبعد سنة انتقل إلى الرياض ليعمل في جامعتها ، ومن ثم إلى الجامعة الإسلامية بالمدينة ، حيث قدر الله لنا لقاءه ومزاملته ، وسعدنا بالعمل معه في بعض المهام الخاصة بالجامعة ، فكانت فرصة لتعرف المزيد من فضائله التي تستحق المزيد من التقدير .

ولا نخبر بمجهول عندما نقول إن أبرز الخصائص التي يحسها منه عارفوه ، ذلك الإخلاص الذي يوليه كل عمل يعهد به إليه ، فيقبل عليه بكل طاقته حتى يوفيه حقه . وبهذه الميزة يستحوذ على احترام الجميع ، وبخاصة طلابه الذين يحبونه من كل قلوبهم ، ويحبهم من كل قلبه ، فهو معهم بمقام الأب الذي لا يضن

على أبنائه بخير، لا مقام الموظف الذي يعدد أياماً ليقبض راتباً ... وإنها للميزة التي تطبع كل ما يكتب من بحوث ومقالات ومؤلفات، فتفرض نفسها على شعور القارىء حتى ليخيل إليه أنه يقرأ لأعز الكتّاب عليه، هذا إلى ما يميز نتاجه الفكري من منهجية علمية، لعلها أثر من دراساته الحقوقية، وممارساته القضائية، مضافاً إليها امتداد في الثقافة يمكنه من الجولان في أي ميدان يمس الفكر والنفس، وكل ذلك في صياغة أدبية تؤكد ما حدثنا بـــه من حبه للبيان العربي.

مؤلفات وشعر :

وعن الشعر يقول الدكتور: لم يكن من صناعتي، ولكني نظمته، بل نطقته أحياناً، كرد فعل لأحداث أثارتني، كان من بينها على سبيل المثال تنفيذ حكم الإعدام في الشهيد عبد القادر عودة وصحبه الأخيار عام ١٩٥٥. وأذكر من ذلك أبياتاً جاء فيها :

أو ما رأيت على المشانق زمرة ... ملء العيون ونورها إيمانا!

يمشون للموت الرهيب أعزة ... باعوا النفوسَ وبايعوا القرآنا

ومنها في خطاب الشهيد :

لهفي عليك إذا المشانق نصّبت ... ورفعت صوتك عالياً رنانا

«روحي فدى الإسلام إن عزَّ الفدا ... ودمي يلاحق عصبة خوانا»[1]

آراء سريعة :

وعن مستقبل الجيل الإسلامي يقول :

لقد أثبتت سياسة القمع والإرهاب إخفاقها في حرب الفكرة الإسلامية بمصر، وأقبل الشباب — على الرغم من غياب الدعاة — على الدعوة في وعي

(١) البيت تلخيص لآخر كلمات الشهيد عودة أمام حبل المشنقة رحمه الله.

وحماسة ، مما اضطر (السادة) المحركين للعبيد أن يعدلوا من خطة الإرهاب التي اتبعوها في ربع القرن الأخير ، وخير لهم أن يبقوا على خيوط العنكبوت يحفظ مصالحهم الاقتصادية بدلاً من أن يعرضوا مصالحهم ووجودهم كله للخسارة والضياع ، فقانون الحياة الطبيعي أن لكل فعل رداً مساوياً له في القوة ، ومضاداً له في الاتجاه .

وعن مهمة العلماء في ضبط مسيرة الجيل يقول :

العلماء هم العنصر الثاني الذي يصلح به الناس .

ولا شك أنهم يملكون الكثير إذا أوتوا قبل العلم الاخلاص، ثم أوتوا مع العلم الصبر والدأب والوعي .

ولقد قام المجتمع الاسلامي الأول بالعلماء وعلى العلماء ، فلا غرو أن يقول فيهم رسول الله ﷺ أنهم ورثة الأنبياء .

لكن علينا أن نعلم أن القدوة الصالحة أعمق في التأثير من مئة خطبة بغير قدوة .

دروس المحنة :

وكان لا بد من استفسار الصديق عن ردود الفعل للمحنة التي عاناها في سجون الطغاة . فأجاب : كانت خيراً كلها ولله الحمد .. وهيهات لي أن أعدد نعم الله عليّ ظاهرة وباطنة ، أثناء المحنة وبعدها . إنها فوق ما أستحق وما كنت أتصور . والله نسأل أن يحيينا بالاسلام ويميتنا عليه، فهو الدين الحق الذي لا يقبل من أحد سواه ، وهو العلاج الوحيد للشقاء الذي يعيشه الناس اليوم أفراداً وأسراً وجماعات وأمماً .

« أفمن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس ، كمن مثله في الظلمات ، ليس بخارج منها !.. »



١٠

الشيخ محمد الأمين الشنقيطي

شيخنا وأخونا وزميلنا العالم القرآني الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي الجَكَني عليه رحمة الله .

والأمين كالمختار من الأسماء التي كثيراً ما تقرن باسم محمد عند الشنقيطيين تبركاً وتيمناً وتعبيراً عن حبهم لرسول الله ﷺ . والجكني نسبة إلى القبيلة التي تنحدر من جدها الأعلى (جاكن) الذي يرجع في أصله إلى حِميَر .

وُلد عام خمسة وعشرين وثلاثمئة وألف للهجرة في (تنبه) من أعمال مديرية (كيفا) من موريتانية التي غلب عليها اسم شنقيط عند نسبة السكان، وهو اسم لقرية معروفة من أعمال مديرية اطار في أقصى الشمال من موريتانية .

نشأ ، أحسن الله مثواه، في جو يغلب عليه طلب العلم وروح الفروسية تأثراً بالوسط القبلي الذي فيه نما وترعرع وشب . وهو وسط تحتضنه البادية ، ويغلب عليه التنقل طلباً للمناخ الأصلح ، وإلى هذا يشير أحد مشايخ الجكنيين إذ يقول :

ونحن ركب من الأشراف مُنتظم   أجل ذا العصر قدراً دون أدْنانا
قد اتخذنا ظهور العيس مدرسة   بها نبيّن دينَ الله تبيانا

فهو يصف قومه بأنهم (ركب) للدلالة على استمرار تنقلهم ، ويرى أدنى فرد من قبيلته أعلى مكاناً من أعاظم رجال عصره ، وأنهم بالتالي مواظبون على مذاكرة العلم ، لا يمنعهم منه حل ولا ترحال ، إنه العلم الذي يثبت في القلوب دين الله ، ويوضح لطالبيه أحكام الشريعة .

ثقافته :

ينقل تلميذه الشيخ عطية محمد سالم ، القاضي بمحكمة المدينة ، عن شيخه أنه يقول : توفي والدي وأنا صغير أقرأ في جزء عم ، وترك لي ثروة من الحيوان والمال ، فسكنت عند أخوالي ، الذين حفظت القرآن على أحدهم عبدالله بن محمد المختار ، ولما أتجاوز العاشرة من سني .

وعلى منهج القوم في باديتهم جعل يتدرج في مراحل العلم ، فتعلم رسم المصحف العثماني على ابن خال له ، ثم درس عليه التجويد على قراءة نافع برواية ورش ، ونال بذلك إجازة تصل قراءته برسول الله ﷺ وهو في السادسة عشرة .

وعلى طريقة السلف من حيث العناية بكتاب الله أتيح للشيخ أن يدرس على شيوخه في القبيلة الكثير مما يتعلق بحروفه ومفرداته وتراكيبه . وأولع بذلك حتى نظم بعض التذييلات على بعض المتون الخاصة بالقراءة .

وتابع الشيخ دراسته ، فقرأ المختصرات من فقه مالك الذي يعم معظم الشمال الإفريقي وما حوله .. وأقبل على الأدب يدرسه على زوجة خاله الذي يتولى تغذيته بعلوم القرآن ، وأخذ عن هذه الشيخة أيضاً مبادىء النحو إلى جانب الفنون الأخرى من أنساب العرب وأيامهم ، ثم ما لا بد من معرفته هناك عن السيرة النبوية وغزوات الرسول ﷺ . وبين مراجع هذه العلوم متون منظومة تبلغ المئات من الأبيات .. ومن هنا كان ما نلمسه في حديث الشيخ طيب الله ثراه من تبحر في أنساب العرب وعلائق قبائلهم وأيامهم ، بصورة تغني عن الرجوع إلى مختلف الأسفار .

ولم يقف الشيخ رحمه الله عند دروس آله ، الذين كانوا مثابته الأولى ، فجعل يتصل بآخرين من علماء القبيلة ، فيتلقي عنهم ما ينقصه أو يزيده قوة من مختلف الفنون ، كالنحو والصرف والبلاغة والأصول والتفسير وفنون الحديث .

وكان على الشيخ رحمه الله ألا يكتفي بما يتلقاه عن شيوخه وشيخاته ، فراح يكب بنفسه على مختلف الأسفار في ما درس وما لم يدرس ، ومن هنا توافر له ذلك التضلع الملموس في علم المنطق وأصول البحث والمناظرة مما لا يكاد يضاهيه فيه إلا الأقلون .

مناهج طريفة :

ويحدث الشيخ غفر الله له عن مسلكه التعليمي أيام الطلب ، فيعرض لنا صورة حية عن بعض أولئك الشيوخ الذين يقفون أنفسهم على نشر العلم في أوساط تلك القبائل .

إن الواحد من هؤلاء ليتنقل من حي إلى آخر في سبيل نشر ما يحمله من العلم، فإذا آنس من قوم رغبة نزل فيهم، وأقبل عليه الطلاب ينهلون مما عنده، دون أن يكلفهم شيئاً، بل المألوف أن ينفق على المحتاجين منهم إذا كان ذا يسار، ويسمون الشيخ من هؤلاء (مرابطاً) وما أصحها تسمية .. إذ هو كالمرابط في سبيل الله لا عمل له إلا تغذية القلوب بما يحييها ، وتزويد النفوس بما يهديها ويصونها من مزالق السوء .

ومن الأصول المعهودة في هذه المدارس – القائمة في الهواء الطلق – أن يقسم الشيخ طلابه مجموعات ، لكل واحدة دروسها المناسبة في أوقاتها المحددة .

ومما يسترعي الانتباه في هذه المناهج أن لا يجمع الشيخ على تلميذه أكثر من فن واحد ، فإذا بدأه استمر فيه حتى يستكمله ، ومن ثم ينتقل إلى سواه ... وهكذا دواليك .

والطالب يجمع بين القراءة والكتابة جميعاً ، فهو يكتب الجزء المطلوب من

متن العلم المراد على لوحه الخاص ليقوم بحفظه ، فإذا فرغ منه محـاه وأتبعه بالجزء الآخر كتابة فحفظاً ، حتى إذا استوفى المكلف حفظه أقبل على الشيخ يتلقى شرحه وفق ما يحتمل .. وبذلك لا يكاد الطالب الجادّ يفرغ من مقرراته حتى يكون قد تمثلها تصوراً وإملاء وفهماً .

ولا جرم أنها صور طريفة من المناهج يستغربها القارىء الذي يعلم أن الدراسة قد استحالت هـذه الأيام إلى ضرب من الإرهاق ، الذي لا يتوقع من ورائه أي مردود علمي صحيح .

إنهـا المناهج تثقل الطالب بحمل مقرراتها اليومية ، وتقتضيه من الجهود ما يذهب بصحته ، وربما بعقله أيضاً . وعليه أن يلتهمها جميعاً ، ويتقيأها جميعاً ، وإلا كان من الراسبين المحرومين ، الذين لا حق لهم بأي عمل رسمي .

ومن هنا ، من الفرق بين الطريقتين ، جاءت الفروق الكبرى بين ثمرات كل منهما ، فإذا كان من طبيعة الأولى تخريج العلماء ذوي العمق والتحقيق فمن شأن الأخرى تخريج الموظفين ، الذين لا يكادون يؤدون امتحان المقررات حتى يفارقوها إلى غير رجعة .. إلا من ميزه الله بموهبة خارقة ، أو أحاطه ببيئة صالحة ، تحبب إليه اكتشاف المجهول من عوالم العلم .

ولا بد من ملاحظة أن تلك المناهج الغريبة عمـا نعهده اليوم في المدارس والمعاهد والجامعات ، إنما هي بقية معدّلة من أساليب التعليم التي تكونت في ظل الحضارة الإسلامية ، إذ بدأت في المساجد حلقات ، ثم تحولت فصولاً في المنشآت المخصصة للعلم .. فأدت مهمتها كاملة بإعطاء العالم أعاظم رجال الفكر في نطاق الدنيا والدين .

بواكير مبشرة :

ونعود إلى جهاد الشيخ في طلب العلم ، حيث يروي لنا تلميذه عن لسانه أن أهله لما آنسوا منه استعداده لذلك وجهوا إليه عنايتهم ، فزودوه بمـا يعينه

عليه ، فقدم على بعض المشايخ ممن عرفوا بسعة العلم ، وحين سأل الشيخ عنه قائلاً : من هذا ؟ أجاب مرتجلاً :

هذا فتى من بني جاكان قد نزلا . . . .
رمت بــه همة علياء نحوكم إذ شام برق علوم نوره اشتعلا
فجاء يرجو ركاماً من سحائبه تكسو لسانَ الفتى أزهارُه حللا
إذ ضاق ذرعاً بجهل النحو ثم أبى ألا يميز شكل العين من (فعلا)
وقد أتى اليوم صبّاً مولعاً كلفاً بـ (الحمدُ لله) لا أبغي به بدلا

فهو يمدح الشيخ بالإشارة إلى ما اشتهر به من العلم ، ويفخر بنسبه وعلو همته ، ويعرض حاجته إلى علم الصرف ، حاصراً مطلبه بلامية الأفعال المبدوءة بحمد الله .

وقد حذفنا عجز البيت الأول لعدم وضوحه بسبب الرواية —على الغالب— ويلاحظ من أسلوب النص أنه محاولة أولية في النظم ، تجري على لسان فتى لا يزال في طور الحداثة ، فتنم عن استعداد صالح للتقدم .

وشغل الفتى بحب العلم عن كل ما عداه ، فلما فوتح في أمر الزواج لم يتردد في إيثار العلم والدواة على العذارى الفاتنات :

دعاني الناصحون إلى النكاح غداة تزوجتْ بعض الملاح
فقــالوا لي تزوج ذات دَل خَلوب اللفظ جائلة الوشاح
كأن لحاظها رشقاتُ نبل تذيق القلب ألوان الجراح
فقلت لهم دعوني إن قلـبي من الغي الصراح اليوم صاحي
ولي شغـل بأبكار عذارى كأن وجوهها ضوء الصباح
أراهـا في المهارق لابسات براقع من معانيهـا الصحاح

إنه مشغول بمتعة العلم عن الأنس بالزوجة ، حتى ليصرفه التفكير بالمعاني الغوامض عن حاجة نفسه ، التي هي أشد ما تكون تفتحاً إلى ذلك الأنس .

ولا جرم أنها طلائع حياة لا يستغرب أن تكون حافلة بروائع التفوق الذي لم يلبث أن تجلى في ذلك الاستيعاب الموسوعي الذي لا نعرف له مثيلاً في غير الكبار من أساطين العلوم الذين نقرأ عنهم ونقرأ آثارهم .

الشيخ القاضي :

لا يزال لعلوم الشريعة قيمتها الرفيعة في مختلف أرجاء العالم الإسلامي ، فحملة هذه العلوم هم مرجع الناس في كل ما يعترضهم من مشكلات يومية ، يسددونهم إلى المسلك الأقوم ، ويفتونهم في ما اختلفوا فيه من الحق .. وبذلك ينهضون بمهمة الإفتاء والإرشاد ، ويحملون عن القضاة كثيراً من أعبائهم .. وطبيعي أن يكون ذلك في البادية أوسع انتشاراً وتركيزاً منه في الحواضر ، ومن هنا كان لشيخنا، تغمده الله بواسع الرحمة، مهامه الكثيرة في ذلك الوسط، الذي يعتبر فيه العالِم مرجع الكافة في كل شيء .. فكان المفتي والمرشد والواعظ والمصلح والقاضي.. يتقاضى إليه المختلفون فيستكتبهم الإقرار بقبول حكومته، ثم يثبت اعترافات كل من الخصوم على حدة ، وبإزائها ردود الغريم ، ثم يصدر حكمه معللاً مؤيداً بالأدلة الشرعية من مذهب مالك .. فإذا وصل حكمه إلى المشايخ صدقوه ، وإذا رد إلى الحكام نفذوه دون تردد .. وكان يقضي على هذا النحو في كل قضية تعرض لديه إلا الدماء والحدود ، إذ كان للدماء قضاؤها الخاص في أنظمة السلطة الفرنسية ، فمحاكمها هي التي تنظر في كل ما كان ذا صلة بهذا الأمر ، فإذا انتهى حكمها إلى الإعدام عرضته السلطة المختصة على (لجنة الدماء) وهي مؤلفة عادة من اثنين من كبار علماء الشريعة ، وعلى موافقة هذه اللجنة يتوقف نفاذ الحكم .. وكان الشيخ أحد هؤلاء العلماء المعتمدين لأعوام طويلة .

رحلة الحج :

شاء الله أن يبدأ الشيخ مرحلة جديدة من حياته المباركة ، فأزمع القيام بأداء فريضة الحج ، ولا ندري لمَ آثر أن تكون رحلته عن طريق البر دون غيره من وسائل السفر.. ولعل ذلك عائد إلى أمرين أحدهما ألفته ظهور الإبل، التي قضى معها العشرات من سنيه حتى خالطت آثارها كيانه ، فهو حتى بعد استقراره في مدينة المصطفى ، صلوات الله وسلامه عليه ، واستعماله السيارة في تنقلاته ، لا يبارحه الحنين إلى ذلك العهد .. وما أدري كم من حجة أداها على متن البعير ، ضاحي الرأس للشمس ، التي طالما ألفها في صحراء شنقيط .

والمخالطون للشناقطة عن كثب يلمسون احتفاظهم بالكثير من طوابع بيئتهم الأولى، مهما طال بعدهم عنهم وفراقهم لأهلها .. وقد لاحظت امتيازهم بهذه الخاصة على سائر جيرانهم من الأفارقة ، حتى في ثيابهم والألوان التي يؤثرونها لها .. وفي المدينة غير قليل من مهاجريهم لا يكادون يفارقون أزياء الصحراء التي انتقلوا عنها .. فثوب الرجل منهم صورة من الخيمة التي ألفها هناك : قطعة فضفاضة من القماش المصبوغ بالزرقة ، شق أعلاه لإدخال الرأس ، وأسبغ سائره على الجسم فوق السراويل ، وقد احتفظ بفتحتين ممتدتين على جانبيه لتسرب الهواء ، كما تحتفظ خيمة البادية ببابين متقابلين للغرض نفسه .. ومع أن أهل العلم منهم شيوخاً وطلاباً قد يعدّلون في أثوابهم فيقتربون من الثوب الحجازي ، إلا أنهم لا يستنكفون أن يراجعوا ثوبهم الموروث بين الحين والآخر . وقد ساعدهم ذلك على الاحتفاظ بالكثير من خصائصهم المتوارثة ، كما أسلفنا ، وبذلك يختلفون عن سائر الأفارقة ، وبخاصة الشباب ، الذين يسارعون عادة إلى اقتفاء أزياء الأوروبيين – أعدائهم التقليديين – حتى في أشكالها البعيدة عن الذوق المسلم ، ولا يستثنى من ذلك كثرة الطلاب الأفارقة في الجامعة الإسلامية ، على الرغم من كل المواعظ التي توجه إليهم في ذلك .

على أن هذه الميزة – ميزة المحافظة على الخصائص الموروثة – قد بدأت تتقلص في حواضر موريتانية هذه الأيام، وبخاصة العاصمة نواكشوط – كما أخبرنا الثقات منهم – فلا غرابة ، والحالة هذه ، أن يكون إيثار الشيخ ، رحمه الله ، طريق البر وظهور الإبل في تلك الرحلة بدافع من هذه الطبيعة الأصيلة .

أما ثاني التعليلين فلا أستبعد أن يكون مرده رغبة الشيخ الأمين في لقاء العلماء ، وتعرف معالم الديار الإسلامية التي تقتضيه الرحلة الطويلة أن يتخذها ممراً .

والمؤسف أننا لا نعرف الكثير عن انطباعاته أثناء هذه الرحلة . ويفهم من محاضرة لتلميذه الشيخ عطية أنه (كتب فيها أوراقاً ضمنها مباحث جليلة) وقد ركز فيها على مشكلات أثارها معه بعض علماء أم درمان في المعهد العلمي بالسودان حول (مبحث القضايا الموجهة في المنطق) .

وقد سمعنا بعض أخبار هذا الحوار منه رحمه الله ، وخلاصته أن بعض الإشكالات في هذا الأمر كانت تعتري أولئك الفضلاء ، فكان لحواره معهم يومئذ أثره الطيب في جلائها ، ونصرة المنهج المنطقي في أصول البحث . ولا غرابة فهو من أشد أنصار المنطق ، يرى فيه المعيار الذي لا يكاد يخطىء في الاستدلال على الحق .. والقارىء بوعي لمؤلفات الشيخ وبخاصة تفسيره الشهير باسم « أضواء البيان ... » يلمس هذه الخاصة أوضح ما تكون الفكر من البروز .

حديث في الشعر :

وتعمل المقادير الحكيمة عملها في تحركات الشيخ والاعداد لمصيره الجديد .. فإذا خيمته في منى أو عرفات بجوار خيمة الأمير خالد السديري دون علم من أي منهما .. وتدرج الحديث بالأمير وجلسائه إلى بعض الشعر . ويظهر أن بيتاً قد أشكل على المتحدثين فرأوا أن يسألوا جارهم عنه ، وربما دفعهم إلى ذلك

كلام سبق أن سمعوه من الشيخ يسامر به من معه فتوسموا فيه العلم .. وكان هذا مقدمة لمسيرة ظلت حتى وفاته .. ذلك أن الشيخ على دأبه في قضايا العلم ، لا يكتفي بالجواب الأبتر في موضوع ذي أصول وفروع ، وعلى هـذا لا بد أن يكون قد تناول مفردات البيت ومدلولاتها اللغوية ، ومـا ورد في البيت من الروايات المختلفة ، والمناسبة الباعثة عليه ، وما يتصل به من شواهد في الشعر الجاهلي والإسلامي ، وفي القرآن والحديث ... مما لا بد أن يكون قد أخذ على السامعين انتباههم واستثار إعجابهم . وكفى بهـذا حافزاً للتشبث بالشيخ ، وبخاصة في هذه الديار التي لا يزال كثير من سَراتها وأولي أمرها لا يجدون ري نفوسهم إلا في التراث الخالد ، الذي يشدهم إلى أرحام العروبة والإسلام .

مرحلة جديدة : .

وكان في نفس الشيخ غير قليل من رواسب الشوائب الملحقة بدعوة الإمـام المجدد محمد بن عبد الوهاب، تلقاها أيام الطلب، ومن أفواه الرواة غير المحققين . ولم يكن يومئذ بحاجة إلى غربلة هـذه الأخبار أو التدقيق في مواردها ومصادرها ، فاكتفى بما وجد شيوخه عليه .. غير أنه ما لبث أن اصطدم بالواقع الذي لا يمت إلى مـا في ذهنه بأي صلة . ولا مفر من التركيز أولاً على مشاهد الحج ، فهي أكبر معرض لأحوال العـالم الإسلامي ، في أي جانب من حياته ، ولا سيا من حيث العقيدة.. ورجل في مثل توقد الشيخ لا يفوته تقويم الوقائع ، والتفريق بين أعمـال الناس من حيث صلتها بالأصول الشرعية . ثم جاءت لقاءاته مع بعض المشايخ في الحرمين ، ولا سيا في مسجد الرسول ﷺ حيث طاب له المقام .. ولأول مرة – كما يظهر – يتاح للشيخ الأمين أن يطلع على كتاب « المغني » لابن قدامة ، وهو الموسوعة الحنبلية الكبرى . ثم بعض من مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمـام ابن القيم ، وبعض رسائل الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب .. وكان هذا كافياً لتحرير عقل الشيخ من الشوائب الدخيلة جميعاً .. وإذا هو من أشد العلماء اندفاعاً في الدعوة إلى

مذهب السلف ، وتنقيته من كل زائف أو دخيل ، وبخاصة في نطاق العقيدة والأسماء والصفات التي أثبتها الله لذاته ورسوله .

يقول المحاضر في ذكرى الشيخ : « كان لا بد – للشيخ – من دراسة بقية المذاهب بجانب مذهب مالك ، وبما أن الخلاف المذهبي لا ينهيه إلا الحديث والقرآن كان لزاماً عليه التوسع في دراسة الحديث .. » وإذن فقد بدأ إقبال الشيخ على التفقه بالحديث الشريف منذ أن عزم على الاستقرار في هذه الديار . وليس معنى ذلك أنه كان في معزل عن هذا العلم .. وكيف وقد كان أحد المنابع التي لا بد لطالب العلم أن ينهل منها في منازل القبائل الموريتانية .. إلا أن الفرق يظل واسعاً بين دراسة الحديث كفن ودراسته كأحد مصدري الأحكام ، وكضابط لسلوك المسلم إلى التي هي أقوم . ومن هنا بدأت المرحلة الجديدة في حياة الشيخ .

وجاءت التابعية السعودية في استحياء إلى الشيخ ، واستقر عزمه على لزوم هذه البلاد ، لقربه من الحرمين اللذين أكرمها الله بهما ، ولأن العلم الذي ينطلق منهما يأخذ طريقه إلى العالم الإسلامي كله . وعملاً بتوجيهات المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود جعل من تفسير كتاب الله في مسجد رسول الله مهمته الأولى .

في مسجد النبي ﷺ :

كانت دروس الشيخ رحمه الله في مسجد رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، حلقة من سلسلة النور ، بدأت بأضواء الوحي تتنزل على خاتم النبيين ، ثم تتابعت قبسات من ذلك الشعاع يحملها إلى طلاب الخير رجال كانوا في الأرض بمثابة الكواكب في السماء ، تهدي الضال ، وتقوم الأعوج ، وتحيي الموات .

وقد أكرمني الله فشهدت أول درس له في أحد فصول كلية الشريعة بالجامعة الإسلامية أثناء حجي الأول عام ١٣٨٢ هـ. وكان في التفسير فوددت ألا ينتهي ،

وكان ثمة عميد لإحدى الكليات الشرعية في إيران ، فلم يتمالك أن ينهض ليلقي خطبة قصيرة لخص فيها انطباعاته العميقة عن ذلك الدرس العميق . ثم تتالت نعم الله عليّ وفي رأسها هجرتي إلى طيبة الحبيبة مدرساً في هـــذه الجامعة ، فقيض لي ذلك أن أحضر العديد من دروسه في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم .

ومن العقوق لحقوق العلم أن يمر الكاتب بدروس الشيخ هذه دون أن يعطي القارىء صورة وافية عنها ولو بمنتهى الإيجاز .

تُفتتح حلقة الدروس بآي من السورة المقصود تفسيرها ، يتلوها أحد تلاميذ الشيخ ، فإذا فرغ القارىء شرع الشيخ في عمله ، فبدأ بالمفردات يعرض معانيها ومشتقاتها وكل ما يتصل بها من قريب أو بعيد ، مستعيناً على ذلك بما لا يحصى من شواهد اللغــة ، ومن ثم يتناول العلائق التركيبية بين المفردات ، فيعرض لضروب القراءات الواردة فيها ، ووجوه الإعراب وما تقرره من المدلولات .. فـإذا انتهى من ذلك صرف الأذهان إلى الاستنباط الفقهي ، وما ذهب إليه أصحابه من أشتات المفهوم ، مقارناً معللاً مقرراً .. مستعيناً على ذلك بكل ما يتطلبه المقام من علوم اللسان والبيان والأصول والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول ، ومـا يتصل بذلك من الإطلاق والتقييد . ولا يفوته أن يربط بعض المعاني ببعض الوقائع المشابهة على صورة تُثري المعرفـة ، وتعمق أسباب الإقناع .

وإذا كان المضمون قصصياً عمد إلى عناصر القصة ، فاستخرج عبرها ، وكشف نُذُرها ، وقاس ما فيها من صور الماضي على مـا يعايشه الناس من أحداث الحاضر .

حتى إذا بلغ الدرس غايته انفض الحشد المتراص ، وقد أخذ كل منه بقدر طاقته .. فلا يفوت خيره العامي ، ويزود المثقف المتعمق بمـــا هو أحوج ما يكون إليه .

الحق أن الشيخ الأمين كان في هذه الدروس بحراً لا يدرك البصر شاطئه .. وحجة لا ترد على أن هذا القرآن مأدبة الله لعباده ، وأنه كما ورد في الأثر : « فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه » .

ووراء ذلك كله ذاكرة لم تضعف من قوتها السنون ، تمده بسيل من المحفوظات المنظمة المنسقة المنسوبة ، وتساعده على الربط المحكم بين أول البحث وأوسطه وآخره .. كل ذلك في لغة عالية ، لا تسمع فيها لاغية من لحن أو سوقية ، كما يحلو لبعض المدرسين أن يتظرف بعاميّته حتى في فصول الجامعة . وبهذه الذاكرة يقدم درسه في الفصل أو في المسجد ، أو في المجلس المرتجل ، فلا يحتاج إلى تحضير ولا تفكير ، حتى لكأنه ، وهو يلقي عن ظهر قلب ، إنما يتلو في كتاب ، أو يغترف من عباب .

وصحبت الشيخ سنين في مجلس الجامعة فلم يختلف عليّ أمره .. إنه هو نفسه الذي أعرفه في قاعة الأساتذة ، وفي مجلس العلم ، وفي حديثه الخاص حينما لقيته .

لقد كان مجلسنا – لإدارة الجامعة – لا يخلو من مذاكرة في العلم ، دون تفريق بين قضايا الدين وشئون الدنيا.. ولا شك أن للشيخين: الأمين الشنقيطي تولاه الله برحمته ، وعبد العزيز بن باز ، ثم الشيخ الدكتور محمد تقي الدين الهلالي أمد الله في حياتها ، أثراً لا ينسى في روحانية تلك الجلسات ، التي كان يسودها أبداً جو الجد والوقار ، والتعاون على كل ما يحقق الخير للجامعة ، وللعالم الإسلامي بأسره . وما أحسب بيننا – نحن أعضاء ذلك المجلس – واحداً لا يحزنه فراق تلك الليالي المتألقات بأنوار الحب في الله ، والعمل الدائب

في طاعته سبحانه .. وبخاصة عندما يتذكر كيف مزّق البينُ وحدةَ الشمل ، فذهب بالشيخ الأمين إلى غير رجعة ، وانتهى بالهلالي إلى أقاصي المغرب، وصار بابن باز إلى الرياض ، وقد سبقه إليها قبيل ذلك أمين الجامعة الأديب الأريب محمد ناصر العبودي :

وكنا كندماني جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكاً لطول اجتماع لم نبت ليلةً معا

وقد بات على كل منا أن يتوقع المصير الذي سبقنا إليه ذلك الأخ الحبيب الأثير ، رحمنا الله وإياه ، وقدر لنا لقاء لا ينغصه فراق أبداً ، مع النبيين والصديقين والشهداء ، وحسن أولئك رفيقاً .

نشاطه العلمي :

قلت إني عرفت الشيخ لأول مرة عام اثنين وثمانين وثلاثمئة وألف يوم حضرت درسه بالجامعة ، ثم يسر الله لي الانضمام إلى جهاز التدريس بالجامعة في العام التالي ، ومنذ ذلك لم يفارق أينا بلد الهجرة ، ولم أفقد لقاء الشيخ في الجامعة أو المسجد أو دار الحديث أثناء الجلسات ، حتى فرق بيننا هادم اللذات ومفرق الجماعات .. ومعلوم أن الجامعة قد فتحت أبوابها للدراسة منذ العام ١٣٨١ هـ. وكان الشيخ في الفوج الأول من العلماء الذين تولوا التدريس بالجامعة ، أما قبل ذلك فقد كان منصرفه إلى الرياض حيث دعي عام ١٣٧١ هـ. للتدريس في أول معهد علمي أنشأته الادارة العامة هناك ، ثم تلته معاهد فكليات للشريعة واللغة فتحول إليهما ، ولبث يدرس فيها مادتي التفسير والأصول إلى سنة ١٣٨١ هـ. إذ أعيد إلى المدينة ليتولى التدريس في الجامعة الإسلامية الحديثة دونما انقطاع إلا لمرض ، وإلا لأحايين محدودة كان يستدعى فيهما هو والعلامة ابن باز للمحاضرة في معهد القضاء العالي الذي استحدث في الرياض عام١٣٨٦هـ. برئاسة فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي .

ولا حاجة للتذكير أن وجود الشيخ في الجامعة الإسلامية منـذ إحداثها ، مضافاً إلى دروسه العامة في المسجد النبوي ، كان ذا أثر كبير في ذيوع علمه ومعرفة فضله . فقد قامت هذه الجامعة في وقت عصيب ، تعرضت خلاله كبرى مؤسسات التعليم الإسلامي العالمية لهزات سياسية ليست في صالحها .. وكانت وجهتها منذ اليوم الأول احتضان طلبة العلم من مختلف أرجاء العالم الإسلامي ، وبذلك أتيح له - كما أتيح لنا من بعد - أن يتصل بذلك العالم كله عن طريق أبنائه الموفدين إلى هذه الجامعة .

فهناك دروسه القيمة في فصول الجامعة ، ثم دروسه العامة في المسجد النبوي ، ثم محاضراته التي يدعى لإلقائها في دار الحديث التابعة للجامعة أثناء المواسم الخاصة لهذه المحاضرات .. وهناك وفود الحجاج الزوار المتدفقين أبداً على مدينة الرسول صلوات الله وسلامه عليه وبينهم رجال العلم والفكر الذين لا يرون مندوحة عن الإلمام بالجامعة ، وزيارة بعض فصولها الدراسية للاطلاع على نشاط هذه المؤسسة الحديثة العالمية .. وقلما يحضر وفد من هؤلاء إلى الجامعة ثم لا يشهد محاضرات الشيخ .. هذا إلى دروسه الأخرى التي يختص بها بعض أهل العلم في بيته ، وقد جعل مواعيدها بعد العصر من كل يوم إلا أن يحول دونها الحوائل القاهرة .. وفي بعض هذه الدروس المنزلية أملى الشيخ بعض شروحه ومؤلفاته التي ينعم بها الناس على اختلاف مستوياتهم .

وقد جرت عادة الجامعة من أوائل نشأتها إيفاد البعوث إلى أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي لدراسة أحوالها على الطبيعة .. وكانت إحدى هـذه البعثات برئاسة الشيخ ، وقـد بدأت بالسودان وانتهت بموريتانية موطنه الأول .. وحفلت بالكثير من نشاطه ، إذ كان موضع الحفاوة البالغة من حكام تلك الأقطار وعلمائها .. فلم يدع بلداً من تلك الدول العشر إلا بذل فيها من علمه ما أخذ بالألباب ، حتى إن أحد أولئك الحكام ، وقد أراد أن يحجب عن عيني الشيخ ومن معه حقيقة الحكم الرهيب الذي يمارسه في بلاده ، لم يكد يفارقه

في حل ولا ترحـال ، بل كان يحمله في سيارته التي يقودها بنفسه إلى الأمكنة (المعدة) لزيارته ... و ... حتى غادر حدود بلاده . وقد تهافت المشتغلون بالعلم على تسجيل محاضراته وأحاديثه، حيث لا تزال تنتظر من يجمعها وينشرها للناس في كتاب .

ومـمـا يندرج تحت نشاط الشيخ العلمي مشاركته في كبريات المؤسسات الإسلامية العالمية كرابطة العـالم الإسلامي في مكة ، وهيئة كبار العلماء التي شكلت في الرياض عقب وفاة شيخها وصاحب فتواها المرحوم الشيخ محمـد ابن ابراهيم حفيد الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب .

وقد عرف له أولو الأمر في المملكة مكانته وفضله منذ أيام المغفور له الملك عبد العزيز ، الذي بأمر ملكي خـاص أهدى إلى الشيخ هويته السعودية ، ولم يكتف بذلك بل أمر بمنح التابعية لكل من يثق بـه وينتمي إليه ، مبالغة في إكرامه .

وفي مؤتمر العلمـاء الذي عقدوه في الرياض للبحث في موضوع الإمامة ، وقرروا فيه إلغاء بيعة المرحوم الملك سعود بن عبد العزيز، ومبايعة أخيه فقيد الإسلام والعروبة فيصل بن عبد العزيز ، إيثاراً للمصلحة العـامة التي لم يكن أجدر من فيصل للقيام بأعبائها ، أنابوا عنهم الشيخ الأمين لإبلاغ قرارهم الملك سعود ، فقام بالمهمة خير قيام ، وكان لكلمته الحكيمة أطيب الوقع في نفسه ، عقب عليها بإعلانه ثقته التامة بنصيحة العلماء وخضوعه لمقرراتهم .

ولا حاجة للتنبيه إلى أن مثل هذه الثقة التي أحرزها الشيخ في أوساط أولي الأمر وكبار أهل العلم إنما تدل على مميزات شخصية من النوع النادر ، بها استحق كل ذلك التقدير من عارفيه .

وأشهد لقد لمست من هـذه المميزات أثناء عملي معه في مجلس الجامعة ، واتصالي بـه في ما بين ذلك ، ما أكد لي أنه أحد الأفذاذ الذين يُخشى

اذا ُفقدوا ألا يعوضوا . وإلى ذلك أشرت في هذه الأبيات التي وجهتها إليه ذات يوم تحت عنوان « قبس وينبوع » :

دمتَ يا شيخنا الأمينَ لدين … الله ذخراً وعصمة للحيارى
إنما أنت نفحةٌ من تراث … كان في ظلمة الوجود منارا
قبسٌ من كتاب ربي وينبوع … هدى من بيانه لا يمارى
ذكرتني (أضواؤك) الغرّ أفذا … ذاً من السابقين فاقوا البحارا
أورثونا من فضلهم كل علـا … لم يسر قط كوكب حيث سارا
لو قضينا حياتنا ننعم الفكر … بأغواره لفاتت وخارا
فليمتّعك ذو الجلال بعمر … يملأ الخصب ليله والنهارا
ودّ كلٌّ لو يستطيع له مدأ … بشطر من عمره مختارا
كل طول في عمر مثلك طَوْلٌ … في قوى الحق يرهب الكفارا
وكثيرون إن يعيشوا فلا خير … وإن يهلكوا فشر توارى

وليس من قبيل الإطراء المألوف دعائي له بطول العمر ، وودي لو أعيره بعض عمري طمعاً بالمزيد من خدماته للإسلام ، فإني كنت شديد القلق عليه لما أرى من ظواهر الضعف في صحته ، وتماديه في هذا الضعف .. حتى لقد قلت له عصر يوم ونحن على باب عمر رضي الله عنه من المسجد النبوي ، ولاحظت الجهد الضخم الذي كان يبذله أثناء درسه العام : « يا شيخ.. إن صحتك ليست ملكك .. إنها للعلم وللمسلمين ، فارفق بها ولا تعجل عليها » .

مؤلفاته :

لم يكن من المكثرين في التأليف ،لأن مشاغله العلمية في الدروس والمحاضرات والمجالس العامة والخاصة ضيقت عليه ذلك النطاق فلم يتيسر له الانقطاع إلى التأليف إلا قليلا . على أن ما سجل وحفظ من كلامه لو نقل إلى الطروس لألف قائمة من المؤلفات . وحسبنا أن نشير من مؤلفاته إلى ما يلي :

١ – «منع جواز المجاز في المُنزَّل للتعبد والإعجاز» وغرضه منه نفي ادعاء المجاز في أسماء الله وصفاته وإجراؤها على طريقة السلف دون تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه . كما يفعل بعض المتكلمين الذين يكادون يبطلون كل ما أثبت الله لذاته ورسوله في الكتاب والحديث الصحيح .

٢ – « دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب » ويريد بـــه إيضاح ما قد يشكل على الغافلين ، وما يثيره بعض المشككين ، من توهم التعارض بين بعض وبعض من آيات الله .

٣ – كتاب في الأصول يشرح به « روضة الناظر » أحد المراجع المؤلفة في هـذا الباب ، شرحاً جمع فيه بين أصول المذاهب الثلاثة : الحنابلة والمالكية والشافعية . وقد ألفه لكليتي الشريعة والدعوة بالجامعة .

٤ – « أدب البحث والمناظرة » في جزأين وهو من مقررات الجامعة لكلية الدعوة وأصول الدين .

٥ – «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» وقد أخرج منه ستة مجلدات كبار وصل بها إلى نهاية سورة (قد سمع) .

وهذا المؤلف الفخم أدل أعماله الكتابية على موسوعيته العلمية، لا يكاد يدع شاردة من الأحكام إلا جمع لهـــا الأدلة من مظان الوحي ، في تنسيق وتنظيم وقرآن يعطي أدق صورة عن أثر المنطق في منهجه العلمي ، وقـد أنفقت على طبعـه ونشره مؤسسة ابن لادن . وتقوم الهيئات الإسلامية في المملكة بتوزيعه مجاناً ، ويؤمل أن يعاد طبعه أو بعض أجزائه النافده قريباً ليعم نفعه .

ولقد أجمع أهل العلم على تقدير الكتاب والإقرار بعظم فائدته ، وإن اختلف بعضهم معه في بعض الأمور الاجتهادية .

وكل هذه المصنفات مما أخرجه الشيخ للناس بعد هجرته إلى ربوع الحرمين ، أما ما قبل ذلك فعدد من الأراجيز على غرار المنظومات التي شب على دراستها

وحفظها ، ولم ينشر بعد منها شيء .. وقد ذكر منها تلميذه الشيخ عطية :

١ - « خالص الجمان » وقد خصها بأنساب العدنانيين لقوله فيها :

سميتـــه بخالص الجمـــان في ذكر أنساب بني عدنان

٢ - أرجوزة في فقه مالك خاصة بالعقود من البيوع والرهون ، ومطلعها:

الحمـــد لله الذي قـــد ندبا لأن نـَميزَ البيع عن لـَبس الربا

٣ - ألفية في المنطق يبدؤها بقوله :

حمداً لمن أظهر للعقول حقائق المنقول والمعقول

٤ - أنظومة في علم الفرائض ، أولها :

تركة الميت بعـد الخامس من خمسة محصورة في السادس

وهناك العديد من محاضرات الشيخ نشرت في رسائل مستقلة هي :

١ - آيات الصفات .

٢ - حكمة التشريع .

٣ - المثل العليا في العقيدة والتشريع والأخلاق .

٤ - المصالح المرسلة، أوضح فيها ضوابط الاستعمال بين الإفراط والتفريط.

٥ - حول شبهة الرقيق .

٦ - قبس من قوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم .. » وقد ألقاها بحضرة الملك محمد الخامس أثناء زيارته المدينة المنورة .

ولا مندوحة عن الإشارة إلى أن الشيخ، أحسن الله جزاءه ، وقف مؤلفاته كلها لوجه الله ، لم يرد عليهـا جزاء إلا من ربه ، ولو شاء لساقت إليه المال الوفير الكثير .

نماذج من نثره :

يقول الشيخ ، تغمده الله برحماته ، في تقديم كتابه القيم « أضواء البيان » :

« ... اعلم أن من أهم المقصود بتأليفه أمرين، أحدهما: بيان القرآن بالقرآن لإجماع العلماء على أن أشرف أنواع التفسير وأجلها تفسير كتاب الله بكتاب الله، إذ لا أحد أعلم بمعنى كلام الله جل وعلا من الله .

والثاني : بيان الأحكام الفقهية في جميع الآيات المبينة في هـذا الكتاب . فإننا نبين ما فيها من الأحكام وأدلتها من السنّة وأقوال العلمـاء في ذلك ، ونرجح ما ظهر لنا أنه الراجح بالدليل من غير تعصب لمذهب معين ، ولا لقول قائل معين ، لأننا ننظر إلى ذات القول لا إلى قائله .. لأن كل كلام فيه مقبول ومردود إلا كلامه ﷺ .

وقد تضمن هذا الكتاب أموراً زائدة على ذلك ، كتحقيق بعض المسائل اللغوية ، وما يحتاج إليـه من صرف وإعراب ، والاستشهاد بشعر العرب ، وتحقيق مـا يحتاج إليه فيه من المسائل الأصولية والكلام على أسانيد الأحاديث ... »

وفي هذه الأسطر القليلة غير قليل من سمات المنهج الذي عرف به الشيخ في تفسير كتاب الله ، ومجملها التركيز على استنباط الحكم الواحد من سائر مصادره في الكتاب الحكيم ، والسنة المطهرة ، ثم بيان مفهومات العلماء لذلك ، ومن ثم الترجيح للدليل الأقوى دون ما تعصب لأحد بعد كلام الله ورسوله .. ولا بد أثناء ذلك من التحقيقات اللغوية وعرض الشواهد المساعدة على الإيضاح .

أجل إنـه المنهج الذي ألفناه في كتابه ومحاضراته وأحاديثه الخاصة على السواء ... ثم في هذه الأسطر كذلك صورة دقيقة من أسلوب الشيخ في التعبير عن أفكاره ، فالنسيج عربي قح لم تمسه العجمة ولا الهلهلة، وهو أقرب إلى إنشاء العصر الأموي منه إلى ما بعده . وطريقة العرض موضوعية يرتبط فيها الجزء بالجزء ، وتمهد العبارة لأختها ، وذلك أثر المنطق الذي لا يكاد يفارقه .

ونماذج من شعره :

إن الغزارة في محفوظ الشيخ من شعر العرب دليل قاطع على تذوقه إياه ، ولا بد للحافظ المتذوق أن تواتيه الموهبة على صياغته .. وكذلك كان شيخنا ، طيب الله مثواه . فهو رهيف الحس ، سريع التأثر بالكلمة البليغة ، وقد سبق أن طالعنا بعض محاولاته الأولى فلمحنا ما وراءها من استعداد للاندفاع. إلا أن انشغاله اليومي بالجوانب الأخرى قد أدى به إلى الانصراف عن الشعر الخالص. ويقول تلميذه الشيخ عطية إنه سأله عن السبب في تركه الشعر فأجاب: « لم أره من صفات الأفاضل » .

وإنما يريد بنفيه عن الأفاضل مـــا يرى لبعض المتعاطين له من زلات يربأ بنفسه أن يتعرض لها ، لا كما فهمها بعض الجاهلين للشعر ، إذ اعتبره منافياً لكرامة العلم ، وهو الذي لا يحسن إقامة البيت إذا حاول قراءته ، فليس لمثله حق في الحكم عليه .

وإضافة إلى ما أسلفنا من منظومات الشيخ نضع بين يدي القارىء هـــذه الأبيات من قصيدة له يحدثنا بها عن عواطفه وطموحه :

أنقذت من داء الهوى بعلاجِ	شيبٍ يزيّن مَفرقي كالتاج
قد صدني حلم الأكابر عن لمى	شفة الفتاة الطفلة المغناج
ماء الشبيبة زارع في صدرها	رمانتي روض كحق العاج
وكأنما شمس الأصيل مذابة	تنساب فوق جبينها الوهاج
يُعلى لموقع جنبها في خدرها	فوق الحشية ناعم الديباج

ويمضي الفتى الشاعر في حديثه النفسي ، مترجماً أشواقه المكبوتة إلى المرأة التي لا ينكر تأثيرها في قلبه ، ولكنه يحاول أن يقصي طيفها عن محاجره ، خشية أن تشغله عن (حلم الأكابر) الذي لا يتأتى لطالب الطفلة المغنـــاج .. إنـــه في صراع بين العاطفة الملتهفة إلى الحب ، والعقل المتطلع إلى مجد العلم ..

ومع ذلك لا يستطيع كتمان تلك الأشواق ، فإذا هي تعبر عن ذاتها بهذه الصور الغزلة المغنية : اللمى . المغناج . الشبيبة . رمانتا الروض . الجبين الوهاج .

وفي (شمس الأصيل المذابة في الجبين الوهاج) صورة أخرى للذوق الذي يستهويه أثر شمس البادية في وجوه الحسان .

ونحن لا ندري تاريخ هذه الأبيات ولكنها تحمل طابع النفس التي لم تزايل الشباب – على الرغم من بواكير الشيب – ولا تزال معزولة عن أنس الرفيق الذي يهيب به إلى السكن والمودة والرحمة .

ولقد فاتنا – ويا للأسف – أن نستطلع الشيخ رحمه الله رأيه في مستقبل الجيل الإسلامي ، والسبيل إلى بنـــاء المجتمع الأمثل الذي يريده الإسلام .. إذ حالت وفاته دون ذلك .. ولكن أفكار الشيخ التي ستظل حية بين الناس كفيلة بإعطاء الجواب القاطع المانع : إنـه الالتزام بأحكام القرآن ، فكل الشر في الإعراض عنه ، وكل الخير في الإقبـال عليه ، فطوبى لمن كان حجة له ، وويل لمن كان حجة عليه ... وإياك يا أخي ثم إياك أن يزهدك في كتاب الله تعالى كثرة الزاهدين فيه ، ولا كثرة المحتقرين لمن يعمل بـه ويدعو إليه ، واعلم أن العاقل الحكيم لا يكترث بانتقاد المجانين [1] .

فاللهم رحمتك السابغة ، ومغفرتك الواسعة لشيخنا وأخينا وزميلنا عبدك محمد الأمين ، وأحسن به العوض للإسلام والمسلمين .

---

(١) أضواء البيان ج ١ ص ٢ .



١١

الدكتور محمد تقي الدين الهلالي

يقول فضيلته في شأن تسميته : إن والدي رأى في المنام قائلاً يقول له : سيولد لك غلام فسمه محمد التقي ، فكان ذلك .

ولكن أهل الهند سموني تقي الدين ، فاشتهر اسمي بمحمد تقي الدين ، وكنيتي أبو شكيب لأني سميت أول مولود لي شكيباً على اسم صديقي الأمير شكيب أرسلان رحمه الله ، وليس لي لقب ، واسم والدي عبد القادر الهلالي نسبة إلى هلال وهو الجد الحادي عشر ، ونسبتنا إلى الحسين بن علي ، ذكر ذلك غير واحد من المؤلفين في أنساب أهل البيت من المغاربة ، وأقر هذا النسب السلطان الحسن الأول حين قدم بلادنا سجلماسة سنة ١٣١١ هـ.

ولدت سنة إحدى عشرة وثلاثمئة وألف في آخرها أو في أول التي تليها ، بقرية تسمى الفيضة ، وتسمى أيضاً الفرخ من بوادي يفلي بسجلماسة . وأخبرني أبي وجدي أن جدنا عبد القادر بن هلال جاء من القيروان وهي كورة في تونس ويدل على صحة ذلك أن قريتنا صغيرة ، وقبر جدنا مدفون إلى جانبها وعليه سور ، وهو معدود من الصالحين ، واسم القرية أولاد عبد القادر ولها مسجد له أوقاف كثيرة تساوي أوقاف القرية الكبرى التي لا تبعد عنها إلا بنحو

مئتي متر . وكان مجيء جدنا إلى هذه الناحية من المغرب في أواخر القرن التاسع الهجري . ويظهر أن أهل تلك الناحية وتسمى (الغرفة) تلقوه بالتعظيم والاحترام ، ولعله كان من أهل العلم ولم يترك أثراً يدل على ذلك ، ولكن أهل قريتنا كانوا كلهم إلا النادر من أهل العلم في زمان صباي بخلاف القرى المجاورة لقريتنا فإن أهل العلم منهم قليل . وأيضاً أهل (الغرفة) قبائل كبيرة نوعاً ما ، بخلاف أولاد عبد القادر فإن عددهم قليل ولا ينتمون إلى أي قبيلة من تلك القبائل . والدليل على احترامهم لجدنا أنهم وقفوا على مسجده الصغير تلك الأوقاف الكثيرة، ولم أولد في قريتنا لأن والدي كان فقيهاً إماماً في قرية الفرخ ونائباً عن القاضي فيها .

ويضيف الشيخ إلى ذلك قوله : إن أهل بيتنا كانوا من أهل العلم في اصطلاح أهل تلك البلاد وإن كنت لا أعد المقلد عالماً .

دراسته العلمية :

يقول شيخنا: قرأت القرآن على والدي وجدي فحفظته وأنا ابن اثنتي عشرة سنة . وكان والدي ينوي أن يبعثني إلى مجود الوقت الشيخ أحمد بن الصالح لأقرأ عليه ختمة بالتجويد ، فعاجلته المنية ، فقامت بذلك أمي فقرأت على الشيخ المذكور القرآن من أوله إلى آخره بالتجويد ، فكنت أكتب كل يوم ربع جزء في لوح من حفظي، وأدفعه إليه يصححه على حسب رسم المصحف العثماني، ثم يقرؤه هو وأنا أسمع ، وبعد ذلك أقرؤه أنا وهو يسمع ، وإن أخطأت يصحح لي خطأي ، ثم بقيت فترة بدون تعلم إلى أن سافرت إلى الجزائر لطلب الرزق سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمئة وألف . فرأيت النبي ﷺ في المنام رؤيا كأنها يقظة ، وكنت قد أخذت الطريقة التيجانية ولم يكن يخطر ببالي طلب العلم بل كنت أسعى في الحصول على علم الباطن بالاجتهاد في العبادة على طريقة المتصوفة ، فلما رأيت النبي ﷺ في المنام وكان طويلاً أبيض اللحية ، وذلك يدل على نقص في الرائي ، وضعت يدي في يده ، وأظن إني قبلتها ، وقلت :

يا سيدي يا رسول الله خذ بيدي إلى الله . فقـال لي وهو منقبض : اقرأ العلم . فقلت : العلم الظاهر أم الباطن ؟ فقال لي: العلم الظاهر. فقلت : في بلاد المسلمين أم في بلاد النصارى ؟ وكان علماء بلدنا يكفرون كل من يسافر إلى الجزائر ، لأن الفرنسيين كانوا يحكمونها ، فقال لي: البلاد كلها لله . فقلت: يا رسول الله ادع الله أن يختم لي بالإيمان . فرفع أصبعه المسبحة إلى السماء ، وقال لي : عند الله .

فقصدت الشيخ محمد سيدي بن حبيب الله الشنقيطي ، رحمه الله ، وقصصت عليه رؤياي ، واستشرته في الرحلة في طلب العلم إلى أحد مراكزه في المغرب وتونس والجزائر . وكانت له مدرسة يعلم فيها الطلبة مبادىء العلوم ويكسوهم ويطعمهم على طريقة العلماء في شنقيط . فمن تواضعه وكرمه وحلمه قـال لي : امكث عندنا حتى تحصل هذا الذي عندنا من مبادىء العلم ، وحينئذ تسافر إلى إحدى المدارس العليا .

وكانت استشارتي له في الرحيل إلى إحدى المدارس الكبرى ، وعدم قناعتي بمدرسته ، من الجهل وسوء الأدب ، فبقيت معـه في البادية ، ومدرسته خيمة بقرب خيمته التي يسكن فيها بأهله ، بقيت على ذلك سنتين ثم انتقل بمدرسته إلى مدينته المشرية فبقيت معـــه خمس سنين أخرى ، ولم أر مثله في الزهد والتقوى ومكارم الأخلاق ، إلا شيخاً آخر في الهند سأذكره بعد ، ومناقبه كثيرة لا يتسع لها المقام ، وهو من قبيلة (تندغ) مشهورة في قبائل شنقيط ، توفي بالمشرية من عمالة وهران من الجزائر حوالى سنة ثمان وثلاثين وثلاثمئة وألف. ثم سافرت إلى المغرب ووصلت إلى مدينة فاس سنة أربعين وحضرت دروس بعض العلماء ، وأجلني بعض علماء القرويين وعاملوني معاملة أستاذ ، أذكر منهم الشيخ الفاطمي الشراوي وأستاذي الذي أنقذني الله على يده من طريقة التيجانية والشرك وعبادة القبور ، وهو العالم المحقق غرة زمانه محمد بن العربي العلوي . وجرت بيني وبينه مناظرة ذكرتها بالتفصيل في كتاب « فكاك الأسير العـاني المكبول بالكبل التيجاني » والعـالم الأديب الشاعر الناشر أحمد سوكيرج .

توفي شيخنا العلوي في نحو سنة سبع وثمانين وثلاثمئة وألف، وتوفي أحمد سوكيرج قبل ذلك بمدة . ولي شيوخ آخرون ضربت عن ذكرهم صفحاً لأن عقيدتهم لم تكن مرضية . ولا أرتضي من شيوخ المغاربة، من حيث العقيدة، إلا الأولين، أعني الشراوي والعلوي، وحصلت على شهادة من جامع القرويين عادلتها جامعة بون مع تزكية أساتذتها بالشهادة الثانوية ، وبها استطعت أن أكون طالباً في جامعة بون كما سيأتي إن شاء الله .

وفي آخر سنة أربعين وثلاثمئة وألف سافرت إلى القاهرة وأقمت بمصر سنة اجتمعت فيها بالإمام المصلح السلفي الطائر الصيت محمد رشيد رضا ، رحمه الله ، وبجماعة من السلفيين منهم الشيخ محمد الرمالي ، والشيخ حسن عبد الرحمن ، والشيخ العدوي ، والشيخ عبد العزيز الخولي ، والشيخ عبد الظاهر أبو السمح ، والشيخ محمد بن عبد الرزاق ، والشيخ محمد أبو زيد ، وغيرهم .

وحضرت دروس القسم العالي من الأزهر ، وقال لي أحد كبار أساتذة الأزهر، وهو الشيخ الزنكلوني ، قال : لا تطلب علم الحديث في مصر ، فنحن معشر كبار علماء الأزهر لا أحد منا يحفظ عشرة أحاديث ولا نعرف صحيحاً من ضعيف ، وإنما نقرأ سواداً في بياض مقلدين للمؤلفين . ورأيت كتاب « عون المعبود شرح سنن أبي داود » ألف وطبع في الهند ، فظهر لي أنه لا تزال بقية من علماء الحديث في الهند ، فعزمت على السفر إلى الهند ، وفي أثناء السنة التي أقمتها في مصر خرجت إلى الصعيد بقصد تحصيل شيء من المساعدة المالية لأستعين بها على التوجه للحج ، وكان التيجانيون في الجزائر قد بعثوا إليّ بحوالة مالية ظناً منهم أنني لا أزال على عقيدتهم . فكتبت إليهم كتاباً مطولاً شكرتهم فيه على إحسانهم السابق واللاحق ، وأقمت لهم البراهين على أن الطريقة التيجانية لا يمكن أن تجتمع في قلب إنسان مع ما جاء به النبي ﷺ ، فغضبوا غضباً شديداً . فأشار عليّ بعض الأصدقاء بالخروج إلى الصعيد للغرض المذكور، فلما وصلت إلى مدينة ملاوي بمديرية أسيوط دعاني إلى قرية تسمى الريرمون ،

رئيس السلفيين الشيخ اسماعيل الصيفي، رحمة الله عليه، وكان عدد السلفيين قليلاً جداً. وكان شيخ البلد والوجهاء والأعيان وسائر أهل القرية يسمونهم: وهابية، ويعادونهم. فشرعت في إلقاء دروس الوعظ في بيت الشيخ اسماعيل، ومسجد السلفيين، فاستجاب إلى دعوتي شيخ البلد يوسف، وتبعه أهل البلد كلهم، ولم يبق على البدعة والشرك إلا شيخ الطريقة والعمدة «المرفوت» أي المعزول وخدامهما.

ولما رأيت الناس قد أقبلوا على التمسك بالسنة إقبالاً عظيماً تركت الغرض الذي من أجله توجهت إلى الصعيد وأظهرت الغنى لعلمي أن إظهار الحاجة إلى ما في أيدي الناس يفسد الدعوة أو ينقصها. وبقيت عندهم ثلاثة أشهر حتى قرب وقت الحج، ولم يتجرأ أحد منهم أن يقدم لي شيئاً من المال إلا الشيخ يوسف، فإنه ألح كثيراً في إهداء شيء من الثياب، فقبلته.

ولما رجعت إلى القاهرة بعثوا إليّ حوالة قدرها ثلاثة عشر جنيهاً، فسافرت بها إلى الحج، وبعدها توجهت إلى الهند واجتمعت بعلماء أهل الحديث، ودرست في إحدى مدارسهم وأقمت خمسة عشر شهراً، وأخذت العلم والإجازة عن أفضل ذلك الزمان شيخنا عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، وأقمت عنده مدة، وقرأت أطرافاً من الكتب الستة على الشيخ محمد بن حسين بن محسن الحديدي الأنصاري اليماني، نزيل مدينة بهو بال. ثم توجهت إلى البصرة ولقيت العالم السلفي المحقق الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، وتزوجت بابنته. وبعد إقامة ثلاث سنين بالبصرة سافرت إلى المملكة السعودية، وفي طريقي مررت على السيد رشيد رضا بمصر، فأخبرته أنني متوجه إلى الحجاز. فكتب إلى الملك عبد العزيز رحمه الله يقول: إن محمداً تقي الدين الهلالي المغربي أفضل من جاءكم من علماء الآفاق، فأرجو أن تستفيدوا من علمه، أو كلاماً هذا معناه، فأقمت في ضيافة الملك بضعة أشهر، ثم عينت مراقباً للمدرسين في المسجد النبوي.

وبقيت سنتين ثم نقلت إلى المسجد الحرام والمعهد السعودي بمكة ، وأقمت سنة ، وفي آخرهـا كتب إليّ الشيخ أحمد السركتي من أندونيسية ، والسيد سليمان الندوي من الهند ، كل منهما يطلبني أن أكون مدرساً في مدرسته . فرجحت قبول السيد سليمان رجاء أن أحصل على دراسة جامعية في الهند ، فصرت رئيس أساتذة الأدب العربي في كلية ندوة العلماء ، وبقيت ثلاث سنين ولم تتيسر لي دراسة جامعية ولكني تعلمت اللغة الإنجليزية، ثم اشتد عليّ مرض الحمى النافض (الملارية) ، فرجعت إلى البصرة وأقمت فيها ثلاث سنين معلماً في مدرسة النجاة . ثم سافرت إلى جنيف ونزلت عنـد الزعيم المجاهد أمير البيان الأمير شكيب أرسلان بطلب منه . وحاولت أن أتوجه إلى بريطانية للدراسة الجامعية ، فقـال لي السفير الإنجليزي في جنيف : لا بد من كفالة مالية أو شخصية .

وكتب الأمير شكيب ، رحمه الله ، إلى أحد أصدقائه في وزارة الخارجية الألمانية ببرلين يقول: « عندي شاب مغربي أديب ما دخل ألمانية مثله وهو يريد أن يدرس في إحدى الجامعات فعسى أن تجدوا له مكاناً لتدريس الأدب العربي براتب يستعين به على الدراسة » . فجاء الجواب بالقبول ، وعينت محاضراً جامعة بون ، وشرعت في تعلم اللغـة الألمانية ، وخلال سنة دخلت الامتحان وحصلت على دبلوم في اللغة الألمانية . ثم صرت طالباً في الجامعة مع كوني محاضراً . وفي أثناء إقامتي في بون ترجمت مع الأستاذ (باول كالي) مدير العلوم الشرقية في الجامعة كتابين عربيين ، أحدهما : « كتاب البلدان الجغرافية العالمية لمحمد بن الفقيه البغدادي المتوفى في أواخر المئة الثالثة للهجرة والثاني « طيف الخيال » لمحمد بن دانيال الكحال ، يعني طبيب العيون الموصلي نزيل مصر . وهـذا الكتاب يشتمل على ثلاث تمثيليات لم يوجد في الأدب العربي غيرها .

وكان المستشرقون الألمانيون قد جمعوا مؤلفاً يشتمل على قصص تمثيلية لجميع

شعوب العالم، فلما ظفروا بـ «طيف الخيال» ولم يجدوا للعرب غيره فرحوا فرحاً عظيماً ، ورأوه الحلقة المفقودة ، ولكن عجزوا عن ترجمته لأن التمثيليات بعضها بالفصحى وبعضها باللغة العامية المصرية في القرن السابع الهجري، ما بين منظوم ومنثور .

وعلم الأستاذ(باول كالي) أن طالباً قبطياً تخرج في جامعة كمبردج وألف رسالة نال بها شهادة الدكتوراه ، موضوعها تاريخ الحروب الصليبية، واسم هذا الرجل (سوريال عطية) ، ولما رجع الدكتور عطية من بريطانيا قدم طلباً لعميد كلية الآداب بجامعة القاهرة الدكتور طـه حسين ، ليكون مدرساً لتاريخ الحروب الصليبية . فقال له طه حسين : إن جامعتنا غير محتاجة إليك . فقال: يا أستاذ هل توجد جامعة في الدنيا تستغني عن تاريخ الحروب الصليبية ؟ فقال : نعم . فقال : أين هي ؟ فقال : هي جامعة القاهرة .

فبقي الدكتور عطية بلا عمل ، وكان شديد العداوة للإسلام والمسلمين ، وخصوصاً العرب ، فظن باول كالي أن ضالته المنشودة عند عطية . فبعث إليه يدعوه ليكون مدرساً للتاريخ في معهد العلوم الشرقية في جامعة بون ، ولم يكن المعهد في حاجة إليه ولكنه ظن أنه يساعده على ترجمة تمثيليات«طيف الخيال». فاشتغل معه شهرين ولم يستطع أن يترجم الصفحة الأولى من التمثيلية الأولى ، فدعاني كالي ، وقـال لي : أنا لا أشك في علمك بالأدب العربي ، ولكني أشك كثيراً في معرفتك العامية المصرية في القرن السابع الهجري ، ولذلك دعوت عطية وهو مصري اختصاصه في التاريخ ، ظناً مني أنه أولى من يساعدني على ترجمة «طيف الخيال» ، وقد اشتغلت معه شهرين ولم نستطع أن نترجم الصفحة الأولى . وعلى الرغم من بعدك عن العامية المصرية القديمة ، أرى أن نقوم بهذه التجربة .

وبدأنا في ترجمة « طيف الخيال » فتمكنت في اليوم الأول من ترجمـة بضع صفحات ، وقدرت على قراءة النسخ المخطوطة التي عجز عن قراءتها . فكاد

الأستاذ كالي يطير فرحاً . وفي سبعة عشر شهراً ترجمنا التمثيليات وأعدنا قراءة الترجمة بمقابلة النسخ الثلاث المخطوطة مراراً ، فلم يبق عنـــده شك في صحة الترجمة ، فأثنى عليّ هذا الأستاذ في مقدمة الترجمة ، وقال : لولا وجود محمـد تقي الدين لبقي هـــذا الكتاب نسياً منسياً . وأثنى عليّ كذلك في جميع المحاضرات التي ألقاها في عواصم أوربة ، للتعريف بطيف الخيـال والاغتباط بترجمته .

وبقيت ثلاث سنين في بون ، ثم طلبت وزارة الدعاية من وزارة التعليم ورئاسة الجامعة إعارة خدمتي إلى جامعة برلين ، لأشرف على الإذاعة العربيـة التي أسستها وزارة الدعاية في برلين سنة تسع وثلاثين وتسعمئة وألف ، فانتقلت بأعمالي كلها طالباً ومحاضراً إلى جامعة برلين ، وزدت على ذلك منصباً جديداً وهو المرجع اللغوي للإذاعة العربية في برلين .

وفي صيف سنة أربعين وتسعمئة وألف قدمت رسـالة الدكتوراه ، وهي ترجمة مقدمة كتاب «الجماهر في الجواهر» مع تعليقات عليها إلى مجلس الامتحان في الجامعة ، وكان مؤلفاً من عشرة من العلماء ، وقد فندت آراء أكبر العلمـاء المستشرقين في زمانه وهو كارل بروكلمان ، وآراء أكبر العلماء المستشرقين في ألمانية في العصر الذي قبل هذا العصر ، وهو (مارتن هارتمن)، فقد زعم هارتمن في مقدمة ترجمة تاريخ الهند للبيروني أن البيروني كان في الحقيقة زنديقاً ، لأن عقله أعظم من أن يؤمن بالإسلام ، وكان شعوبياً يتعصب للفرس الذين قضوا على دولة ساسان ، ويبغض العرب بغضـــاً شديداً ، ويحتقر علومهم . وزاد بروكلمان في تاريخ الأدب العربي أنه كان محقاً في احتقار علوم العرب ، أما في الظاهر فكان قبل اجتماعه بالسلطان محمود الغزنوي شيعياً ، وبعـــد اجتماعه بالسلطان المذكور صار سنياً . فأقمت البراهين القاطعة في تعليقات رسالتي على بطلان كل ما ادعياه من كتب البيروني نفسه ، فوافق العلمـاء العشرة بالإجماع على مـــا حققته ، ولذلك رغب الناشرون في نشر رسالتي على نفقتهم ،

ولا يقع ذلك إلا للرسائل المفضلة . وبعد شهرين من نجاحي في امتحان الرسالة دخلت الامتحان الشفهي فنجحت فيه أيضاً . ومع الإسهاب في هذا الجواب فقد اختصرته كثيراً وأعرضت عن ذكر التفاصيل . وفي جامعة بغداد حصلت على درجة أستاذ مساعد ثم أستاذ ، واعترفت بذلك جامعة (بون) حين دعتني لأكون أستاذاً منتدباً فيها لمدة سنة عام أربع وخمسين وتسعمئة وألف، ووثائق ذلك كله موجودة في الجامعة الإسلامية بالمدينة .

الرجال الأكثر تأثيراً في حياته :

ويؤكد الشيخ هنا ما سبق تقرير، من قبل حين أشار إلى أولئك الذين على أيديهم صححت مسيرته في طلب العلم الحق، فيقول: إن أولهم رسول الله ﷺ، إن صحت الرؤيا، وأظنها إن شاء الله صحيحة . والثاني محمد سيدي بن حبيب الله التندغي الشنقيطي . والثالث محمد بن العربي العلوي المدغري المغربي . والرابع الشيخ الفاطمي الشراوي . والخامس السيد محمد رشيد رضا . والسادس الشيخ عبد الرحمن بن عبد الرحيم المبارك بوري مؤلف « تحفة الأحوذي » .

أحب العلوم إليه :

ويحدد الشيخ ما يؤثره من علومه فيقول : أحبها إليّ علوم الحديث وعلوم القرآن لأني أحب اتباع الكتاب والسنة، وأكره مخالفتهما، ثم علم النحو وسائر علوم الأدب ، ثم علم اللغات ، ولا أعرف علة ذلك .

ولعل مرد هذا فيما نرى إلى صلة هـذه العلوم بالنفس الإنسانية . فالنحو والأدب واللغات صور متعددة لأصول واحدة ، فبالنحو نعرف أسرار العلائق بين الألفاظ في التركيب ، وبين التركيب والمضمون النفسي ، وليس الأدب وعلم اللغات عن ذلك ببعيد ، لأن الباحث لا يستطيع رصد التطورات الطوارىء عليها إلا من خلال الواقع النفسي لصانعي هـذا التراث أفراداً وشعوباً . أمـا الصلة بين هذه الفنون وعلمي القرآن والحديث ، فعلى غاية

من التواثق ، إذ لا سبيل لأحد إلى تذوق النظم القرآني ، واستشراف دقائق الوحي في الكتاب والسنة إذا لم يكن على زاد وفير من الإدراك والتذوق لهذه الفنون .

أهم الأحداث التي عاصرها :

يقول الشيخ : أول هذه الأحداث كثرة السفر والاغتراب . وثانيها بغضي للتقليد كيف ما كان نوعه. وثالثها لقاء الشيوخ المذكورين. ورابعها حب الدعوة إلى اتباع الكتاب والسنة .

ويلاحظ أن عبارة شيخنا هنا غير وافية بالجواب المنشود إذ هي تكتفي بالتعداد دون التفصيل . وكنا نتوقع أن يحدثنا عن كل من هذه الأربع وما حصل له فيها من أحداث ، وهي كثيرة دون ريب ، فمن أسفاره مثلاً غربته طوال سنوات الحرب العالمية الثانية في ألمانية ، حيث تولى الإشراف على الإذاعة العربية ، ولا تخلو هذه المهمة من مفارقات ومفاجآت . كذلك بغضه التقليد الذي لا بد أن يكون قد جرّ عليه بعض المشكلات ، وهي كثيرة عرفنا بعضها من أحاديثه الخاصة . وهكذا القول في الأمرين الآخرين .

وفي ظننا أن المسئول عن هذه الفجوة هو الكاتب الذي تلقى عن الشيخ هذه الأمالي فلم يحسن ضبطها كما ينبغي ، ولم يستطع تخليصها حتى من اللحن ، لأن بصر الشيخ ، نفع الله به ، لم يعد قادراً على إسعافه بما يريد ، فهو مضطر للاستعانة بأي كاتب .

أهم الأحداث التي عرضت له :

ويتابع فضيلته : أما القضاء فإنني أكرهه ، وقد عرض عليّ سنة أربعين وثلاثمئة وألف ، عرضه عليّ الشيخ أحمد سكيرج ، وكان قاضي القضاة بناحية وجدة .

ورأيته بعيني يتملق للمراقب الفرنسي ويستشيره قبل البت في القضايا المهمة ويقع بينهما جدال ، مع أن ذلك القضاء كان شرعياً محضاً ، فرفضت . وهناك داع آخر وهو بغض الاستعمار ونية محاربته . وأذكر هنا بعض الأحداث :

أولاً – أنني كنت محاضراً وطالباً في جامعة بون فاتهم الأستاذ باول كالي بل اتهمت زوجته بالميل إلى اليهود ولم يتبرأ منها ، فعزل من منصبه في الجامعة، وكان جزء من راتبي يأخذه هو من مصدر مجهول عندي [1] ويسلمه إليّ . فهرب هو إلى بريطانيا ، والجزء الذي كنت آخذه من الجامعة لا يكفيني ، فوقعت في أزمة شديدة ، ولكن الله فرج عني بأن طلبتني وزارة الدعاية ، كما تقدم، وصرت آخذ راتباً ضخماً بلغ ألفا وأربعمئة مارك، ومن هذه الأحداث أن سماحة الأستاذ السيد محمد أمين الحسيني (رح) بعثني في مهمة سياسية أثناء الحرب الثانية العالمية إلى شمال المغرب – وكان الإنجليز قد أمروا السفير العراقي في رومة ، أو أحد موظفي السفارة ، أن لا يجدد جواز سفري ، ويخبرني أن السفارة لا تعترف بأني عراقي، وكان السفير إذ ذاك مزاحم الباججي، فلا أدري أبلغه الخبر فخاف الإنجليز أم قدر الإنجليز بدهائهم المعروف أن ينفذوا أمرهم بوساطة من دونه من الموظفين في السفارة العراقية ، وحينئذ بعث إليّ السفير المغربي عبد الخالق الطريسي رحمه الله جوازاً على أنني من أهل تطوان . وبهذا الجواز سافرت إلى المغرب فظن الإسبانيون أن حكومة هتلر أرسلتني إلى منطقة حمايتهم لتطردهم وتحل الحماية الألمانية مكان حمايتهم وصرحوا إليّ بذلك قائلين، بعد أن نزعوا مني ذلك الجواز بدعوى أنه مزور : إنني لست من أهل تطوان، بل من المنطقة السلطانية الواقعة تحت الحماية الفرنسية . وبعد مفاوضات طويلة قالوا : إن كنت بريئاً من هذه التهمة فاكتب مقالاً في صحيفة « الحرية » لسان حزب الإصلاح الوطني ، وصرح فيه بأن لا حق لألمانية في استعمار المغرب ، أو بسط حمايتها على أي جزء منه .

---

(١) الظاهر أن مراد الشيخ أن كالي كان يعينه بجزء لا يدري مصدره .

فاستشرت الزعيم عبدالخالق رئيس الحزب المذكور، فلم ير بأساً ، فكتبت مقالاً طويلاً ذكرت فيه أن المغرب للمغاربة لا حق فيه لألمانية ولا لفرنسة ولا لأسبانية ولا لغيرهن من الدول ، ففرحوا بذلك واقتنعوا أنهم كانوا متوهمين ، فأعطوني إقامــة في المدن فقط ، وشرطوا عليّ أن لا أتعاون مع الوطنيين في أي أمر سياسي ، فلا مقــال ولا كلمة ولا درس إلا بعد إذنهم وإلا فإنهم يسلمونني إلى الفرنسيين ، فالتزمت لهم ذلك وأقمت خمس سنين في منطقة نفوذهم . وفي أثنائها وردني كتاب من الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله يقول لي فيه : لنا مكاتبون ومراسلون من جميع أنحاء العالم الإسلامي إلا المغرب. فأرجو منك أن تبحث لنا عن مراسل وتخبرنا بقدر المكافأة التي يتطلبها عن كل مقال يرسله إلى صحيفة الإخوان المسلمين ، وإن قدرت أنت أن تقوم بهذا الأمر فهو أحب إلينا . فقبلت الطلب وبدأت أراسل صحيفة الإخوان المسلمين سراً بواسطة البريد الإنجليزي في تطوان . ولكن الإسبانيين كانوا قد اتفقوا مع أحد الموظفين المغاربة في البريد الإنجليزي أنه متى رأى رسالة أو مقالاً لا يذكرهم بخير أو شر ينسخ لهم نسخة منه ويعطونه مكافأة عظيمة على كل رسالة أو مقال . فأطلعهم على جميع المقالات التي أرسلتها إلى صحيفة الإخوان المسلمين ، فقبضوا عليّ وزجوني في السجن ولم يوجهوا إليّ أي اتهام . وبقيت فيه ثلاثة أيام ، فاحتج أهل المدينة التي كنت فيها ، وهي شفشاون، لدى السفير الإسباني في طنجة . وأذاعت محطة لندن باللهجة المغربية الحادثة والاحتجاج ، فأطلقوا سراحي ، ولما طلبت منهم تبديل النقود بالنقد الأجنبي ، وهو الجنيه المصري، رفضوا ، وأشاروا إلي نقضت الوعد الذي وعدتهم وقال لي المراقب المدني : نحن لسنا مغفلين وقــد كنا من قبل مغفلين . ولكن الخليفة السلطاني مولاي الحسن بن المهدي بارك الله فيه أجبرهم على تبديل النقود . وسافرت إلى العراق ، وترجمت كتاباً من الإنجليزية إلى العربية ساءهم بعدما نشر ، وكتبت مقالات نشرت في صحيفة السجل البغدادية ، ذكرت فيها شيئاً من جرائمهم التي كانوا يرتكبونها في منطقة نفوذهم ، فوقعوا في ما خافوا منه .

وأكتفي بهذا القدر ، فإن الأحداث كثيرة والوقت ضيق ، ولعل الله يوفقني لكتابة ترجمة مفصلة تشتمل على جميع الحوادث والأخبار ، فإن كثيراً من الناس يلتمسونها مني .

نشاط الشيخ في خدمة العلم :

يقول شيخنا ، مد الله في حياته :

أول اشتغالي بالتدريس كان في زمن أستاذي الشيخ سيدي بن حبيب الله التندغي الشنقيطي الذي تقدم ذكره ، فإنه كان إذا سافر ينيبني عنه في تدريس الطلبة وكان يقول للناس : كل ما عندي من العلم فهو عند هذا الفتى وزيادة . وهذا من حسن ظنه ، والله قادر على أن يحققه . ثم إن أحد الحكام العرب وهو الحاج أحمد باشن أغا من ناحية أربواث في جنوب الجزائر ، التمس من شيخنا أن يأذن لي في التدريس عنه ، وكان هو نفسه يحضر الدرس وابنه القائد البشير وجماعة من الناس . وبقيت عنده سنتين ، وقد توفي في السنة الثانية شيخنا المذكور ، ثم سافرت إلى وجدة وفاس ، والتمس مني العالم الأديب الشيخ أحمد سكيرج تدريس ابنه عبد الكريم وابن أخيه عبد السلام شيئاً من علوم الأدب العربي ، فدرستهما سنة كاملة ، وهو الذي ساعدني على تحصيل جواز السفر إلى الشرق . وكان الفرنسيون المستعمرون لا يسمحون بمنح جواز السفر إلا لمن يعرفونه ويثقون بإخلاصه لهم ، وخصوصاً الشباب المثقف . فكتب إلى السفير الفرنسي يقول إن محمد تقي هو بمنزلة ابني عبد الكريم وهو محب للدولة الفرنسية وأنا أضمنه . وهذا كان من شدة إكرامه لي ، وإلا فقد كان يعلم عكس ذلك . ومع ذلك بقيت شهراً كاملاً أتردد على المراقبة الفرنسية ، وفي آخر الأمر تيسر لي لقاء المراقب الأعلى واسمه انبروزني ، وهو يعرف الأدب العربي ، فبعد أسئلة طويلة وأجوبة غير صادقة آخرها : من تعرف في مصر؟ فقلت: لا أعرف أحداً ، ولكن الأستاذ سيدي أحمد سكيرج كتب لي توصية للسفير الفرنسي

في القاهرة ، وهو صديقه . فقال : أرني هذا الكتاب . فلما قرأه أخذ التلفون وكلم الموظف المكلف بإعطائي الجواز ، وأخبره بموافقته ، وقال لي: إنك ستجد في مصر فتناً كثيرة ، فأنصح لك أن تشتغل بطلب العلم الذي تسافر من أجله ، واهرب من السياسة ومخالطة الناس. فشكرته على ذلك ، وحصلت على الجواز ، فسافرت إلى مصر وأقمت بها سنة ، دعاني في أولها الشيخ عبدالظاهر أبو السمح ، الذي صار بعد ذلك إماماً وخطيباً في المسجد الحرام ، وكان في ذلك الوقت إمـــام مسجد الأسطى أبي هاشم المهندس يصلي فيه ويلقي دروساً في الدعوة والإرشاد ، وهذا مسجد خاص بالسلفيين ، ويسمونهم وهابيين .. دعاني لأنوب عنه في الصلاة وإلقاء الدروس لأن جماعة الفقهاء من الأئمة والمأذونين كانوا يحاربون الشيخ المذكور ، فدعوه للمناظرة في أحد المساجد ، وهيؤوا له رجلاً يضربه بالعصا حين يتلقى الإشارة منهم ، فبينما هو يناظرهم أشاروا إلى الرجل فانهال عليه ضرباً ، ولم يقتصروا على ذلك بل كتبوا عريضة إلى محافظ الاسكندرية يقولون : إن عبد الظاهر أبا السمح وهابي ضال مبتدع ، يقول : إن العصا خير من النبي ﷺ ، ويمنع الاستغاثة به والتوسل ويطعن في المذاهب الأربعة ويعلّم الناس مذهباً خامساً ، ولما صعد المنبر ليخطب خطبة الجمعة في أحد المساجد أخذ العلمين المنصوبين على جانبي المنبر فألقاهما على الأرض إهانة لهـذا الشعار الديني ، يضاف إلى ذلك أنه أحدث فتنة عظيمة في رمل الإسكندرية ، ففرق بين الأب وابنه والأخ وأخيه والقريب وقريبه ، فنرجو من سعادتكم أن تضعوا حداً لهذه الفتنة ، بمنع هـذا الرجل من الصلاة والتدريس في جميع المساجد ، وتأمروا بسد مسجد الوهابية الذي أسسه بعض أتباعه .

وكنت إذ ذاك عند بعض المغاربة في مدينة الإسكندرية فبعث إليّ رسولاً يقول : بادر إلى الحضور بدون تأخير لأن المحافظ راجت عليه عريضة الجماعة بإغلاق مسجد أبي هاشم ، وأمر الشيخ عبد الظاهر أن لا يصلي إماماً ولا يلقي درساً في أي مسجد .

فلما جئته قال لي: أرجو أن تفتح المسجد وتصلي فيه الصلوات الخمس والجمعة وتلقي الدروس نيابة عني إلى أن يفرج الله ، ففتحت المسجد وصرت أصلي فيه وألقي فيه الدروس . فاشتد ذلك على جماعة الفقهاء ، وكتبوا عريضة إلى الملك فؤاد يقولون مثل ما قالوا في العريضة التي رفعوها للمحافظ ، وزادوا على ذلك أن سعادة محافظ الإسكندرية ثبت عنده كل ما نسبناه إلى هذا الرجل فمنعه من الصلاة والتدريس ، وأمر بإغلاق مسجده . فدعـا شخصاً مغربياً يسمى محمد تقي الهلالي ، وهذا المغربي عنده حماية فرنسية ويتمتع بالامتيازات الأجنبية ، ويدعو إلى مثل مـا يدعو إليه أبو السمح تماماً من العقيدة الوهابية الفاسدة ، فنرجو من جلالتكم أن تمنعوا هـذا الرجل المغربي من إفساد عقائد المسلمين . رخاب الدساسون ، فبعث الملك فؤاد العريضة إلى محافظ الإسكندرية فلما اطلع عليها المحافظ غضب غضباً شديداً لأمرين أحدهما : إنهم تخطوه واشتكوا إلى الملك ، والثـاني : إن منعي أنا من التدريس والصلاة يفضي إلى تدخل السفير الفرنسي بسبب الامتيازات الأجنبية التي كان العمل جارياً بها في مصر ذلك الزمان ، وهو سنة إحدى وأربعين وثلاثمئة وألف للهجرة ، فدعا الموقعين كلهم وأمر أن يدخلوا عليه واحداً بعـد واحد فسأل الأول : أهذا توقيعك ؟ فأجاب بنعم ، فقال مرة أخرى أتعترف أنه توقيعك . وأمر بحجزه في مكان آخر ثم دعا الثاني والثالث والرابع إلى آخرهم ، وفعل مع كل واحد منهم مثل ما فعل مع الأول ، ثم جمعهم وقال موبخاً لهم : لـماذا تركتموني وكتبتم إلى الملك ؟ جئتموني من قبل وزعمتم أن أبا السمح وهابي ومفسد إلى آخر مـا ذكرتم فظننت أنكم صادقون ، ومنعته وأمرت بإغلاق المسجد فـما شأن المغربي ؟ أهو وهابي ومفسد ؟

فقالوا كلهم : إي والله يا سعادة المحافظ هذا المغربي مثله تماماً .

ثم قال لهم: زعمتم في عريضتكم التي أرسلتموها إلى الملك أنكم تخشون وقوع فتنة تسيل فيها الدماء إن بقي هـذا المغربي يبث العقيدة الوهابية ، فهل أنتم

رجال أمن مسؤولون عن المحافظة على الأمن ومكلفون بإخماد الفتن ؟ بل أنتم سبب كل فتنة ، وأي شيء يقع في رمل الاسكندرية من الفتن بسبب العقائد الدينية فأنتم وحدكم المسئولون عنه ، وسأعاقبكم عليه عقاباً صارماً ، وأنتم مستحقون للعقاب منذ الآن ولكني أمهلكم .

فرجعوا خائبين وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون، وكان الشيخ عبدالظاهر في أول الأمر يحضر صلاة الجمعة مؤتماً متخفياً . فلما مضى شهران ولم يحدث ما يكدر الصفو، صار يأتي علانية ، ولما ظهر لنا أن أولئك الأعداء خمدت فتنتهم وخضرت شوكتهم استأذنته أنا في الرجوع إلى القاهرة ، فرجعت إليها ثم سافرت بعد ذلك إلى الصعيد وتقدم أني أقمت بضعة أشهر في الريرمون أدعو إلى توحيد الله واتباع الكتاب والسنة ، فاستجاب لدعوتي شيخ البلد المباشر للحكم وتبعه أهل البلد إلا قليلاً .

وأزيد هنا أنه بعد استجابة الشيخ يوسف ، رحمه الله ، التمس مني أن ألقي الدرس في الجامع الأعظم ، وكان هو وسائر المساجد ممنوعاً عن السلفيين دخولها، فجمع الله الشمل بدعوتي . واستمررت ألقي دروس الوعظ في المسجد الأعظم ، فاغتاظ شيخ الطريقة والعمدة «المرفوت» ، وبعثا إلى الأزهر يطلبان أستاذاً من العلماء الأقوياء في المناظرة ، فجاء الأستاذ الأزهري ، وأقام في قصر العمدة ، فأشاع هذا وخدمه أن هذا الأستاذ سيناظر الأستاذ المغربي ويفضحه ويقضي على دعوته ، لأن المغربي لم يدرس في الأزهر وهو حاج جاهل اغترّ به شيخ البلد ورفع شأنه .

قال ذلك ليحملني على مناظرته ، فقلت لمن أخبرني : صدق العمدة .. أنا جاهل ولم أدرس في الأزهر ، وأنا أنوي الحج إن يسره الله ، ولكن المسائل التي دعوت الناس إليها من توحيد الله واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم أعرفها وعندي عليها براهين لو جاء الشيخ الأزهري وجميع أساتذته ما استطاعوا أن ينقضوا واحداً منها . فقال لي إخواننا السلفيون : لا تقل مثل هذا الكلام ،

فإن ذلك يطمعهم ، وتقدم لمناظرة العالم الأزهري ، فإن الأزهريين ليس عندهم علم بأدلة التوحيد واتباع الكتاب والسنة ، ونحن مع قلة علمنا نناظرهم فنفحمهم. فقلت لهم : لكم رأيكم ولي رأيي ، أنا لا أناظر أحـــداً إلا من هجم عليّ ، فإنني أضطر حينئذ إلى مناظرته . والقاعدة التي أسير عليها هي تجنب المناظرة بقدر الإمكان ، ومن خالفني أقول له أنا حارث وأنت حارث وأرض الله واسعة فخذ بقعة من الأرض واحرثها وأنا أحرث هذه البقعة ، والحاصلات بيد الله ، أقصد بذلك إنني أدعو إلى ما أعتقد أنه الحق ، وهؤلاء الناس أمامك فادعهم أنت أيضاً ، فمن استجاب لي فهو لي ومن استجاب لك فهو لك ، ولا حاجة بنا إلى خصام ولا نزاع .

فبلغ العمدة « المرفوت » وأستاذه الأزهري كلامي هذا ، فزاد طمع العمدة وأستاذه ، وفسر ذلك بأني ضعيف ، فعزم الأستاذ الأزهري ، بإيعاز من العمدة « المرفوت » أن يهجم عليّ في الجامع الأعظم عند إلقائي الدرس ، فبعث إليه الشيخ يوسف ، رحمه الله ، رسولاً يقول له : نحن قد اخترنا هـذا الأستاذ المغربي بعدما ألقينا عليه كل ما عندنا من مشكلات ، وأجابنا أجوبة مقنعة ، والمسجد لم يبن للمهاوشات والمنازعات . والله إن جئت وفتحت (بقك) بكلمة واحدة في الاعتراض على المغربي لآمرنّ خفيرين يرافقانك إلى محطة القطار ويركبانك فيـه . فوقع العمدة « المرفوت » وأستاذه الأزهري في حيص بيص وتحيرا في أمرهما .

وكنت ذات يوم من أيام رمضان مدعواً إلى الإفطار عنـد العمدة الحقيقي الذي هو الحاكم على البلد ، وكان ملحداً ، قـال لي : أنا لست معكم ولا معهم ، ولكني أرى عقيدتكم أقرب إلى العقل من عقيدتهم . فلمـا فرغنا من الإفطار رجعت ماراً بقصر العمدة ، لأنه في طريقي ، فإذا بشيخ الطريقة يسلم عليّ ويصافحني ويقول : إن سعادة العمدة يدعوك لتشرب عنده كوباً من القهوة . فقلت : عندي درس بعد التراويح . فقال : خمس دقائق .

فدخلت القصر ثم رافقني إلى مقصورة وجدت فيها الأستاذ الأزهري جالساً وحده ، فما استقر بي المجلس حتى بدأ الأستاذ في طرح الأسئلة .

وتصديت لجوابه ، ووقعت المناظرة التي كانا يرغبان فيها . ولما سمع الناس بذلك تركوا صلاة التراويح . فحانت مني التفاتة إلى حديقة القصر فرأيتها كلها قلانس وعمائم ، والنـاس جالسون على بساط النجم الذي كانت أرض الحديقة مفروشة به ، فأخذ الأستاذ الأزهري في كل مناسبة يقول جهاراً : أشهد بالله إن هذا الرجل عالم وأنا راجع عما قلته فيه . أشهد بهذا وإن كنت أخالفه في بعض المسائل. فسقط في يد العمدة وشيخ الطريقة وخاب أملهما . فقال العمدة «المرفوت» : أيها الأستاذ، أرجو أن تتركوا هذه المناظرة إلى وقت آخر ، فإني لم أدع الأستاذ المغربي للمناظرة بل دعوته لشرب القهوة .

وهكذا انتهت المناظرة بانتصار أهل الحق ولله الحمد. وفي صباح تلك الليلة ناول العمدة « المرفوت » الأستاذ الأزهري مـا تيسر من الدراهم وردّه إلى الأزهر .

بين السنة والبدعة :

وإذ أرخيت العنان للقلم في هذا الموضوع فمن المستحسن أن أضيف إليـه قصة مناسبة حدثني بها الشيخ يوسف رحمه الله، حين زرت ريرمون بعد رجوعي من الهند سنة خمس وأربعين وثلاثمئة وألف .. أخبرني أنهم لمـا تمسكوا بالسنّة وتركوا البدع كلها ، شاع في الناس أن أهل ريرمون بدلوا الدين . فبلغ الأمر إلى وزارة الأوقاف في القاهرة أو في أسيوط ، فجاء مفتش على أثر ذلك من وزارة الأوقاف ، وتكلم مع الشيخ يوسف وقال : إننا سمعنا أنكم بدلتم الدين وخالفتم جميع المساجد في مـا يفعل يوم الجمعة وغيرها . فقال له : أنت عـالم ونحن جهال، احضر معنا صلاة الجمعة، فكل ما رأيته مخالفاً للسنة تأمرنا بتركه فنتركه ، وكل ما رأيته ناقصاً من السنة تأمرنا بفعله فنفعله . قـال لي : يا شيخ يوسف ، السنة على الرأس والعين ، ولكن لا يخفى عليك أن الناس قد أحدثوا

بدعاً مستحسنة من أزمنة متطاولة ، والبدعة تعتريها الأحكام الخمسة ، تكون واجبة ومستحبة ومكروهة ومحرمة أو مباحة كما صرح به غير واحد من أهل العلم ، ولا نستطيع أن نبطل هذه البدع وقد ألفها الناس وعملوا بها وأقرها العلماء بالسكوت والاستحسان قال : فقلت له : تريد منا إذن أن نترك السنة ونفعل البدعة ! لا والله لا يكون ذلك أبداً . فقال المفتش : ثم لا يخفى عليك أن هذا مسجد الأوقاف هي التي بنته وهي التي تنفق عليه . قال فقلت له : نحن قادرون نبني مسجداً آخر أحسن منه في سبعة أيام ونخلي لك الإمام والمؤذن يصليان فيه وحدهما. فقال المفتش: أو نصنع شيئاً آخر يوفق بين رأيي ورأيكم . فقال : ما هو ؟ فقال : أصلي معكم الجمعة وتفعلون البدع التي كنتم تفعلونها من قبل ، حتى ارجع أنا إلى مقر عملي وأخبر بأن ما شاع عنكم كذب ، وبعد ذهابي ترجعون إلى ما كنتم عليه من التمسك بالسنة وترك البدعة . قال الشيخ يوسف : فقلت له لك ذلك . فقال : فصنعنا كما أمر ، ثم رجعنا إلى السنّة .

مع المتنبي :

يقول الشيخ : ثم درست في مدرسة علي خان في دهلي، بطلب من النواب صدر الدين ، ديوان المتنبي ستة أشهر ودعاني الأستاذ الأديب الشيخ عبد المجيد الحريري في بنارس، المدينة المقدسة عند الوثنيين، لإلقاء دروس في علم الأدب والتجويد ، فأقمت عندهم ثلاثة أشهر ، وفي الوقت نفسه دعاني الأستاذ الشاعر الأديب الشيخ عبد الحميد الفراهي لأدرّس في مدرسة ببلده ، فرجحت إجابة طلب الحريري ودرّست في مدرسة خاصة أنشأها لي السري الشيخ مصطفى آل ابراهيم بالندوة سنة ، ثم توجهت إلى المملكة العربية السعودية آخر سنة خمس وأربعين وثلاثمئة وألف ، فعينت مدرساً في المسجد النبوي ومراقباً للمدرسين سنتين ، ثم نقلت إلى المسجد الحرام والمعهد السعودي فدرست فيهما سنة ، ثم دعاني السيد سليمان الندوي إلى ندوة العلماء ، وتقدم ذكر ذلك .

وفي أثناء إقامتي في الندوة اقترح عليّ السيد سليمان ، رحمه الله ، إنشاء مجلة لتدريب الطلبة على الكتابة والإنشاء ، فأنشأتها بمساعدة أفضل تلامذتي هناك الأستاذ مسعود عالم الندوي رحمه الله ، وسميناها « الضياء » وانتشرت في الهند واستفاد الناس منها ، وكنت مع ذلك أدرب الطلبة على الخطابة مرتين في الأسبوع ، يهيء كل من عنده كفاءة منهم خطبة في موضوع يختاره فيلقيه أمام الطلبة ، وأصحح له ما فيه من الأخطاء والعبارات المرغوب عنها . وبذلك تخرج أدباء باللغة العربية في الهند [1] وسبب ذلك أن تعليم الأدب العربي كان جارياً بالترجمة ، فكان الأستاذ إذا تصدى لتدريس كتب النحو أو كتب الأدب كديوان الحماسة وديوان المتنبي والمقامات الحريرية والمعلقات ، يدرس الطلاب ترجمة هذه الكتب ، ولا يدرسهم الكتب نفسها . وهنا تحتم عليّ أن أذكر قصة وقعت لي في مدرسة علي خان التي تقدم ذكرها لما فيها من إقامة البرهان على فساد التعليم بالترجمة .

ذكرت من قبل أن النواب صدر الدين رحمه الله ، دعاني لإلقاء درس كل يوم في الأدب العربي لتتعود آذان الطلبة سماع الكلام العربي على لسان أستاذ عربي ، وأمر مدير المدرسة الأستاذ أحمد الله أن يختار لي المتقدمين من الطلبة فاختارهم وكان عددهم خمسة عشر . ولما علم بذلك أستاذ اللغة العربية مولانا عبد الرحمن النقرامي غضب وقال للطلبة : لقد أخطأ النواب في هذا الأمر . هذا شاب عربي جاهل مجهول في الهند لا يستطيع أن يعطيكم شهادة تنفعكم ، وقد انقرض العلم وذهب أهله في بلاد العرب منذ زمان طويل . ألا ترونهم يجيئونكم في كل سنة من مكة والمدينة يتكففون الناس ؟ هل رأيتم قط عالماً جاء من بلاد العرب ؟ فاذهبوا إلى النواب وقولوا له : نرجو أن تعفينا من الدراسة عند المغربي فإننا لا نفهم كلامه ولا يفهم كلامنا. فقالوا: نحن نستحي أن نراجع النواب.

---

(١) لقد لمسنا أثر هذه السنة الحميدة في الوافدين إلى الجامعة الإسلامية من خريجي ندوة العلماء ، فهم من أفصح الأعاجم عربية ، بل إنهم يضاهون أفصح الطلاب العرب .

فقال : إذاً لا أعطيكم شهادة ودعوا المغربي يعطيكم شهادة . وبعدما درّستهم أربعة أيام وصلنا إلى قول المتنبي في قصيدة يمدح بها سيف الدولة :

أنا له الشرفُ الأعلى تقدّمه ... فما الذي يتوقى ما أتى نالُ !

وكنا ندرس هذا الكتاب بنسخة مطبوعة في دهلي، فلم أفهم الشطر الثاني، فقلت للطلبة : لم أفهم هذا الشطر فلعله محرف . فأعظموا ذلك، وقالوا : صدق مولانا عبدالرحمن أنت عربي وعالم وتعجز أن تفهم المتنبي –(توبة استغفر الله)– وهذه كلمة تقال بالأردو عند الغضب والاستنكار. فقلت لهم: لعل هذا الشطر محرف ، فإنه لا معنى له بهذا اللفظ . فقالوا : ليس محرفاً وقد درس الديوان كله بهذه النسخة مولانا عبد الرحمن مراراً فما وجد فيه تحريفاً ولا خطأ ، ولكن هذا قصور منك . فذهبوا إلى الشيخ عبدالرحمن وقالوا له: «إن عرب صاحب السيد العربي» اعترف بعجزه عن فهم هذا الشطر، وزعم أنه محرف، فقال لهم: ليس هذا الشطر محرفاً وهذا يفهمه كل واحد حتى الحمار ، فرجع إليه أحد عشر منهم وبقي عندي أربعة أيضاً يعتقدون أني لم أفهمه ولكنهم فضلوا الاستماع إلى اللغة العربية على لسان رجل من العرب، فبقيت أفكر في هذا الشطر أربعة أيام فلم أفهمه ، فذهبت إلى الشيخ عبد الرحمن وسلمت عليه فرد عليّ السلام ، وكان الطلبة قد أحاطوا به يلقي عليهم الدرس ، فقلت له : أيها الشيخ ، أنا لم أفهم هذا الشطر ، والطلبة يقولون إنك فهمته فأرجو أن تفهمني إياه . فقال لي ما نصه : « فما الذي يتوقى الأعداء ما أتاه الممدوح من الإقدام نالوه » ، وكان ينبغي أن يكون بعد اللام واو وألف ولكنه كتب خطأ . فقلت له : لم أفهم فأرجو أن تعرب لي هذا الشطر حتى يتبين معناه فقال : مـــا موصولة والذي توكيد لها ويتوقى فعل مضارع وفاعله ضمير مستتر تقديره هم يعود على الأعداء في البيت الذي قبله ما موصولة مفعول بـــه ليتوقى ، أتى فعل ماضي والعائد محذوف تقديره أتاه ، نالوا فعل وفاعل ، فقلت له : إذا قلنا إن مـــا موصولة والذي اسم موصول يكون التقدير الذي الذي قـال : ولا حرج في ذلك .

فقلت له : لا يجوز أن يكون فاعل يتوقى ضميراً مستتراً تقديره هم إذ لو أريد الجمع لبرز الضمير ، وصار يتوقون . فقال: تريد أن تعترض على المتنبي ؟ فقلت: أنا لا أريد الاعتراض بل أريد أن أفهم . فقـال : إن أبا علي الفارسي بقي أياماً ينظر في ديوان المتنبي فلم يستطع أن يجد فيه خطأ . فقلت له : قد أخطأ المتنبي في مواضع ، فقد انتقد عليه علماء البلاغة قوله :

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم　　　شيم على الحسب الأغر دلائلُ

ففيه التعقيد واستثقال لفظ جفخت ، وعابوا عليه قوله :

فقلقلت بالهم الذي قلقل الحشا　　　قـلاقل همّ كلهـن قـلاقل

وعابوا عليه قوله :

إن كان مثلك كان أو هو كائن　　　فبرئت حينئذ مـن الإسـلام

اجتمع في هذا البيت قبح اللفظ والمعنى . وبمراجعة شروحه تعرف أنه ليس معصوماً من الخطأ . فأعرض عني وقال للطالب الذي كان يقرأ (تشلو) يعني : إقرأ ، فأصابني غم عظيم ، وقلت لطالب : إذا أردت أن أسأل عن الطابع المجتبائي ، فما أقول ؟ فلقنني ألفاظاً بالأردو . فانطلقت أسأل إلى أن وصلت دار المطبعة المجتبائية فسألتهم : هل عنـدهم نسخة للبيـع من شرح العكبري لديوان المتنبي ؟ فقالوا : النسخة الأخيرة بعناها أمس . وأخبروني بمن اشتراها وهو طالب ، فذهبت إليه ، فجاءني بالكتاب ، فقرأت البيت وشرحه ، فإذا هو محرف كما توقعت ، وصوابه هكذا :

أنا له الشرف الأعلى تقدمه　　　فما الذي بتوقي ما أتى نالوا ؟!

فظهر أن ما التي زعم أنها موصولة استفهامية ، وظهر أن يتوقى الذي اخترع له فاعلاً تقديره هم ليس فعلاً أصلاً بل هو جار ومجرور ، وبذلك اتضح معنى الشطر فكتبت البيت على الصواب وشرحه وذهبت إليه ، فقلت له بعد السلام : أيها الشيخ أنت قلت للطلبة إن ذلك الشطر يفهمه كل أحد حتى الحمار ،

وقــد ظهر أنك لم تفهمه ، خذ اقرأ . فقرأ ذلك ثم رد لي الصحيفة ولم ينبس ببنت شفة ، رحمه الله وغفر له . وأنما سقت هذه الحكاية لما فيها من العبرة .

ثم درّست في مدرسة النجاة بالبصرة ثلاث سنين . وبعد ذلك سافرت إلى أوربة محاضراً وطالباً في جامعة بون كما تقدم . وفي سنة سبع وأربعين وتسعمئة وألف تمكنت بعد لأي من الرجوع إلى العراق ، وعينت مدرساً للأدب العربي والقرآن والحديث في كلية الملكة عالية من حامعة بغداد. ولكن رئيس الوزراء في ذلك الوقت صالح جبر كان من زعماء الشيعة الإثنيعشرية منعني من العمل في المنصب الذي عينت فيه ، وعلل ذلك بأني رجعت إلى العراق بجواز أجنبي ، وذلك يعتبر تنازلاً عن الجنسية العراقية . فسألت الدائرة المختصة عن تجنسي بالجنسية العراقية ، فأخبرت أنه لم يطرأ عليه تغيير ، وأخبرني أهل الخبرة أنه لا يمكن نزع التجنس من المتجنس بالجنسية العراقيــة إلا بارتكاب جريمة يرى مجلس الوزراء أن مرتكبها يستحق أن يعاقب بإسقاط تجنسه . وعلمت أن صالح جبر إنما فعل ذلك تعصباً لطائفته ، لأني اطلعت على الملف الخاص بي في دائرة التحقيقات الجنائية بمساعدة الأستاذ طه الفياض وأحد معاوني الشرطة ، فرأيت فيه زعمهم أنني معاد لأبناء الطائفة الجعفرية . وأنا لم أعــاد الطائفة الجعفرية قط ، ولكن قرأت في مجلة المنار مقالاً لكاتب شيعي من بلاد فارس أقام فيه البراهين التي لا تبقي شكاً على أن أئمة أهل البيت رضي الله عنهم كانوا يحرمون البنــاء على القبور وسائر البدع التي يرتكبها المبتدعون عندها . ومن ذلك ما ذكر جعفر الصادق رضي الله عنه من قوله : كل ما جعل على القبر من غير تراب القبر فهو ثقل على الميت . وحديث الصحيحين : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أوليائهم[1] مساجد » إلى آخره ذكره مروياً من طريق أهل البيت ، وذكر أحاديث أخرى وآثاراً يفهم منها أن أئمة أهل البيت في هذه المسألة لا يختلفون مع أهل السنة . وعلى رأي الجهال ينبغي أن يسموا

---

(١) المشهور (أنبيائهم) لا (أوليائهم) .

وهابيين ، فكتبت رسالة إلى السيد المهدي القزويني مجتهد الشيعة في البصرة ، ونقلت له الأحاديث التي ذكرها صاحب المقال ، وقلت له : أخبروني عن هذه الأحاديث ، أهي صحيحة عندكم أم لا ... فإذا كانت صحيحة فما المانع من العمل بها وتطبيق أحكامها ؟ فأجابني برسالة طويلة لم يطعن في شيء من تلك الأحاديث ، ولكنه تأولها ، وصرف معناها ، وسبّ ذلك الكاتب الشيعي وصاحب المنار سباً شديداً ، وسألني في آخر الرسالة أن أكون حكماً بين الشيعة وصاحب المنار ، فكتبت سبع مقالات سميتها « القضاء العدل في حكم البناء على القبور » وحكمت لصاحب المنار على مجتهد الشيعة المذكور ، لا تحيزاً بل لأن الحق في جانبه ، ونشرت هذه المقالات في مجلة المنار ثم جُمعت في كتاب أمر بطبعه الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود رحمه الله ، وأظن هذا هو سبب زعمهم إني معاد لطائفة الشيعة . وبمراجعة المنار يظهر أن هذا كذب وأن أئمة أهل البيت الذين ينتسب إليهم الشيعة متفقون مع أئمة أهل السنة في تحريم بدع القبور ، والتشيع على درجات ، أخفها أن يكون الرجل محباً لأهل البيت ، معترفاً بفضلهم ، عارفاً لهم حقهم وقرابتهم من رسول الله ﷺ مع محبته لأصحاب رسول الله ﷺ ، وخصوصاً الخلفاء الأربعة ، واعتقاده لخلافتهم جميعاً . الدرجة الثانية تفضيل علي على غيره من الصحابة مع اعتقاده ثبوت خلافة الثلاثة كما هو مذهب الزيدية ... (!) . الدرجة الثالثة إنكار خلافة الخلفاء الثلاثة وتكفير أكثر الصحابة ، واتهامهم بالخيانة ونقض العهد ، فهذا هو المنكر الذي ينكره كل من ألهمه الله رشده . ومع ذلك لم أتعرض لعقيدة الشيعة الخاصة ، وبذلك يظهر أن ما سطروه في الملف غير صحيح ، وبقيت على ذلك سبعة أشهر فحدثت الوثبة ، ووقعت في بغداد مظاهرات قتل فيها أربعون شخصاً ، وسقطت الوزارة ، وهرب صالح جبر ونوري السعيد . فتولى السيد محمد الصدر رئاسة مجلس الوزراء وأمر في الحال بإعطائي نسخة من التجنس . وباشرت عملي في الجامعة . والسيد محمد الصدر أيضاً شيعي ، ولكنه عالم معتدل

لا يرضى بسلوك صالح جبر التعسفي . وبعد أربع سنين رقيت إلى درجة أستاذ مساعد ثم جاءتني دعوة لأكون أستاذاً منتدباً لتدريس العلوم الإسلامية في القسم الشرقي في جامعة بون لمدة سنة . ورقيت إلى درجة أستاذ جامعي ، ثم نقلت إلى كلية التربية لأن كلية الملكة عالية كانت خاصة بالطالبات . ولما شاع اختلاط الجنسين في جامعة بغداد وألفه الناس صارت كلية الملكة عالية ، التي سميت بعد الثورة كلية التحرير ، شبه ملغاة ، وبقيت أستاذاً في كلية التربية إلى سنة تسع وخمسين وتسعمئة وألف حيث أطلق عبد الكريم قاسم أيدي الشيوعيين تزلفاً للدول الشيوعية ، فصاروا يقتلون من شاؤوا ويسجنون من شاؤوا ، ويسحلون الناس في الشوارع ، يضعون حبلاً في عنق الرجل ويجرونه إلى أن يموت ، ويعذبون المسجونين في الليل ، ويتعقبون البعثيين فيفتكون بهم ، ولا يفرقون بين مسلم وملحد ، فكل من ليس لهم فهو عليهم . فأحسست بالخطر فاحتلت حتى خرجت من العراق ، ووصلت المغرب ، فعينت أستاذاً في كلية الآداب في جامعة محمد الخامس ، وبقيت فيها إلى سنة ثمان وستين وتسعمئة وألف الموافقة لسنة ثمان وثمانين لتاريخ الإسلام ، فحججت . ودعاني صاحب الفضيلة رئيس الجامعة الإسلامية الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز لأكون أستاذاً منتدباً في الجامعة الإسلامية ، وقدم الطلب إلى وزارة التعليم العالي بالمغرب بوساطة وزارة الخارجية السعودية ، فوافقت الوزارة وانتقلت إلى الجامعة الإسلامية ولا أزال فيها [1] ، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل تعليمي خالصاً لوجهه الكريم ، مقبولاً عنده ، موجباً للفوز بجنات النعيم . أما إلقاء الدروس في المساجد والمحافل فلم يزل دأبي في الشرق والغرب ، وتقدم الإشارة إلى بعض ذلك .

---

(١) ترك فضيلته الجامعة الإسلامية ليتفرغ لعمل الدعوة بالمغرب منذ أول عام ١٣٩٤ هـ.

مؤلفاته وأحبها إليه :

يقول الشيخ حفظه الله في السنة التي رأيت فيها النبي ﷺ وأمرني بطلب العلم : رأيت كأن شجرة نبتت في ظهر يدي اليمنى وامتدت أغصانها إلى جميع أنحاء الدنيا بحيث لا أرى أطرافها ، فظننت أن تأويل هذه الرؤيا أني أتعلم العلم وأؤلف كتاباً ينتشر في جميع أنحاء العالم . وقد أخطأت في هذا التأويل فأن الذي انتشر في أنحاء العالم هي المقالات التي نشرتها في الصحف والمجلات ولا أحصيها لكثرتها في الهند والبلاد العربية مشرقها ومغربها ، وفي أوربة والولايات المتحدة . ومع ذلك ألفت تآليف صغاراً ، أذكر منها هنا ما يحضرني :

١ – الزند الواري والبدر الساري في شرح صحيح البخاري (المجلد الأول فقط) .
٢ – الإلهام والإنعام في تفسير سورة الأنعام .
٣ – الإسفار عن الحق في مسألة السفور والحجاب .
٤ – القاضي العدل في حكم البناء على القبور .
٥ – الأنوار المتبعة في تحقيق سنة الجمعة .
٦ – فضل الكبير المتعالي (ديوان شعر محمد تقي الدين الهلالي) .
٧ – قبسة من أنوار الوحي .
٨ – الصبح السافر في حكم صلاة المسافر .
٩ – العِلم المأثور والعَلَم المشهور واللواء المنشور في بدع القبور .
١٠ – مدنية العرب في الأندلس (مترجم عن الإنجليزية) .
١١ – آل البيت ما لهم وما عليهم .
١٢ – البراهين الإنجيلية على أن عيسى داخل في العبودية وبريء من الألوهية .
١٣ – دواء الشاكين وقامع المشككين في الرد على الملحدين .
١٤ – أحكام الخلع في الإسلام .
١٥ – حاشية على كتاب التوحيد لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب .

١٦ – رسالة الدكتوراه وهي ترجمة مقدمة كتاب « الجماهر في الجواهر » والتعليق عليها .
١٧ – الطبقات عند العرب .
١٨ – « لسان الدين » المجلد الأول من مجلة كنت أصدرها بتطوان .
١٩ – « التمثيليات » لمحمد بن دانيال . تعريف بها وبيان محتوياتها .
٢٠ – مختصر هدى الخليل في العقائد وعبادة الجليل .
٢١ – « الهاديات » أربع قصائد من أوائل شعره .
٢٢ – رحلة من الزبير إلى جنيف .
٢٣ – من يرافقني إلى برلين بقسميها الشرقي والغربي .
٢٤ – رحلة إلى درعة في الجنوب الشرقي من المغرب .
٢٥ – رحلة إلى ألمانية .
٢٦ – تاريخ اللغة السامية .
٢٧ · دليل الحاج في مناسك الحج .
٢٨ – الصديقات الثلاث (قصة) .
٢٩ – فكاك الأسير العاني المكبول بالكبل التيجاني .
٣٠ – حاشية على كشف الشبهات ، لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب .
٣١ – حواشي شق على إنجيل متى .
٣٢ – الحسام الماحق لكل مشرك ومنافق .
٣٣ – العقود الدرية في منع تحديد الذرية .
٣٤ – الرجعية والتقدم .
٣٥ – سب القاديانيين للإسلام والرد عليهم .
٣٦ – تقويم اللسانين .
٣٧ – أهل الحديث .

والكتابان الأخيران مقالات مستمرة تنشر في مجلة « الوعي الإسلامي » و « دعوة الحق » .

والظاهر أن هذه الكتب جميعاً قد خرجت إلى حيز النشر ، وإن كنا لم نطلع على معظمها . ويلاحظ من عنواناتها أمران : تعدد جوانب الفكر واتساعها ،

فهي تتناول أشتات البحوث من شرعية وأدبية واجتماعية ولغوية ، وإن كان الغالب عليها هو الطابع الديني . ولا غرو فالشيخ، مد الله في حياته ، من رجال الدعوة المعروفين في مختلف أنحاء العالم الإسلامي . وقد كان أحد الرجال الذين تركوا أثرهم في عقل مؤلف هذا الكتاب منذ زمن طويل ، ببحوثه العديدة التي كان ينشرها في العديد من المجلات الإسلامية العالمية ، ثم قدر الله اللقاء فجمعت بينهما زمالة التدريس في الجامعة الإسلامية ، وفي مجلسها الإداري عدد سنين ، أما ثاني الأمرين فهو السجع الغالب على معظم هذه العنوانات ، وهو ثمرة طبيعية للطابع الأدبي الذي يؤثره الشيخ ، إذ هو من بقايا المدرسة المحافظة ، شديد التمسك بها حتى التعصب .

أحب انتاجه إليه :

ويجيب على استطلاعنا عن أحب ما كتب إليه وما نظم فيقول: أعتذر عن ذكر مختارات من النثر لأنه كثير ولا أستطيع أن أختار شيئاً منه إلا بمراجعته كله ، وذلك ليس في الإمكان ، وإن أراد الأخ المقترح أن أطلعه على بعض ما عندي ليختار هو بنفسه شيئاً منه ، فإني مستعد لذلك ، وأما النظم بل الشعر فقد جلت فيه جولات كثيرة ، وضاع أكثره، وفي السنين الأخيرة جمعت ما أمكنني جمعه منه ، وهو غيض من فيض وأثبت هنا ما يتسع له الوقت . من ذلك القصيدة الأولى في انتقاد أخلاق الموظفين ومعاملتهم لمن يتردد عليهم من أبناء جلدتهم ، قلتها في بغداد زمان الحكم الملكي ، وما ذكرت من الصفات المستنكرة مشاهد في جميع الشعوب المتخلفة لا تخص العراقيين دون غيرهم ، بل ربما كان العراقيون أفضل من غيرهم في هذا الأمر . فقد رأيت معاملات وأخلاقاً مرذولة في شعوب أخرى في القارة الآسيوية والقارة الإفريقية أسوأ كثيراً مما شاهدته في العراق ، وهذه القصيدة من البحر الخفيف سميتها « الانتقاد رسول الإصلاح » :

نحن في بلدة غدا الحكم فيها — يا رحيماً رحماك — للبوابِ
إن يكن راضياً دخلت وإلا تبق في الواقفين .ون الباب
بلدة أصبح الموظف فيهـا جالساً في السماء فوق السحاب
من يرد أن يلقى الموظف يبصرْ قبل أن يلقاه صنوف العذاب
فإلى الله نشتكي من زمان فاسد جاءنا بكل عجاب
برزت فيـه كل ربـة خـدر
واختفى (البيك [1]) خلف ألف حجاب
وإذا ما سألت عنه فلا تسمع منهم سوى اختلاق الجواب
هو عند الوزير بل في اجتماع عنـده زائر من الأصحاب
ما تراه دعـا بقهوة بن وكؤوس مملوءة بشراب
لم يجيء بعد فانتظر أو تأخر لغد أو فاعزب لغير إياب
وإذا فزت باللقـاء فحاذر رفع صوت أمامه في الخطاب
وتجنب ذكر الحقوق وبالـغ في خضوع وذلة وانتحاب
ثم قل في تملق وانكسار وثنـاء منمق مستطـاب
ليت كل الموظفين كمثل (البيك) في رقـة ولين جنـاب
أنا لا أنسى ما حييت جميلاً لك يا بن الأكارم الأقطـاب
هكذا كان جدك الشهم قدماً وأبوك المزدان بالألقاب
فعسى أن تنال بعض حقوق منيت باستباحـة واغتصاب
ذاك شأن الموظفين سوى نزز قليل من جلة الأنجاب
حـالة تضحك العدو وتبكي بدمـاء معاشر الأحباب
أبهذي الأخلاق يرجـع مجد ضاع منكم في غابر الأحقاب !

---

(١) لقب تركي للتشريف..

كل من لم ينصف أخاه ينل من يـــد أعدائه أليم العقابِ
سنة الله في العباد قديمـاً قد سمت عن تبدل وارتياب
كن ذليلا على أخيك تجد قِر نك ملقى معفراً بالـتراب
أو عزيزاً عليه تُمنَ بذل وتـ.ش ِحلفَ شقوة وعذاب
وإذا لم يك الموظف دومـاً خادماً للجميع غير محـابي
بل يستغل منصبـــه الأعلى ويسقي أخوانه كأس صاب
فهو مستعمر خبيث ولو في قومه نال أكرم الأنساب

وقلت في مدينة بون الألمانية في ٢٦ صفر ١٣٥٦ للهجرة وبعثت بهـا إلى المجاهد الأكبر في الشمال المغربي الأستاذ عبد الخالق الطريسي رحمه الله . فنشرها في صحيفة الحرية لسان حزب الإصلاح الوطني الذي كان زعيمه ورئيسه ، والقصيدة من بحر الوافر :

سنا الحريــة الغراء لاحا فصيّر حندس الظلما صباحا
وأحيا ميت الآمال لمـا أهاب بنا إلى العليـا وصاحا
دعـا للبعث والإنقاذ قوماً نياماً جرّعوا[1] الظلم الصراحا
دعـا للبعث والإنقاذ قوماً حِماهم قـد غدا نهباً مباحا
دعـا للبعث والإنقاذ قوماً رأى العدوان أثخنهم جراحا
أفاقوا من سباتهم فقـاموا فشاموا بارق الإصلاح لاحا
وألقوا سمعهم لنداء داع رأوا حقـاً إجابته الفلاحا
فقالوا إيه يا لبيك داع[2] ويا سعديك، وابتدروا السلاحا

---

(١) كانت (ارهقوا) ولا معنى لها فأبدلنا بها ما يناسب القرينة ، ولا ريب أن الكاتب فضلا لا ينكر في التشويشات الكثيرة التي واجهتنا في هذه القصيدة وما يليها .

(٢) حق (داع) هنا النصب والخطأ للكاتب .

سلاح الحق لا يخشى فلولاً ويلقى من يصول به النجاحا
وساروا سيرة الحكماء حتى استحال فساد قومهم صلاحا
وهبّوا للعلا يسمون حتى أعادوا غابر المجد المطاحا
فيا حزباً غدا للخير يسعى ليبدل خسر أمته رباحا
جزيت من الإله بكل خير ولقّيت السعادة والفلاحا
ودمت على صراط مستقيم لك الأغلاق تنفتح انفتاحا
تحارب باغياً وتميت جهلاً ونور العلم تجعله السلاحا
فيصبح قومك الأموات أحيا وتنشرح الصدور لك انشراحا
وتنهض بالبلاد إلى المعالي وتفتتح الطريق لها افتتاحا
وتبدل ضيمها عزاً وفخراً وتملؤها ابتهاجاً وارتياحا
سلام الله يهديه إليكم دواماً ما غدا غاد وراحا
أخ لكمُ بنار البين يصلى غريباً ما أقام ولا استراحا
ولم ينس البلاد وساكنيها ويذكرها العشية والصباحا

وقلت في سنة ألف وتسعمئة وإحدى وأربعين ميلادية ببرلين تحية للزعيم رشيد عالي الكيلاني لما قدم إليها هارباً من بلاد العراق إلى بلاد الترك ثم إلى ألمانية ، وأذيعت في إذاعة برلين العربية بتوقيع أبي مرثد البصري وهي من البحر الكامل :

باءت بنو سكسون بالخسران ونجا الزعيم رشيد الكيلاني
يا آل عدنان تبدى سعدكم وأتت هناءتكم بني قحطان
فرشيدكم بالرشد أقبل سالماً وأمينكم[1] في عزة وأمان
سيفان مهما أصلتا لملة زال الظلام وأشرق القمران

(١) يريد الزعيم الإسلامي المجاهد الحاج محمد أمين الحسيني رحمه الله .

يا مقبلاً من غزوة متأهباً ... للقــاء أخرى ليس بالمتــواني

تهديك وثبتك العظيمة أنهــا ... فجر الجهاد وأول الفرقان

لك في قلوب العرب حب صادق ... ومكانة جلَّت عن التبيان

وبكل أرض رفعة وجلالة ... في النأء من أرجائها والداني

جهلوا العراق وأرض يعرب كلها ... وإباءها العــالي الرفيع الشان

حتى بطشت البطشة الكبرى فكا ... نت عندهم من أسطع البرهان

الفضل فيك سجيــة موروثة ... عن جدك المختار من عدنان

وأبيك شمس العارفين المرتضى ... عبــد القدير الجهبذ الجيلاني

بحر العلوم وقطبها ومنارها ... وثمــال أهل العلم والعرفان

ظنت بريطانية الرعناء أنك ... مثل غيرك خائف أو واني

من كان يحسب أن ثمة نازلاً ... في وجه جنبول إلى الميدان !

قام العراق بقضّه وقضيضه ... خلف الزعيم يثور كالبركان

بجنوده بشبابه وشيوخــه ... حتى ضعاف الأهل والولدان

يفدون بالأرواح حوزة أرضهم ... وزعيمهم من غارة العدوان

يستعذبون الموت في سوح الوغى ... ذوداً عن الأحساب والأوطان

ملئت نفوسهم حماساً [1] صادقاً ... متأججــاً كتأجج النيران

لم يسلموك إلى العداة وإنما ... خانت جهادك عصبة الشيطان

نوري الشقي ورهطه أهل الخنا ... من كل نذل سافل خوان

لما رأى ركن العدى متداعياً ... في أرضنا متزعزع البنيان

فرّ الخبيث من البلاد مبادراً ... متخوفــاً يجري إلى عمان

---

(١) الحماسة : هو الفصيح ، وهي لا تفوت الشيخ ، ولعل المسئول عنها هو الكاتب الذي أتعبنا كثيراً بأخطائه التي لا تحصى .

يشكو إلى ساداته الأنذال ما	قد ناله من محنة وهوان
يشكو إلى أستاذه المفتون ما	وتواصيا بالغدر والكفران[1]
وكلاهما بالويل أصبح داعياً	لدنوه من دارة الخسران
.إن عزت الأوطان لا يبقى لنا	فيها ثواء في مدى الأزمان
أين المقر؟.. أفي نواحي لندن	أم في نيورك عيشنا بأمان !
فزعاً إلى جنبول إن نجاتنا	في كفة من نقمة العربان
حشدت بريطانية أجنادهـا	من جملة الأجناس والألوان
من بيضها الصهب اللئام وسودها	فتكاثرت كالبوم والغربان
وأتت بدباباتها مثل الجبال	وطائرات كالنسور دواني
بمدججات بالحديد تبرقعت	خمسون عدت بعدها مائتان
لتنال نصراً باهراً لم تستطعه	في وغى دنكرك واليونان
ما هابها الجند العراقي الفتى	سم العداة وخيرة الشجعان
وغداً ينازلها بجأش ثابت	ويجندل الأقران في الميدان
سل رطبة عنه وسن ذبابها	وشعيبة بالقرب من سفران
تنبيك عن وثباته وثبـاته	وبمـا مني الأعداء بالخسران
فرت بنو سكسون من فتكاته	ثم انثنت تستن كالغزلان
لولا التفاوت في السلاح لما استطا	عت رجعة مع جندنا لطمان

وللشيخ حفظه الله شعر لا تبلغ مستوى جودته هذه المنظومات ولعله قد آثرها من أجل موضوعاتها الهامة ، ونحن نشاركه في ذلك، لأن مشكلة المجتمع العربي والإسلامي مع حاكميه وموظفيه ، إلا من رحم الله ، تستدعي الكثير

---

(١) البيت مختل من حيث التركيب ، ولم نهتد إلى أصله فتركناه كما كتب .

من النقد الإصلاحي، كالذي وجهه إلى هذه الفئة في أولى الثلاث . وكذلك الأمر في القصيدتين الأخريين إذ عرض علينا فيهما بعض مشاهد النضال الذي نهض به العراق والمغرب في وجه الاستعمار فحفظ لقرائه بهما ذكريات لا يحسن أن تغيب عن أذهانهم .

رأيه في مستقبل الجيل :

ويتفضل الشيخ بتفصيل رأيه في مستقبل الجيل قائلاً :

«الذي يظهر لي أن الشباب في المغرب وخصوصاً المتعلمين في الجامعة دائبون على التباعد من الإسلام ، وبعضهم لا يكتفي بالتباعد بل يعادي الإسلام . وقد دعوت إلى الإسلام بوجهه الأول الذي لم يبدل ولم تشوهه البدع المحدثة ، فاستجاب لي بحمد الله خلق كثير وفيهم شباب كثير من متعلمين وغير متعلمين، ولكن هؤلاء إذا قيسوا بغيرهم كنقطة من بحر أو كشعرة بيضاء من حيوان أسود . ولا أراهم إلا سائرين في طريق الكفر سيراً حثيثاً ، إلا إذا يسر الله انتشار الدعوة السلفية المحمدية الحنيفية حتى تعمّ المغرب كله، وما ذلك على الله بعزيز ، والبلدان الأخرى ليست أحسن من بلادنا بل قد تكون أقبح ، لأن المغاربة لم يطرأ عليهم التباعد عن الإسلام إلا منذ تسع وخمسين سنة ، أي منذ دخول الفرنسيين مستعبدين ، ولا يزال المغاربة أكثر قبولاً للدعوة من غيرهم لو وجدوا دعاة صالحين ، على أني وبحمد الله نجحت أيضاً في العراق ، ولا تزال الدعوة مستمرة يقوم بها تلامذتي . إلا أني وجدت من الصعوبة في العراق ما لم أجد مثله في المغرب لأن الداء في العراق قديم ، وبلغ الأمر بالآباء أنهم كانوا يمنعون أبناءهم من الصلاة معي وحضور دروسي في المسجد ويغرونهم بالدراهم والسينما ، فيقبضون دراهمهم ويأتون إلى جامع الدهام لحضور الصلاة ودروس الوعظ ، ولم أر في المغرب أحداً من الآباء يعادي الإسلام بهذا الشكل » .

وحبذا لو تبسط أستاذنا في إيضاح الجوانب التي ينبغي للدعاة أن يعيروها الأكثر من اهتمامهم، على اعتبار أن لكل بيئة متطلباتها، والأسلوب الأصلح لها، وبخاصة بعد الذي أشار إليه من الفرق بين المغرب والعراق.

هذا وكنا نود كذلك لو لم يغفل الحديث عن الهند والسعودية اللتين قضى فيهما ردحاً من الزمن.. فإن الإفاضة من مثله في هذا الصدد من الأمور المرغوبة المنشودة.

واجب العلماء نحو الجيل:

وعن مسئولية أهل العلم بإزاء هذا الجيل يقول الشيخ:

إذا وجد جماعة من العلماء المخلصين المستعدين لحمل ما عسى أن يصيبهم من الأذى كالضرب والسجن والنفي زيادة على السب والشتم وعداوة الناس، وقد لا يصيبهم شيء من ذلك، فإنهم يستطيعون أن يجذبوا كثيراً من الناس إلى الإسلام الصحيح، ولا تستطيع الدعوات المعادية للإسلام أن تقف في طريقهم، ولا أن تعوق تقدمهم إلى بلوغ غايتهم المنشودة.

وهنا أيضاً نجد في النفس تساؤلات: من أي طراز يرى أن يكون هؤلاء العلماء؟.. وإذا توافر وجود هؤلاء فهل يتمكنون من أداء رسالتهم في ظل الأحكام المعادية للإسلام؟.. وما النصائح التي يوجهها إلى دعاة الإسلام الذين يعيشون تحت كوابيس الشيوعية والديكتاتورية؟..

ليت الشيخ أفاض علينا من تجاربه في هذه الجوانب ما يساعد على وضوح الرؤيه أكثر.



١٢

الأستاذ محمد عبد القادر المبارك

يقول الأستاذ :

اسمي الذي سماني بـه والدي رحمه الله « محمد » ولقب أسرتنا منذ أكثر من قرن على الأقل « المبارك » وقد كناني بأبي هاشم ، وكان يرى ذلك عادة عربية مستحسنة ، لما فيها من إشعار بالرجولة .

ولدت بدمشق عام ١٩١٢ م. في دار ملاصقة للمدرسة العادلية ، الـتي هي اليوم مقر للمجمع العلمي العربي ، وقد أصبحت هذه الدار نفسها ملحقة بالمجمع، وهي في حي قريب من الجامع الأموي ، ثم سكنا منزلاً آخر أقرب إليـه في جهته الشرقية . وكنت أتردد مع أقراني من أحداث الحي على الجامع في أكثر أوقات فراغنا للصـلاة وللفسحة في رحابه الواسعة ، ولحضور الدروس الدينية التي كانت لها حلقات كثيرة بعد أكثر الصلوات الخمس .

إنني حاليـاً أستاذ ومستشار في جامعة الملك عبد العزيز بجدة ، وأقيم في مكة المكرمة منذ سبع سنوات بالقرب من بيت الله الحرام .. متزوج منذ سنة ١٩٤٧ م. وأب لخمسة أولاد (ثلاث بنات وولدان) وجد لستة أولاد من بنتي المتزوجتين .

حياتي الزوجية سعيدة لما بيننا جميعاً أنا وزوجتي وأولادي وأصهاري من انسجام في العقيدة والأخلاق وسائر مذاهب الحياة، ذلك أننا جميعاً نؤمن بالإسلام إيماناً عميقاً مقترناً بالحب له والعمل في سبيله والدعوة إليه. ونعتقد أنه السبيل الوحيد لإنقاذ البشرية وأن ما سواه من الأديان والمذاهب لا يصلح للإنسانية، بل إن فهمنا للإسلام أنا وأسرتي جميعاً التي عددتها، فهم واحد، قوامه الرجوع إلى الكتاب والسنة وما استنبط منهما فحسب.

الأسرة :

كان والدي الشيخ عبد القادر المبارك عالماً مشهوراً في دمشق وأكثر شهرته في اللغة والأدب، وكان أمثاله من اللغويين ومن في طبقته نادرين في البلاد العربية كلها، كما شهد له بذلك الشيخ محمد الخضر حسين رحمه الله. كان أعجوبة في حفظ مفردات اللغة وغريبها وشواهدها من شعر العرب، كثير الرواية له، وكان من أعضاء اللجنة التي ألفت في عهد الملك فيصل الأول الهاشمي لتعريب المصطلحات العسكرية، وقد اختير عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق حين تأسيسه، وشارك في وضع كثير من المصطلحات كلفظ «الهاتف» التي هي من وضعه واقتراحه. وكان كذلك عالماً بالسيرة ووقائعها، وبتراجم الرجال ومشاركاً في العلوم الإسلامية، ومتقناً للغة التركية وعارفاً للإنكليزية.

كان أثره في حياتي وتكويني الفكري والثقافي كبيراً، وكان في بيت والدي مكتبة كبيرة أصلها لجدي الشيخ محمد المبارك، وكان من علماء دمشق وشيوخها، وقد تفرد بينهم باللغة والأدب ونظم الشعر، وله رسائل أدبية مطبوعة وشرح لعشر من مقامات الحريري، وقد تحدث عنه الأستاذ محمد كرد علي في مذكراته، وهو أحد عالمين تتلمذ عليهما أحدهما الشيخ طاهر الجزائري. وأصل أسرتنا القريب من الجزائر، هاجر منها والد جدي إثر الاحتلال الفرنسي حوالي سنة ١٨٤٥ م. على رأس قافلة كبيرة من الجزائريين الذين كانوا ملتفين حوله.

البيئة التي نشأت فيها بيئة محافظة على الأخلاق الإسلامية الموروثة ، تحيا في جواء الإسلام وتراثه وتعتز به ، سواء في ذلك الأسرة التي انحدرت منهم والحي الذي نشأت فيه . وكانت دار والدي مرتاداً للعلماء الوافدين من أرجاء البلاد الشامية والعربية، وكنت دائم الحضور لتلك اللقاءات والندوات. وقد استفدت كثيراً من مكتبة جدي ثم والدي رحمهما الله، وكنت مكلفاً تزويدها بالمطبوعات الجديدة وتصنيفها كلما اختل ترتيبها » .

ونقف هنا قليلاً لنتأمل في هذه المنطلقات التي يتولى الأستاذ سردها عن نشأته وأسرته ، فمثلها لا تغني فيه القراءة عن التأمل ، إذا أردنا التعرف الدقيق لملامح هذه الشخصية ، التي تمثل أحد أفراد الجيل الذي انتهت إليه أمانة الدعوة والتوعية ، على مستوى الوطن الإسلامي أو معظم أنحائه .

أول ما يسترعي الانتباه من هذا الحديث إبرازه ذلك اللون الذي تميزت به الأوساط العلمية بدمشق طوال عهود الحضارة الإسلامية إلى نهاية النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري، أي قبل تسلل المؤثرات الدخيلة إلى صميم حياة الناس في ظل الانتداب الفرنسي . فالجو إسلامي صرف ، تظله كل مقومات التربية الأصيلة .. البيت بجوار المدرسة العادلية ، وعلى مقربة من المسجد الأموي ، فمن هنا وهناك تنبعث موحيات الماضي العظيم ، تتراءى من خلاله رايات الإسلام ، تزحف في كل اتجاه من العالم، وتحمل إلى الخلف أصداء التكبير ممتزجة بعبير النصر من سهول حطين القريبة ، وأسوار القدس الحبيبة .. وقد تولى تجديد ذكرياتها ، كلما آذنت بالركود ، قبر البطل الفاتح الصالح صلاح الدين ابن أيوب ، الذي استقر بجوار ذلك المسجد ليكون معه شاهداً وحافزاً يصل بين أمس واليوم والغد من حياة المسلمين .

في هذا الجو نشأ صاحب الترجمة، وعلى هذا المسجد الحافل بالموحيات يتردد مع أقرانه من أحداث الحي لأداء الصلاة ، وللرتوع في رياض الجنة — حلقات الدرس — في أعقاب معظم الصلوات .

ثم هناك البيت الذي أسس على هذا الروح ، فهو مدرسة قائمة بذاتها ، فيها الكتب القيمة ، وفيها العلم الذي يأخذ سبيله إلى القلوب والعقول ، على يـــد والد يشهد عارفوه أنه كان أعجوبة في حفظه وسعة آفاقه ، وأسلوب تربيته ، التي تقوم على الحكمة والموعظة الحسنة .. والبيت بسبب ذلك كان مرتاد العلماء الوافدين عليه من أرجاء البلاد الشامية والعربية ، والفتى المترجم دائم الحضور لتلك اللقاءات والندوات ، ممـــا جعله مؤهلاً لرعاية المكتبة ، مكتبة جده ثم والده ، يزودها بالجديد من المطبوعات ، ويقوم بترتيبها كلما اعترى الخلل تلك المحتويات .

أجل إنها لمنطلقات لا يستطيع إغفالها من أراد الكلام عن حياة الأستاذ المبارك وتحليل آثاره وتعرف منهجه ، في خدمة الدعوة التي وقف عليها حياته المباركة كلها ، وبخاصة تلك الحصانة التي حفظت عليه مقوماته الشخصية أمام مغريات باريس ، وتخرصات المستشرقين ، الذين استطاعوا سلخ الكثيرين غيره من مقوماته الإسلامية ، إذ لم يكن لهم رصيد من الوعي الذي أتيح له .

ويحدثنا الأستاذ عن دراسته فيقول :

أما دراستي فكانت مزدوجة تسير في خطين متوازيين أحدهما خط المدارس النظامية ، وثانيهما خط الدراسة القديمة على الشيوخ وفي الحلقات .

أمـا دراستي النظامية فقد تابعت الدراسة الابتدائية ، ثم الثانوية ، منتهياً بالفرع العلمي وبالشهادة التي كانت تسمى يومئذ « شهادة البكالوريا الثـانية فرع الرياضيات » وكنت متفوقاً في الدراسة الثانوية ، وخاصة في اللغـة العربية والرياضيات ، واخيراً في اللغة الفرنسية التي كنت أقرأ بها وبالعربية معاً جميع المواد الدراسية في السنة الأخيرة ، ثم تابعت الدراسة الجامعيـة بدمشق في الحقوق وفي الآداب ، حيث كانت أنشئت مدرسة الآداب العليا وأنهيتها في سنة ١٩٣٥ م.

وكنت خلال هذه الدراسة النظامية أدرس في الصباح المبكر وفي المساء وفي الإجازة الصيفية على شيخ علماء الشام في عصره الشيخ محمد بدر الدين الشهير بالحسني والملقب « بالمحدث الأكبر » ، وكان أوسع أهل زمانه اطلاعاً على العلوم الإسلامية القديمة بجميع فروعها من الحديث والتفسير حتى الرياضيات وإن كانت شهرته في الحديث ، وكان متفرداً في نمط حياته وفي عبادته وتقواه وسمته . وقد لازمته منذ نهاية الدراسة الابتدائية حتى نهاية الدراسة الجامعية مع فترة انقطاع قصيرة ، واستفدت كثيراً من علمه ، قرأت عليه النحو والصرف والتفسير والمصطلح والفرائض وأصول الفقه والكلام والبلاغة والحساب والجبر والهندسة ، بعضها في الدروس العامة وبعضها في الدروس الخاصة (أي خاصة بعدد معين من طلاب العلم) وبعضها كنت فيه منفرداً ، وذلك في مدرسة دار الحديث الأشرفية (التي كان يدرس فيها الإمام النووي) .

وقد تأثرت تأثراً عميقاً بهذا الشيخ الجليل رحمه الله، بسمته وأخلاقه وصفاته، وكنت لا أزال أكن له المحبة والتقدير العظيم والإعجاب، وإن كنت لم أقف منه موقف المقلد في جميع آرائه .

أنهيت في عام ١٩٣٥ م دراستي الجامعية في دمشق كما انتهيت كذلك قبل هذا التاريخ من دراستي على الشيخ إذ توفي رحمه الله في صيف العام نفسه ، وحضرت تشييع جنازته ، وكنت كثير التأثر لوفاته ، لم أبك على أحد بكائي عليه . وسافرت بعد ذلك إلى باريس موفداً في بعثة نجحت في مسابقتها وكنت الفائز الأول للتخصص في الآداب .

درست في كلية الآداب من جامعة باريس (السوربون) وفي معهد الدراسات الإسلامية التابع لها ، تابعت دراسة الأدب العربي والثقافة الإسلامية ، وعرفت المستشرقين عن كثب ولم أجد عندهم مادة علمية أستفيدها في أكثر الموضوعات بل كثيراً ما كنت أصحح لهم معلوماتهم ، ولكني كنت أستفيد من معرفة المراجع وبعض أساليب البحث .

خصصت السنة الثانية من دراستي في جامعة باريس بكاملها في دراسة الأدب الفرنسي وعصوره وفنونه وأعلامه . وحضرت على كبار أساتذة الأدب الفرنسي يومئذ ، وهذه الدراسة أفادتني في تذوق الأدب والقدرة على تحليل النصوص والاطلاع على النقد الأدبي الحديث ونظرياته والمباحث اللغوية الحديثة .

أما السنة الثالثة فخصصتها لدراسة علم الاجتماع دراسة كثيفة ومركزة ، بحضور المحاضرات والعكوف على المراجع في المكتبة . وكان أساتذة القسم من كبار علماء الاجتماع الفرنسيين من تلاميذ « دركهايم » وزملائه مثل « فوكونه» و « هالفاكس » و « البيريان » . وكانت استفادتي من هذين الفرعين الأدب الفرنسي وعلم الاجتماع كبيرة جداً ، فقد مكنتني من الولوج في صميم الثقافة الغربية والتفكير الغربي ومذاهبه الفكرية والأدبية من منابعها الأصلية ، وعن طريق الاختصاصيين من أهلها ، لا بالواسطة وعن طريق الترجمة . إن هذه الدراسة وسعت آفاقي وأكسبتني بعض المزايا الفكرية ولا سيا في طرائق البحث وأساليب التفكير ، ولكنها لم تستطع أن تؤثر في معتقداتي ولا أن تغزو عقلي ، ولكنها زودتني بمعلومات نافعة ومناهج مفيدة ، وأثارني جانبها السلبي وحفزني للرد عليها ، فتولد في نفسي كثير من الأفكار الجديدة ، واكتشفت كثيراً من خصائصه . واستحكمت حجتي وقويت في الدفاع عن مزاياه ، وتمكنت من التمييز بدقة بين مفاهيمه والمفاهيم الغربية ، لأني عرفت كلاً منهما من منابعه الاصلية دون اختلاط وتلفيق . وكنت خلال دراستي في باريس كثير التطلع لمعرفة مختلف آفاق المعرفة ، فلم أكن أقتصر على محاضرات الجامعة ، بل كنت أحضر المنتديات والمحاضرات العامة ، وأتردد على مختلف المعاهد العلمية والنوادي على تعدد اتجاهاتها وألوانها ، وأتصل بالمجتمع اتصال بحث وتعرف استعداداً لاستثمار هذه المعرفة في مجال الدعوة الإسلامية التي كانت تشغل نفسي من عهد مبكر ، وقبل سفري إلى فرنسا . وقد تعرفت في جملة ما تعرفت إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الجزائر ،

وكان هم يومئذ تسعة أندية في باريس ، وكان يمثلهم الشيخ الفضيل الورتلاني ، رحمه الله ، وكنت أتردد على نواديهم وأتعاون معهم في مجال الدعوة الإسلامية التي كانت أشمل من محاربة الاستعمار والتحرر والاستقلال .

إجازاته العلمية :

أما الشهادات التي نلتها فهي (بعد شهادة الدراسة الثانوية) قسم الرياضيات :

شهادة الحقوق من الجامعة السورية سنة ١٩٣٥ م من دمشق .

شهادة مدرسة الأدب العليا السورية سنة ١٩٣٥ م من دمشق .

شهادة الليسانس في الآداب من السوربون من جامعة باريس سنة ١٩٣٧ م

شهادة أو دبلوم في علم الاجتماع والأخلاق من جامعة باريس سنة ١٩٣٨ م

وكانت ثقافتي ودائرة اهتمامي موزعة في المجالات التالية :

١ - (اللغة العربية والأدب والنقد) ، وكنت متابعاً لهذا النوع من الدراسة متابعة جدية بالإضافة إلى الدراسة النظامية القوية يومئذ بالدراسة على والدي رحمه الله ، الذي قرأت عليه بعض شروح المعلقات وشرح مقامات الحريري والمقصورة الدريدية وغيرها ، وعلى شيخنا الشيخ محمد بدر الدين رحمه الله ، الذي قرأت عليه بعض كتب النحو والصرف والبلاغة. ثم أكملت هذه الدراسات العربية بدراسة الأدب الفرنسي الذي خصصت له من دراستي في فرنسا سنة كاملة فوسعت آفاقي الأدبية وتمرست بقراءة أعلام الأدب الفرنسي الكلاسيكي والمعاصر وتقوّت بذلك ملكتي اللغوية والأدبية .

وقد مارست تدريس الأدب العربي في مختلف عصوره في المدارس الثانوية، ثم في دار المعلمين العليا التي أنشئت قبل كلية الآداب ، حيث درّست النثر في العصر العباسي، وخاصة نثر ابن المقفع ، ثم درّست في كلية الآداب في قسم اللغة العربية ، فقه اللغة والدراسات القرآنية ، سنوات طويلة بدءاً من ١٩٤٨ م

حتى ١٩٦٦ م وألفت في كل من المادتين ، كما كنت أخرجت قبل ذلك رسالة في فن القصص في كتاب « البخلاء » للجاحظ .

٢ – (الدراسات الإسلامية)، درستها على والدي رحمه الله، وكان مدرساً للدين في ثانوية دمشق الوحيدة يومئذ ، بل في سوريا باستثناء ثانوية حلب التي أحدثت بعدها . وكانت له طريقة خاصة مؤثرة في التدريس، وقد درسنا خاصة بتوسع الأحوال الشخصية والسيرة النبوية . ودرست عدة سنوات على شيخنا الكبير الشيخ محمد بدر الدين رحمه الله التفسير والحديث والمصطلح والكلام والفرائض ، وغيرها . وأما الفقه فقد درست بنفسي مطولاته في المذهبين : الحنفي ، والمالكي .

ولما كانت الدراسات الإسلامية محور اهتمامي فقد تابعت البحث فيها والمطالعة دون انقطاع ، وخاصة المشكلات المعاصرة وجانب الصراع بينها وبين الثقافات الأجنبية ، والمشكلات المتعلقة بالعالم الإسلامي الحاضر . وقمت بتدريس هذا النوع من الدراسات في نطاق الجمعيات الإسلامية أولاً منذ سنة ١٩٣٩ م ثم في دار المعلمين بدمشق ، ثم في كلية الشريعة التي أنشئت في جامعة دمشق ١٩٥٤ م ثم في جامعة أم درمان ، ثم في كلية الشريعة بمكة وجامعة الملك عبدالعزيز بجدة، وألقيت في مختلف موضوعاتها مئات المحاضرات وكتبت كثيراً من المقالات ، ثم أخذت في التأليف فيها منذ سنة ١٩٥٧ م وما بعدها . وانشغالي في هذا النوع من الدراسة أكثر في الفكر والعقيدة والنظم ، وقد انصرفت أخيراً انصرافاً كاملاً للدراسات الإسلامية واستأثرت بكامل اهتمامي .

٣ – (الدراسات الاجتماعية) ، ولي إليها ميل قديم غذاه دراستي لعلم الاجتماع في فرنسا دراسة كثيفة مركزة ، وعنيت بدراسة المجتمعات الإسلامية والعوامل والتيارات المؤثرة فيها ، وبوجه خاص التيارات الفكرية المعارضة للإسلام ، ولي في هذا المجال بعض المؤلفات ، وأهمية هذا النوع من الدراسات عندي برزت بوجه خاص بسبب الحاجة إليها في مجال الدعوة الإسلامية ومعرفة

المجتمع الإسلامي المعاصر ، ومـا يواجهه من مشكلات وأفكار وتيارات ، وغير ذلك من المسائل الدائرة في هذا الفلك » .

مؤثرات دافعة :

لقد أحسن الأستاذ بهذا الاستقصاء الدقيق لموارده الدراسية ، فأرانا كيف استطاع الجمع بين الثقافتين الإسلامية والعصرية منذ أيامه الأولى ، وقد وفقه الله كثيراً إذ وهب له مثل ذلك الوالد ذي الشهرة الواسعة في العربيـة وغريبها وآدابها ، ووصله بالمحدث الشيخ بدر الدين الحسني ، الذي ملأ ذكره أنحاء الشام وما وراءها .. وكان كلا الرجلين ناقلاً إلى الشام مواريث العلوم الإسلامية من تراث الأندلس ، الذي انتهى إلى المغرب والجزائر وما حولها ، مع الخصائص التي ميزت بناة ذلك التراث من شمولية الثقافة، التي لا تعرف الانغلاق بوجه أي رافد من العلم .. وذلك هو الجو الذي نشأ في كنفه الأفذاذ من جيل الأستاذ المبارك والطنطاوي ، الذي إليه يرجع الفضل في تثبيت المعـاني الإسلامية ، وتحبيب البلاغة العربيـة إلى تلاميذهم وقرائهم ، ممن يسر لهم الله الأخذ عنهم والتأثر بأساليبهم في ديار الشام وغيرها .

وهكذا شخص الأستاذ المبارك إلى باريس ، التي أخذ بريقها أعين الكثيرين من المسلمين، حتى بعض الأزهريين، الذين قصدوا إليها لطلب المعرفة ، فلم يلبثوا أن نسوا أنفسهم ومهمتهم ، ثم عادوا بعقول أجنبية ، لا تهتدي إلى نافذة تطل منها على الحياة إلا من خلال النظارات التي حملوها من هناك!! ومع أنه لم يقصر عن أولئك المسحورين في شيء من الثقافة التي فتنتهم ، إلا أنهـا واجهت من مناعته ما أعجزها عن إذابته ، فظل واعياً لما يرى ويسمع ، يعرض كل شيء على موازين الإسلام ، فلا يرفض ولا يقبل إلا في نطاق أحكامه . وبهذه المناعة نفسها كان يجابه دسائس المستشرقين من أساتذته ، فيبطل مدعياتهم ، ويحطم هجماتهم . بل إنه استمر على صلته الحية بالعاملين للإسلام حتى في باريس، فلقي هناك الأمير شكيب أرسلان ، الذي سبق أن عرفه من خلال بعض ما كتبه

فأحبه، ولا بـد أنه ازداد إعجاباً به وانسجاماً مع أفكاره، التي كانت تشكل أحد معالم الطريق لدعاة الأخوة الإسلامية، في مقابل النافخين أبواق الأقليميات لتمزيق العالم الإسلامي .

وهنـــاك أيضاً اتصل ببعض كبار المجاهدين من « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » وفي مقدمتهم المرحوم الفضيل الورتلاني ، واستمر (يتردد على أنديتهم ويتعاون معهم في مجال الدعوة الإسلامية ، التي كانت يومئذ أشمل من محاربة الاستعمار والتحرر والاستقلال) .

ومن هـذا كله يتضح أن (الفتى المبارك) لم يفارق في باريس جوه الروحي الذي ألفه في دمشق ، بل ربما ازداد بـه تعلقاً ، فكان ذلك باعثه إلى حسن التخير والاستفادة من كل معرفة جديدة (استعداداً لاستثمارها في مجال الدعوة التي كانت تشغل نفسه من عهد مبكر وقبل سفره إلى فرنسا) .

وعن الرجال الذين أثروا في توجيهه يكتب الأستاذ :

لقد كان لوالدي رحمـــه الله ، أثر في توجيهي وتكوين شخصيتي العلمية والاجتماعية بأسلوبه الشخصي الفذ الذي عرف به بين جميع تلاميذه ، وقد كان بالنسبة لي مرشداً مربياً وأستاذاً معلماً ووالداً، علمني الحرية الشخصية . وكثيراً ما كنا نختلف في الرأي ونتناقش بحرية ، وكانت طريقته في الأخلاق والدين توجيهاً لا إكراه فيه ، ولا قسر ، ولا مضايقة ، وكان كثيراً ما يلاعبنا ونحن صغار ، ويتبارى معنا بالكرة ، نضربه بها ويضربنا ، والماهر منا من يفلت من إصابتها، وعلمنا السباحة . وكان يحب الرجولة ومظاهرها، ويكره الضعف والتخنث ، وكان كريماً يكره البخل والبخلاء ، وكانت له في البلد وعند الحكام وجاهة وزعامة لقوة شخصيته وكثرة تلاميذه وتلاميذ أبيه ، وكثرة مخالطته لمختلف الطبقات ، وكان في المجالس العامة محدثاً بارعاً .

وكان لشيخنا العظيم العلامة الكبير الصالح التقي المتعبد الشيخ محمد بدرالدين الشهير بالحسني محدث الديار الشامية في عصره ، أثر عميق في نفسي في طراز

حياته الفريد من نوعه وفي سمته وتقواه وانكبابه على العلم واطلاعه على العلوم بل الثقافة الإسلامية بجميع فروعها ، وكانت له بي عنـــاية خاصة في تعليمي وتوجيهي ، وكانت له في توجيهه مرام بعيدة ، وكان من جملتها توجيهي بطريقة غير مباشرة، لتعلم اللغة الأجنبية وتشجيعي على السفر إلى أوربا للتعلم، ولم يكن ذلك مألوفاً من أمثاله من علماء العصر .

وكان أكثر دهره صائماً ، قلما يتكلم إلا بعلم أو ذكر، يمنع الناس من القيام له ومن تقبيل يده، ويغضب لذلك . وكان يعلن في دروسه فرضية الجهاد لإخراج الأجنبي الكافر المستعمر ، وكان على صلة مستمرة مع الثائرين على فرنسا في سورية . وكان للأمير شكيب أرسلان رحمه الله ، أثر عظيم كذلك في نفسي بمؤلفاته وما كان ينشره في الدعوة إلى الوحدة الإسلامية، والتحرر من الاستعمار، وقد كان له الفضل الأول عليّ وعلى أبناء جيلنا في تكوين وعي إسلامي يصلنا بالعالم الإسلامي ، ويشعرنا بانتمائنا إلى الأمة الإسلامية ، ويتجاوز بنا الوطنيات والقوميات التي كانت لهـــا يومئذ سوق رائجة ، وقد جعلنا نعيش في أجواء المشكلات الإسلامية وقضايا الإسلام المعاصرة بكتبه ومقالاته . وقــد أتيح لي بعد ذلك أن أجتمع به في باريس حين إقامتي فيها. وقد كان رحمه الله مطارداً من جميع دول الاستعمار ، بل من أنصار الوطنية في بلده الذين يحلونها محل الإسلام ، ومن دعــاة الرابطة القومية الذين يكرهون الرابطة الإسلامية ويحاربونها .

وممن أثروا في توجيهي الفكري من القدماء بآثارهم التي قرأتها ابن تيمية ثم من بعده تلميذه ابن قيم الجوزية.. ذلك أني وقعت على كتاب الحسبة لابن تيمية في مكتبة جدي ، فأعجبت بتفكيره ونقاشه وبحثه ، كما قرأت كذلك كتاب «الطرق الحكمية في السياسة الشرعية» ثم اطلعت على أعلام الموقعين لابن القيم، وكنت حينئذ طالباً في الحقوق ، ولهذه الكتب الثلاثة صلة بالعلوم الحقوقية ، ففتحت أمامي آفاقاً جديدة وكشفت لي عن جوانب من عظمة التشريع

الإسلامي من جهـة ، وعن إبداع الفقهاء والمفكرين المسلمين ، ثم وجدت في مكتبتنا مجموع رسائل ابن تيمية ، وكتاب «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح». واستهواني النقاش بين الصوفيين والسلفيين الذي وجدت في موضوعه مادة خصبة في مكتبتنا وعديداً من الكتب التي تمثل الفريقين، فأولعت بتتبع هذا النقاش. ومن خلال هـذه القراءات تولد عندي ميل شديد لمدرسة ابن تيمية وتلميذه ، وأعجبت بسعة علمه وعلو مستوى تفكيره وبعد آفاقه وحسن فهمه للنصوص واستنتاجاته ، كما أعجبت بفقه ابن القيم وتعليلاته وأبحاثه ، ولقد كانت صلتي بهذين الإمامين وآثارهما أكثر بكثير من صلتي بآثار محمد عبده ورشيد رضا ، بل إني أعترف بأن صلتي بهما كانت ضعيفة ضئيلة ، وقراءتي لهما نادرة ومتأخرة جداً . وفي مقابل ذلك كنت أقرأ للمحدثين من أصحاب الفكر الفلسفي الحديث مثل فريد وجدي وأمثاله .

إن تأثير ابن تيمية كان واضحاً في تحريري من كثير من الأفكار التي كانت شائعة في البيئة التي نشأت فيها ، وقويت عندي ملكة الرجوع إلى الدليل من الكتاب والسنة ، وكنت بدأت بسلوك هـــذا الطريق إثر مطالعتي الكثيرة لكتاب «بداية المجتهد» لابن رشد و «الموافقات» للشاطبي ، ولم يعد احترامي لشيخي ووالدي رحمهما الله ومحبتي لهما ، بمانعين لي من مخالفتهما في الرأي حينما يتضح لي الدليل الشرعي والعقلي .

وعن العلوم التي يؤثرها يقول :

لقد كان لي ميل فطري إلى الرياضيات منذ الصغر وكنت من المتفوقين فيها منذ الدراسة الابتدائية حتى نهاية الدراسة الثانوية ، وكنت دائماً في الشعبة العلمية ، وشهادتي الثانوية كانت من شعبة الرياضيات ، وكنا ندرس فيهـا ستة فروع أو مواد رياضيـــة (هي الحساب والجبر والهندسة المسطحة والمجسمة والوصفية والمثلثات والميكانيك والفلك) . وقد درست كذلك الرياضيات في مراجعها الإسلامية القديمة كشروح خلاصة الحساب للعاملي، وأشكال التأسيس

في الهندسة ، وتحرير أصول أقليدس للطوسي وغيرها . وتابعت كذلك دراستها في مراجعها الفرنسية على أستاذ مختص أثناء دراستي للحقوق ، وكنت آمل أن تكون دراستي التخصصية في أحد فروعها ، ولكن الله سبحانه قدر لي غير ذلك .

وكان لي كذلك منذ بداية طلب العلم ميل إلى العلوم العربية والعلوم الإسلامية ، وربما كان من أسباب ذلك بيئتي الخاصة وتأثير والدي ولا سيما بالنسبة للغة وتأثير مكتبتنا الخاصة . وتقوى هذا الميل حتى غلب على غيره بسبب قوة رغبتي في الدعوة الإسلامية منذ زمن مبكر من حياتي . وكذلك الدراسة الاجتماعية الحديثة ملت إليها ، وربما لما فيها من التعليلات السببية للحوادث الاجتماعية ، وهي بذلك تمت بسبب إلى الرياضيات، وربما لما أجد فيها من نظريات كشفت لي عن محاسن الإسلام وعظمته ، ومطابقته للتطور السليم ومراعاته للعوامل الاجتماعية المؤثرة » .

ولقد سبق للأستاذ أن حدثنا عن هذه الميول ، وسيحدثنا عنها في تفصيل أكثر، وبذلك نؤخر ملاحظاتنا عليها إلىموضعها الآتي . ونكتفي هنا بالإشارة إلى ذلك الترابط بين نزوعه الرياضي، ودراساته الاجتماعية، واتجاهه الإسلامي. وقد أحسن الأستاذ في ما ذهب إليه من تعليل للعلاقة بين الرياضيات والاجتماعيات ، على أساس ما في كل منهما من تقص للأسباب وتلازم ما بين المقدمات والنتائج .. ولا جرم أن الفكر الناشىء في هذا الجو الرياضي أكثر ما يكون استعداداً لفهم الحقائق الإسلامية ، القائمة على سنن الفطرة في كل شيء ، من خفايا النفس الإنسانية إلى أدق الدقائق في القوانين الكونية . ولعلي لا أكون بعيداً عن الواقع إذا قرنت إلى حد ما بين هذا التنظيم الفكري ومؤثرات ابن تيمية وتلميذه ابن القيم في عقلية الأستاذ ، تلك التي حررته - كما يصرح - من كثير من الأفكار الشائعة في بيئته ، حتى بات تعلقه بالدليل القطعي من كتاب الله وسنة رسوله ، أقوى حتى من حبه لأبيه وشيخه .

وعن الأحداث التي عاصرها يقول الأستاذ :

« كان في مقدمتها الصراع بين أنصار الدين وأنصار الإلحاد والعلمانية ، والصراع مع الاستعمار ، وكانت الثورة السورية على فرنسا من الأحداث التي عشت في أجوائها. كما كان لكثير من الأحداث في شتى البلدان الإسلامية أصداء قوية كإلغاء أتاتورك للخلافة، وإمعانه في محاربة أي صلة للأتراك بالإسلام واللغة العربية . وكالظهير البربري ، أعني المرسوم القاضي بفصل البربر عن العرب في المغرب ، الذي أصدرته فرنسا .

لقد كنا نعيش بعواطفنا وعقولنا في جانب المناصرين للدين والثائرين بالاستعمار والداعين إلى وحدة المسلمين فضلاً عن وحدة العرب » .

وإنهـــا لأحداث يستخفها الجاهلون وينوء بذكرها العالمون . وأي صدمة للقلب المسلم تعدل إقدام اليهودي الدونمي على إلغاء الخلافة ، التي ظلت تلف المسلمين بذراعيها طوال ثلاثة عشر قرناً ونيفاً ، فيشعرون بوحدة انتمائهم ، مهما تفرقت منهم الآراء والمذاهب !... فإذا هم يفاجؤون بتمزيق ذلك الرباط ، وإذا هم إثر ذلك شيع تتخطفهم مخالب الأعداء ، ويتسابقون في مضامير العداء ، لا يراعون في دينهم إلا ولا ذمة ، ويتمادى بهم الضلال حتى ليخربون بيوتهم بأيديهم .. وما كان للظهير الفرنسي ، القاضي بنسف أخوة الإسلام بين العرب والبربر في الجزائر والمغرب ، وما تبعه وعاصره من دعوات هدامة ، سوى بعض الثمرات المسمومة لتلك الشجرة الملعونة ، التي غرسها أتاتورك ، فشجعت على الإسلام حتى من لا يستطيع دفعاً عن نفسه .

وما أوجع قول الأستاذ : كنا نعيش بعواطفنا وعقولنا في جانب المناصرين للدين والثائرين بالاستعمار !..

أألن نعيش بعواطفنا وعقولنا مع الإسلام وأعوانه هو كل ما نملكه لنصرتهم... وأسفاه ! ولكن .. لا بأس .. إن تحسس الشعوب للأحداث ثم التفاعل معها هو أول علائم الحياة ، ومبدأ الانطلاق لتحقيق الواجب .

ويتجاوز فضيلة الأخ الاستطلاع الثامن ليحدثنا عن مجالات نشاطه في خدمة العلم وطلابه، حديثاً مفصلاً ممتعاً.

يقول حفظه الله :

كانت البيئة التي عشت فيها والعقيدة الإسلامية التي غذيت بها، والثقافة الإسلامية التي تلقيتها، في أوسع آفاقها، ومتابعتي للأحداث فيما ينشر في الكتب والمجلات العربية والإسلامية، كل ذلك كان موجهاً قوياً لي للعمل في الدعوة الإسلامية وجعلها هدف حياتي وغاية نشاطي، ولذلك كان عملي في مجال الدعوة في زمن مبكر من حياتي. فلقد عملت عملاً جاداً في مقاومة إحلال التشريع الغربي محل التشريع الإسلامي سنة ١٩٣٥م إذ كنت طالباً في الحقوق بدمشق، وقدت أنا وصديق لي حملة علمية وصحفية مركزة في سبيل ذلك، وكان الظفر والحمد لله نتيجة لها يومئذ، إذ كان في عزم السلطة الفرنسية إحلال مشروع قانون مدني فرنسي إيطالي محل مجلة الأحكام العدلية الشرعية، التي كانت القانون النافذ منذ العهد العثماني، وهي مأخوذة من الفقه الحنفي، فأبقي على المجلة الشرعية، وعدل عن المشروع، وبقيت معمولاً بها إلى عام ١٩٤٩م فألغيت في عهد الانقلاب الذي تزعمه حسني الزعيم، وأحل محلها القانون المدني الحالي الذي وضعه الدكتور عبد الرزاق السنهوري، وأسكتت أصوات المعارضة بالقوة والعنف.

وعملت كذلك أثناء إقامتي في باريس مع رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ورتبت مع صديقي الأستاذ عمر الأميري حملة للنص على الإسلام في الدستور السوري، الذي كان مزمعاً وضعه بعد مفاوضات الوطنيين مع فرنسا لاستقلال سورية. وبعد أن عدت من فرنسا أواخر سنة ١٩٣٨م باشرت العمل مع أصدقاء سابقين كانوا قد أسسوا في كل من حلب ودمشق جمعية إسلامية نشيطة تعمل في الدعوة الإسلامية في المجال الاجتماعي والثقافي.

كان عملي في نطاق الجمعيات الإسلامية المتعاقبة عملاً توجيهياً وعلمياً، محوره

التوعية الشعبية العامة توعية عقائدية فكرية واجتماعية وسياسية ، وكان هـذا النشاط إلى جانب عملي الوظيفي (مدرساً ثم مفتشاً) ثم عملي السياسي حينما استقلت من الوظيفة عـام ١٩٤٧ م ولقد كان لي حلقات علمية أعالج فيها موضوعات إسلامية علمية ومشكلات اجتماعية مع طلاب ومدرسين وعمـال ، كما كان لي نشاط متواصل في إلقاء محاضرات عامة على مختلف المستويات . ولم يقتصر نشاطي على المدن بل كثيراً ما كنت أخرج مع فريق من الشبان إلى القرى للدعوة والتوعية . ثم تطور هذا النشاط حتى شمل المشاركة في أكثر المؤتمرات الإسلامية التي عقدت في العالم الإسلامي في كراتشي ولاهور ودمشق ومكة ومقاديشو والقدس وطرابلس الغرب (ليبيا) ، كما زرت كثيراً من البلاد الإسلامية والمجتمعات الإسلامية في آسيا وإفريقيا وأوربا .

النشاط السياسي :

لم يكن يخطر ببالي أن أتجاوز نطـاق العمل التعليمي من جهة ، والعمل في الدعوة الإسلامية في النطاق الاجتماعي من جهة أخرى ، وكذلك كانت حـال العاملين في الدعوة الإسلامية يومئذ، وذلك لاعتقادنا أن الدعوة الإسلامية تحتاج أولاً إلى مرحلة طويلة في مجال نشرها وترسيخها وتكوين قاعدة لهـا ، وتأتي السياسة والحكم نتيجة طبيعية ولكن ربما بعد جيل . بيد أن غزو الأحزاب العقائدية المبنية على أساس غير إسلامي، وانفتاح المجال لها عن طريق الانتخابات العامة التي جعلت على درجة واحدة أي شعبية عامة مباشرة ، وذلك ابتداء من عام ١٩٤٧ م جعل أصحاب الفكرة الإسلامية يغيرون رأيهم ويخشون أن تسد عليهم الطريقَ تلك التياراتُ المستوردة الوافدة بأساليب غير مشروعة أو بفتنة الناس ببريق مظاهر الجدة والتجديد ، وحصلت مذاكرات كثيفة في نطاق الجمعيات والجماعات الإسلامية وانتهت إلى إجمـاع العلماء وأهل الرأي والجمعيات على دخول الانتخابات والميدان السياسي بوجه عام ، وكنت ممن وقع عليهم الاختيار للترشيح للنيابة عن مدينة دمشق لمجلس النواب عام ١٩٤٧ م

وكنت الفائز من بين مرشحي دمشق من الجبهة الإسلامية مع عدد من المؤيدين من قبلها ، وبعد نحو سنتين حل المجلس إثر انقلاب أعقبه انقلاب آخر ، وانتخب مجلس جديد بصفة مجلس تأسيسي لوضع الدستور ، ونجح في عضوية هذا المجلس عدد أكبر من ممثلي الفكرة الاسلامية ، وكنت واحداً منهم .

وشاركت في عدد من الوزارات التي تألفت في عهد هذا المجلس ، وشغلت وزارة الأشغال العامة والمواصلات ، ثم وزارة الزراعة ، وذلك ما بين ١٩٤٩ - ١٩٥٢ م واشتدت في هذا العهد المعركة السياسية العقائدية . وشبت معركة حول أسس الدستور ، انتهت إلى وضع نصوص إسلامية قوية وصريحة في الدستور الذي أقر عام ١٩٥١ م ثم أطاح انقلاب جديد قام به أديب الشيشكلي بالمجلس ، ثم أعقبه بعد أقل من سنتين انقلاب آخر أعاد الحياة الدستورية والمجلس حتى استكمل مدته ، ثم أعلن عن انتخاب مجلس جديد عام ١٩٥٤ م ورشحت نفسي نائباً عن دمشق مستقلاً ، لأن الهيئات الاسلامية قررت عدم الاشتراك في الانتخابات للمنتمين إليها .

وتابعت مهمتي بعد نجاحي في الانتخابات ، أعبر عن الفكرة الاسلامية في مجلس النواب في المواقف السياسية والتشريعية إلى أن انتهت مدة المجلس عام ١٩٥٨ م وكانت الوحدة بين مصر وسورية ، فلم يعد ثمة مجال للتعبير الحر عن الأفكار فانصرفت إلى العمل العلمي ، ولم أشارك منذ ذلك الحين في العمل السياسي لا في عهد الوحدة ولا بعدها .

لقد كان الصراع الفكري والعقائدي والسياسي على أشده في تلك الفترة في سورية وسائر المنطقة ، وكانت الفكرة الاسلامية ، بالرغم من قوتها الشعبية ، تتعرض لأشد الضغوط السياسية الداخلية ومن ورائها القوى الخارجية ، لتخوف الغرب الديمقراطي والشيوعي على السواء من انبعاث الفكرة الاسلامية وعودة الاسلام مجتمعاً وحضارة ودولة ، وكذلك بسبب ما كونه الاستعمار عن طريق مناهج التعليم والتربية من فئات تنكرت للإسلام بأسماء وعناوين مختلفة وبشتى

الذرائع ، وكانت القوى الخارجية المختلفة – الغربية والشرقية – تعمل عن طريق القوى الداخلية لتطويق القوى الاسلامية الناهضة والقضاء عليها.. خلال جميع تلك المراحل التي مرت بالبلاد بعد الاستقلال .

في الوظيفة :

بعد أن أنهيت الدراسة في جامعتي دمشق وباريس عينت مدرساً للغة العربية في المدرسة الثانوية في حلب في العام ١٩٣٨ – ١٩٣٩ م حيث بقيت سنتين انتقلت بعدهما إلى دمشق . وكنت أدرّس في ثانويتها الكبرى الأدب العربي ، وأحياناً الأخلاق والمنطق والنصوص الفلسفية ، ودرّست كذلك في دار المعلمين ثم في دار المعلمين العليا . وقد كان لي نشاط ملحوظ في المحاضرات العامة في مختلف نوادي العاصمة في شتى الموضوعات : اللغة والأدب والقضايا الاجتماعية والاسلام .

وفي عام ١٩٤٥م تم جلاء الجيوش الأجنبية عن سورية،وكانت بداية الحكم الوطني المستقل ، وجرت في وزارة المعارف تنظيمات جديدة ، كان من جملتها إحداث لجنة فنية عليا في الوزارة تتألف من أعضاء من مختلف الاختصاصات لوضع الخطط والمناهج والأنظمة ، كما تم إحداث هيأة تفتيشية للتعليم الثانوي في عموم سورية ، فعينت عضواً في اللجنة الفنية للتربية ومفتشاً اختصاصياً لسورية لمادتي اللغة العربية والدين .

وعن هذا الطريق عرفت جميع المحافظات السورية التي كنت أزورها بصفة مفتش عام . وكثيراً ما كنت أكلف تفتيش مواد اللغة الفرنسية والفلسفة لعدم وجود مفتش لهذه المواد يومئذ . وفي هذه الفترة بالذات كلفت بوضع مناهج اللغة العربية والدين للمدارس الثانوية منفرداً ، وعملت في ذلك عملا جاداً استغرق نحو شهرين ، أنجزت خلالها وضع مناهج هاتين المادتين لجميع سنوات التعليم الثانوي الست . وكان ذلك العمل تغييراً جذرياً غير مسبوق

في جميع البلاد العربية الأخرى التي كنت اطلعت على مناهجها . وأقرت تلك المناهج بعـــد جدل طويل مع المشرف يومئذ على وزارة المعارف وهو الأستاذ ساطع الحصري ، الذي كان يصر على أن يكون منهج الدين مقصوراً على العقائد والعبادات، وقد أعانني الله عليه وأقرت المناهج كما وضعتها ، وبقيت معمولاً بها ولا تزال حتى تاريخ كتابة هـذه الأسطر (١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م) لم يلحقها إلا تعديلات قليلة ، وكانت أسبقيتها هذه من حيث بناؤها على أساس أن الإسلام مذهب شامل ودين كامل يستوعب الحياة من جميع جوانبها ، ومن حيث تصنيفها تصنيفاً حديثاً يتدرج حسب سنوات الدراسة وتقوم على التوجيه إلى الكتاب والسنة في موضوعاتها . وقد كان لهذه المناهج أثر عميق في تكوين عدة أجيال متلاحقة ، ورسم خط السير لأساتذة الدين ، ولا سيما بما أضيف إليها من وضع خطة لإعداد المدرسين المختصين بعد الدراسة الثانوية ، وكانوا يعينون بطريقة عشوائية لا تلتزم فيها دائماً المؤهلات العلمية الصحيحة ، ولا تشترط فيها أي شروط . ومنذ ذلك الحين بدىء لأول مرة بإرسال البعثات للتخصص في الدين بعد استكمال الدراسة الثانوية .

وفي سنة ١٩٤٦ أقصيت عن التفتيش واقتصر عملي على عضوية اللجنة الفنية، وذلك بسبب ما قمت به من نشاط إسلامي في المحافظات التي كنت أزورها للتفتيش ، وذلك بإلقاء المحاضرات العـامة في أهم الموضوعات المتعلقة بالإسلام والتعريف بدعوته أو بالقضايا الإسلامية المعاصرة، مع أنه لم يعين أحد بدلا عني في التفتيش تلك السنة .

وفي عـام ١٩٤٧ قدمت استقالتي من وزارة التربية وذلك لكي تمكنني من ترشيح نفسي للانتخابات النيابية عن مدينة دمشق تلبية لرغبة رابطة العلمـاء والجمعيات الإسلامية . واستمر نشاطي الإسلامي السياسي حتى عـام ١٩٥٨ الذي تمت فيـه الوحدة بين سورية ومصر ، وحينئذ انصرفت بكليتي للعمل الجامعي العلمي .

عملي في التدريس الجامعي :

لم يخل نشاطي السياسي منذ أواخر ١٩٤٧ عن الاستمرار في التدريس ، فقد كلفت أوائل العام ١٩٤٨ بتدريس مادة فقه اللغة ، ثم الدراسات القرآنية، في قسم اللغة العربية من كلية الآداب بجامعة دمشق . واستمر تدريسي هذا نحواً من عشر سنوات، وانقطعت عنه سنوات درّس خلالها هذه المواد زميل صديق ثم عدت لتدريس فقه اللغة حتى ١٩٦٦ .

وفي عام ١٩٥٤ - ١٩٥٥ الدراسي أسست كلية الشريعة في جامعة دمشق ، تنفيذاً للدستور الذي ينص على اعتبار الشريعة الاسلامية المصدر الرئيسي للتشريع ، وعينت بسبب سابقتي التعليمية وتدريسي في دار المعلمين العليا سابقاً وفي كلية الآداب استاذاً في هذه الكلية ، وشاركت مشاركة أساسية في وضع خطتها ومناهجها، ولا سيما مناهج المواد التي اقترحت شخصياً وضعها لأول مرة في أمثالها من الكليات ، وهي: « نظام الاسلام » و «حاضر العالم الاسلامي»، ودرّست فيها مواد متعددة في المدة التي عملت فيها من ١٩٥٤ – ١٩٦٦ وهي فقه اللغة ، ونظام الاسلام ، والعقيدة ، وعلم الاجتماع . وحينما أنشئت الأقسام كنت رئيس قسم العقائد والأديان ، ثم عينت عميداً لها عام١٩٥٨ حتى ١٩٦٣ و ١٩٦٤ .

ثم انتدبت من جامعة دمشق إلى جامعة أم درمان الإسلامية في السودان ، تلبية لطلب مديرها ، وعملت فيها من ١٩٦٦ حتى ١٩٦٩ أستاذاً ومشاركاً في التخطيط ورئيساً لقسم الدراسات الإسلامية . وخلال هذه المدة ١٩٦٨ قدمت استقالتي من جامعة دمشق . كما أنني درّست في كلية الحقوق في جامعة الخرطوم مادة السياسة الشرعية .

وفي عام١٩٦٩ اقترح عليّ معالي وزير المعارف في المملكة العربية السعودية العمل فيها ، فقبلت ورحبت بهذا الاقتراح ، وبخاصة أني اخترت الإقامة في مكة المكرمة بجوار بيت الله الحرام . فعينت بالتعاقد أستاذاً ورئيساً لقسم

الشريعة والدراسات الإسلامية في كلية الشريعة بمكة المكرمة ، وكنت عارفاً بوضعها لأني كنت اشتركت في وضع خطتها وبعض مناهجها عـام ١٩٦٤ ، وبقيت في هذا العمل أربع سنوات ثم عينت أستاذاً باحثاً ومستشاراً في جامعة الملك عبد العزيز بجدة .

التخطيط الجامعي :

ترجع بداية عملي في التخطيط التربوي إلى عام١٩٤٢ حيث أنشئت الثانويات الشرعية في سورية ، وعينت عضواً في عمدتهـا المنبثقة عن وزارة الأوقاف (مديرية الأوقاف العامة يومئذ) التي هي مرجعها الأعلى في الإدارة والتنظيم ، وشاركت حينئذ مشاركة أساسية في خطتها ومناهجها ، ثم استمرت عضويتي هذه بصفة ممثل لوزارة المعارف (التربية حالياً) عدة سنوات ، وكانت بعض المواد كحكمة التشريع من اقتراحي ومناهجها من وضعي .

وفي عام ١٩٤٥ – ١٩٤٧ كنت عضواً في لجنـة التربية والتعليم في وزارة المعارف أشارك في اقتراح وإقرار الأنظمة عموماً وفي الأمور المتعلقة بمادتي اللغة العربية والدين بوجه خاص . وقد وضعت ، كما سبق القول ، مناهج هاتين المادتين وأحدثت في كل منهما تعديلاً هاماً . أما اللغة العربية فقد كان منهج الأدب العربي فيهـا مقصوراً على الشعراء والكتّاب بالمعنى الضيق لهذه الكلمة ، فجعلت الأدب العربي عبر العصور شاملاً لجميع الإنتاج الفكري ولجميع فنون النثر الفني والتاريخي والفلسفي والديني والسياسي والعلمي.. بالإضافة إلى الشعر ، كما عنيت بدراسة النصوص التي تمثل مختلف هذه الجوانب والفنون الأدبيـة . وهذا هو الفهم الذي تأخذ به الأمم المعاصرة في تاريخ آدابها .

ثم شاركت في عام ١٩٥٤ في وضع خطة كلية الشريعة التي أنشئت يومئذ ، واقترحت بعض المواد الجديدة التي سأذكرها بعد قليل .

وفي عـام ١٩٦٠ كلفني وزير التربية المركزي في الجمهورية العربية المتحدة

السيد كمال الدين حسين تكليفاً شخصياً بوضع تقرير عن التعليم في الأزهر بجميع أقسامه، فدرست الموضوع ثم قدمت له تقريراً بجعل التعليم العام تعليماً إسلامياً لا ازدواج فيه ، وتكون كليات الأزهر متعددة التخصصات كسائر الكليات ، وتكون الشهادة الثانوية الأزهرية حينئذ مقبولة في جميع الوظائف والجامعات، وتكون هي الأصل الذي يجب أن يعمم .

وفي عام ١٩٦١ الفت لجان لوضع الخطط لكليات الأزهر ولوضع الصيغة التنفيذية لقانون الأزهر الجديد ، فاشتركت في جميع هذه اللجان ، وكان لي فيها عدة اقتراحات هامة حازت القبول والتقرير .. منها : أن تكون شهادة كلية الشريعة معادلة تماماً لشهادة كلية الحقوق . ومنها : إحداث فرع للتخصص في التاريخ . ومنها : إحداث مواد حديثة كدراسة نظام الإسلام ، والمجتمع الاسلامى المعاصر ، وإن كان بعض هذه المواد ألغى أو استبدل فيما بعد

وكان مجلس جامعة دمشق اختارني في عام ١٩٦٠ ممثلاً له في المجلس الأعلى للتخطيط الجامعي للجمهورية العربية المتحدة في القاهرة لذلك العام .

وفي أواخر عام ١٩٦١م (١٣٨١ هـ) أنشئت الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ، وألف مجلس استشاري أعلى لاقتراح أنظمتها وخططها ، وأعضاؤه من بلدان مختلفة من العـــالم الاسلامي ، وكنت أحد أعضائه حتى عام ١٣٩٦ هـ ١٩٧٦ م واشتركت في وضع خطط هذه الجامعة ، واقترحت عدداً من المواد الاسلامية وأقرت ، ووضعت في مناهجها ، واستمرت مشاركتي في هذا المجلس مدة خمس عشرة سنة .

وفي عـــام ١٩٦٤ (١٣٨٤ هـ) دعيت للمشاركة في وضع خطة لكلية الشريعة في مكة المكرمة ولكلية التربية فيها من جهة الثقافة الاسلامية ، وقد أحدثت تبديلات هامة في الخطة والمناهج ، وأدخلت مواد حديثة ، كما أحدث تغيير في بناء الكليتين وتركيبهما من حيث الأقسام ، فقد اقترحت أن ينقل قسم التاريخ واللغة العربية من كلية التربية إلى كلية الشريعة ،

وتم ذلك فعلاً واقترحت أن يكوّن من الكليتين ، وكانتا تابعتين لوزارة المعارف جامعة تسمى جامعة أم القرى .

وفي صيف عام١٩٦٦ اشتركت في وضع خطط الكليات والأقسام في جامعة أم درمان الإسلامية في بداية تأسيسها ، وكان من المتفق عليه أن تكون جميع الفروع والأقسام مصطبغة بالصبغة الإسلامية ومشتملة على الثقافة الإسلامية .

وفي عام ١٩٧١ دعيت للمشاركة في وضع خطة الدراسة لمعهد القضاء العالي في الرياض .

وبذلك اشتركت في التخطيط الجامعي ، ولا سيا في المواد الإسلامية ، في أربع بلدان عربية إسلامية هي : سورية ومصر والمملكة العربية السعودية والسودان . وكانت لي اقتراحات تجديدية في تدريس الإسلام والثقافة الإسلامية أخذ بأكثرها . وقد أدى هذا الاشتراك إلى نتيجة هامة ، هي التنسيق بين جامعات هذه البلدان من حيث الدراسة الإسلامية وموادها ومناهجها .

المقترحات الجديدة في الدراسات الإسلامية :

لقد تولدت عندي نتيجة التجربة في التدريس من جهة ، وفي الدعوة الإسلامية من جهة أخرى ، ونتيجة التفكير في بداية الدعوة الإسلامية ، والتأمل في الآيات القرآنية وفي السيرة ، والاطلاع كذلك على المذاهب والدعوات الأخرى في العصر الحاضر ، عدة أفكار أساسية صغتها في مقترحات تقدمت بها للمجالس التخطيطية التي اشتركت فيها في البلدان الأربعة المذكورة ، وهذه أهمها :

١ – إعطاء فكرة عامة شاملة مترابطة عن الإسلام من غير تجزئة ، لإشعار المتعلم أن الإسلام مذهب شامل من جهة ، ولتوليد عمق في فهمه وتلقيه بسبب هذا الارتباط بين أجزائه الاعتقادية والأخلاقية والتشريعية . وقد اقترحت

تسمية هذه المادة « نظام الإسلام » وقد قبلت هذه التسمية وراجت وأقرت الفكرة في عدد من الجامعات .

٢ – تدريس مادة المجتمع الإسلامي المعاصر ، أعني مجتمع المسلمين في صورته الواقعية لمعرفته معرفة علمية ومعرفة بعده عن الإسلام والعوامل المؤثرة فيه ، ومحاولة تغييره في اتجاه الإسلام على الصورة المثالية . وكذلك مادة حاضر العالم الإسلامي التي يراعى فيها الدول والأقسام السياسية الحالية .

وقد أقرت هاتان المادتان أو إحداهما في كثير من الجامعات الإسلامية لأول مرة .

٣ – محاولة تكوين علم اجتماع إسلامي ، وقد بدأت هذه المحاولة في تدريسي لعلم الاجتماع في كلية الشريعة بجامعة دمشق ، ثم أفردت لي حصتان في السودان في كلية البنات باسم « النظرية الاجتماعية الإسلامية » وقمت بتدريسها . ولا تزال هذه المحاولة تحتاج إلى زمن لاقرارها في الرأي العام العلمي ، وتقتضي مني تفرغاً لاخراج مؤلف في الموضوع شرعت به منذ زمن ولم أتمكن بعد من إتمامه .

المواد التي درستها في الجامعات والمعاهد العليا :

« الأدب العربي » درسته في دار المعلمين العليا بدمشق ١٩٤٢ وقبل ذلك في سنوات الشهادة الثانوية في دمشق .

« فقه اللغة » درسته سنوات عديدة في قسم اللغة العربية في كلية الآداب بدمشق وفي معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة .

« علوم القرآن ودراسة النصوص القرآنية » في كلية الآداب بدمشق وكلية الشريعة فيها .

« نظام الاسلام » في كلية الشريعة بدمشق وكليات أم درمان ومكة وجامعة الملك عبد العزيز .

« العقيدة » كلية الشريعة بدمشق .

« علم الاجتماع » كلية الشريعة بدمشق وكلية البنات بجامعة أم درمان الإسلامية .

« المجتمع الإسلامي المعاصر » في كليتي الشريعة والتربية بمكة وفي كلية الاقتصاد بجدة .

« السياسة الشرعية» في كلية الحقوق في جامعة الخرطوم .

«النصوص الفرنسية» في كلية الآداب في قسم اللغة العربية بجامعة دمشق .

هذا عدا بعض المواد الأخرى التي درستها في المدارس الثانوية في بداية عملي التدريسي ما بين ١٩٣٩ – ١٩٤٥ بالاضافة إلى اللغة العربية كالمنطق والأخلاق والترجمة .

ملاحظات وتعليلات :

بعد هذه الجولة الواسعة مع صاحب الترجمة لا يملك القارىء نفسه من الاعجاب العميق بهذه الحياة ، التي تبلغ من الخصب مثل هذا المبلغ، بل لا يملك إلا أن يردد على نفسه القول بأن وراء هذه الحياة وهذا النشاط يد الله التي تيسر كل امرىء لما خلق له .

لقد جاء هذا العرض مغنياً عن كل تعقيب ، بما انطوى عليه من تفصيل وتحليل ، فكل إيضاح لأي جانب منه لا يعدو كونه تكراراً لا فائدة فيه ولا لزوم له . ومع ذلك فلا مندوحة عن تذكير القارىء بأنه تلقاء صورة متكاملة من تاريخ الفكر الإسلامي في بلاد الشام بخاصة ، ومعظم الأقطار الإسلامية بعامة خلال العقود التي أعقبت الحرب العالمية الثانية إلى يوم الناس هذا .

إنها الفترة التي بلغ فيها التحاك بين الفكرين الغربي والإسلامي ذروته ، وقد بدأ إملاء قهرياً بسلطان الاستعمار ، ثم تطور حتى صار صراعاً بين جيلين من أبناء المسلمين، أحدهما ينوب عن الاستعمار المهزوم بتفجير الألغام في ما تبقى

من معالم الحياة الإسلامية ، والآخر يحمل عبء المواجهة لذلك الهجوم الشرس ، الذي سخرت له كل وسائل التأثير الإعلامي والتنفيذي .

والمدقق في جوانب هذا النشاط الثرّ يلاحظ أن موضوع التعليم قد استغرق النصيب الأكبر منـه تعليماً وتفتيشاً وتنظيماً ، فهو – معلماً ومفتشاً – مشبع بشعور المسئولية ، لم يستطع مزايلتها لحظة قط منذ فتح عينيه على دنيا العلم .. إنه بقية من ذلك الطراز النادر الذي يوقن أن التعليم ليس مجرد عرض للمعلومات ، ولكنه إلى ذلك وقبل ذلك عملية تقويم وتبصير ، تستهدف بنـاء الانسان المؤمن العامل الواعي لمسئوليته أمام الله . وقد شاء الله أن أعرف فيه هذه الخاصة منذ لقيته لأول مرة قبل ثلاثين عاماً ، إذ قد زارني مفتشاً لـمادة العربية ، التي كنت أتولى تدريسها أيامئذ في طرطوس –سورية– ولست بذلك أكثر علماً من المدرسين الذين لقوه في دوراته التفتيشية الجادة . وطبيعي أن إعفاءه من عمل التفتيش إنما كان بسبب هذا الاتجاه الإسلامي ، إذ لم يكن – كما هو الواقع غالباً – في جهاز المعارف ما يشجع على الاستمرار في هذا المسلك !. على أن أبرز خصائص الأستاذ التعليمية إنما تجلت خلال عمله في نطاق المناهج الدراسية ، سواء في المرحلة الجامعية وما قبلها . وقد رأينا بعض هذه الخصائص في ما أشار إليه من محدّثاته التي كانت ذات آثار بعيدة في مخططات التعليم ، ليس فقط في ديار الشام ، بل في غير واحد من الأقطار العربيـة : كمصر والسودان والمملكة العربية السعودية ، ومَن تأثر بمناهجهم من البلاد الأخرى . وليست معركته مع المستغرب المستعرب ساطع الحصري سوى شاهد على هذه الحقيقة ، إذ كان الحصري ممثلاً للتيار الغربي الذي لا يقيم للثقافة الدينية أي وزن ، وإذ وجد من المستحيل عليه إغفالها نهائياً عمد إلى تحديد أثرها في التكوين العقلي ، وذلك بحصرها في زاوية معزولة من أجزاء المناهج . وكان المبارك ممثّل الفكر الإسلامي الأصيل في ذلك الموقف ، فما زال في جهاده حتى نصر الله بـه الحق ، وأخذت مادة الدين مكانها الطبيعي في مقررات

الدراسة ، وبذلك سجل الفكر الإسلامي واحداً من أهم انتصاراته على دعاة العلمانية في سورية وغيرها . ونحن لن نستطيع تقييم عمل المبارك في تقويم المناهج الدراسية وربطها بمعايير الإسلام ، إلا إذا استحضرنا ملامح الصورة التي نشأت في إطارها تلك المناهج ، والأيدي التي تولت تأليفها فلم تتجاوز بها في الغالب نطاق الارتجال، أو الترجمة عن مناهج لا تمت بأي سبب إلى شخصيتنا المميزة ، وإنما تغرف من نفس المجرى الغربي الذي أفسد بـه دنلوب مناهج الثقافة الإسلامية .

وإني لأتساءل ، وأنا أستعرض هذا المجهود الجبار يبذله المبارك في خدمة التعليم، والتجارب العميقة التي أثمرت ذلك المجهود، ووسعت مداه، حتى ترك بصماته على الكثير من مناهج المؤسسات التعليمية في العـالم العربي وغيره .. أتساءل : أليس من الخير استمرار التعامل مع هذا الضرب من الخبرات النادرة في كل عمل أو مشروع يمت إلى التعليم !.

وإذا تجاوزنا التدريس والتفتيش والتخطيط إلى صعيد المؤتمرات العديدة التي شارك فيها الأستاذ ، وتأملنا ملياً في عمله هناك ، ألفينا الطابع نفسه الذي ألفناه في سائر أعماله الفكرية . إنه الاستقصاء الدقيق لواقع الحياة والمجتمعات والمذاهب ، ثم التركيز على إبراز معطيات الإسلام في تفوقها الغالب على كل ما توصل إليه الإنسان في كل مكان وكل زمان .

أجل .. إنها مميزات (المعلم) الحق الذي لا يكون معلماً حقاً إلا أن يكون امتداداً لعمل النبوة في التربية والتعليم والتنظيم ، وحق التوجيه في نطـاق الأندية والجمعيات .

بقي التذكير بالجانب السياسي من حياة المترجَم، إنه كذلك صورة واضحة القسمات لتاريخ الصراع بين التيارات الوافدة ، والقيم الخالدة من مقومات هذه الأمة . وقد حدثنا بما فيه الكفاية عن هذا الأمر ، فهو – كأقرانه أيامئذ – لم يكن ليخطر في باله أن يتجاوز حدود التعليم والدعوة إلى مباشرة العمل

السياسي .. ولكن غزو الأحزاب العقائدية ، المناوئة للإسلام ، عـن طريق الانتخابات البرلمانية، أشعرهم بالخطر الذي ينذر بالفتنة . وبعد مذاكرات كثيفة في نطاق الجماعات الإسلامية، انتهى الرأي إلى وجوب المشاركة في الانتخابات. وكان الأستاذ ممن اختيروا لتمثيل الاتجاه الإسلامي في البرلمان نائباً عن دمشق خلال ثلاثة انتخابات ، وقـد أسندت إليه وزارة الأشغال العامة ثم وزارة الزراعة ، فلم يدخر وسعاً لخدمتها بكل ما يملك من جهد وخبرة ، إلا أن مجرد اختياره لهاتين الوزارتين ، دون المعارف التي هو أولى الناس بها ، لو جرى الاختيار في ضوء الإسلام، كاف للدلالة على خوف(أولي الأمر) من السير بالتعليم في الطريق الاسلامي منذ هاتيك الأيام .

وكان طبيعياً أن يواصل مسيرته في خدمة الإسلام عـن طريق السياسة في ظل النظام البرلماني ، ما دام لحرية الرأي مكان هناك .. لذلك كان طبيعياً أيضاً أن يعتزل العمل السياسي كلياً منذ عـام ١٩٥٨ الذي كان الخاتمة الحاسمة لتلك المرحلة .. وهكذا عاد (المعلم الحق) إلى مكانه الحق الذي له خلق .

كثافة المناهج :

وقبل الانتقال إلى النقطة التالية رأينا أن نقف على وجهة نظر الأستاذ في حجم المقررات الذي يثقل المنـاهج في مختلف ديار الإسلام ، وعلى مختلف المستويات الدراسية ، لعلنا نلتقي معه على رأي مفيد في هذا الجانب ، الذي كثر الإهمال له ، حتى لم يعد يلحظ أثر تلك الكثافة في عجز التعليم عن تخريج المزودين بالعلم الحق .

وحول هذا الأمر يقول أبو هاشم :

إنني شخصياً لا أعتقد أن كثرة المقررات وثقلها هو الذي يولد الضعف العام، وإنما أرى أن تخريج معلمين ومدرسين ضعفاء في مادتهم بسبب التساهل في إعطاء الدرجات والامتحانات والأسئلة ، والاكتفاء بالقدر الذي قرره الأستاذ،

من أهم الأسباب المؤدية لذلك الضعف .. إن عدداً من الطلاب في زماننا كانو يقرؤون المواد المدرسية ، ويقرؤون علوماً أخرى خارج المدرسة ، ويجمعون بين الثانوية العلمية والثانوية الأدبية ، ويتفوقون في أكثر من مادة . والمهم أن نوعية المدرسين هي من الأمور التي يتوقف عليها حسن التعليم . إن ارتقاء الأغبياء والضعفاء والمحدودين إلى أعلى المستويات الدراسية عن طريق المساعدة والرحمة والشفقة إجرام بحق العلم ، وتخفيض لمستواه ، وإضرار بالأجيال التي تأتي من بعد ، وتتخذ من هؤلاء البلداء والضعفاء أساتذة ومدرسين .. ليس من الضروري أن يبلغ جميع الناس التعليم الجامعي ، ويحصلوا الشهادات الجامعية وفوق الجامعية ، وقد يكون عندهم من الذكاء العملي ما يجعلهم متفوقين في ميادين أخرى يحتاج إليها المجتمع. ويمكن أن نخص فئة المعلمين والمدرسين والأساتذة بالعناية الخاصة والشروط المشددة لتأهيلهم لمناصب التعليم ، وحينئذ تحصل نتائج عظيمة في التعليم ، ولا تضر كثيراً حينئذ كثرة المقررات ولا ثقلها . ولست أقصد أننا يجب أن ندرس مواد لا فائدة منها أو قليلة الفائدة بل يجب الخروج على التقليد الأعمى في التدريس . وأضرب مثلاً أعرفه ومارسته مادة البلاغة ، فالمقصود بهذه المادة تكوين الملكة الأدبية والتمكين من تذوق النصوص وجمالها وحسن تفهمها ، فإذا هي تصبح مادة أغرقتها المصطلحات والتعريفات ، وتخصص لها الساعات الطوال لقراءة كتب سقيمة عقيمة ، يصر بعض الشيوخ على ضرورة قراءتها ، وليس ذلك إلا لأنهم تعودوها ، والمحصلون لهذه المقررات – مثل شروح التلخيص – هم أبعد الناس عن تحصيل الفوائد المرجوة من البلاغة . فههنا، وفي مثل هذه الأحوال، أرى الحذف والاختصار وسلوك أقرب الطرق الموصلة إلى الهدف المقصود . هنالك مسألة أساسية هي موضع الخلاف بين الأمم وبين المربين وهي : هل يقتصر في التعليم على المواد التي تنفع الإنسان في تخصصه وما يعدّ له نفسه من مهنة وعمل ، أو أن هناك ثقافة عامة في العلوم

والآداب ، يجب تحصيلها على الجميع ، لما تكسبه من ترويض العقل وللذوق ، ولما تكسبه من ملكات !. فالفرنسيون مثلاً يفضلون الأخذ بالثقافة العامة ، ولو لم تكن ضرورية للهدف العملي، والأمير كيون يرون الاقتصار على الضروري للإعداد المقصود . ولا بأس في رأيي من التوسط بين الرأيين مع حذف ما تقل منه الفائدة أو ما لا فائدة منه .

التعليم الإسلامي :

وعلى هذا أرى أن ثمة ثلاثة أهداف للتعليم في أي بلد أو مجتمع إسلامي :

١ - معرفة الإسلام نفسه معرفة أساسية كافية بحيث تكوّن في المسلم عقيدته وفكره ونفسيته وسلوكه .. على أن تكون هذه المعرفة مركزة قوية مبنية على القرآن والسنة مع عرضها بأسلوب جديد وفقاً لمشكلات العصر وتصنيفات المعرفة المعاصرة

٢ - تقوية الانتماء إلى الأمة الإسلامية ، أي إلى الجماعة المسلمة أو المجتمع الإسلامي ، ودراسة كل ما يؤدي إلى ذلك .

٣ - معرفة العلوم التي تقوم بها دنيا المسلمين وتحصل بها قوّتهم على مستوى الثقافة العامة ، وعلى مستوى التخصص . أي أن كل طالب علم يجب أن يأخذ فكرة إجمالية عن الفيزياء والكيمياء وعلوم الأحياء والفلك والرياضيات .. وأما المتخصصون فيدرسونها الدراسة التي يقتضيها تخصصهم على مختلف المستويات .

٤ - أما العلوم التي لهـــا خلفيات وأسس فكرية وعقائدية كالحقوق والاجتماع والفلسفة وما إليها ، فيجب أن تدرسها فئة متخصصة من المسلمين المتمكنين في إسلامهم ، والمعدين إعداداً خاصاً . وذلك بغية تحرير التعليم والثقافة في البــلاد والمجتمعات الإسلامية من تأثيرها ونظرياتها .. والاقتصار بالنسبة لجمهور المسلمين على الصياغة الإسلامية

لهذه العلوم، تلك الصياغة التي يجب أن تتم ليكون هناك علم اجتماع إسلامي الاتجاه ، وعلم نفس وفلسفة وحقوق إسلامية كذلك ، وهذا أمر يحتاج ، إذا خطط له ، إلى عشرين سنة على الأقل » .

تلك هي وجهة نظر فضيلته في كثافة المناهج ، ومع إقراره لجانب الكثرة يتفق معنا في ما لهذه الكثافة من أضرار ، إلا أنه يراها أضراراً غير كثيرة إلى جانب ما تقدمه من نتائج . ثم يختم ذلك بالإشارة إلى محذورات المواد ذات الخلفيات العقائدية ، فيقطع بوجوب قصرها على ذوي الاختصاص من المتمكنين في حصانتهم الفكرية .. لا كما هي الآن مفروضة على كل دارس دون نظر إلى عواقبها البعيدة .

أما رأينا في هذا الرأي فسيلمسه القارىء مع تعليلاته المدروسة في أكثر من موضع من هذا الكتاب .

في ميدان التأليف :

يقول الأستاذ : لقد باشرت البحوث العلمية في وقت مبكر من حياتي ، وكنت لا أزال طالباً ، فقد بحثت في تاريخ الرياضيات عند المسلمين ، ونشرت بحثاً في الموضوع ، وبحثاً في التجارب العلمية عند المسلمين ، ونشرت نصاً لتجربة أبي الريحان البيروني في الكثافة ، وكان ذلك في عام ١٩٣٤م في مجلة « الرسالة » .

وكتبت مذكرة في التشريع الإسلامي مع مقارنته بالتشريع الغربي ، وقّع عليها طلاب الحقوق يومئذ ، وقدمت للجنة المؤلفة للنظر في الموضوع ، وذلك في عام ١٩٣٥م وقد نشرتُ نصها في كتابي « الفكر الإسلامي » .

وكان أول ما ألفت رسالة في «فن القصص» في كتاب «البخلاء» للجاحظ في عام ١٩٤٠م وقد طبع ثلاث طبعات .

ولكن تأليفي العلمي تأخر حق عام ١٩٥٧م أي بعد تخرجي بنحو ١٩ سنة حيث أخرجت كتابي في فقه اللغة الذي كنت أدرس موضوعه في كلية الآداب، ثم « خصائص العربية » الذي ألقيت موضوعاته في معهد الدراسات العربيـة العالية في القاهرة ، وسلكت في تأليفي في اللغـة مسلكاً خاصاً يختلف عن المؤلفات الأخرى .

وفي عام ١٩٥٩م ألفت كتاب « الأمة العربية في معركة تحقيق الذات » وهو متضمن إثبات ضلال من يفصلون العرب عن الإسلام وخيانتهم للعرب ، وخطأ جعل القومية مذهباً عقائدياً في نظر التطور الاجتماعي ، وبيان دور العرب قديماً وحديثاً في نشر الإسلام وإقامة الحياة على أساسه على الصعيد العالمي والداخلي . ثم أخرجت إتماماً للنظرية كتاب « الأمة والعوامل المكونة لها » وأخرجت في تلك الفترة كتاباً في دراسة النصوص القرآنية دراسة أدبية وفكرية سميته « من منهل الأدب الخالد» ثم سميته في الطبعات التالية التي بلغت الخمس « دراسة أدبية لنصوص من القرآن » وهو نتيجة لتدريسي مـدة طويلة للنصوص القرآنية في كلية الآداب منذ عام ١٩٤٩م وقبلهـا في دار المعلمين الأولية بحلب في عام ١٩٣٩م وهو منهج غير مسبوق في تحليل النصوص .

أما تآليفي في الدراسات الإسلامية فكان مقدمتها كتاب « نحو إنسانية سعيدة » الذي خرج عام ١٩٥٧م وهو مجموع أحاديث في العقيدة . ثم توالت أجزاء كتابي « نظام الإسلام » وكان الأول في العقيدة والعبادة ، والثاني في الاقتصاد ، والثالث في الحكم والدولة . وهذا الكتاب الذي بقي منـه قسمان : الأخلاق والأسرة ، هو نتيجة تفكير طويل وإعداد استمر سنين طويلة قصدت به عرض الإسلام كاملاً مترابطاً ، ملتزماً فيه الكتاب والسنة في تحديد المعالم والمفاهيم ، وحداثة الأسلوب في العرض والتعبير وتجنب المسائل

الفرعية والجانبية . وحاولت فيه أن أتجاوز بالتأليف في الإسلام المرحلة السابقة ، أعني مرحلة الدفاع والمقارنات بالمذاهب الأخرى ، وردّ الشبه ، وسلوك الطريق الإيجابي المشتمل ضمناً على ما يؤدي كل هـذه الأغراض من غير انشغال به ، واعتبرت المخاطب بـه هو الإنسان مطلقاً ، مسلماً كان أم غير مسلم ، فتجنبت الحماسة والعواطف والإلزام بالقبول استناداً إلى النقليات ، وتلك هي طريقة القرآن في مخاطبة عقول الناس جميعاً لإقناعهم بما يدعوهم إليه ، ثم بيان الأحكام لهم بعد أن يصبحوا مؤمنين بما دعاهم إليه .

وقد تلقي هذا الكتاب تلقياً حسناً في العالم الإسلامي ، وخاصة العالم العربي وباكستان وتركيا لموقع الحاجة إليه . وقد كان البدء بإخراج القسم الأول من هذا الكتاب عام ١٩٦٨م.

أما الكتب الإسلامية الأخرى ففيها معالجة لكبريات مشكلات العـالم الإسلامي ، كمشكلة الثقـافة ، ومشكلة المرأة ، ومشكلة الغزو الأجنبي ، والتيارات غير الإسلامية ، وأمثال ذلك ، فقد أخرجت كتاباً تضمن مجموعة بحوث من هـذا النوع وهو كتاب « الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية » وذلك في عام ١٩٦٩م . وأخرجت بعده كتاباً جامعياً لدراسة « المجتمع الإسلامي المعاصر » بهذا العنوان في عـام ١٩٧١ م. وربما كان هذا الكتاب أول كتاب جامعي وبحث اجتماعي في اتجاه إسلامي في الموضوع الذي يعالجه ، مع اشتماله على الخطوط الأساسية لبحث المجتمع المسلم المعاصر ، وقد ألّفته بعد أن قُبل اقتراحي لتدريس هذه المادة في الكليات الجامعية في بعض الجامعات ، وخاصة كليتي الشريعة والتربية بمكة المكرمة . ولكن الكتاب في حاجة إلى إضافة بعض البحوث وإلى شيء من التفصيل والتوسع .

ومما أخرجته من الدراسات الإسلامية كتاب « الدولة ونظام الحسبة عند ابن تيمية » عام ١٩٦٧م وكان نشر منه عام ١٩٦١م قسمه الأول بعنوان « الدولة عند ابن تيمية » وهو بحث قدمته لأسبوع الفقه الإسلامي وابن تيمية الذي أقيم عام ١٩٦٠م في جامعة دمشق، وقد جعلت عنوانه في الطبعة الأخيرة « آراء ابن تيمية في الدولة ومدى تدخلها في المجال الاقتصادي » .

وهناك عدد من البحوث العلمية الإسلامية التي أعددتها في السنوات الأخيرة لمؤتمرات أو مناسبات ، ولم تنشر بعد .

وألخص منهجي في البحث والتأليف في السير وفقاً لخصائص المرحلة التي سميتها منذ عام ١٩٥٧م « ذاتية الإسلام » ، وذلك في كلمتي في المؤتمر الذي عقد في لاهور في تلك السنة ، وفي محاضرة بهذا العنوان في جامعة دمشق بعد ذلك ، متجاوزاً بذلك مرحلة الدفاع ومرحلة التوفيق بين الإسلام والحضارة الغربية ، ومؤكداً على خصائص الإسلام الذاتية المستخرجة من مصدريه الأساسيين : الكتاب والسنة ، مع استيعاب مشكلات العصر المختلفة دون جعلها أو جعل حلولها الغربية قائدة ومشيرة لنا » .

إن عناية الأستاذ بالدراسات اللغوية والأدبية ، باللغتين العربية والفرنسية ، قد نبه عقله إلى قيمة الكلمة وأثرها في بناء الشخصية . ومن هنا جاء اهتمامه بالتأليف وكتابة البحوث وإعداد المحاضرات التي يقدرها بالمئات . ونظرة إلى الأسماء التي تخيرها لكتبه تنبئنا بالطابع الذي يميز شخصيته العلمية والأدبية . فإذا تجاوزنا رسالته الأولى عن فن القصة في « بخلاء الجاحظ » واجهنا اللون الأساسي الذي يغمرها جميعاً .. فهي كلها دائرة في فلك الإسلام لغة وأدباً وثقافة ودراسات . ومن خلال هذا الأفق نشرف على العالم كله بما يحتوي من أفكار ومذاهب ونظريات ودعوات . ولا غرابة في ذلك ، فالإسلام بالنسبة إلى الأستاذ هو القلب الذي به يعيش ، والرئة التي بها يتنفس ، وقد أسعفته دراساته الواسعة في مختلف فروع العلم ، وتجاربه اليومية في متابعة الحركات

الفكرية في العـالم ، أن يستشعر شمولية النظام الإسلامي الذي لم يدع ، من شئون الحياة والكون والإنسان ، صغيرة ولا كبيرة ، إلا أحصاها . فبالإسلام ينظر ، وعليه يقيس ، وإليه يطمئن .. وبحقائقه يواجه كل مشكل يعترض الإنسان ، وتبارك الذي أنزل كتابه : « تبياناً لكل شيء ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » .

بقي أن نوجه إلى فضيلة الأخ الحبيب كلمة عتاب على ما كلفنا إياه من مشقة بسبب إغفاله المراعاة المنشودة لنقاط الاستطلاع .. فلقد ترك الجواب المباشر على الأسئلة ٨ و ١١ و ١٢ و ١٣ فلم يفرد أياً منها بالإجابة الخاصة ، علاوة على بعض التقديم والتأخير في الاجابات الأخرى. إلا أننا نعتبر – ولعل القارىء معنا في ذلك – أن النقاط المغفلة قد اندمجت في النقاط المفصلة إلى حد مـا ، فأعطت القارىء ما يجب أن يعرفه عن آرائه ومختاراته ، وما إلى ذلك من شئون وشجون .

١٣
الشيخ محمد الغزالي السقا

لقد اشتهر في الأوساط الإسلامية بلقب الغزالي ، ويفسر لنا سبب هذا اللقب بأن والده كان شديد الإعجاب بالإمام أبي حامد الغزالي مؤلف «الأحياء» متأثراً بنزعته الصوفية ، وأن هذا تراءى له ذات ليلة فأخبره أنه سيتزوج وينجب غلاماً ، ويشير عليه بأن يسميه الغزالي !

وُلد في ١٩١٧/٩/٢٢ للميلاد في قرية « تكلا العنب » من « إيتاي البارود » من أعمال البحيرة ، وقد سبق لهذا البلد أن أنجب العديد من كبار أهل الأدب والعلم ، الذين خلفوا شهرة واسعة في مصر والعالم الإسلامي ، منهم الشاعر المجدد محمود سامي البارودي ، ثم منشىء كبرى الحركات الإسلامية في العصر الحديث الإمام الشهيد حسن البنا . وقد قدم هذا الاقليم كذلك ثلاثة من أئمة الأزهر هم : الشيخ سليم البشري ، والشيخ ابراهيم حمروش ، والشيخ محمود شلتوت .

الأسرة والدراسة :

أما أسرته فيغلب عليها العمل بالتجارة ، وكان والده من حفظة القرآن ، يتعهده بالتلاوة المثبتة ، وقد نشأ ولده على ذلك ، إذ أدخله كُتّاب القرية

ليتعلم الخط والحساب ، وليحفظ القرآن ، فكان يحفظ حصته المقررة على الشيخ ، ويضيف إليها حصة أخرى على والده ، فما إن بلغ العاشرة حتى كان قد حفظه كله .

ويقول فضيلة الشيخ : إن حفظ القرآن والتنافس في دراسة العلوم الإسلامية كانا أثناءئذ من طوابع هذه البيئة ، ولا بد أن يكون لهذا أثره العميق في تركيبه النفسي والعقلي ، ولا يستبعد أن يكون كذلك من الحوافز الباعثة على الطموح إلى مثل المكانة التي سبق إليها أولئك المقدمون .

في الأزهر :

ومن كتّاب القرية إلى المعهد الديني المخصص لمحافظة البحيرة في الإسكندرية ، حيث قضى سنواته الأربع في دراسة المرحلة الابتدائية ذات المقررات القوية ، ومن ثم واصل دراسته حتى نال شهادة الكفاءة بعد ثلاث سنوات ثم الشهادة الثانوية بعد سنتين . ومن هناك انتقل إلى القاهرة ليبدأ دراسته الجامعية في كلية أصول الدين ، وبعد أربع سنوات نال شهادتها العالية ، ليتحول إلى التخصص في الدعوة والإرشاد ، وقد نال إجازته — الماجستير بلغة اليوم — بعد تمام السنتين .

موحيات لا تنسى :

ويسمي فضيلته من مشايخه الأكبر تأثيراً في نفسه أثناء الدراسة : الشيخ عبد العزيز بلال ، والشيخ ابراهيم الغرباوي ، والشيخ محمد الريان .. ويعلل ذلك التأثير بما تميز بــه هؤلاء — ومن في طبقتهم أيامئذ — من السلوك العالي ، والإخلاص الذي يريهم العلم والتعليم وسيلتهم المفضلة إلى مرضاة الله ، وبذلك كانوا المعلمين والأسوة في آن واحد . ومن أمثلة ذلك التي لا ينساها ما يرويه من أن شيخه الريان قد كلفه ذات يوم إعراب الجملة التالية : « عبدت الله » ، وعلى دأب ذلك الجيل الملتزم أجاب أن اسم الجلالة منصوب على التعظيم ،

فما تمالك الشيخ أن بكى.. وحق لإنسان مشغول القلب بحب الله أن يبكي وهو يستمع إلى ذكر مولاه معظماً على لسان تلميذه . ولا جرم أن مجرد اختزان الشيخ لهذه الذكرى منذ ذلك العهد إنما يصور مدى تأثره بموحيات ذلك الجو المتوهج بالإشراق .

ولعلي لا أذيع سراً إذا قلت إن عارفي الشيخ الغزالي يحسون استغراقه في تلك الخاصة ، ولا سيما حين ينطلق على سجيته في كلام عن الله جل وعلا ، وعن رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، حتى يفضحه الدمع فلا يستطيع له رداً .

مع الإمام البنا :

ويتحدث فضيلته عن لقائه لإمام حسن البنا لأول مرة ، وذلك أثناء دراسته الثانوية بالإسكندرية ، وكان من عادته لزوم مسجد عبدالرحمن بن هرمز في منطقة رأس التين بعد المغرب من كل يوم حيث يقوم بمذاكرة دروسه .. وذات مساء – يقول – ينهض شاب لا يعرفه ليلقي على الناس موعظة قصيرة شرحاً للحديث الشريف : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة ، وخالق الناس بخلق حسن » . وكان حديثاً مؤثراً يتصل بأعماق القلب ، فما إن فرغ منه حتى وجدت نفسي مشدود القلب إليه . ومنذ تلك الساعة توثقت علاقتي به ، ومضيت معه عقب صلاة العشاء إلى مجلس يضم بعض رجال الدعوة ، ثم استمر عملي في ميدان الكفاح الاسلامي مع هذا الداعية العملاق إلى أن استشهد سنة ١٩٤٨م .

ويعلل فضيلته تأثير إمامه الشهيد بقدرته على معالجة الوقائع الحية بالحقائق الإسلامية ، وبديهي أنه يريد بهذا التعبير المكثف الإشارة إلى استيعابه لمشكلات عصره ، وإدراكه الدقيق لموقف الاسلام بإزاء كل منها ، ومن هنا كان له ذلك الامتياز العجيب الذي يستقطب حوله الرجال ، ويجعل الكلمته فاعليتها الساحرة في القلوب .

العلوم التي يؤثر :

والمطالع لآثار الشيخ الغزالي ، مؤلفات ومقالات ومحاضرات وأحاديث ، يستشعر بقوة سعة الأفق ، الذي يطل بـه على مختلف فروع العلم .. وأول ما يطالعه من خلالها جميعاً تلك الموهبة الفنية التي تفرغ على تعابيره ألق البيان العفوي الجميل . فالقارىء المتذوق لهـذا الضرب من البلاغة لا يسعه أن يمر بكتاباته دون أن يتوقف بين الحين والآخر ليمتع وجدانه بتلك الصياغة الموفقة. وطبيعي أن يكون لهذه الأساليب الجذابة أثرها في تثبيت الفكرة التي يعالجها. وقد أجمع علماء البلاغة ، منذ الجرجاني والجاحظ، على أن سر الجمال في كل نص ممتاز عائد بالدرجة الأولى إلى صياغته المحكمة ، وهكذا يتعاون الشكل الباهر مع المضمون القاهر في أدب الشيخ ، فيجعل له ذلك القبول في القلوب والعقول.

ولهذا لم نفاجأ بجوابه عند استطلاعنا إياه عن أحب العلوم إليه ، إذ بدأ بذكر الأدب أولاً . والأدب عند الشيخ -كما نفهمه من خلال آثاره - ليس ذلك الذي يقوم على الدراسات المجردة ، بل هو كل عمل فني تتوافر فيـه عناصر الجمال ، وتتفاعل بـه المشاعر على الصورة التي يسميها العرب بالسحر الحلال . وأحسبني قد أشرت في ما أسلفت من التراجم إلى قيمة هذا التفاعل الوجداني في تذوق الجملة القرآنية ، وقديماً اعتبر العالم المفسر الأديب أبو حيان تعاطي الشعر ، والقدرة على تذوقه من الأسباب المساعدة على فهم القرآن والنفاذ إلى إعجازه البلاغي .

ولعل من أبرز الملامح الدالة على خصائص المترجم الأدبيـة تلك الشواهد الرائقة من الشعر، التي تستجيب له في عفوية بالغة ، لتحل من كلامه في المواضع المناسبة كتناسب العضو الحي في مكانه من الجسد الحي .

والشيخ الصديق يعتبر الأدب – من أجل ذلك – هـو الوسيلة المحققة في الانسان خاصته الأولى التي أكرمه بها الخالق حين (علّمه البيان) .

ويلي الأدب في إيثاره « الدراسات النفسية » وهي التي عني بهـا أصحاب القلوب من الأئمة الذين جمعوا بين العلم والعبادة والزهد ، وخلفوا من ذلك كله تراثاً للأجيال ، لا يستغنى عنه في معرفة النفس البشرية ومـا انطوت عليه من الأسرار العجيبة ، ومـا يعتورها من الأمراض والأعراض . ويشير من ذلك التراث إلى بعض المؤلفات المميزة مثل « صيد الخاطر » للإمـام ابن الجوزي ، و «مدارج السالكين ..» للإمام ابن القيم ، و «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي، بعد تجريده من الأخبار الضعيفة والشواذّ الأخرى .

ويرى أن ثمة خاصة مشتركة بين الإمامين الغزالي وحسن البنا ، تتجلى في قدرة كل منهما على هضم العلوم والخبرات ، وتحويلها جميعاً في منهجها العقلي إلى تيـار فكري يعمل عمـله في العقول والقلوب بمنتهى اللطف والسهولة ، كمثل النحلة تمتص ضروب الأزاهير فتستخلص منهـا الرحيق الذي فيه شفاء للناس .

وبالنسبة إلى صلته بأفكار الامام الغزالي بخاصة ، يقص علينا فضيلته ذلك الخبر الطريف التالي :

يقول : أثناء عمله في كلية « الدراسات العربية والإسلامية » بالجامع الأزهر عهد إليه بتدريس كتاب « ميزان العلوم » لذلك الإمام .. ولكنه سرعان ما ضاق به صدراً .. وقدم تقريراً إلى المسئولين عن الكلية يبين فيه مآخذه عليه ، ويقترح رفعه وإحلال «مدارج السالكين ..» لابن القيم مكانه .. على أنه ما إن فعل ذلك حتى ساوره بعض القلق إذ جعل يتساءل : أليس من المفارقات الغريبة أن يحمل اسمه – وهو الذي تراءى لأبيه يشير به عليه – ثم يعمد الآن إلى هذا الموقف من كتابه ؟.. بيد أن تساؤله هذا لم يصرفه عن تقريره الذي لم يكتبه إلا إيثاراً للتي هي أحسن .

في غمرة الصراع :

وعن أهم الأحداث تأثيراً في تكوينه الفكري والروحي يردّنا فضيلته إلى خصائص تلك الفترة التي عاشها منذ التحق بالقسم الثانوي ، والتي شُحنت بالتيارات المتصارعة في كل جانب من حياة مصر والشرق العربي ، فالاحتلال الإنجليزي كان مصدراً لا ينفد لنشاط الطلاب ورجال السياسة ، وقد شارك فيه بحظ أدى به إلى الفصل من الدراسة الثانوية لمدة عام ، وإلى السجن الذي لم يغادره إلا بكفالة مالية . ولما انتقل للدراسة الجامعية بالقاهرة كان أكثر تماساً بمركز الأحداث ، فهناك أمواج الفتنة التي قدحت زنادها مغامرات طه حسين في نطاق النقد ، الذي أراد أن يسلطه على القرآن كأي أثر أدبي من صنع الناس !.

وفي دار الأوبرا تُعرَض مسرحية وقحة تتطاول للنيل من مقام صاحب الرسالة إلى جانب الأزمات السياسية التي لا تتورع عن استغلال هذا الواقع القلق بمختلف الوسائل .. وقد بلغ الصراع أوجه بين التيارات الهدامة التي تستهدف الإجهاز على بقايا الحصانة الإسلامية في أوساط الجيل الجديد ، وبين الانتفاضات الكبيرة التي انطلقت في وجه ذلك الزحف المدمر .. يمثلها عمالقة من رجال الفكر والعلم كمحمد الخضر الحسين صاحب الرد الشهير على كتاب « الاسلام وأصول الحكم » للشيخ علي عبد الرازق ، الذي يعتبره المترجم من أهم الخدمات التي قدمها مسلم للكافرين، كيفما كانت نية مؤلفه والدوافع الحافزة عليه .. ويسمي من كتيبة الدفاع عن الإسلام في تلك المرحلة عبد الحميد سعيد صاحب الصوت الإسلامي المدوي تحت قبة البرلمان، وأحمد زكي باشا ، المعروف بشيخ العروبة ، ومصطفى صادق الرافعي ، الذي يصفه المرحوم عبد العزيز البشري بأنه خلاّق المعاني ، والشيخ محمد رشيد رضا حامل لواء السنّة وممثل

المدرسة التجديدية المنسوبة إلى الشيخ محمد عبده . وإلى جانب هؤلاء تنهض حركة الامام البنا ، لتؤلف من العناصر المؤمنة غير المنسقة ، تنظيماً محكماً لا يلبث أن يهز ضمير العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه .

ولا جرم أن فتى في مثل مواهب الغزالي ، وفي مثل نشأته الجادة ، لا مندوحة له عن التفاعل الحار مع موحيات هذا الجو .

وهكذا تتضافر العوامل المختلفة والمتصارعة لتدفع بمترجمنا الفاضل إلى ميدان العمل الإسلامي ، الذي بدأه صغيراً ثم مضى به صُعداً ، لم يفارقه يوماً واحداً من عمره الذي نيف اليوم على الستين.. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

محن حملت مِنَحاً :

على أن ما تقدم ذكره من المؤثرات لم يكن أكثر من تمهيد تهيأ به الشيخ لمواجهة المرحلة التي كانت أحفل حقول حياته بالتجارب .

لقد تَخضّتْ حركة الإخوان طاقات الشعب المصري لتفتح أعينه على طريق جديد من الجهاد والعمل لم يكن له بمثله عهد منذ حروب الصليبيين والتتار.. وكانت زحوف مجاهديهم لتحرير فلسطين صدمة هائلة لعملاء الغرب ، أدخلت الخلل على خططهم الموجهة للقضاء على حيوية الإسلام ، وقدراته التي لا تنتهي على تحريك الخامد من همم المسلمين . وما هي إلا أيام مشحونة بالجد والصبر حتى زلزلت الأرض بأقدام يهود ، وحتى بات الإخوان المسلمون هم البلاء الأكبر الذي لا يقف في وجهه شيء .. ولم يكن بد من تدخل أميركا وروسيا ودول أوربا ، لتدارك المصير المحتوم الذي سينسف إسرائيل من أساسها إذا استمرت دفقات الإيمان في طريقها المنظور .

وتحركت (مراكز التخذيل) لإنقاذ اليهود .. فكانت الهدنة الأولى ، التي فرضها النقراشي على حكومات العرب في اجتماع (عاليه) .

ويحدثنا صديق حدثه ممثل اليمن في ذلك المؤتمر – أيامئذ – قائلاً : لقد أعلن النقراشي رغبة مصر في إعلان الهدنة ، ليتاح لوسطاء الخير أن يقوموا بمهمة التسوية في جو مساعد . وحاول أكثر الأعضاء مناقشة تلك الرغبة الخطرة على ضوء منطق الأحداث ، فرفض النقراشي الدخول في أي مناقشة ، وصرح بأن مصر قررت الانسحاب من المعركة منفردة إذا أصرت الحكومات العربية على متابعة الحرب !.. وبذلك أكره الجميع على قبول العرض الذي أضاع الفرصة على كل عمل صحيح لمصلحة فلسطين . ثم جاءت الخطى التالية لتجريد مجاهدي الإخوان من سلاحهم الذي اشتروه بثمن أمتعتهم ، وأعقب ذلك تجميعهم في معتقل محاط بالأسلاك الشائكة ، ليمنعوهم من أي حركة لا يريدها أعداء الإسلام .. وأتموا ذلك التطويق بمصادرة الحركة في مصر كلها . وكان مستحيلاً أن تمر العاصفة بسلام .. وهكذا أقدم بعض شباب الدعوة على اغتيال النقراشي ، جزاء وفاقاً على ما قدمته يداه – بأمر فاروق – لقضية فلسطين وللحملة الإسلامية .. وما لبث أن جاء الرد على مقتل النقراشي باغتيال الإمام الشهيد بعد أن جرّد من كل وسيلة يستطيع بها الدفاع عن نفسه . وكان طبيعياً أن تتخذ سلطات فاروق من هذا الجو فرصة لتحطيم بناء الإخوان كله ، فساقت الآلاف منهم إلى منفى الطور وفي مقدمتهم أعضاء مكتب الإرشاد ، وفيهم المترجَم ، الذي حجز أولاً في سجن الدرب الأحمر لعدة أسابيع ، ثم أخذ إلى معتقل الطور ليقضي مع إخوانه سنة كان لا بد منها لتدريب الجماعة على ممارسة أنواع البلاء « سنّة الله في الذين خلوا من قبل ، ولن تجد لسنّة الله تبديلاً » .

ويصف الشيخ تلك السنة بأنها كانت حافلة بالآلام والبركات معاً ، فعلى الرغم من ضخامة المحنة التي شملت أسراً بأجمعها من الآباء والأبناء والأصهار ،

ومـــا رافق ذلك من فنون الإذلال والنكال التي صبت على الجميع بمختلف الوسائل ، فقد كانت فرصة ضرورية أتاحت للجماعة لوناً من التربية الروحية هم أشد ما يكونون حاجة إليها .

يقول فضيلته : لقد غذّت هذه التجربة طاقة الاحتمال في النفوس وارتفعت بروحانيتها إلى مستوى عال ، فلا تذمر ، ولا تململ ، بل الصبر الكريم والرضى بالقدر الحكيم ، حتى لتسمع في هدآت السحر مثل هذه الضراعة السعيدة من أفواه لا تستبين أصحابها : « تجلّ علينا بالرضى يا رب » .

وكان المترجم يؤم الاخوان بالصلوات ، لا يتخلف عنها إلا ممزق الثياب لا يجد الستر الكامل لعورته .

ومن هنا، من هذه الفترة التدريبية، عاد الاخوان إلى العمل –عهد النحاس– وهم أعلى ما عهدوا في أنفسهم من المعنويات .

زوابع الرعب :

وكانت الطامة الكبرى في العهد الذي أحـال مصر كلها سجناً كبيراً ، ومصنعاً للتعذيب لا يضارع حتى وراء الستار الحديدي .

ويصف فضيلته ذلك العهد ... بأنه كان يسلب الرجال رجولتهم بما أطلق من زوابع الرعب ، التي ألقت في رُوع كل حر في مصر أنه محاط بالأعين والحراب والسياط .

في أحد السجون سيق أهل العلم ، وكل من توهم المتسلطون أن له صلة بالدعوة الإسلامية ، إلى الباستيل الذي لم يخل قط من الأبرياء . وبعد سنوات من الفتنة التي شوهت وحطمت ، أفرجوا عن أحد المشايخ ممن لم يستطيعوا مواصلة الاحتمال ، بعد أن كتب لهم التعهد الذي شاؤوا .. وبعد أن أوهموه أن في مكان مـا من جوفه جهاز تسجيل ينقل إليهم كل كلمة يقولها ، وكل حركة يأتيها .

وبذلك أصبح وهو خارج السجن ، في جحيم لا يخمد من الخوف ، أحال وجوده سجناً لا يكاد يطيق معه حراكاً .

تلك أدق صور للجو الذي فرضه زبانية (...) على الشعب المصري ، وبخاصة جماعة الإخوان منذ اليوم الذي قلب لهم فيه ظهر المجن .

ويقول الشيخ : ظللت في مطالع المحنة مدة ألقي الدرس في المسجد أو في الجامع فلا أدري في أعقابه أين أبيت .. ويوم أعلن الطاغية من موسكو نيته في إيقاع المذبحة الجديدة في الإخوان ، استدراراً لعطف طواغيت الكرملين ، جاءه – أي الغزالي – توجيه الزبانية بوجوب التجريح في الجماعة لتسويغ ما يراد بهم . ولما رفض الخضوع للأمر زج في سجن طره ، حيث قضى تلك المدة في جو من المهانة والتحقير لا يملك القدرة على وصفه . ولكنها مع ذلك كله كانت فرصة أخرى للخلو مع القرآن الذي لم يكن له سلوة سواه ..

ويشير إلى واحدة من هذه المناسبات الروحية قائلاً :

كنت ذات ليلة مضطجعاً في ثياب السجن فوق الاسفلت ، فجعلت أتلو في نفسي سورة المائدة ، وألاحظ أثناء ذلك مضامينها واحداً تلو الآخر ، فأحس بينها من التناغم ما لم أنتبه إليه من قبل .. وهكذا هديت في ظلمات هذه المحنة إلى أنوار من المعرفة أضاءت لي سبيلاً جديدة إلى أفق جديد من الفهم القرآني .

ومما يتصل بهذا الضرب من الأحداث ما تناقلته الألسن عن موقف أحد المنافقين حين عرض للشيخ ، وهو يلقي خطبته الثانية من على منبر جامع الأزهر ، فيذكّر ويعظ ويسأل الله للمؤمنين دون تعيين .. فنهض هذا ليصيح: « ألا ترون ؟.. إن عصبيته للإخوان المسلمين تمنعه أن يدعو للرئيس ... » إلا أن الله أعان المصلين فجرأهم عليه بما أخرسه . وقد كرر هذا المنافق فعلته تلك مع الشيخ في مسجد الحسين .. فكان نصيبه هذه المرة طائفة من الصفعات المناسبة من جمهور المصلين .

وبقليل من التأمل يدرك المفكر بعض أحوال النفوس التي تعيش تلك الغمرة من الإرهاب ، فعلى الرغم من ضجيج الدعاية التي سخرت لها الأقلام والأفلام والأغاني ، ومئات الوسائل التي حاولت أن تجعل من الظلمة نوراً ، ومن الباطل حقاً ، ومن الأقزام عمالقة .. على الرغم من كل ذلك لم يجد ذلك المهرج من المصلين في كلا المسجدين سوى الازدراء والرد المذل . وليس ذلك في الواقع إلا رداً على عهد الطغيان كله لا على ذلك المنافق وحده .

ويؤكد لنا هذه الحقيقة تصرف المسئولين عن إدارة مسجد الأزهر مع الشيخ ، إذ كانوا ينحونه عن الخطبة في كل جمعة يعتزم الرئيس شهودها ، ويقدمون لها غيره ممن يحسنون الملق للظالمين .

في مسجد عمرو :

هذا المسجد ، الذي يحمل إلى قلوب المؤمنين العارفين ، نفحات المد العظيم ، الذي أضاء مصر بنور الإسلام على أيدي الطليعة المباركة من تلاميذ النبوة ، كان قد استحال أو كاد خلاء كالخراب يوشك ألا يجتمع فيه نصاب الجمعة على المذهب الشافعي . وكأني بالدكتور عبد الحليم محمود ، وكان يومئذ وزيراً للأوقاف ، قد شاء إحياء الغابر من جلال هذا المسجد ، فدعا الشيخ الغزالي ليبلغه رغبته في أن يتولى خطابته.. وكان هذا بنظر الغزالي أشبه بالنفي له عن أوساط التوجيه ، لذلك راجع الوزير يطلب إعادته إلى خطابة الجامع الأزهر الذي ألفه وألفه رواده مدى عشر سنوات . ولكن الوزير أصر على تكليفه وقال له : اذهب إلى مسجد عمرو ، وستجدني بين المستمعين إليك .

وكانت هذه لفتة طيبة أقنعت الشيخ بقبول التكليف . وما إن ذاع خبر هذا التوجيه حتى استبشر الناس، الذين أحزنهم أن يفتقدوا هذا الصوت المؤثر ، وأقبلوا على المسجد منذ الجمعة الأولى فملئوه وصحنه . ثم مضى الأمر على التزايد

جمعة بعد أخرى ، حتى قفز العدد عن الألف إلى ما يقارب الثلاثين ألفـــاً ، يتوافدون إليه من مختلف أنحاء القطر .

وتراءى للشيخ من خلال ذلك الإقبال عظم المسئولية فاستخار الله وتوجه إليه بالدعاء أن يوفقه إلى إعلاء كلمته وتثبيت حقائق الإسلام في هاتيك القلوب المتلهفة إلى قولة الحق .

ورأى أنفع شيء لهذه الآلاف المؤمنة أن يعالجها بالقرآن، وعلى المنهج الذي أفاده من تأملاته الخلوية في ليان طره .. وهكذا مضى بها في حدائق «الأنعام» و « ياسين » و « الواقعة » و « الفتح » و « محمد » ﷺ .

وقادته حكمة الله أن يبدأ بسورة النساء في الوقت نفسه الذي اختارته وزارة الشئون الاجتماعية لإثارة موضوع قانون الأسرة ، ومـــا يراد له من التغيير .

قضية الساعة :

وتتصاعد موجة البحث، ويكون من ردود الفعل الطبيعية لمحاولات أنصار القانون المراد ، أن اتجـه أولو الفكر في مسجد عمرو إلى الدعوة لمؤتمر يعقد في الأزهر ، ويضم المشتغلين بالقضايا الإسلامية لمعالجة القضية على نطاق أكثر موضوعية .. وكذلك كان ، وقد حضر ذلك المؤتمر كثيرون يمثلون مختلف الأوساط العلمية والسياسية ، فعلماء من كبار الأزهريين ، وأعضاء من مجلس الشعب ، وأساتذة وطلاب من مختلف الكليات ، إلى آخرين من العـاملين في الجماعات الإسلامية . وشارك في الاجتماع سفير نيجرية ، حتى بلغ الحضور قرابة خمسة عشر ألفاً يمكن القول بأنهم يعكسون بمجموعهم رأي الكثرة الغالبة من الشعب المصري .

وطرحت قضية الساعة في جو من الصراحة الواجبة، وكان الصديق المترجم

في بحثه الموضوع بمثابة المرافع القضائي الذي يدعم أفكاره بالحجج الدامغة ، والوثائق الحاسمة .

وانتهى النقاش أخيراً بإجماع الحضور ودون معارض إلى المقررات التالية :

١ – لا يجوز النظر في قانون الأسرة قبل تعديل قوانين العقوبات كلها لتتفق مع مبادىء الشريعة .

٢ – يضع قوانين الأسرة علماء الأزهر فقط .. لا الوزاره .

٣ – إستنكار ورفض كل تهجم تقوم به أجهزة الإعلام على التعاليم الإسلامية وأوضاع المسلمين .

وعقب ذلك خرج جمهور المؤتمرين ، ومعهم الطلاب ، في مظاهرة ما زالت تزداد بالمنضمين إليها حتى أحاطت بمجلس الشعب إحاطة السيل بجزيرة معزولة .

وكان هذا كافياً لإقناع المسئولين بأن الشعب المصري غير مستعد للسماح بتمرير هذا العدوان الجديد على بقايا الشريعة الإسلامية ، فوقفوا التفكير في مشروعهم ولو إلى حين .

وكان طبيعياً ، بعد همود العاصفة ، ان يتحرك القوم للبحث عن مسببيها ، فانتهى بهم المطاف إلى مسجد عمرو وخطيبه ، وأعقب ذلك تنحية الشيخ عن منبره .. ثم جاء التدبير الآخر بنقله من وظيفة مدير عام للدعوة الإسلامية بوزارة الأوقاف ، إلى منصب مستشار فيها .

ونشرت بعض الصحف يومئذ أن الدافع إلى هذا الإجراء صلة الشيخ بقضية الكلية العسكرية الفنية . ولا حاجة إلى القول بأنها تهمة لفقها الخراصون ، وكذبها القارئون .. هذا فضلاً عن أن ما نشر عن قضية الكلية حتى اليوم لا يزال ينتظر الأقلام النظيفة التي تكشف عن أسرارها ومفاجآتها الأستار .

حوار معقول :

ويذكرني مضمون الفقرة الثانية من مقررات المؤتمر حواراً دار قبل أيام بيني وبين المفكر الدكتور مصطفى محمود ، لقد ناقشته في إنكاره حكم الرجم للزانيين المحصنين، والذي سبق له التصريح به في إحدى الصحف، فكان قصارى ما احتج به أمران :

الأول ـ أن الحكم لم يرد في القرآن ، ومجرد وروده في الحديث لا يقوم دليلاً على صحته لما أحاط بالحديث مطلقاً من مفارقات تبعث على الشك .

والثاني ـ أن الزنى أصبح من المسلّمات التي تحميها الدولة ، وتزين للشباب أسبابها بمختلف وسائل الإغراء ، وللعوامل الاجتماعية آثارها البعيدة في صرفهم عن سبيل الزواج المشروع .. فلو دعونا إلى إقامة حد الرجم في هذه الأحوال لكنا على غاية من الجهل بالعصر الذي نعايشه ، وبالمجتمع الذي نريد تطهيره من هذه الآفة .

ولم يكن عسيراً تصحيح الشق الأول من كلامه الذي لا بد قد تسلل إلى فكره عن طريق أبي رية ومَن وراءه من المبشرين والمستشرقين ، إذ يكفي لدحض هذه الشبهة تذكير طالب الحق مثله بقوله تعالى: «وما ينطق عن الهوى» و « ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » وأن تعهد الله بحفظ كتابه لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق حفظ السنّة التي جاءت تفصيلاً لجمله ، وإيضاحاً لغامضه ، وتحديداً لمقاصده .. ولولاها لاستحال على المؤمنين التثبت من هيئة الصلاة ، وأحكام الصوم ، وشعائر الحج ، ونِسَبِ الزكوات في الأموال المختلفة . فإذا وجد في نطاق المرويات عن الرسول ﷺ الضعيف والمنحول ، فلنتذكر القدرة الخارقة التي أتاحها الله لسنّة نبيه فأنقذتها من كل دخيل لم يثبت صدوره عنه صلوات الله وسلامه عليه . وأما الرجم فهو جزء من قضية كاملة لا يمكن تفتيتها . ونعلم استحالة تنفيذه في المجتمع الذي تأخذ

الفاحشة عليه السبل، لذلك نريد تثبيت الإيمان أولاً بشريعة الله، وأنها وحدها صاحبة الحق في ضبط تصرفات البشر، فإذا تحقق ذلك كان من أسهل الأمور تطهير المجتمع من أسباب الفاحشة، وتيسير السبيل إلى التلاقي المشروع بالزواج النظيف، ويومئذ يصبح الرجم ضرورة يتطلبها المجتمع نفسه لحماية وجوده من نكسات الشيطان.. مثله في ذلك كمثل حد السرقة، لا بد قبل تنفيذه من تحقيق العدالة الاجتماعية بتوفير العمل الشريف للقادر، والمعونة الأخوية للعاجز، فإذا أقدم امرؤ على السرقة في مثل هذا الجو كان حقيقاً بالقطع ليكون عبرة رادعة لكل من يحمل مثل خطره على أمن المجتمع.

ويسرني أن الأخ الدكتور لم يتردد في قبول هذه الحقيقة، حتى وعد بان يتدارك ما سلف منه في أول فرصة، جزاه الله خيراً وزاده هدى على هدى.

كلمة للمسئولين:

وشيء آخر ايضاً تثيره في خاطري هذه المناسبة، وهو اتهام المسؤولين للعاملين للإسلام، بالنشاط السياسي والعمل لإقامة زعامة دينية.

وقصارى ما يواجه به دعاة الإسلام هذه التهمة هو تبروءهم منها، وإعلان رفضهم لكل مطمح سياسي!

وأنا لا أرى لأي من السياسيين المتهمين، والدعاة المتبرئين، سنداً من المنطق يؤيد ما ذهبوا إليه.

ولنناقش الموضوع في ضوء المنطق نفسه، رجاء أن نصل به إلى الحكم المعقول، الذي من حقه أن يصحح أوضاع كل من الفريقين في هذا المضمار.

إن الدستور الذي يُحكَم به في معظم البلاد الإسلامية التي تكافح دعاة الإسلام ينص على أن الإسلام هو الدين الرسمي للدولة، وحين نستنطق هذا الكلام لا نجد له مفهوماً صحيحاً سوى هيمنة النظام الإسلامي على شئون الدولة كلها، بحيث لا يعتبر أي عمل هناك مشروعاً ما لم ينسجم مع أصول هذا النظام.

ذلك هو المفهوم المعقول لمضمون ذلك النص ، وإن انحرف به الحاكمون في مختلف أقطار المسلمين ، حتى كاد ينحصر في بعض المظاهر السطحية ، التي لا تتجاوز شهود المسئولين لبعض المناسبات الإسلامية كصلاة العيدين مثلاً ، ثم يمضي كل شيء في الخط المنافي لمقاصد الإسلام .

وقد ألف الناس هذا التناقض حتى كادوا لا يحسون به .. فإذا ارتفع صوت بالتنبيه إليه والتحذير من أخطاره وعواقبه ، جُوبه بالإنكار ، ونُبذ بالاتهام ، وصب عليه العذاب صباً .

والمؤسف العجيب في هذا الوضع أن الذين يستنكرون قيام الزعامة الإسلامية ، في بلد حياة أهله كلها قائمة على الإسلام ، وفي ظل قانون أساسي يعلن إسلامية الدولة ، هم أنفسهم يبيحون لأعداء الإسلام وغير الإسلام من الأديان التي تؤمن بالله واليوم الآخر ، حق العمل للوصول إلى زعامة البلد كله باسم الديمقراطية .. دون أن يلمحوا ما في إباحتهم هذه ، ومنعهم ذاك من المفارقات التي لا مفهوم لها في لغة القانون ولا المنطق .

كيف يكون من حق الشيوعية مثلاً أن تدعو لنحلتها ، وتسعى بكل حولها وأضاليلها للهيمنة على أزمة المجتمع ، وهي التي يُعتبر مجرد وجودها منافياً للهوية الإسلامية التي تحدد شخصية الدولة ، ثم يعتبر مجرد الدعوة إلى تنفيذ مضمون تلك الهوية ، بتحكيم شرعية الإسلام في مسيرة المجتمع عملاً مستنكراً مرفوضاً ، يستحق دعاته المطاردة والتشهير والتحقير !؟

وكلمة لدعاة الاسلام :

ولماذا يتهرب دعاة الحكم الإسلامي من تهمة السعي للوصول إلى الحكم كأنها وصمة عار يدفعونها عن أنفسهم بكل ما يملكون من قوة !.. حتى لقد أوقع موقفهم هذا في أخلاد العامة أن مجرد العمل في مجال السياسة مخالف لروح الإسلام ! وما أحسب أن ثمة إساءة للإسلام أكبر من هذه النتيجة .

إذا كان الإسلام هو النظام الذي أراده الله دستوراً مهيمنا على مسيرة الحياة البشرية ، وكان واجب المؤمنين به في كل مكان وزمان هو تحقيق هـذه الهيمنة في كل وجودهم ، والسهر الدائب لحمايتها من كل عدو يريد بها شراً أو إيهاناً .. فأول مقتضيات هذا المبدأ ، وبخاصة في مثل ظروفنا التي عزلت فيها الشريعة الإسلامية عن ميادين الحكم ، أن تتجه مساعي العاملين لإيصال النخبة المجربة من المؤمنين بهذه الحقيقة إلى مراكز المسئوليات العليـا في الدولة . وذلك هو الطريق الطبيعي في ظل الديمقراطية ، التي تعطي كل فرد حق العمل لتصحيح الأوضاع الاجتماعية ضمن نطاق القانون ، وكما أن المفروض في كل منظمة حزبية ذات مبادىء ، ملتزمة ألا تأتمن على تنفيذها إلا المؤمنين بهـا ، فمن باب أولى ألا يأتمن العاملون للإسلام على مبادئه إلا من ثبت إيمانه بها وتفانيه لتحقيقها .

ولنستعرض هنا بعض كلمات الشيخ لتوكيد ما نذهب إليه في هذا الصدد.

في كتابه « قذائف الحق » صفحة ١٢٧ يعدد مهام العاملين للإسلام في نقاط محددة ، ثم يقول : « وبديهي أن ذلك لن يتحقق كلا أو جزءاً إلا في ظل حكومات تحترم الإسلام ، وترى نفسها مسئولة أمام الله عن القيام بحقوقه » .

ثم يردف ذلك ببيان التفاوت بين مواقف الحكومات العربيـة بالنسبة إلى الإسلام ، مع تلاقيها على استبعاده عن نطاق الحكم ، مما يجعل العبء قاصراً على كواهل الشعوب وحدها ، (فعلى الشعوب أن تتحرك وإلا تعرضت للفناء عقوبة من رب السماء) .

ونحن نقول : ما دام الأمر كذلك ، ففيم الفرار من صفة السعي إلى الحكم في حدود الأنظمة المشروعة ؟.. لماذا لا نقول للحاكمين والمحكومين : إن الأساليب التي تحكم بها الدولة قد أثبتت إفلاسها وعجزها عن أي عمل مأمون العواقب على المدى البعيد ، ومن أجل ذلك نتقدم بمبادئنا الربانية لإقامة قواعد

الحكم الصالح ، الذي يضمن للأمة العدالة والعزة والقوة ، فدعوا لنـــا حقنا الطبيعي في عرض ما عندنا لأمتنا أسوة بالآخرين ممن يعملون لتدمير هذه المبادىء ، بل لتحطيم عنصر الأمن والعدالة في هذه الأمة ؟ وإذا بقي بعد ذلك في المسئولين من يرفضون هذا العرض بغير حق ، سألناهم بالله أن يقوموا لله مثنى وفرادى ثم يتفكروا في تجرد من كل هوى شخصي ، وباستقلال عن كل غرض غير مصلحة الأمة ، ثم واصلنـــا مسيرتنا إلى الهدف الأعلى غير عابئين بالتهديد والوعيد ، حتى يحقق الله وعده بالنصر للذين قال في وصفهم : « الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ... » أو يحكم الله بيننا وبين قومنا بالحق ، وهو أحكم الحاكمين .

في خدمة العلم :

وعن نشاط الشيخ في خدمة العلم وطلابه ، يؤكد لنا ما يعرفه عنه من خلال آثاره كل قارىء وسامع ، فحبه للعلم هوى يتزايد مع لحظات الحياة. ، ولا يكاد ينقطع عن جانب منه ، وإن تفاوتت صلته بفنونه وفق مقتضيات العمل والحاجة . وذلك أمر بديهي بالنسبة إلى داعية تتعدد ميادين نشاطه العلمي ، وكل منها يتطلب المزيد من الثراء الفكري الحي . فهو خطيب مسجد ولكن من الضرب الذي يستشعر في عمق قيمة الكلمة وحق المستمعين عليه ، ومسئوليته عن ذلك أمام الله .. وقد عرفته كلينا أصول الدين والشريعة بالأزهر مدرّساً يخاطب العقول فيثريها ، والقلوب فيستهويها ، وفي معسكرات الطلاب والجماعات الإسلامية عن نشاطه الفعال آثار تذكر فتشكر . ولقد شاء الله أن يمتد عمله الشخصي إلى أبعد من محيطه الوطني ، فيسّر أسباب نقلته إلى مكة المكرمة ، ليكون رئيساً لقسم الدعوة في كلية الشريعة بجامعة الملك عبد العزيز ،

ومن ثم ليكون على صلة بالآلاف من قرائه الذين يتوافدون على البيت الحرام من أنحاء العالم الإسلامي . وما كان ليتاح له ولا لهم ولا لنا مثل هذا التلاقي ، لولا أن أكرمنا الله واياه بالهجرة إلى حرميه المباركين .

وفي التأليف :

وبشأن مؤلفاته يذكر فضيلة الشيخ أنهـا بلغت حتى الآن واحداً وثلاثين كتاباً . وقد أعيد طبع بعضها عشر مرات ، وهو لا يكاد يؤثر بعضها على بعض ، ومرد ذلك فيما نرى ما تمتاز به جميعاً من صدق التصوير لأعمق أفكاره ، وأحر عواطفه .

ولكنه مع ذلك لا يخفي نظرته الخاصة لكتاب « فقـــه السيرة » لصلته بأحب الخلق إلى قلبه ، ويلي ذلك آخر كتاب صدر له باسم « قذائف الحق » لما ضمنه من ردود قاهرة على مفتريات يريد بهـا أعداء الإسلام تدويخ العالم الإسلامي ، على حد تعبيره .

والحق يقال أن الحديث عن مؤلفات الشيخ الغزالي لا تفي به العبارة العجلى ، لأن فيها من الخصائص المنهجية والأدبية ما يجعلها نسيج وحدها بين الكتب ، وهي بذلك تقتضي الوقوف على كل منها بالتحليل الطويل . وحسبنا في هـذه المناسبة المحدودة أن نذكر القارىء بأسلوبها المميز الذي من المتعذر أن يختلط بغيره من أساليب الكتّاب ، ولو توجوا مـــا يكتبون بالعنوانات نفسها التي يتخيرها لمصنفاته .

العناية العليا :

يقول فضيلة الأخ ، في الإجابة على الاستطلاع الخـــاص بمستقبل الجيل الإسلامي ، إنه أميل إلى التفاؤل بشأنه . ويعلل ذلك بما يحسه في كل مكان من مخاض يبشر بخير عميم . ويمثل لمراده بأقرب مشاهداته ، وهو أن ثمـة شباباً ولدوا بعد تواري دعوة الإخوان ، يحملون في صدورهم طاقات حركية

لا حدود لها، تدفعهم إلى العمل، وتحبب إليهم حق الاستشهاد في سبيل الإسلام. وشدّ ما يلومون الدعاة على مسلكهم القائم على الأناة .

ويقول : إني لأتساءل مَن الذي أعد هؤلاء الجنود، وجدد بهم شباب الدعوة على حين فترة من الدعاة ، وطغيان من الأحوال ، فلا أجد جواباً إلا في قول الله عز وجل : « إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، فالله يخفيّ حكمته هو الذي أراد استبقاء الإسلام بهذا الشباب المنتشر في بقاع العالم الإسلامي جميعاً .. وأغرب ما في هذا التدبير الإلهي أن كثرتهم تكاد تكون مقصورة على الكليات العملية من الجامعات ، حتى ليتقاصر عنهم أبناء الكليات النظرية وحتى الدينية منها عدداً وحماسة .. ولذلك يصر الشيخ على أن الإسلام محفوف بالعناية العليا ، وهي التي تتولى حمايته وتجديد زحوفه ، كلما توهم الباغون والجاهلون أنه استنفد طاقته . بيد أن يقينه هذا لا يعني الاستنامة ، ولا يسوغ التوقف على طريقة « اذهب أنت وربك فقاتلا » بل يجد فيه الباعث الحثيث على مضاعفة الجهد بما يبثه في قلوب العاملين من توقعات النصر المضمون من حيث لا يحتسبون .

الكرامة والعدالة والأمن :

ويأتي جوابه الأخير ، حول مهام علماء الإسلام في هذه المرحلة الدقيقة من حياة الجيل ، مؤكداً لما تقدم ، ويمكن تلخيص أفكاره هنا بما يلي :

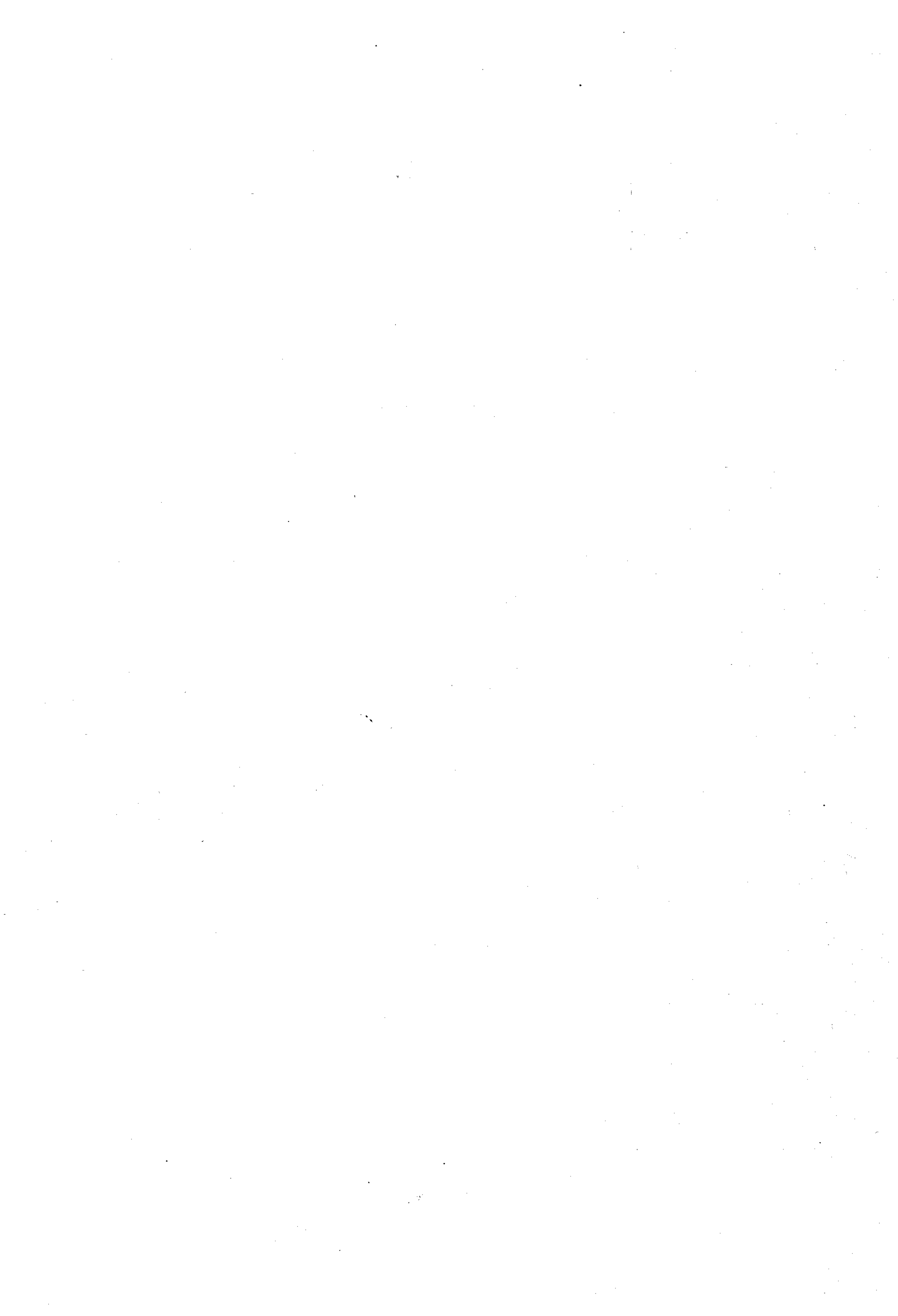
١ - أول هذه المهام بالنسبة إلى أهل العلم مضاعفة الحرص على فضائل الإسلام والتشبث بحقائقه لتتوافر فيهم القدوة الصالحة للجيل الذي يريدون توجيهه .

٢ - إن تفتيت الطاقات العاملة للإسلام هو أهم مرتكزات العدو الذي يريد لكل منهم أن يموت وحده لذلك كان أول واجباتهم أن يتجمعوا ويتعاونوا ويوثقوا الصلة مع شعوبهم .

٣ – ومن أجل التغلب على التيارات الغازية ، لا مندوحة للعلماء من دراستها على الطبيعة ، لمعرفة الوسائل الكفيلة بصدها ، وتحصين المسلمين باللقاح الواقي من سمومها . والسبيل إلى ذلك إبراز الحلول الإسلامية لكل مشكلة عامة تريد استغلالها تلك التيارات .

٤ – السعي الدائب لتأمين حق كل مسلم بالكرامة والعدالة والأمن على الصورة العملية الملموسة ، فقد شبع الناس من هـــذا الكلام عن فضائل الإسلام ، وأصبحوا متلهفين لمواجهتها على أرض الواقع ..

وحسبنا هنا التذكير بقول الفاروق العظيم عليه رضوان الله لعماله في مختلف ديار الإسلام : « لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تجيعوهم فتكفروهم » .



١٤

الشيخ محمّد ناصر الدّين الألباني

تفضل شيخنا أمتع الله بحياته فأملى علينا إجاباته على نقاط الاستطلاع في كلمات موجزة لم يدع له عمله الكبير في خدمة السنّة مجالاً للتبسط فيها ، فكان علينا أن نتخذ منهـا منافذ للإطلال على تلك الحياة ، التي يسر للكثيرين من المعنيين بالسنّة المطهرة أن يتعرفوها عن كثب .

منبت الشيخ :

إنه محمد ناصر الدين أبو عبد الرحمن ويلقب « بالألباني » ، ولد في كنف آله بأشقودرة عاصمة القطر الألباني أيامئذ ، من أسرة متواضعة بعيدة عن الغنى ، يغلب عليها الاشتغال بالعلوم الدينية ، وكان والده الحاج نوح من كبار مشايخ ألبانية ، تلقى علومه في إسطنبول ، وعاد إلى بلده ليعمل في خدمة الدين تعليماً للأطفال وتسديداً للكبار .

والبيئة التي استقبل فيها الشيخ عهد حداثته الأولى مطبوعة باللون الإسلامي المحافظ في كل شيء ، حتى جاء أحمد زوغو – ملك ألبانية آنئذ – فطلع عليها بتغييرات اجتماعية كانت صدمة هزّت أركان تلك البيئة ، إذ جعل يتعقب خطوات طاغية تركيا أتاتورك ، فألزم المرأة الألبانية بنزع الحجاب ، وأتبع

ذلك بالقبعة .. ومنذ ذلك اليوم بدأت هجرة الذين يخافون على دينهم . وكانت أسرة الشيخ نوح في طليعتهم ، إذ كان أول المهاجرين من ألبانية إلى سورية .

دراسته العربية :

وفي دمشق بدأ الغلام المهاجر دراسته العربية ، فالتحق وإخوته بمدرسة جمعية الإسعاف الخيري ، وكان مقرها بجوار البناء الأثري المشهور بقصر العظم في حي البزورية ، واستمروا على ذلك حتى أشرفوا على نهاية المرحلة الابتدائية ، وفي هذه الأثناء هبت أعاصير الثورة السورية بالفرنسيين ، وأصاب المدرسة حريق أتى عليها ، فانتقلوا عنها إلى مدرسة أخرى بسوق ساروجة ، وهناك أنهى المترجَم دراسته الأولى ، ومن ثم انصرف إلى متابعة دراسته المنظمة على المشايخ ، فعلى والده يتلقى القرآن تلاوة وتجويداً مع بعض الفقه الحنفي ، ويقرأ عليه بعض كتب الصرف . وعلى الشيخ سعيد البرهاني قرأ كتاب « مراقي الفلاح » وبعض الكتب الحديثة في علوم البلاغة .. ولم يحصل على إجازات في هذه القراءات لأنه – كما أخبرنا – لم يطلبها ، وكل ما أحرزه من ذلك إجازة في الحديث منحه إياها المرحوم علامة حلب الشيخ راغب الطباخ إثر مقابلة له بوساطة الأستاذ محمد المبارك ، الذي ذكر للشيخ الطباخ ما يعرفه من إقبال الفتى الألباني على علوم الحديث وتفوقه فيها ، فلما استوثق من ذلك خصه بإجازته تقديراً واعترافاً .

مؤثرون في حياته :

يقول الشيخ : إن أول الرجال تأثيراً في نفسه هو والده ، ويحدد أثره في ناحية التدين والعبادة ، إذ كان يصحبه إلى المساجد ، ولا سيما أيام الجُمَع ، كما كان يأخذه لزيارة المقابر ، وبخاصة من يعتقد ولايتهم وفضل الصلاة عندهم ، كالشيخ ابن عربي والشيخ النابلسي . وبهذه الدوافع يذهب به للصلاة في المسجد

الأموي ظناً منه أنها هناك أفضل من سواها ، لما زعموا من وجود قبر نبي الله يحيى فيه .

يقول الشيخ: « فلم أزل على خطى والدي في هذا الاتجاه حتى هداني الله إلى السنّة ، فأقلعت عن الكثير مما كنت تلقيته عنه مما كان يحسبه قربة وعبادة » .

وهنا يحدثنا الشيخ عن بعض الجوانب التي لا يحسن أن نجهلها مما كان بينه وبين ذلك الوالد ، الذي يصفه بأنه شديد التعصب لمذهبه الحنفي ، فيقول : « كنت قد أكببت في شغف كبير على دراسة السنّة ، فإذا أنس مني ذلك جعل يحذرني قائلاً « علم الحديث صنعة المفاليس » ولكن على الرغم من كل ما جرّه ذلك التباين من خلاف فكري بيني وبينه ، فقد صار بنا الأمر إلى كثير من التقارب في أواخر حياته ، إذ كان يقول في إثر كل نقاش « أنا لا أنكر أنك عدت إليّ ببعض الفوائد العلمية التي لم أكن على بينة منها قبل ذلك ، مثل عدم مشروعية القصد إلى الصلاة عند قبور الصالحين » .

بواكير عمله العلمي :

يقول الشيخ : « والحق أن هذه المسألة من أوائل الأسباب التي انفصلت بها عن معظم المشايخ ، إذ كانوا فيها على طريقة والدي ، فكان من بواكير ما بدأت به مما يشبه البحث العلمي أن تتبعت هذه القضية في بعض المراجع الفقهية والحديثية مما تحتوي مكتبة والدي ، فكتبت بعض الصفحات ذهبت فيها إلى كراهة الصلاة تحريماً في تلك المواطن ، وبخاصة المساجد المبنية على قبور الأنبياء والأولياء ، مستدلاً على ذلك بما وقعت عليه من أقوال العلماء في تلك المراجع . وقدمت رسالتي الى شيخي البرهاني في الأواخر من أيام رمضان ، فوعدني بردّ جوابها بعد العيد ، فلما جئته تبسم لي وقال : « لم تصنع شيئاً لأن المظان التي نقلت عنها لا تعدو حاشية ابن عابدين ومراقي الفلاح وليست بمصادر للفقه .. وقد صدمت بهذا الجواب وعلمت أن الشيخ لم يستوعب كل ما كتبته ، إذ كانت

نقولي عـــن « عمدة القاري » و « مرقاة المفاتيح » و « مبارق الأزهار » و « حاشية الطحطاوي » ، وهي من المراجع المعتبرة عند أهل العلم .. ولهذا رأيت أن أتابع المسألة في دائرة أوسع ، وهكذا مضيت في البحوث والتنقيب حتى استكملت الفكرة بأدلتها من الكتاب والسنّة وأقوال الأئمة ، فكان من هذا كتابي المعروف باسم « تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد » .

وإشارة الشيخ إلى بعض أسباب الخلاف العلمي بينه وبين والده ذكرتني بما سمعته من أحاديث بعضهم حول الموضوع وتوكيد هـذا البعض على ذلك الخلاف لإيهام السامعين بأنه من المآخذ الكبيرة على أبي عبد الرحمن ، لذلك رأيت أن أسأله المزيد من الإيضاح لهذه الناحية، فكان في أجوبته ما خلاصته: أن أكبر أسباب الخلاف مع أبيـه – فضلاً عن التعصب المذهبي – يعود إلى تشدد الوالد في الحفاظ على تقاليد لا سند لهـا من الدين ولا من المذهب ، وكمثل من ذلك يذكر أن عدداً من الخطـّاب تقدم بطلب ابنته فردهم لأسباب كثيرة، ولكنها متشابهة..ففلان أمرؤ صالح ولكن أخاه شرطي يعتمر القبعة. وفلان كذلك إلا أن له قريبـاً يقتني مذياعاً ... حتى إن أحد أصدقائه من مشايخ دمشق خطبها إليه فقـال له : « أنت عندي نعم الكفء لولا أنك على المذهب الشافعي » .

طرائف ومفارقات :

ومن طرائف هذه المفارقات ما كان يراه ذلك الوالد – رحمه الله – من أن كل حشو للضرس أو السن يمنع زوال الحدث الأكبر ، فمن حشا هذا أو ذاك لم يطهر من جنابة قط ، وبالتالي لا تصح له صَلاة .. وقد أخذ بذلك الرأي الكثيرون من مهاجري ألبانية الذين يأخذون عنه العلم . وحدث أن كبير بنيه قد حشا ضرساً له، وانتهى خبره إلى والده فسأله فاعترف له، فخيره بين أمرين إما أن يقلع ضرسه أو يفارق منزله .. فآثر الثانية.

وكان للشيخ ناصر موقفه من ذلك الاجتهاد فناقش بـه والده ، وقدم إليه البراهين الدامغة من النقل والعقل ، فلم يستطع لها رداً ، ولكنه لزم الصمت ولم يجب . ولعله قـد رجع عن اجتهاده هذا فيما رجع عنه من آرائه على يد ابنه المحدّث .

ويفند الشيخ تُهم خصومه في موضوع الخلاف بينه وبين والده ، ويؤكد رضاه عنه بمختلف الدلائل ، من ذلك أنه عهد إليه دون سائر أخوته بأمر هام لم يؤثره به إلا لثقته التامة بـه . ويقول الشيخ إن ذلك الأمر معروف عند أخوته وسائر قرابته .

مجهود جبار :

وركز الشيخ من بين الموجهين له على المرحوم السيد رشيد رضـا ، الذي يعتبره من أكبر الرجال أثراً في دفعه إلى دراسة الحديث الشريف .

يقول الشيخ إن لصلته العقلية بالسيد رشيد قصة ، ويلخصها لنا في ما يلي :

أول مـا ولعت بمطالعته من الكتب القصص العربيـة كالظاهر وعنترة والملك سيف ، ومـا إليها .. ثم القصص البوليسية المترجمة كأرسين لوبين وغيرها ، ثم وجدت نزوعاً إلى القراءات التاريخية . وذات يوم لاحظت بين الكتب المعروضة لدى أحد الباعة جزءاً من مجلة « المنار » فاشتريته ووقعت فيه على بحث بقلم السيد رشيد يصف فيـه كتاب « الإحياء » للغزالي ، ويشير إلى محاسنه ومآخذه . ولأول مرة أواجه مثل هذا النقد العلمي ، فاجتذبني ذلك إلى مطالعة الجزء كله ، ثم أمضي لأتابع موضوع الإحياء في الإحياء نفسه ، وفي الطبعة التي تحتوي على تخريج الحافظ العراقي ، ورأيتني أسعى لاستئجاره لأني لا أملك ثمنه . ومن ثم أقبلت على قراءة الكتاب ، فاستهواني ذلك التخريج الدقيق حتى صممت على نسخه أو تلخيصه ، وهكذا جهدت حتى استقامت لي طريقة صالحة تساعد على تثبيت تلك المعلومات . وأحسب أن هـذا المجهود

الذي بذلته في دراستي تلك هو الذي شجعني وحبب إليّ المضي في ذلك الطريق، إذ وجدتني أستعين بشتى المؤلفات اللغوية والبلاغية وغريب الحديث لتفهُّم النص إلى جانب تخريجه ».

وقد أطلعني الشيخ على عمله في ذلك النسخ والتلخيص ، فإذا أنا تلقاء أربعة أجزاء في ثلاثة مجلدات ، تبلغ صفحاتها ألفين واثنتي عشرة في نوعين مختلفين من الخط ، أحدهما عادي ، والثاني دقيق علق بـــه في الهوامش تفسيراً أو استدراكاً . ولعمر الحق إنه لجهود يعجز عنه أولو العزم من أهل العلم في هذه الأيام ، ناهيك بطلبة الجامعات ممن لا يملكون أي عزيمـة تسعفهم بالصبر على التحقيق والمتابعة ، فكيف إذا أضيف إلى ذلك أن الشيخ لم يكن آنئذ قـــد تجاوز العشرين من العمر !

ولا جرم أن هذا الجهد الجبار في تأليف تلك المجلدات ، مع الاستعانة بكل وسائل التحقيق المتيسرة للفتى أيامئذ ، كان ذا أثر كبير في تمرسه بهذا الضرب من العمل العلمي، فهو، وإن كان لا يستحوذ على رضاه بصورة تامة ، قد شق له الطريق إلى تقدم أعلى في هذا المضمار .

ومن خلال هذه الحياة ، وتلك النشأة ، وهاتيك الملابسات ، يتراءى لي أن ثمة عوامل خفية كانت دائبة على توجيه الفتى في ذلك الطريق ، لتجعل منه في النهاية واحداً من كبار خَدَمة السنّة المطهرة في ديار الشام .

نعمتان ومحسنان :

وحول هذه المؤشرات غير المنظورة يقول الشيخ : إن نعم الله عليّ كثيرة لا أحصي لها عداً ، ولعل من أهمها اثنتين : هجرة والدي إلى الشام ثم تعليمه إياي مهنته في إصلاح الساعات . أما الأولى فقد يسرت لي تعلم العربيـــة ، ولو ظللنا في ألبانية لما توقعت أن أتعلم منها حرفاً ، ولا سبيل إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إلا عن طريق العربية . وأما الثانية فقد قيضت لي فراغاً

من الوقت أملؤه بطلب العلم ، وأتاحت لي فرص التردد على المكتبة الظاهرية وغيرهـا ساعات من كل يوم . ولو أني لزمت صناعة النجارة - التي حاولت التدرب عليها أولاً - لالتهمت وقتي كله وبالتـالي لسدت بوجهي سبل العلم ، الذي لا بد لطالبه من التفرغ .

ثم يضيف الشيخ إلى ما يعتبره من التوفيقات الربانية ما تيسر له من الاتصال بالسيد سليم القصيباتي وابنه عزة ، وكان لهما إحدى أكبر مكتبات دمشق ، إذ كانا يمكنانه من كل كتاب يعوزه الاطلاع عليه ، فيسمحان له باستعارته لزمن غير محدود ودون أجر .. حتى يأتيهما طالب للكتاب فيبعثا إليه فيرده إليهما ، وبذلك فسح لهذا المنهوم الذي لا يشبع من العلم أن يجد تحت تصرفه أعداداً لا حصر لها من الأسفار التي هو في أمس الحاجة إليها .

طلائع المعركة :

ويحدثنا محدث الشام عن أهم الأحداث الـتي عرضت له منـذ اشتغاله في الدعوة إلى سبيل السلف ، فإذا هي صورة تكاد تكون مكرورة من الأحداث التي اعترضت مسيرة السابقين إلى هذا المسلك من أهل الحديث .

فهناك المشاكسات التي يلقاها من بعض المشايخ لغير ما سبب سوى إغراقهم في التعصب المذهبي. وهو أمر طبيعي إذ لا مندوحة من التصادم بين متعارضين، أحدهما يعتبر الدين التزاماً تاماً باجتهادات الفقهاء دون التفات إلى الدليل الذي أخذوا به ، ولا أثر التغيرات الزمنية في مدى المطابقة بين الدليل والاجتهاد . والآخر يرى الدين هو ذلك الوحي الذي يجب أن يحكم تصرفات الناس جميعاً ، فكل مرجع سواه معرّض للصواب والخطأ ، وليست المذاهب الفقهية سوى وسائل مخلصة لتحديد مقاصده ، وإيضاح ما قد يغمض منه على الكافة .

وتأتي مؤلفات الشيخ فتفسح السبيل لعنصر آخر ينضم إلى أسباب الشحناء، ربما لا نكون مغالين إذا شبهناه بالحسد .

والمؤسف أن يتطور هـذا التفاعل إلى حد الخصومة التي تخرج بالخلاف إلى حد الوقيعة .

وإلى القارىء بعض اللمحات التي تصور له مدى الخصومة بين الفريقين .

يقول الشيخ : كانت أولى هذه المشاكسات أن جماعة من المشايخ ، وبينهم من كان يتوقع منه نصرة السلفية ، قد نظموا عريضة يزعمون فيهـا أني أقوم بدعوة وهابية تشوش على المسلمين ، وجعلوا يجمعون لهـا توقيعات الناس ، ثم رفعوهـا إلى مفتي الشام ، فأحالها بدوره إلى مدير الشرطة ، الذي استدعاني وناقشني في الأمر ، ثم انتهى الموضوع إلى غير شيء .

وذات يوم سألني صديق من زملاء الدراسة عن حديث يتعلق بثواب الصيام فأوضحت له ضعفه ، وكان هذا قد سمعه من خطيب الجمعة يستشهد بـه على المنبر ، فلم يتمالك أن عاد إلى هذا الشيخ الخطيب ليذكر له ما عرفه من ضعف الحديث والمرجع المثبت لذلك . فما كان من هـذا إلا أن وقف خطبته التالية على الهجوم على طريقة السلف ، وراح يتهم أصحابها بالوهابية ويصفها بالضلال، ومضى يحذر الناس من مقاربتهم ، ويدعوهم للحفاظ على أبنائهم من دعاتها .

ولم يكن جموع المستمعين إلى تلك الخطبة على سواء في قبولها أو ردها ، فحدث بعض الهرج والمرج .. والشيخ ناصر بينهم يسمع ويرى ، ولا يجد مجالاً للكلام .

وهكذا واصل الشيخ الخطيب هجومه على الدعوة وأهلها في خطب متتالية ، حتى خيفت الفتنة ، وتدخل رجال الخفية في الأمر . وأقبل أحدهم على الشيخ ناصر يحاول منعه الصلاة في ذلك المسجد ، بأسلوب ظاهره النصيحة ، وباطنه الوعيد والتهديد .

وكان محالاً أن يقف الخلاف عند هذا الحد بعد بروزه في العرائض وعلى المنابر ، إذ راح الخصوم يمارسون كل الذرائع التي يخيل إليهم أنها موهنة من عزم الشيخ ، وأقل ذلك دعوة طلبة العلم إلى مقاطعته والحذر من مجالسته .

ويعقب الشيخ على هذه الأحداث بقوله : « لقد كان لهذا كله آثار عكسية لمـــا أرادوه ، إذ ضاعفت من تصميمي على العمل في خدمة الدعوة حتى يقضي الله بأمره .

في سبيل الدعوة :

ومن هذا المنطلق تبدأ مرحلة النشاط الدؤوب في عمل الشيخ ، وهـا أنذا ألخص أمليته عن ذلك فيما يلي :

يقول الشيخ : « لقــد بدأت الاتصال بالمعارف والأصدقاء وأصدقائهم ، وجعلت من الحانوت ندوة نجتمع بها ، ثم رأينا الانتقال إلى دار أحد الأنصار ، ثم إلى واحدة أخرى أكبر ، ومن ثم استأجرنا إحدى الدور لهذه الغـــاية ، وجعل الحضور يتكاثرون ، حتى ليضيق بهـم المكان . وبلغ النشاط مستوى عالياً في قراءة الحديث وشروحه وأسانيده . واستمر هذا دأبنا حتى أثمرت مساعي المعارضين لهذا الاتجاه فضيّق علينا ، ثم ألغيت الاجتماعات ، وانفض السامر . وها نحن أولاء حتى الآن لم نخلص من هـذه المضايقات ، نجتمع حين يكون ذلك ممكناً ، وإذا حيل بيننـا وبين الاجتماع انقطعنا إلى التأليف والتحقيق اللذين لا نستطيع الانقطاع عنهما » .

ويحدثنا الشيخ عن أهم ما واجهه من هذه المضايقات فيقول : « كان من آثار هـذا الإقبال الطيب الذي لقيته الدعوة أن رتبنا برنامجنا لزيارة بعض مناطق البلاد مـا بين حلب واللاذقية إلى دمشق . وعلى الرغم من قصر الأوقات التي خصصت لكل من المدن فقد صادفت هذه الرحلات نجاحاً ملموساً ، إذ جمعت العديد من الراغبين في علوم الحديث على ندوات شبه دورية . يقرأ فيهـا من كتب السنّة ، وتتوارد الأسئلة ، ويثور النقاش المفيد . إلا أن هـذا التجوال قد ضاعف من نقمة الآخرين ، فضاعفوا من سعاياتهم لدى المسئولين ، فإذا نحن تلقاء مشكلات يتصل بعضها برقاب بعض » .

ويذكر فضيلته بعض الأمثلة من هذه المشكلات، فمرة يدعوه وكيل وزارة الداخلية لشئون الأمن، ليبلغه طلب مفتي أدلب منع الشيخ من دخول ذلك البلد، وإبعاده إلى منطقة الحسكة، ومرة أخرى يتلقى دعوة من الشرطة بوجوب مواجهة سماحة مفتي دمشق، فلم يسعه سوى التوجه إليه، وإذا مكتب سماحته حافل بالمشايخ، الذين حشدوا لهذه الغاية. وأثير بعض النقاش، إلا أنه لم يستمر طويلاً إذ لم يكن من خطة القوم استمراره، واكتفى سماحته بأن وجه إلى الشيخ تهمة إثارة الفتنة، مستدلاً على ذلك بحادثة قريبة، خلاصتها أن فتى قد دخل أحد المساجد للصلاة فلاحظ أن عدداً من رواد المسجد لم يلتحقوا بالجماعة بل ظلوا منتظرين حتى جاءهم إمام من مذهبهم، فانتظموا خلفه في جماعة ثانية. فلم يتمالك الفتى أن أعرب عن استغرابه لهذه الظاهرة، وذكر أهلها مخالفتهم للهدي النبوي في هذه التفرقة، فما كان منهم إلا أن أهووا عليه بالضرب والركل داخل المسجد.

ومع أن الشيخ لم يكن قد سبق له معرفة بذلك الفتى، فقد أبى المشايخ إلا أن يحملوه تبعة عمله، لأنه بنظرهم هو المسبب لكل نشاط فقهي جديد في هذا البلد، ولا بد أنهم يعلمون أنه لا يقر تعدد الجماعات بسبب منافاة هذا التعدد لصريح السنّة وتطبيقات السلف.

وتحت التهديد اضطر الشيخ إلى توقيع تعهد بألا يقدم على الخطابة في الناس.. وكان ذلك تعهداً غير ذي موضوع بالنسبة إلى الشيخ، لأنه غير ذي صلة بالخطابة أصلا.

ويختم المترجِم عرضه المؤسف بهذا الخبر الغريب، وهو أن نقمة الخصوم قد تجاوزت حدود المضايقات إلى إباحة الدم، وذلك بما أذيع عن فضيلة رئيس رابطة العلماء من أنه أفتى بقتله!

وما أدري لماذا أغفل الشيخ خبر اعتقاله في القلعة التي سبقه إليها شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم.. فلعله نسيه أو ضيع ذكراه

خلال الأحداث الكثيرة التي لا يزال يواجهها في سبيل الدعوة ، أو لعله أغضى عن ذكرها لأنه يعدّها من التوفيقات الربانية ، إذ أتاحت له الاتصال بمن لولا ضرورات السجن لما فكروا يوماً بلقائه ، فضلاً عن الدخول معهم في حوار عدّل الكثير من أفكارهم عن الشيخ وعن السلفية .

حدة لو خفّت :

ومع أن السمة الأساسية في أخلاق العلماء هي الأناة وطول النفس مع المخالفين ، وفي الشيخ منها الكثير ولله الحمد ، إلا أن في طبيعته إلى ذلك لوناً من الشدة قـد تبلغ أحياناً حد العنف حتى مع محبيه فضلاً عن مخالفيه .. وما أدري لذلك من تعليل سوى شدة) الثقة بنفسه وبمـا توافر له من رؤية لما يعتقد أنه الحق . ومن هنا كانت جرأته في النقد لكل اجتهاد يخالف ما ثبت لديه حتى ولو كان ذلك الاجتهاد صادراً ممن لا يكتم أثرهم وفضلهم ..

في ص ٢٣٩ من كتابه « سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة » يعقب على كلام للإمام السيوطي قائلا : (والحديث أورده السيوطي في « اللآلي » شاهداً للذي قبله .. ولا يصلح لذلك من وجهين . الأول: أنه موضوع لما تقدم بيانه .. وهو سكت عليه فأساء ، وليته على الأقل نقل كلام البيهقي الذي سبق في تضعيفه . الثاني : أنه مخالف للمشهور له . ثم إن الحديث يعارض حديثاً صحيحاً سبق ذكره فدل ذلك على وضعه أيضاً » .

وفي ص ٢٤١ يناقش قولاً لشيخ الإسلام ابن تيمية في حديث يحكم بأنه من الموضوعات على الأعمش ، فيعقب الشيخ على ذلك الاستدراك : « وجملة القول أن الشطر الأول من الحديث ينجو من إطلاق القول بوضعه لهـذه المتابعة التي خفيت على ابن تيمية وأمثاله » .

وفى ص ٣٧٤ يورد كلاماً للإمام النووي في استحباب قراءة «لإيلاف قريش»

عند السفر لأن ذلك «أمان من كل سوء» أخذاً بقول الإمام أبي الحسن القزويني، فيستدرك الشيخ ناصر عليه بقوله : « قلت : وهـذا تشريع في الدين دون أي دليل إلا مجرد الدعوى ، فمن أين له أن ذلك أمان من كل سوء ؟ » .

وهكذا يعقب على كل قول لا يجد له سنداً صحيحاً ، ولو كان المنقول عنه من أكابر الأئمة .. وإنما يفعل ذلك انسياقاً مع منهجه العلمي الذي يرى أن كل تعبد لا يستند إلى دليل ثابت من الكتاب والسنة لا مردود له من الخير ولا أثر له سوى الإسهام في تبديل الشريعة وتغييرهـا من حيث لا يشعر الفاعلون له أو القائلون به .

وقد لاحظنا ظواهر شدته بارزة في بعض هذه الصيغ التي كان من الميسور أن يعدل عنها إلى ألين منها ، ولكنها – كما أسلفت – الثقة بالعلم تنسيه أصول المجاملة ، فيطلق رأيـه في أصرح التعابير . وقد وضع نصب عينيه الحق الذي يؤثره على كل شيء حتى نفسه ، إذ لا يستنكف أن يرجع إلى حكم كان قد ردّه في بعض تحقيقاته ، بعد أن عثر على الحقيقة القاطعة في بعض تنقيباته .

ولا أتردد في القول بأن لشدة شيخنا هذه آثارها السلبية في نفوس أولئك الذين يعالنونه الخصومة . ولعله ، لو عدّل أسلوبه في حوارهم ، كان أقرب إلى الاستجابة والسلامة . ولا غرو ، فما زالت الكلمة الطيبة ، مقرونة بالابتسامة الرضية ، أنجع أسلحة الدعاة في كسر شوكة المكابرين . أقول هذا وأنا لا أقل عن الشيخ نصيباً من تلك الحدة ، وسبحان من خلق الناس كما يشاء لما يشاء .

ولعلي لا أفارق أصل الموضوع إذا ما عرضت هنا إلى موقفي من (معارك) الشيخ.. تلك التي أطلقت ألسنة خصومه بالكثير من النقد منشوراً في المقالات أو معروضاً في مؤلفات ، أو منطوقاً في الاجتماعات . وقـد بسطنا القول في بعض هذا الجانب أثنـاء الحديث عن المشكلات التي أثيرت بوجهه في دمشق وبعض المدن الشامية الأخرى .. وطبيعي أن حركة ينهض بها ذو علم لإحياء السنّة والدعوة إليها لا بد أن تثير غضب المخالفين لها أياً ما كانوا ،

وهكذا انداحت مساحة المعارك هذه حتى تجاوزت سورية إلى مختلف الأقطار الإسلامية .. ويستحيل على متتبع هـذه الأحداث أن يكتم شعوره بإزائها ، فإما مقلد لا يرى السلامة في غير التزام المذهب ، ويعتبر كل محاولة للتحلحل خطراً يهدد الدين نفسه فهو مضطر لمقاومة أفكار الشيخ بكل ما أوتي من قدرة. وإما ذو اهتمام بالحديث النبوي ، يرى الكتاب والسنّة هما الأصل وليست المذاهب سوى طرائق اجتهادية لتقرير المراد فيه . وعلى هذا ، فالالتزام بنظره مقصور على هـذا الأصل دون غيره .. وعلاقته بالمذاهب لا تعدو الاستضاءة بجهد أيمتها للوصول إلى صميم الحق ، فمثل هذا الفريق لا غرابة إذا انحاز إلى جانب الشيخ في مقابل أولئك المخاصمين له .

وأنا هنا أعلن دون تردد أني بجانب الشيخ ، أنافح عن دعوته للرجوع إلى الكتاب والسنة وفهمها على منهج السلف ، ثقـة مني بأن في هذا المسلك (إحياء للتفكير الإسلامي الحر .. وإزالة للجمود الذي ران على عقول كثير من المسلمين وأبعدهم عن منهل الإسلام الصافي) ولكني لا أرى ضرورة لتبني أسلوبه العنيف في مجابهة المخالفين لطريقته ، التي تشبه إقدام طبيب على إجراء الجراحة الكبرى في علة يكفي بها قليل من الدواء أو الدلك .

قصة أبيات :

غير واحد من الإخوان سألني عـن موقفي من حملات بعضهم على أبي عبد الرحمن فأجبت :

قالوا : ألا كلمة في الشيخ تنصفه فقد طغى الجور حتى في الموازين
شنت عليه حروب لا يسوّغها عقل يرى الحق في ظل البراهين

فقلت : فوق ثنائي مـــا يبلّغه ... محدّث الشام عن خير النبيين
وردّه الجيل للوحي الجليل يد ... مـا إن يكابر فيهـا غير مفتون
وحسبه أنه هز العقول وقــد ... باتت من الحجر والتقليد في هُون

فأصبحت ذات وعي ليس يعجزه ... التمييزُ ما بينَ مفروض ومسنونِ
والدين سر من الرحمن بيّنـــه ... رســـوله ، وسواه محض تخمين
والجامدون حيارى ليس في يدهم ... إلا روايـــة مجروح لموهون
فما عسى أن يقول الشعر في رجل ... يدعوه حق عداه ناصر الدين !
وأي ضيرٍ إذا فردٌ تجاهلـه ... وقــد فشا فضله بين الملايين !

وقد توهم بعض هؤلاء الأخوة أني بهذه الأبيات أقتحم المعركة كمقاتل مستعد لمجابهة المخالفين بالعنف نفسه الذي تتميز به ردود أبي عبد الرحمن . ولذلك كان استغرابهم بالغاً عندما رأوني أتألم لقسوة التعابير التي أوردها في الكلام على أخ لنا عزيز ، خبرناه في ساحة المحن فوجدناه أهلاً لكل تقدير وتوقير . ومهما تبلغ أسباب الخلاف بينهما فما كان لها أن تؤدي إلى ما أدت إليه أخيراً ، لو التزم كلاهما مبدأ الدفع بالتي هي أحسن .

وأعود الآن لأؤكد في إصرار مضمون الأبيات في تقرير فضل شيخنا على الجيل ، وإخلاصه لدين الله — مهما تقلبت الأمور — فوق الشبهات .

أمثلة ذات دلالات :

قلت إن شدة الشيخ تسير مع منهجه في إنكار كل ما لا يتفق مع الصحيح من الأثر ، ويدخل في ذلك موقفه مع نفسه في مثل هذه الحال .

يقول في كتابه «صفة صلاة النبي ﷺ» : وهو يحاور العلامة ... التويجري في بعض تعقيباته على الكتاب : « وأرى من تمام الشكر – للشيخ التويجري – أن أعترف بإصابته الحق فيها ، وأني رجعت إلى رأيه في :

١ – تفسير المأثم والمغرم .

٢ – قوله في الصلاة إنها أعظم ركن من أركان الإسلام .

٣ – تفسير جملة « والشر ليس إليك » . (وقد) صححت ما جاء في نقلي عن « البدائع » [١] .

وفي الكتاب نفسه أيضاً – ص ١٧ – يقول: « تبين لي أن الحديث ضعيف، وكنت اتبعت المناوي في تصحيح الإسناد ، ثم تيسر لي الوقوف عليه » .

وفي مقدمته « على الطحاوية » – ص ٢٩ ط ٤ – يقول : « تبين لي أنني وهمت في توهيم المؤلف » . وذكر الحديث الذي سبق أن ضعّفه ثم عاد عن تضعيفه بعد مراجعة الترمذي .

وفي هذا الكتاب يقول – ص ٥٧٨ رقم٢ – عن بعض الأحاديث التي سبق أن قدّر صحتها : « وأقول الآن : كلا . ولا أدري كيف وقع هذا ، فالسند ضعيف كما هو مبين في تخريج المشكاة » .

ثم يقول – ص ٦٠٠ رقم ٣ – : « هذا ما كنت قلته منذ عشر سنين ثم يسر الله لي جمع كثير من طرقه ، فتبين أنه – الحديث موضوع التحقيق – صحيح بمجموعها » .

وهناك استدراكات عدة على نفسه من هذا الضرب ، وكلها ذات دلالات تؤكد إنصاف الشيخ لكل ذي حجة وأن الحق أحب إليه من نفسه .

---

(١) انظر الكتاب ص ٧ ط ٦ .

حوار وتعقيب :

وبين يدي ، وأنا أسطر هـــذه الكلمات ، مسجل حوار دار بين الشيخ وبعض شباب الدعوة في دار الحديث بالمدينة ، أيام المؤتمر الذي دعت إليه الجامعة الإسلامية للبحث في شئون الدعوة والدعاة ٢٤-١٣٩٧/٢/٢٩ هـ. وفي هذا المسجل يثير أحد طلابنا النبهاء الفضلاء مسألتين يريد من الشيخ جوابـه عليهما : الأولى انصراف بعض المنتسبين إليه إلى بعض الشئون الجانبية بتضخيمها واعتبارها من كبريات المشكلات بين المسلمين ، مـع تجاهله أو جهله الأخطار الهائلة التي تهدد الإسلام نفسه . أمـــا الثانية فموقف الشيخ من أولئك الرجال الذين تعرضوا لنقد أحد الدساتير التي يراد بها تفكيك بنيـة المجتمع الإسلامي وإقامته من جديد على غير أساس الإسلام ، فأخذوا بالسجن والعذاب الأليم ، وانتهت حياة بعضهم في غياهب السجون .

أما جوابه على النقطة الأولى فلا يخرج عن رأيه المعروف بأن الإسلام كل لا يتجزأ ، فلا يسير فيه ولا كبير ، بل كل آدابه وعزائمه من حيث وجوب الالتزام سواء . وإنما جاءت العقدة من الموضوع الثاني ، إذ قطع الشيخ -حفظه الله- بان أولئك المعارضين لذلك الدستور لم يسجنوا ولم يمتحنوا في سبيل التوحيد. وكل دعوة إلى إسلامية الدستور في ظل الفساد القائم لا يعدو كونه لفظاً للزينة ، ولهذا لم يعر فضيلته الموضوع أي اهتمام ، لأنـه لا يرى من الحكمة معالجة الأمور الشكلية ، بل الواجب هو العمل للأهم فالأهم ، والأهم هنـا هو إصلاح عقائد المسلمين وتركيز الدعوة على أساس (التصفية) من البدع و (التربية) على التوحيد .

ولكي يؤكد الشيخ مذهبه في ذلك يقول : إن المسلمين متفقون على ضرورة إقامة الدولة الإسلامية بيد أنهم مختلفون على الطريقة التي تحقق هذه الغـاية ، وعنده أن التزامهم التوحيد هو الذي يزيل أسباب الخلاف فيمضون إلى هدفهم صفاً واحداً .

ثم يأخذ في نقـد الواقع الديني في سورية ، ليرينا أن تقويم اعوجاجه أهم المهمات في المرحلة الراهنة . وإلا فستظل كل دعوة لإقامة الدولة الإسلامية عملاً سياسياً لا ينهض على أساس صحيح .

تلك خلاصة مبسطة لمقررات الشيخ في تلك الأمسية ، حاولنا أن نستوعب بها أهم أفكاره ، وسنحاول الان أن نعقب عليها ببعض الملاحظات التي نرجو أن تساعد على جلاء الموضوع ، الذي كثر متناولوه والمدندنون حوله في هـذه الأيام ، ولزيادة الإيضاح نتناول أفكار شيخنا الفاضل فقرة فقرة .

١ – يريد فضيلته أن يقتصر عمل الدعاة على تصحيح العقيدة في التوحيد بردها إلى أصولها في الكتاب والسنة. لأن ذلك وحده السبيل الموصلة إلى تحقيق الدولة الإسلامية . ونحن نتساءل : الخلاف الذي شق الصدر الأول من المسلمين إلى فئتين متناحرتين في صِفـّين والجمل وكربلاء ... أكان صادراً عن خلاف في فهم التوحيد ومن أجل تصفيته من البدع ، أم كان خلافـاً اجتهادياً حول الحكم والأصلح لمصلحة الأمة ؟

ولا ننتظر جواباً على هذا التساؤل ، لأن أحداً لا يتهم عليـاً او معاوية ومن معهما من الرعيل الأول بالاضطراب في هذا الجانب ، وسيؤكد معنا أن الخلاف الطاحن ، الذي ذهب بعشرات الألوف من أمة محمد ﷺ أيامئذ لا يعدو حدود الرغبة في الحفاظ على نظام الحكم الإسلامي الأصيل .. الذي دعا صفوة الصحابة من قبل إلى تقديم إقامته على مواراة جثمان نبيهم الأعظم .

٢ – لقد جعل الله تبارك اسمه هجرة المسلمين إلى المدينة – في حينها – فرض عين على كل قادر منهم « والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم

من شيء حتى يهجروا .. ٨-٧٢ » فهل ثمة من تفسير لهذه العزيمة غير ضرورة التجمع لتحقيق الدولة ، التي ستتولى تنظيم المجتمع الجديد ، وإطلاق الطاقات الربانية لحمل دعوة الله إلى عباد الله حيث كانوا .. وإلا فأي مستقبل كان ينتظر دين الله ، لو ظل رسول الله وصحابته في مكة يتلقون سيول البلاء تحت سلطان الكفر ، الذي يأبى أن يهادنهم لحظة حتى يردهم عن دينهم إن استطاع .

والحركة الوهابية نفسها .. من كان يضمن بقاءها واستمرار مدها إلى اليوم وحتى قيام الساعة بمشيئة الله، لو لم يعطف عليها سبحانه قلوب الإمام محمد بن سعود وقومــه ، فيحوطوها بتأييدهم ، ويبذلوا لنصرتها أنفسهم وأموالهم .. حتى تستوي على سوقها دولة للتوحيد تقدم بما حققته من الأمن والعدالة ، النموذج الصالح لإمكانات الإسلام وقدرته غير المحدودة على إسعاد الإنسانية ، وإعطائها الحلول الحاسمة لمشكلاتها المستعصية .. ولا عجب فــإن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

٣ - ولنقف قليلاً مع قول أبي عبد الرحمن للطالب « أنه هو الذي سجن في سبيل التوحيد » . فنسأل أنفسنا : أحقاً كان اعتقاله في كلتا المرتين من أجل التوحيد ؟

والحق أن ثمــة دافعين .. أما أولهما فظاهر في أن الشيوخ الذين شكوه ، وأثاروا عليه المسئولين وأشباه العامة، لا يختلفون معه في الحق الذي يدعو إليه، ولا يحاولون رد أدلته على صحة مذهبه، ولكنهم يخشون انصراف الناس عنهم، فهم يحاربون كل دعوة إلى الإسلام المصفى حفاظاً على (زعامتهم) التي ليس لهـا من دوام إلا بتملق أوهام العوام . ولو أرادوا وجه الله حقاً لمــا استعانوا بالجاهليين على أهله ، بل لسلكوا معهم سبيل الحوار الذي يؤدي لا محالة إلى غلبة الوحي على الأهواء عندما يكون الإخلاص للحق هو رائد الجميع .

أمــا ثاني السببين فعائد إلى خوف أصحاب السلطان من الإسلام نفسه ،

إذ هم واثقون أن كل كلام في الإسلام الصحيح هو تشهير بحكمهم وتسفيه لأحلامهم .. وقد جربوا أن يستكشفوا سريرة الشيخ في هذا المضمار عندما سألوه رأيه في النظام القائم فأعلن خصومته له بسبب مخالفته لحكم الله . فكان جوابهم على ذلك استبقاءه في المعتقل بعد أن كانوا على وشك الإفراج عنه .

ليته يعيد النظر :

في محاضرة للمفكر الإسلامي الدكتور جعفر شيخ إدريس بعنوان « في منهج العمل الإسلامي » يقول : « إن صحة العقيدة شرط في صحة الإسلام وصحة العمل الإسلامي . هذه قاعدة صحيحة . لكن ناساً من المسلمين غالوا في تفسير هذه القاعدة وأخطؤوا في تطبيقها ، ودعوا إلى هجر كل شيء حتى يفرغوا من تأسيس العقيدة . هذا موقف قليل العلم والفقه .. وهو كذلك موقف سلبي بمقياس العمل والجهاد .. » .

ثم يبين المحاضر محاذير هذا الأسلوب قائلاً : « فمن الأخطاء التي تبنى على هذا الموقف أننا يجب أن نكف عن الكلام في نظام الإسلام السياسي والاقتصادي ، وفي إصلاح مشاكل المجتمع ، ويلزم القائلين بهذا الفهم الخاطىء أننا أيضاً يجب أن ندع الحديث في الصلاة والزكاة والصوم والحج والزواج والطلاق .. لأن كل ذلك ليس من شئون العقيدة »[1] .

ولعلي لا أعدو الواقع إذا قلت إن المحاضر لا يريد بهذا الكلام سوى بعض أنصار أبي عبد الرحمن ، الذين وقفوا جهودهم على مباعدة القدمين ، وجمع اليدين تحت الذقن في الصلاة ، ومهاجمة كل من لا يفعل ذلك بالنقد المنفّر ، دون أن يعرجوا بكلمة على رزايا الإسلام والمسلمين في العالمين !

ولقد جاءني قبل أيام أخ لنا من محبي الشيخ يذكر في أسف أن الشيخ

---

(١) مجلة « المجتمع » .

في بعض مساجد المغرب قد قصر دروسه على نقد مذهب القوم في إسبال اليدين ، دون أن يتعرض ببنت شفة لأي من التيارات الهدامة التي تعلن الحرب على الإسلام كله في المغرب ، وذلك أثناء بعثته للدعوة صيف ١٣٩٥هـ .. كأن نصرة الدين وإحياء السنّة موقوفان على رد المغاربة إلى القبض أو الوضع بدل الإسبال !

وأخيراً .. ليت شيخنا الفاضل يعيد النظر في أسلوبه، ليكون أقوم بحاجة الدعوة ، وأقدر على اجتذاب القلوب، وأكثر إنصافاً لأولئك الفتية المجاهدين .

من التوحيد الخالص :

بقيت لنا كليمة حول مفهوم التوحيد بالنسبة لأسلوب الشيخ أبي عبدالرحمن، ولإشارات الدكتور المحاضر ، فمن المعلوم بداهة أن توحيد الخالق جل وعلا يقتضي الإيمان بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، على الوجه الذي أخبر به وثبت عن رسوله ﷺ في الكتاب الحكيم والسنة المطهرة ، مع اليقين التام بوجوب الالتزام لكل ما أمرا ونهيا . ومن صفاته سبحانه أنه الحكم والحاكم ، ومن مقتضيات ذلك الإقرار بأنه المتفرد بحق التشريع لمصلحة عباده ، فليس لأحد منهم أي حق في إصدار أي تشريع يخالف القواعد المحكمة في الوحيين .

هذه حقيقة لا أتصور قيام أي خلاف حولها ، وبموجبها تكون الدعوة إلى التوحيد شاملة لكل ما يتعلق بحقوقه تبارك وتعالى . فبكونه الحاكم والحكم وجب ربط الأفكار بتشريعه على اعتبار أنه النظام الأمثل الذي لا يقبل سواه، ولا استقرار إلا به ، كما يجب التركيز اليقيني على قصر كل عبادة به وحده ، بوصفه المالك لكل شيء وبيده وحده النفع والضر والحياة والموت .

وينسحب هذا الحكم على سائر أنواع الأوامر والنواهي « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً ٣٣/٦٣ » .

وإذن فلا مجال لإغفال الكلام المبين عن أي من هذه الجوانب ، لأنها كلها من مقتضيات التوحيد الخالص، ولا مسوغ البتة للفصل بينها وبين أصول العقيدة لأنها داخلة في مضمونها.. فإذا حالت ظروف بعض الدعاة دون التعرض لموضوع السياسة الشرعية فلا حق لهم بالإنكار على الموضحين لهذا الجانب من الدعاة الآخرين ، إذا وجدوا في أنفسهم القدرة على تحمل المسئولية بشأنه ، فضلاً عن أن يوجهوا إليهم التجريح لمجرد كونهم لا يحصرون عملهم في نطاق ما وقفوا عنده بحكم ظروفهم الخاصة . ذلك لأن التركيز على ضرورة الحكم الإسلامي منبثق من الإيمان بتوحيد الحاكمية التي هي حق الله وحده في عباده ، كحقه في توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات .

تأليف وتحقيق :

وعن الاستطلاع العاشر يجيب أبو عبد الرحمن بأن عمله في التصنيف يشمل العشرات من الكتب ما بين تأليف وتحقيق ، وما يتصل بذلك من فقه للحديث وتخريج له ، وتمييز لرتبته من الصحة والسقم . وكنماذج من جهوده في هذا المضمار نورد في ما يلي عنوانات بعض هذه الأسفار :

١ – سلسلة الأحاديث الصحيحة. ٢ – سلسلة الأحاديث الضعيفة . ٣ – صفة صلاة النبي ﷺ. ٤ – تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد . ٥ – حجة النبي ﷺ. ٦ – حجاب المرأة المسلمة. ٧ – نصب المجانيق في قصة الغرانيق. ٨ – منزلة السنة في الإسلام. ٩ – وجوب الأخذ بأحاديث الآحاد في العقيدة. ١٠ – فهرس المخطوطات بالمكتبة الظاهرية .

من المعد للطبع :

١ – الثمر المستطاب في فقه السنة والكتاب. ٢ – مختصر صحيح البخاري. ٣ – قاموس البدع. ٤ – حجة الوداع. ٥ – مختصر العلو للذهبي . ٦ – الرد على ابن حزم في حديث المعازف. ٧ – الروض النضير في ترتيب معجم الطبراني الصغير .

بعض المطبوع من تحقيقاته :

١ - تحقيق الجامع الصغير وزياداته - صحيح الجامع - (ستة مجلدات) .
٢- ضعيف الجامع الصغير (أربعة مجلدات). ٣- مشكاة المصابيح (ثلاثة مجلدات).
٤ - شرح الطحاوية في العقيدة. ٥ - مختصر كتاب الإيمان لابن تيمية .
٧ - مختصر صحيح مسلم للمنذري . ٨ - كتاب العلم لأبي خيثمة .
٩ - اقتضاء العلم العمل للخطيب. ١٠ - رسالة في الصيام لابن تيمية .
١١ - المسح على الجوربين للقاسمي. ١٢ - صحيح ابن خزيمة - مع الأعظمي -
(ثلاثة مجلدات) .

بعض مخطوطات حققها :

١ - التعليقات الجياد على «زاد المعاد». ٢ - تخريج أحاديث سنن أبي داود.
٣ - الترغيب والترهيب للمنذري. ٤ - الحج المبرور (لعلوشي) .
٥ - الأحكام لعبد الحق الإشبيلي. ٦ - السنّة لابن أبي عاصم .
٧ - ضعيف أبي داود .

أحب هذه المصنفات إليه :

ويرى الشيخ أحب هذه الأعمال العلمية إليه هو مختصره لصحيح البخاري ، ويعود ذلك إلى ما ينطوي عليه من كبار الفوائد وروائع الخصائص .

وقد تفضل الشيخ علينا ببيان مفصل عن هذه المميزات ووددنا لو اتسع المجال لإثباته جميعاً ، ولكن ما نحن بصدده لا يتصل بهذا الضرب من التفصيل ، وحسبنا أن نجتزىء من تعريف ذلك العمل بأنه جهد جليل يسهل لأهل العلم ، وبخاصة المعنيين منهم بصحيح البخاري ، الانتفاع بكنوزه المختلفة ، ذلك لأن اختصاره لم يقم على حذف شيء من كتبه ولا من أبوابه ، إلا حين يكون الباب بمثابة كلمة (فصل) خالياً من أي مضمون . ففي هذه الحال يحذفه مبقياً

على رقمه في ذهن القارىء ، إذ ينتقل من رقم ما قبله إلى رقم مـا بعده دون تغيير في صورة الأرقام ، ممـــا يساعده على استخراج الحديث المطلوب وفق الفهارس المنظمة على هذا الأساس . هذا إلى عناية دقيقة بأنواع الأحاديث من موصولة ومعلقة وموقوفة ، مع إعطاء كل منها رقمـاً مميزاً بالحجم واللون ، وما إلى ذلك من شروح للغريب وإيضاح لبعض الجمل الغامضة .

ولعل أهم ما يلفت النظر في عمل الشيخ هنا هو مـا يشير إليه بقوله : « قد يكون في بعض الأحاديث الموصولة جمل توهم القارىء العادي أنها في الصحة كأصل الحديث ، وليست كذلك في الواقع ، لأن لها علة لا ينتبه إليها إلا أهل العلم ، والمصنف نفسه لا يعني صحتها » .

ويمثل الشيخ لهذا النوع بحديث عائشة (رض) عن بدء الوحي الذي جاء فيه « أن النبي ﷺ لمـــا فتر عنه الوحي كان يصعد إلى الجبل ويهم أن يتردى منه » .

يقول أبو عبـد الرحمن : « فهذا مرسل ليس من حديث عائشة .. » وهو لا يكتم توقعاته حول مثل هذا الكلام فيقول : « أعلم أنه قد يفتح عليّ نقداً جديداً .. ولكن وجوب بيان العلم وحرمة كتمانه يحملانني على ألا أبالي الناس رضوا أم سخطوا » .

حلم ينتظر التحقيق :

وهنا تعرض لي فكرة ذات صلة وثقى بهـذا النوع من الخدمة العالمية لصحيح البخاري ، كم أتمنى لو يقيض الله من ينهض لتحقيقها من أهل العلم .

لقد أحاط أئمة الحديث ذلك الصحيح بألوان من الشروح أمدت الفكر الإسلامي بروافد ثرة من المعرفة ، إلا أنها لا تزال تنتظر العزائم التي تحسن تصنيفها وفق الموضوعات والأغراض ، فتجمع بين كل تحفة وأختها في تنظيم مفهرس يقرب لطالب العلم أبعاد تلك الدقائق الفوائق . ولا جرم أن العبء

من الضخامة بحيث تنوء به العصبة أولو القوة ، فحبذا لو اجتمع لهذه المهمة أعلام يمثلون كبريات المؤسسات العلمية كالأزهر ، والجامعة الإسلامية بالمدينة ، وجامعة القرويين بالمغرب ، ومجامع البحوث في الرياض والقاهرة وغيرهما ، إذن لحققوا عملاً عظيماً لا يطيقه إلا الصُبَّر الغُيَّر الواقفون أعمارهم على خدمة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

إنه الحلم .. ولكنه غير مستحيل التحقيق .

تصفية وتربية :

وفي الإجابة على الفقرة الثانية عشرة يملي علينا فضيلته ما يلي :

من الناحية الفكرية والعلمية أرى حالة المسلمين اليوم خيراً منها قبل ٣٠-٤٠ سنة ، فلقد كنا قبل ربع قرن نشكو قصور المسلمين في العلوم العصرية ، وطالما تكلم المصلحون في ذلك .. ثم جاءت نتيجة هذا التحرك بإقبال الجيل على هذه العلوم مع الإعراض شبه التام عن الجانب الآخر ، وأعني به العلوم الإسلامية . وفي ذلك ما فيه من الخطر على مصير هذا الجيل .

ويرى الشيخ أن هذا ينطبق على مجموع الوطن الإسلامي دون تفريق . ثم هناك ناحية ثانية هي المستوى الخلقي الذي صار إليه الجيل الإسلامي على اختلاف أحواله وأجناسه . . فثمة تدن في الخلق ينذر بشر مستطير ، وبخاصة من ناحية الانغماس في حمأة المادة والتكالب على الدنيا، مما أنذر به رسول الله ﷺ أمته في أحاديث كثيرة كحديث البخاري في الصحيح: « ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تفتح عليكم الدنيا .. » وكقوله ﷺ : « إن لكل أمة فتنة وإن فتنة أمتي المال » .

يقول الشيخ :

« أما علاج هذا الوضع فاعتقد أنه يتوقف على أمرين: (التصفية والتربية) وأعني بالتصفية تنقية الإسلام من كل دخيل وشائب ، والسبيل إلى ذلك أولاً

تصفية السنّة مما داخلها من موضوع وضعيف ، ثم تفسير القرآن على ضوء هذه السنة الصحيحة ، ومـا كان عليه السلف الصالح من تصورات ومفهومات . وهذا الأخير لا يمكن التحقيق عنه إلا بدراسة علوم الحديث والجرح والتعديل. وأنا لا أعني بذلك أن نقف بالتفسير عند الحدود التي انتهى إليها السلف ، بل علينا أن نلتزم منهج السلف في التفسير ، وفي التزامه توحيد للاتجاه ومنع للتفرقة.. وتتناول التصفية التي أريدها مـا وصل إلينا من العلوم الإسلامية والأفكار الإسلامية فنستبعد منها كل مـا يخالف المنهج السليم ، كذلك تتناول التصفية الفكر الإسلامي من الشوائب الدخيلة ، التي تتسلل إلى أفكار المسلمين المعاصرين عن طريق الدراسات الغربية ، وبصورة خاصة الفلسفة وعلوم التربية والفنون مما يتسع فيه المجال لدس كثير من السموم المفسدة للفكر الإسلامي .

ويقول الشيخ في التربية: « وأريد بالتربية تنشئة الجيل على العقيدة الإسلامية الصحيحة المستمدة من الكتاب والسنة ، وأخص بالذكر تربيـة الصغار على العبادة.. دون الإكثار من الكلام على فائدة العبادة من الناحية المادية كما يفعل البعض ، وإذا كان لا بد من ذكر الفوائد المادية فهي آخر مـا ينبغي ذكره . ولا أنسى هنا تدريس التشريـع الإسلامي ، فالذي أراه أن يكون تدريس هذه المادة على أساس التسليم التام لأمر الله والثقة بحكمته ، دون الاهتمام الكثير ببيان فوائده المادية .. وفي ذلك تزويد لنفس الطالب بالمناعة من كل دس وتسميم . وأذكـر في هذه المناسبة بصلح الحديبية وأهمية التسليم لحكم الله ورسوله .

نبدأ بأنفسنا :

وحول مضمون الفقرة الأخيرة من الاستطلاع يرى الشيخ أن حال المسلمين تتفاوت حسب وضعهم وأنظمتهم ، فعلى كل فئة من العلماء أن تستفيد من إمكانات مجتمعهـا إلى أقصى الحدود لإرشاد الجيل وتوجيهه وضبط مسيرته ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها . إلا أن الشرط الأساسي لتحقيق المجتمع الصالح

هو أن يتفق العاملون له على الأسس الصحيحة التي سبق بيانها ، مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ، ثم يعمل كل في نطاق بيئته وإمكاناته في هذه السبيل ، حتى يتاح لهم التجمع في بيئة تمكنهم من العمل الحر لإتمام هذه الغاية ، مع العلم أن أول واجبات هؤلاء تطبيق هذا المنهج في أنفسهم ومن تحت يدهم ممن يؤثرون فيهم . وإلى هذا يشير الداعي الذي يقول : « أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم تقم في أرضكم » . وقديماً قيل : « فاقد الشيء لا يعطيه ».

نظرة تحليلية :

والحق أن في آراء الشيخ بشأن الجيل الإسلامي لنظرات عملية لا تتجاوز إمكانات العاملين ، وتتسع لمختلف الجهود المخلصة مهما تبلغ من الضآلة أو الضخامة .

وأحب أن أضيف إلى هذه الملاحظات الواعية إشارة إلى حقيقة ليست عن هذه الملاحظات ببعيدة ، ولكنها تتطلب إبرازاً أكبر مما اعتاد المفكرون الإسلاميون أن يعمدوا إليه عند الكلام عنها ، إنها واقعية الجيل الذي نعالج موضوعه ، ذلك الجيل الذي أسمح لنفسي بأن أطلق عليه اسم (الرافض) وهي صفته الملموسة في حياته كافة .

إنه يحمل هوية المسلمين ، ومنه يتألف سواد المسلمين عند الإحصاء ، ولكنه غير مستعد أن يقبل تحكيم الإسلام في أي من تصرفاته ، خارج حدود العبادات المكتوبة – هذا إذا أخذ بهذه العبادات أو بعضها – .

وأنا لا أعني بهذه الخاصة صنفاً دون صنف ، أو طبقة دون أخرى من هذا الجيل ، بل أعني الجيل كله دون استثناء إلا من رحم الله .. وقليل ما هم .

وعّاظ يحدثونك عن الإسلام وهم يبكون أو يكادون ، فإذا تتبعت أحوالهم لم تجد فيها من الإسلام إلا قليلاً ، ولا سيما في بيوتهم التي يعشش فيها الشيطان ويفرخ ، وفي أبنائهم الذين لا يكادون يمتون إلى الإسلام بأي سبب .

وكتاب يروغونك بتهاويل ما يسطرونه عن الإسلام ، فإذا نظرت إلى سلوكهم وجدتهم أبعد الناس عن تلك المعاني .

وحكام يشيدون بالإسلام في كل مناسبة لهم فيها مصلحة ، ويسهمون في كل مؤتمر يحمل اسم الإسلام ، فإذا تطلعت إلى أساليبهم في الحكم لم تكد ترى من أثر للإسلام ، اللهم إلا جهادهم للقضاء على كل معالمه في حياة شعوبهم .

أجل .. إنه الجيل الرافض لنظام الإسلام .. وكل محاولة لتصحيح مسيرته لا نصيب لها من النجاح إلا أن تنطلق من صميم هذا الواقع . وقد أحسن الشيخ ، أحسن الله إليه ، حين جعل أول واجبات العاملين تطبيق ما يدعون إليه في أنفسهم ومن تحت أيديهم، وذلك هو المنطلق السليم لكل عمل يستهدف تصحيح هذا الواقع الأليم . أما ما يتصل بتجمع الملتزمين لكامل الإسلام في بيئة تمكنهم من العمل الحر لاستكمال رسالتهم، ففي تعقيباتنا لتصريحات فضيلته في « دار الحديث » ما يغني عن الإعادة هنا . والله المستعان .



تذييل

لم يكد هذا الكتاب يصدر ويطلع شيخنا أبو عبد الرحمن على ترجمته فيه حتى أخذته لفحة من الغضب المعهود ، فإذا هو يطلق العنان لقلمه فلا يقفه حتى ينتهي إلى ثلاث عشرة صفحة ، حملها إلي البريد فاتاح لي أن استمتع بلحظات لقاء ما كان أطيبها لولا هذه الحرارة التي كنت أحسها في أنفاسه .. وما كان أنفعها لو أملاها عقل الشيخ في معزل عن العاطفة ، التي جعلت الرسالة أقرب إلى العتاب العنيف منها إلى النقاش العلمي الهادىء .. بل لا أظلم الرسالة إذا قلت أنها خلت من النقاش العلمي البتة ، لتحاسبني على نقاط يرى أنها شخصية خاصة ، وأرى أنها ذات صلة وثيقة بإبراز ملامح المترجَم على النحو الذي يساعد على تفسير العلاقة بين الذات والفكرة .. وتحقيقاً لرغبة الشيخ أسرعت بكتابة الجواب ، الذي شاء الله أن يستغرق مثل عدد صفحات رسالته .. وتركت له أن يختار بين إنهاء الحساب وبين أن ننشر كلتا الرسالتين ليحكم أولو العلم بيني وبينه .. وقد صنع خيراً عندما آثر الصمت فلم يجب بلا أو نعم حتى الآن .

زوبعة جديدة :

وقبل تقديم الكتاب للطبعة الثانية رأينا فضيلة الشيخ يثير زوبعة جديدة في وجه الجماعة الإسلامية ، التي عرضنا لبعض مواقفه منها ، في حوار كنا نريد أن يكون ذريعة لإصلاح ذات البين بينهما ، وقد بلغت هذه العاصفة أشدها في حكمه على بعض أقوال الشهيد سيد قطب بالكفر الصراح ، وذلك من خلال أحاديث أرسلها على صفحات مجلة المجتمع ذات المكانة المحترمة في الإعلام الإسلامي .. فرأيت أن في ذلك الحكم التكفيري ضرباً من التسرع الذي اعتدناه من شيخنا الفاضل ، من شأنه أن يثير مشكلة جديدة ليست من

مصلحة الشيخ ولا الجماعة ، وبخاصة في هذه الأيام التي يعاني منها دعاة الإسلام من عسف السلطان ما يستدعي التعاون بين العاملين للاسلام ، بدل استحداث التهم التي لم تستوف حيثياتها الصحيحة ، بل تدل على غفلة من أهلها لأنهم لم يدققوا الفكر الواعي في العبارات التي ينسبون إليها الكفر . ولو صدرت مثل هذه القوارع من غير الشيخ لما وجدنا لها تعقيباً أنسب من قول ذلك الشاعر المظلوم الذي يشكو عدوان قرابته عليه :

أن يعلموا ريبة طاروا بها فرحاً   عني ، وما علموا من صالح دفنوا

لكنها من الشيخ كبيرة تستحق المراجعة لأن قوله ذو تأثير بعيد في جماعته التي تكاد لا ترد له قولاً ...

تهم خطيرة :

المآخذ التي يثير الشيخ غبارها حول شهيد الإسلام سيد قطب تنحصر في بعض عباراته الواردة في تفسيره لسورتي الحديد والإخلاص من كتابه (في ظلال القرآن) فهو يريد أن يلخص كلام الشهيد فيقول : (فأحد الجالسين قرأ ...) ولكنه لا يأتينا بما قرأ بل يشرع لفوره بالتعقيب على المقروء قائلاً : (ظاهر كلامه تماماً أنه لا وجود إلا وجود الحق .. وهذا عين القائلين بوحدة الوجود ..) ثم يضيف موضحاً ما يريده بذلك التعقيب قائلاً على لسان الشهيد : (كل ما تراه بعينك فهو الله ، وهذه المخلوقات التي يسميها أهل الظاهر مخلوقات ليست شيئاً غير الله ...)[1] ثم يمضي في توكيد فهمه لهذا الكلام فيعرض بعض الشطحات من أقوال سفهاء المتصوفة الذين اشتبهت عليهم الحقائق فلم يفرقوا بين المخلوق والخالق ، مدعياً أن الجامع بين كلام الشهيد وأولئك الضلال واحد هو القول بوحدة الوجود !..

وأول ما نلاحظه على حديث الشيخ حفظه الله في أعداد المجتمع هو فقدان

---

(١) المجتمع ص ٢٣ عدد ٥٢٠

التركيز الذي عرفناه في مؤلفاته وسائر نتاجه ، فبينا نرى وضوح العبارة هناك نجد أنفسنا هنا تلقاء كلام مشوش التركيب مضطرب العبارة ، يفقد بعض العناصر التي لا بد منها لإيصال الفائدة .. ومرد ذلك حتماً إلى أن الشيخ يتكلم في هذا الحديث مرتجلاً غير محتفل بترتيب ولا إيضاح ، اعتماداً منه على إحاطة سامعيه بجو الموضوع ، فهم يفهمون مراده عن طريق اللهجة والإشارة والكلام جميعاً ، بخلاف قارئيه الذين لا جامع بينهم وبين حديثه إلا الكلمات المكتوبة ، فإذا قصرت عن المراد تشوشت أفكاره وساء فهمها ...

نقل لا يقره العقل :

ويلاحظ القاريء في هذه التعابير المعروضة من الحديث فجوات تحول دون الوضوح المطلوب . فمن الناحية اللغوية قوله (هذا عين القائلين) وكان عليه أن يقول (هذا عين قول القائلين) أو (هذا عين القول ..) ثم ننظر في الجوانب الأخرى :

فهو أولاً لا ينقل للقاريء عبارة الشهيد التي يعتبرها موضوع المؤاخذة بل اكتفى بتقرير ما في نفسه من رأي كما أسلفنا .

ثانياً إن العبارة الوحيدة التي أوردها على لسان الشهيد هي : (كل ما تراه بعينك فهو الله .... الخ) .

وبما أن فضيلة الشيخ قد أحالنا إلى مرجعه من تفسير الشهيد لسورتي الحديد والإخلاص فعلينا أن نعود إليه مباشرة ، للوقوف على كلامه في الموضوع كملاً هو لا كما يفهمه بعض القراء .

وبعد مراجعة دقيقة لأقوال الشهيد في النقاط المثارة لم نجد في كلا تفسيريه للسورتين أي صورة للتركيب الذي أورده فضيلة الشيخ ، وها نحن أولاء نثبت في ما يلي نص تلك الأقوال منقولة من مظانها في الجزأين ٧ و٨ من الظلال .

الاصول الصحيحة :

في كلامه عن الآيات الخمس عشرة الأولى من سورة الحديد ، وأثناء استشرافه لعظمة الله وقدرته المطلقة المهيمنة ، على أساس التسليم التام لكل ما أخبر به الوحي من الكتاب والسنة ينتهي إلى القول .

١ ـ (وما يكاد ـ القلب ـ يفيق من تصور هذه الحقيقة الضخمة التي تملأ الكيان البشري وتفيض ، حتى تطالعه حقيقة أخرى لعلها أضخم وأقوى . حقيقة أن لا كينونة لشيء في هذا الوجود على الحقيقة ، فالكينونة الواحدة الحقيقية هي لله وحده سبحانه ، ومن ثَم فهي محيطة بكل شيء ، عليمة بكل شيء)[٢] . إلى أن يقول : (فهذا الوجود الإلهي هو الوجود الحقيقي الذي يستمد منه كل شيء وجوده ، وهذه هي الحقيقة الأولى التي يستمد منها كل شيء حقيقته وليس وراءها حقيقة ذاتية ولا وجود ذاتي لشيء في هذا الوجود..)[٣]

وعلى هذا النسق يمضي سيد (رح) في تفسير سورة الإخلاص ، ولعل هم ما يتوقف عنده القاريء في ظل الموضوع الذي يثيره فضيلة الشيخ الألباني ، هو قوله في الكلام على قوله تعالى (قل هو الله أحد) :

(انها أحدية الوجود فليس هناك حقيقة إلا حقيقته ـ سبحانه ـ وليس هناك وجود حقيقي إلا وجوده ، وكل موجود آخر فإنما يستمد من ذلك الوجود الحقيقي ، ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية)[٤] .

إلى أن يقول : (ومتى استقر هذا التصور الذي لا يرى في الوجود إلا حقيقة الله فستصحبه رؤية هذه الحقيقة في كل وجود آخر انبثق عنها ، وهذه درجة يرى فيها القلب يد الله في كل شيء يراه ، ووراءها الدرجة التي لا يرى فيها شيئاً في الكون إلا الله ، لأنه لا حقيقة هناك يراها إلا حقيقة الله)[٥]

(٢ و٣) ص ٧١٧ و٧١٨ من الظلال ج ٧ .
(٤ و٥) الظلال ج ٨ ص ٧٠٢ و٧٠٣ .

المنهج أولاً :

وطبيعي أن الموضوع من الدقة أشبه بالصراط ، يتطلب من العبارة ما قد تضيق به اللغة ، فأما المفكر الموفَّق الذي يملك الأداة الصالحة لتعمق ما وراء الكلمات فلن يفوته إدراك ما يريده سيد (رح) بكلمة (الحقيقة) و(الحقيقية) فالكينونة الحقيقية هي نفس (الوجود الحقيقي) في مفهومه ، ويعني بهما الوجود الأعلى المميز بالسرمدية التي لا يعتريها التغير والتحول ، والتي هي المصدر الخلاق لكل حركة وسكنة في كل وجود .

ومعلوم أن لكل مفكرٍ أو إمامٍ أو فيلسوفٍ منهجاً في البحث لا يحسن إغفاله عند مناقشة أي فكرة له ، فربَّ كلمة لو أفردت عن المنهج أدَّتْ غير مراد قائلها . ومنهج الشهيد في موضوع الأسماء الحسنى والصفات العُلى بارز واضح في كل ما كتبه في الاسلاميات ، وبخاصة في (ظلال القرآن) وأنت عندما تدقق النظر في هذه النصوص التي نقلناها لك من أشهر مؤلفاته تستغرب أن يوجه إليه أي شبهة بأنه يشارك الضُّلَّالَ في القول بوحدة الوجود ، لأن هؤلاء المخلِّطين يعتبرون الوجود كله واحداً هو الله ، على حين أن سيد يقف عند حدود الحق فيتحدث عن وجودين متمايزين كلياً ، أحدهما الوجود المطلَق الخاص بالخالق سبحانه ، والآخر المحدَث الذي لا وجود له ولا حقيقة إلا بما يناله من الوجود المطلق .. فهذا هو الأزلي الأبدي المحيط بكل شيء ، الأول قبل كل شيء والآخر بعد كل شيء . أما الوجود الآخر فهو المحدث بعد أن لم يكن . والصائر إلى الزوال بعد أن كان .. وإلا فكيف يفسر أصحاب الاتهام قول سيد (رح) (وكل موجود آخر فإنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقي)...

أليس هذا بياناً قاطعاً بأن ثمة وجودين متمايزين وحقيقتين مختلفتين : حقيقة خالق ومخلوق وموجد وموجود ؟! على أن من المفارقات في تقريرات الشيخ أنه يعزو إلى الشهيد القول بوحدة الوجود . ثم لا يلبث أن يعلن براءته

الفطرية من ذلك الضلال لتصريحه بالتفريق بين الخالق والمخلوق[٦] .

في آفاق الروح :

ونعود الآن إلى التأمل في أعماق التعابير التي لا تقل بعداً عن المعادلات الجبرية ذوات الجاهيل تروق معالجتها للخبير وتستعصي على غيره .. وذلك كقول الشهيد عقيب عرضه لمضمون الآيات نفسها من سورة الحديد ، وقد غرق منها في جو من اللطائف التي تذهل المؤمن حتى عن الشعور بذاته ..

(هذا المطلع الموحي المختار يتناول القلوب فيهزها هزاً ، ويأخذها أخذاً ، وهو يجول بها في الوجود كله ، فلا تجد إلا الله ، ولا ترى إلا الله ، ولا تحس[٧] بغير الله ، ولا تعلم لها مهرباً من قدرته ، ولا مخبأ من علمه ، ولا مرجعاً إلا إليه ، ولا متوجهاً إلا لوجهه الكريم[٨] .

وهذه التعابير لا تختلف من حيث العمق والغرابة عن ذلك المقطع الذي أسلفنا نقله من تفسير سورة الإخلاص والذي يبدأ بقوله : (ومتى استقر هذا التصور ... الخ) .

ففي كلا النصين يتحدث سيد (ر ح) عن الانخطاف الروحي الذي يحتوي قلب المؤمن وهو يتلقى نفحات القرآن العظيم في وصف الجلال الأعلى ، الذي يسبح بحمده كل شيء من علوي الكون وسفليه ... وهو انخطاف يحسه كل من ألقى السمع لآيات الله وهو شهيد ، ولا غرابة فالمستغرق في هذه الغمرات النورانية أشبه ما يكون بالمصعد فوق جو الأرض كلما أوغل في الانطلاق تضاءلت في حسه مرئيات البيئة التي ألفها في عالم التراب ، لأن سعة الكون شغلته عن الصغائر فلم يعد يذكر إلا ما يشاهده من كبريات الروائع ...

---

(٦) أنظر المجتمع عدد /٥٢٠ ص ٢٣ عمود ٣ .

(٧) ذكر الحسّ هنا زلة قلم .

(٨) الظلال ج ٧ ص ٧١٥ .

امثلة من الواقع :

وقد روى لنا التاريخ قديمه وحديثه أنواعاً من هذه الوقائع نذكر منها قصة أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه ، إذ انغرزت في قدمه حديدة فلم يقو على معاناة نزعها ، فانتظره المعالج حتى دخل في الصلاة فانتزعها دون أن يحس عليٌّ بما فعل ..

ومثل ذلك رُوِيَ عن عبدالله بن الزبير إذ كان مستغرقاً بالصلاة فلم يسمع ضجة أهله وهم يبكون ولده الذي فارق الحياة ، ثم لم يعلم بموته إلا بعد خروجه منها ...

ومن ذلك الضرب ما قرأناه عن أحد التابعين ، إذ سقط سقف المسجد الذي كان يصلي فيه ، فلم يستشعر شيئاً حتى انتهى ووجد نفسه محاطاً بركامه ...

ولا حاجة إلى تعيين مراجع هذه الأخبار إذ ليست العبرة بحصولها بل بمدلولها ، وهو مما لا يخلو مؤمن من معاناته ولو مرة واحدة في حياته ..

والمأخوذ في هذه الغمرات كثيراً ما تهتز في وعيه صور المشاهد ، فإذا أراد وصفها اضطربت عليه مذاهب القول ، فجاء كلامه غارقاً في الغموض أو كهذيان المحموم . وإلى بعض ذلك أشار سيد رحمه الله حين عرض بعض أقوال المتصوفة عن مثل هذه الأحوال ، إذ وصف أحدهم مرئياته فقال انه يرى الله في كل شيء في الوجود ، وقال الآخر انه رأى الله من وراء كل شيء في الوجود ، وقال غيرهما : انه رأى الله فلم ير شيئاً غيره في الوجود ...

حين تغيب صور الأشياء :

وهذه الأقوال على تعددها متفقة على وصف الحال التي يصير إليها المأخوذ بجلال المناسبة حتى ليذهل عن كل شيء عرفه من حياة هي (متاع الغرور) إذ تجلت له بإزاء ما هو فيه كما عرَّفها خالقها العظيم بقوله الحكيم : ﴿ إنما الحياةُ الدنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ في الأموالِ والأولاد ...﴾

فلا غرابة والحال هذه أن تغيب صور الأشياء الأخرى عن وعي المأخوذ بهذه الجلوات فلا يذكر هناك إلا الله ، الذي بحمده وحده يسبح كل شيء وغير بعيد من ذلك ما جاء في الحديث القدسي (مَنْ شَغَلَه قراءةُ القرآن عن مسألتي أعطيته أفضل ما أُعطي السائلين ...)[٩] .

على أن سيداً ـ رحمه الله ـ لا يغفل نقد المتصوفة ،حتى الذين يحسن بهم الظن ، فيأخذ عليهم انشغالهم بأحوال النفس عن واجب الحياة ، حتى أنستهم مسئولياتِهم نحو المنهج الرباني الذي يحقق التوازن الحكيم بين أشواق الروح ومصالح الجسد ، فلا اعتزال ولا إهمال ولا كراهية ولا هروب وإنما هي المحاولة المستمرة والكفاح الدائم لترقية البشرية كلها[١٠] أجل تلك نظرة سيد (رح) إلى ناحية الوجود والحقيقة والمتصوفة ... وما أدري إذا كنا قد أحسنا عرضها في الوضوح الذي يقنع شيخنا باعادة النظر في مآخذه عليه ...

نقاش الالفاظ :

والآن نعود إلى استيفاء ما نسبه فضيلة الشيخ الألباني إلى الشهيد .. ففيه من الأشكال ما يستغرب مثله كل الاستغراب عندما يصدر عن مثله ، وهو الذي تخصص بتحقيق النصوص ونقد اسانيدها حتى لا يقبل منها إلا ما صح وأقنع .

لقد رأينا فضيلته ينحل الشهيد مثل هذا القول : (كل ما تراه بعينك فهو الله،وهذه المخلوقات التي يسميها أهل الظاهر مخلوقات ليست شيئاً غير الله ..)

ولعمر الله انه لإتهام يحمل بينته بنفسه ، فقول كهذا لا معنى له إلا أنه إقرار قاطع بمذهب وحدة الوجود ، الذي لا حظَّ لأهلِه في الإسلام . ولكن .. هل هذا القول النبيث من كلام سيد ... ؟

---

(٩) أخرجه الترمذي .

(١٠) ص ٧٠٥ ج ٨ من الظلال .

أعد النظر قليلاً في ما نقلناه من تعابير الشهيد .. وسترى انه بريء من هذا اللغو براءة الذئب من دم يوسف (ع) .. فسيد لم يَقُل قط (كل ما تراه بعينك فهو الله ..) لأن هذه العبارة تحدد الرؤية عن طريق العين، وهو تجسيد محض لا يُعرف إلا للمجسمة من أهل الزيغ .. ولم يقل قط (كل ... فهو الله) معاذَ الله بل أهمُّ ما يمكن لمتَّهِميه أن يستمسكوا به عليه قوله: (.. لاكينونة لشيء في هذا الوجود على الحقيقة، فالكينونة الواحدة الحقيقية هي لله وحده سبحانه .. فهذا الوجود الآلهي هو الوجود الحقيقي الذي يستمد منه كل شيء وجوده وهذه هي الحقيقة الأولى التي يستمد منها كل شيء حقيقته، وليس وراءها حقيقة ذاتية ولا وجود ذاتي لشيء في هذا الوجود ... ومتى استقر هذا التصور الذي لا يرى في الوجود إلا حقيقة الله فستصحبه رؤية هذه الحقيقة في كل وجود آخر .. وهذه درجة يرى فيها القلب يد الله في كل شيء يراه، ووراءها الدرجة التي لا يرى فيها شيئاً في الكون إلا الله ..).

أما من حيث المعاني فقد عرضنا ما فيه الكفاية عن مدلولاتها .. وبقي أن نسترعي انتباه القاريء إلى خلو هذه النصوص كلياً من ألفاظ الشيخ، فليس ثمة عين ترى، ولا قول بأن المخلوقات ليست شيئاً غير الله .. وإذن فلا حجة في رواية تسند اتهامه لكلام الشهيد بكونه كفراً وجوديًّا ...

بين العين والقلب:

ونظرة أخرى إلى ألفاظ الشهيد التي جمعناها لك معاً تريك أنه لم يرد قط بفعل (رأى ويرى ووجد) إلا عمل القلب الذي هو العلم القلبي لا الرؤية البصرية، على حين أن رواية الشيخ تحدد الرؤية بالعين ... وهو خطأ لو جرى على لسان غير الشيخ لوجدنا له العذر، ولعل هذا الضرب من الخطأ عائد إلى ما أشار إليه الأخ الشيخ علي الطنطاوي، وأقر به الشيخ الألباني نفسه في أكثر من موقف، عن عدم رسوخه في البيان العربي ..

طُرفتان لا تنسيان :

وأخيراً .. وفي ختام هذا الحوار الأخوي ، أحب أن أقدم للقارىء نكتتين لعلهما غير بعيدتين عن هذا النوع من الحوار .

١ ـ قبل ثلث قرن كنا مشتركين في تدقيق أوراق الامتحانات في دمشق ، وقد أُفرِدت لجنتنا للنظر في أجوبة الأدب العربي ، وكان النص المطلوب تحليله من نونية شوقي في وصف دمشق . فقلت للزملاء ـ العشرين ـ ألا نتفق على المعنى المقبول قبل توزيع العمل ؟ فأجاب رئيس اللجنة : لا خلاف على المعاني فهي واضحة ولكل بيت درجاته المقررة ، فقلت اسمح لي أن أسألك عما يريد شوقي في هذا المطلع :

آمنت بالله واستثنيت جنتَـــه دمشق روح وجنَّات وريحـانُ

أفمؤمن شوقي بالجنة هنا أم رافض .. ؟

وانطلقت الأصوات تؤكد أن شوقي مؤمن بالله منكر للجنة !..

وبصعوبة كبيرة استطعت إقناع الأكثرين بضد ما ذهبوا إليه يومئذ ، بعد أن عرضت لهم صوراً من إيمان شوقي بالجنة من خلال الأبيات نفسها ، ومن خلال قصائده الأخرى .. فلم يبق مخالفاً لفكرتنا إلا اثنان رئيس اللجنة رحمه الله وشريك لي في تأليف كتاب (المرشد إلى الأدب العربي) .

أليس في هذه الطرفة شبه بموقف شيخنا أبي عبد الرحمن من شهيد الاسلام ! ! ..

٢ ـ أما النكتة الأخرى فلشيخنا الألباني بها صلة ... ذلك أني كنت في زيارة للمكتب الإسلامي في حازمية بيروت ـ فرج الله كربها ـ وكان ثمة حديث عن كتاب لأحد كبار الساسة المسلمين وردت فيه عبارة استعملها المؤلف ، وفيها يسند الإيحاء إلى بعض الأشياء كما تقول : أوحى إلي هذا الأمر بكذا .. فسألوني : أليس هذا كفراً ؟ .. قلت لا أرى ذلك فالإيحاء

هنا ليس بمعنى التنزيل بل بمعنى التذكير والتنبيه ، ومن ذلك قول الله تبارك اسمه في القرآن العظيم : ﴿وأوحى ربُّك إلى النحل /١٦/٦٨﴾ وقوله عن الكافرين ﴿يُوحي بعضُهم إلى بعض زخرفَ القولِ غرورا ١١٢/٦/﴾ وقوله ﴿وان الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ٢١/٦﴾ وأصر الشيخ يومئذ على أنها عبارة كفرية ، ولم أزل أصر على تبرئتها من الكفر .. وقلت يومها للشيخ : مِن مقولات علماء الإسلام أن دليلاً واحداً على إسلام امرىء أقوى من تسعة وتسعين دليلاً على كفره .. فكان جوابه بل قد يكون دليل الكفر أغلب من التسعة والتسعين ..

والظاهر أن شيخنا - حفظه الله - يحاكم الشهيد سيد قطب بذلك القانون الذي يرجّح المأخذ الواحد - ولو مظنوناً - على عشرات المسوّغات اليقينية ..

وإن الظن لا يغني من الحق شيئا ..

١٥

اللواء محمود شيت خطاب

إنـه المفكر الإسلامي المعروف محمود شيت خطاب ، وشيت هو أبوه ، ويضبط اسمه بالثاء جرياً على مألوف أهل الموصل ، الذين يميلون إلى هذا الاسم لما يقال من أن شيث بن آدم عليه السلام مدفون في أرضهم .

مولده وأسرته :

ولد في الموصل عـام تسعة عشر وتسعمئة وألف للميلاد من أسرة توارثت العمل في التجارة وتربية المواشي ، وكان جده الخطاب من موسري الموصل ، وبدافع من حبه للدين والتزامه شعائره ، كان يتمنى أن يكون في ذريته من يتفرغ لعلومه ، وهكذا وجه ابنه ، والد المترجم ، إلى هذا المسلك ، فدرس على بعض شيوخ الموصل ، ويسمي منهم الشيخ محمد الرضواني ، وعبد الله النعمة ، والشيخ مصطفى بيك آل قره مصطفى الذي بدأ حياته العلمية على يده ، واستمر كذلك حتى تخرج على هؤلاء الأعلام ، فحقق أمنية والده الذي كان يسره أن يؤمه ولده في الصلاة .

وشاء الله للمترجم أن ينشأ في حضانة جدته لأبيه ، إذ زاحمه على أمه أخوه

الأصغر الذي وافاها بعد سنة من ولادته ، فتولت تلك الجدة أمره مكان والدته واستمر ملازماً لها حتى وافاها الأجل .

ويحدث عن هذه الجدة وأثرها في طباعه ، فيصفها بالعقل والفضل. ولا غرابة في ذلك إذ هي من أسرة السيد محمد المعروفة بصحة نسبتها إلى البيت الحسيني ، ولا تزال الكثرة من هذا المحتد الشريف في مختلف أنحاء العالم الإسلامي يغلب عليها الالتزام بروح الدين ، وتتوارث هذا المسلك جيلاً عن جيل ، ومن هنا كان لهذه الأسرة أثرها العميق في تكوينه النفسي .

يقول المترجم عن جدته : كانت تصحبني إلى المسجد القريب لصلاة المغرب ، فإذا قضيت الصلاة أصغيت معها من مقصورة النساء إلى مواعظ الملك داوود ، ذي الأسلوب المؤثر ، حتى تنهض لصلاة العشاء .. ومن ثم تنصرف لتناول الطعام ، وربما طلبت عشاءها فلا تجد ، فلا تزيد على أن تبتسم وهي تقول : لا بأس .. حصتي في الجنة إن شاء الله . فإذا أوينا إلى النوم أخذت بذكر الله والاستغفار ، ثم لا تدعني حتى تتحقق من نومي ، فتتسلل لصلاة القيام . ولطالما استيقظت على نشيجها أثناء ذلك ، فإذا ما شعرت بي عادت لتحنو عليّ . واستمر هذا دأبها حتى توفاها الله وأنا في السادسة عشرة ، فكان لوفاتها وقع لا يمحى .

بيئته :

ويصف البيئة الاجتماعية المحيطة بذلك البيت فيقول : كانت تمتاز بالتعاون الودي والتعاطف الأخوي ، فالكل متشاركون في السراء والضراء ، ملازمون للصلاة ، ملتزمون بالخلق الإسلامي ، إذا افتقد المرض أحدهم زحفوا لعيادته ، فإذا كان المريض من ذوي الحاجة دسوا له في السر ما يقوم بأوده حتى يسترد عافيته .

مدارس ومساجد :

بدأ السيد المترجَم دراسته في الكتّاب، منطلق المعرفة الأول، الذي شرع في التواري منذ شددت السلطات الرسمية سيطرتها على مرافق التعليم في البلاد الإسلامية، فتلقى بواكير دراسته في القرآن والخط، حتى إذا أصبح مؤهلاً للمدرسة الابتدائية انتقل إليها فألحق بالسنة الثانية، ومن ثم واصل دراسته هناك حتى انتهى إلى السنة السادسة. ويضم المترجم إلى بيئة المدرسة هذه مجلس الحي الذي كان حتى عهد قريب أحد مصادر التكوين الفكري في البلاد الإسلامية، وهو أشبه بناد ليلي يقوه من كل محلة في قاعة خاصة من دار أحد الأعيان، حيث يتوافد الرجال لقضاء السهرة في جو من المودة الخالصة. فيها هنا تحل المشكلات، وتقص الأخبار، وتقرأ بعض الكتب النافعة في الفقه أو الحديث أو التاريخ أو القصص.

يقول السيد المترجم: لقد كنت ألازم مجلس والدي هذا، مع إني لم أكن قد تجاوزت الصف السادس الابتدائي بعد، فقد وقع اختيار والدي عليّ لقراءة التاريخ على الحضور، الذين كان معظمهم من أهل العلم المتقنين للعربيــة، وكان ذلك بمثابة امتحان يومي بالنسبة إليّ، لأن هؤلاء لا يرضون أن يغضوا الطرف عن أقل غلطة يعثر بها لساني، فكنت مضطراً للعناية بقواعد اللغة، وضبط الألفاظ كيلا أتعرض للوم والدي، الذي كان يسره أن أكون في ذلك الامتحان من الناجحين.

ومن الابتدائية ينتقل إلى المتوسطة فالثانوية، ولكنه لا يقف عند حدود مقرراتها، كدأب أمثاله من أبناء البيوت المعنية بالعلم، فيظل على صلة بمجتمعات الشيوخ حتى إذا وافت العطلة الصيفية لم يتخذ منها مطية للهو المضيع، كما يفعل تلامذة اليوم، بل يعتبرها، أو تعتبر له، فرصــة لضرب جديد من الجد في التحصيل عن طريق المساجد. ويقف هنا على ذكر واحد من الشيوخ الذين يحتفظ لهم بأطيب الأثر، هو الشيخ قاسم الجليلي، الذي يقول إنه كان فذاً

في علم النحو ، ومن ميزاته في هذا الجانب كتابه « المستدرك على سيبويه » الذي لا يزال مخطوطاً .

ويقص علينا إحدى ذكرياته مع هذا الشيخ فيقول : وافانا رمضان في إحدى هذه العطل ، فكنت أحضر على الشيخ في ما بعد العصر من كل يوم ، حتى إذا قارب موعد الأفطار مضينا في الطريق إلى داره ونحن نواصل المذاكرة ، وربما انطلق مدفع الإفطار ونحن غارقان في هذا الجو .

ومن هنا ، ومن قراءته التاريخ في مجلس الحي ، تبلور اتجاهه إلى اللغة والتاريخ . ولا ينسى أن يبرز أثر والده في هذا الجانب ، لما كان يجده من تشجيعه عليه ، وقد أقر الله به عينيه ، فشهد أولى بواكيره في التأليف وذلك في كتابه الموسوم بـ « الرسول القائد » الذي صدر عام ١٩٥٨م بعد أن قرأ له العديد من مقالاته في المجلة العسكرية من قبل .

دراساته العسكرية :

كان يتطلع إلى دراسة الحقوق إثر حصوله على الثانوية ، بيد أن الله شاء له غير ذلك ، فقد أعلنت وزارة الدفاع عن الحاجة إلى دفعة كبيرة للكلية العسكرية ، فقدم طلبه مع العديد من رفاقه ، وسافر معهم إلى بغداد ، وغرضه الأول من تلك الرحلة هو التفرج ومشاهدة معالم العاصمة التي لم يكن قد زارها بعد ، وما كان تقديمه الطلب إلى الكلية سوى وسيلة لتلك الغاية ، ولكن قدر الله أن تخرج قائمة المقبولين وعلى رأسها اسمه ، فلم يسعه سوى الالتحاق بالكلية . إلا أنه ظل قلقاً يود التخلص من ذلك الجو فلا يجد سبيلاً إليه ، لأن قادة الكلية وأساتيذها حببوا إليه البقاء ، وما زالوا به حتى رضي بالواقع . ثم ما لبث أن ألف تلك الحياة ذات النظام الصارم ، وجعلت نفسه تستريح إليها باطراد ، على أنه لم يستطع الانقطاع عن هواياته الأخرى من اللغة والأدب والتاريخ وبخاصة الثقافة الإسلامية .

ويقف هنا قليلاً ليؤكد على أثر مكتبة آله في عقله وثقافته ، فيصفها بأنها من المعمّرات ، إذ مضى على إنشائها سبعة قرون ، وهي لا تنفك تزداد اتساعاً بما ينضم إليها من جديد الأسفار . ويقدر عدد محتوياتها بخمسة وعشرين ألف كتاب ، بينها ديوان مخطوط من شعر أبي تمام ، يتضمن اثنتي عشرة قصيدة لم يسبق أن نشرت من قبل . ومن أجل ذلك تعتبر هذه المكتبة هي الأصل في الدار .. وكل شيء بعدها فعلى الهامش .

في سلاح الفرسان :

ويتخرج المترجَم برتبة ملازم ثان لينضم إلى سلاح الفرسان .

ويتحدث عن واقع الحياة في الجيش العراقي آنئذ . فيرينا العجب العجاب من آثار التوجيه الاستعماري ، ! كان كل شيء هناك يسير بالضابط في طريق التميع والانحلال ، فلا يجد عاصماً إلا أن يكون مزوداً بالحصانة القادرة على الثبات في وجه الأعاصير .

• سأله آمر السرية الذي عين في كتيبته : أتشرب ؟.. أتلعب القمار ؟.. أتحب النساء ؟.. ولما سمع نفيه الصارم لكل ذلك قال متبرماً : إن ضمك إليّ نكبة عليّ .

وقد عرض سيادته أمثلة وافية من هذا الواقع في كتابه «بين العقيدة والقيادة» لا نرى حاجة إلى إعادتها هنا . ولكن إشارته العابرة هذه تأبى إلا أن تحرك سواكن الذكريات لبعض ما نعرفه من الوقائع المماثلة في أكثر من جيش عربي .

أثناء اختبار المقابلة في إحدى الثكنات العربية كان بين الأسئلة الموجهة إلى الطلاب ما يلي بالحرف : « لو دخلت على أمك أو أختك أو زوجك فوجدت رئيساً لك يضاجعها .. فماذا تعمل ؟.. أي الرجلين بنظرك أعظم .. محمد أو جمال عبد الناصر ؟

وبين يديّ الساعة العدد ٣٤٢ من مجلة « المجتمع » وفي صفحاته ٤٠ ــ ٤٢ صورة من المرافعة التي ألقاها أحد المتهمين في قضية الكلية الفنية المعروفة في بلد عزيز آخر ، وفيها يقول : « بعد التحاقي بالكلية رأيت ... الفسق والفجور موضعاً للمدح والمباهاة ، ورأيت العفة والطهارة توضع في قفص الاتهام ... رأيت مخلوقات قد نقلوا موجة السخرية والاستهزاء بمنتهى الوقاحة إلى الخالق تعالى .. حتى بلغت بهم أن يتغنوا بالأشعار والزجل لعناً في مالك الملك .. وأخذت هذه الطائفة تزيد يوماً بعد يوم حتى أصبح هذا الوضع الحقير يمثل طابع الحياة من حولنا ... » .

في الدراسات العليا :

ويتابع سيادة المترجَم سبيله في استكمال دراساته العسكرية ، فيقضي سنتين في كلية الأركان ، يتخرج بعدها ضابط ركن ، ثم يبعث إلى كلية الدراسات العليا في لندن .

ويتحفنا الصديق الفاضل من أخباره في لندن بالطرفة التالية :

يقول : من المألوف أن يتولى مساعد الكلية تقديم الضباط القادمين من وراء البحار إلى عميدها عقيب وصولهم . وكان هذا العميد يومئذ أحد أبطال العبور إلى النورماندي أثناء الحرب العالمية الثانية ، فجعل يسأل كلاً من هؤلاء الوافدين عن حاله وبلده وما إلى ذلك . وجاء دوري فسألني : لماذا قدمت ؟.. قلت : لتجديد معلوماتي العسكرية ، ولتلقي أي جديد من العلم . فعقب على كلامي متهكماً : بل قدمت لتتعلم مغازلة الفتيات .

وكظمت غيظي ، وقلت في نفسي : إن هذا لا يلقي كلامه جزافاً ، وإنما يحكم عليّ بما شاهده في سواي .. ولما ذهبت إلى السكن المخصص لي وجدت فرّاشاً وفتاة تعمل في ترتيب غرفة نومي ، فانتظرت في البهو دون أن أعيرها

اهتماماً، حتى إذا خرجت سألتني: هل لديك من توجيهات؟ قلت: شيء واحد.. هو أن تحضري لأداء مهمتك عندما لا أكون حاضراً .

وأقبل المكلف بإعداد الطعام ، يسألنا عن الألوان التي نريد ، فعددت له المحرملت التي أرفضها، والألوان التي أرغب فيها . وكان معي ضابط من إحدى الدول العربية فقال : الأفضل أن نندمج معهم فنأكل طعامهم على اختلاف أنواعه . فقلت له: لك أن تفعل ذلك.. أما أنا فلن أغير من حياتي مجاملة لأحد. والعجيب أن هذا(المندمج)قد انتهى إلى الرسوب في حين ظفرت بالدرجة الأولى بين مئة ضابط من أشتات الجنسيات ولله الحمد .

ويتمم سيادته حديثه عن هذه المرحلة قائلاً : كان الفرّاش يلح عليّ بزيارة منزله كشأن سائر الضباط في التردد على مساكن فراشيهم فأرد دعوته بلطف، لأني كنت موقناً أنه وسائر الخدم المخصصين لنا ليسوا أكثر من جواسيس وموجهين ...

وذات يوم طُرق بابي ففتحته لأرى وجه عميد الكلية يحييني ، وفي أدب بالغ يعرض عليّ مرافقته وزوجه في نزهة بين الآثار .. وهناك بادرني بالاعتذار عما أسمعنيه في لقائنا الأول ، ويؤكد لي العميق من احترامه وتقديره .

وليست هي بالمرة الأولى التي أواجه فيهـا مثل هذا الموقف من أجانب يحترمون كل من يحترم نفسه وهُويته .

ولعل أكثر ما يهمنا نحن من هذه الحكاية ما تحمله من إشارات عميقة الدلالة إلى تلك المفاسل الدماغية التي تهيـأ في ظلماتها معظم الألغام الناسفة لمقومات الأمن والاستقرار في أوطان المسلمين .

عوامل موجهة :

مما تقدم أمكننا الوقوف على اتجاهاته الفكرية إذ علمنا أن العربية والتاريخ هما موضع اهتمامه الأول ، وقد اقترنا معاً منذ تلك القراءات التي كان يكلف بها

في مجلس والده ولما يتجاوز نهاية المرحلة الابتدائية ، حيث كان يحاسب على كل لحنة فيدفعه ذلك إلى مزيد من الاهتمام بشئون اللغة ، وتواجهه من أخبار التاريخ الذي يقرؤه أحداث تهز مشاعره وتحرك تفكيره ، فتتنامى رغبته في متابعتها ، حتى أصبحت إحدى هواياته المفضلة . وطبيعي أن يكون للقرآن العظيم أثره الفعال في نفسه ، إذ كان أول ما تحرك به لسانه مطالع حياته التعليمية في ظلال الكتاب . ولا حاجة إلى التذكير بالرباط الوثيق الذي يجمع بين هـذه المصادر الثلاثة في قلب الإنسان المسلم . أليست العربية هي المدخل إلى القرآن ؟.. والتاريخ مطلقاً .. أليس هو أحد مصادر العبر في دراسة الحياة الإنسانية من خلال هذا الكتاب الحكيم ؟.. ولا جرم أن من باشر التفاعل مع هـذا الجو لا مندوحة له عـن تتبع أحداث التاريخ الإسلامي ، الذي في مجاريه تتدفق الدوافع الجياشة التي انطلقت من منابع الوحي لتغير معالم الحياة البشرية جميعاً .

ولا ننس هاتيك المؤثرات التي أحاطت به في كنف تلك الجدة التقية منذ فتح عينيه على الحياة ، إذ ألفى نفسه مغموراً بإيحاءاتها الروحانية ، وتوجيهاتها التعبدية والخلقية حتى سن المراهقة .

وأرى من المناسب أن أضم إلى هذه العوامل قصة حجه الأول ، فهي غير بعيدة عن هذا المجال من حياته ومؤثراته .

كان في الخامسة عشرة من سنه ، وفي الثالثة من دراسته المتوسطة ، أيام مضى في بعثة للمعارف العراقية لأداء فريضة الحج . ويصف تلك الرحلة المباركة بأنها سعيدة ، لا تكاد ذكرياتها تفارق مخيلته ، إذ أتاحت له أن يشاهد عن كثب مواطن الوحي ، ومعالم الحياة التي طالما استهوته أخبارها من خلال السيرة النبوية . ولما عاد إلى بلده نعم بحظه من تلك الاحتفالات المؤثرة التي تدخر في العادة لاستقبال العائدين من الحج . ومن ذلك اليوم أضيف إلى اسمه لقب الحاج ، الذي يفرغ على صاحبه التقدير والمهابة .

وطبيعي أن وضعاً كهذا لا مندوحة له أن يترك طابعه في العميق من أفكاره ومشاعره ، فمن حقه إذن أن يحسب بين العوامل الأخرى التي تمازجت كلها في كيانه .

في مهب العاصفة :

لا يسع مؤلفاً يترجم لمثل هذه الشخصية العسكرية أن يغفل الجو العام الذي عاصره سواء في بلده العراق أو ما حوله من أقطار العرب ، أو ما أحاط بهـا من أرجاء العالم الإسلامي.. وما وراءه من أوضاع عامة تتناول العصر بأجمعه. وحسبنا أن نشير من ذلك إلى أبرز الأحداث التي رافقت نشأته في العراق والأجزاء التي كانت أكثر اشتراكاً في تلك الأحداث من الوطن العربي .

فهناك الاحتلال الذي شمل سائر أقطار العرب والمسلمين خارج نطـاق نجد والحجاز .. ومعه الاستعمار اليهودي الذي خطط له عبر القرون وقبل عشرات السنين في بازل، وقد أقبل لتحقيق أبعاده بقوة الحراب البريطانية ، ومن ورائها الشكنة اليهودية الأم أميركة . وفي هذا الجو الرهيب من التنكيل والتذليل تفجرت الثورات الإسلامية لتواجه الحديد والنـار بكل وسائل المقاومة التي ورثتها من عزة الإسلام .. فمقاتلون يتربصون للعدو في الجبال وزوايا الشوارع والحقول من أقصى البلاد إلى أدناها ، حتى إذا تحطم السلاح المحدود تحت دفق السلاح غير المحدود ، تحولت النقمة إلى ألوان من التحدي الجبـار بالإضرابات المتلاحقة ، والتظاهرات المتتابعة ، تجابه الرصاص والقذائف بالصدور العارية فتتساقط الضحايا كأوراق الشجر عصفت بها زوابع الخريف .

ومن خلف هـذه الضروب الدامية من النضال تتسلل الأيدي الخفية إلى معاقل التراث الروحي والفكري في الظلام ، فتعمل فيـه تخريباً وتحويراً ، لتقضي على بذور الجهاد الإسلامي في النشء القادم ، حتى إذا نفدت مقومات الكفاح بانتهاء بقايا الجيل المقاوم ، لم يبق أمام المستعمر ما يخشاه على سلطانه

من الوافد الجديد ، الذي لا بد أن ينسى صلته بمنابع العزة فيخضع للواقع ، ويزداد كل يوم إعجاباً بحضارة هذا الغادر المحتل ، حتى يصبح بمحض اختياره ذيلاً تابعاً لهواه يحركه أنى شاء ، وفي كل اتجاه.. حتى إذا انتهى دور الاحتلال العسكري في بلاد العرب ، وتوارى جنوده وطواغيته عن أعين الناس ، جاء دور خلفائه الذين أعدهم لهذه الخلفية ، فراحوا يتممون ما بدأه من تدمير لبقايا حصون الإسلام بألوان من العدوان لم تعرف لها شعوب المنطقة مثيلاً على أيدي أساتذتهم الأولين .

ذلك هو الجو الذي عاش المترَجم أحداثه منذ تفتح وعيه .. وقد توافر له من ميراثه الروحي الذي سبقت الإشارة إليه ما عصمه من الانزلاق في المهاوي التي دُفع إليها الأكثرون من أبناء جيله ، فكان واحداً من الفئة التي تماسكت أمام العاصفة ، وحملت تراقب خلفيات الوقائع لتتبين طريقها القويم من خلال ركام الضباب .

أحداث شارك فيها :

وفي إجابته على الاستطلاع الثامن لم يبعد بنا عن ذلك الجو ، فهو يحدثنا عن طائفة من الأحداث التي شارك فيها وشاركت هي في بنائه الذاتي .

فأول هذه الأحداث ثورة رشيد عالي الكيلاني عـام ١٩٤١م الذي انتهز فرصة انشغال العدو بالحرب العالمية الثانية فحشد القوات لتطهير العراق من أوزار الإنجليز . وسرعان ما هزت هذه الحركة الضمائر ، وأيقظت ما غفا من العزائم ، فجددت الآمال بالخلاص الذي طالما بذلت الجهود وسقطت الضحايا لتحقيقه ، فحالت دونه الحوائل .

ويخوض المترَجم معظم المعارك التي تلاقى فيها الجيش العراقي بقوات المحتل. وكان أثناءئذ ضابط ركن في لواء الخيالة المرابط في (أبو غريب) على بعد ٥٠ كلم من الفلوجة (الأنبار) التي شبت في ساحاتها أهول المعارك . ومع القطعات

الزاحفة إلى هناك ، مضى للقيام بواجبه في لقاء العدو ، ولكن طائرات الباغين كانت تسيطر على فضاء الملحمة ، فكان نصيب اللواء منها قنبلة توزعت شظاياها في كل موضع من جسمه ، على صورة أيأست الأطباء من إمكان بقـائه على قيد الحياة ، إلا أن الأجل غلب العلم، فكتب الله له الشفاء لكي يتمم مهمته المقدورة في خدمة دينه وأمته .

ويقع ثاني هذه الأحداث أيام العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦م ، وكان اللواء آمر كتيبة في الموصل ، وقد ملأت التظاهرات الشعبية أنحـاء العراق ، احتجاجاً على المعتدين وأنصارهم . وزحفت الجماهير الغاضبة على مؤسسات تلك الدول تحطم كل ما تصل إليه أيديها . وبلغت الحماسة أوجها في الموصل، وسقط العديد من القتلى بالتصادم بين الشرطة والمتظاهرين .. وهناك جـاءه الأمر من العاصمة بنزول الجيش للسيطرة على الموقف ، ثم تتالت الأوامر بوجوب الضرب مهما تكن النتائج بعد أن بلغت التظاهرات يومها الحادي عشر .

يقول اللواء : كان من غير العسير عليّ تفريق الجموع دون مـا حاجة إلى إطلاق أي رصاصة ، إلا أني لم أكن مقتنعاً بهذا العمل ، بل كنت موقناً أن هذا التظاهر أقل مـا يجب على العراق لنصرة الشقيقة مصر . ولهذا تجاهلت أحد عشر أمراً بالرمي ، وأصررت على هذا التجاهل، فكانت عقوبتي هي نقلي من بلدي إلى جنوب القطر .

وطبيعي أن يكون له نصيبه من أحداث العهـــد الأحمر ، الذي سلط عبد الكريم قاسم وفاضل عباس المهداوي ، على مقدرات العراق فيما بعد .

كان المترجَم ، بحكم كونه رئيس هيئة أركان حرب، مسئولاً عن أمن الجنوب كله ما بين بغداد والبصرة ، فكان ذلك بمثابة حماية أتاحها الله لذلك الجانب من العراق، فلم يجد القتلة الحمر منفذاً إليه، على الرغم من كل المحاولات التي بذلوها، بعد أن فرضوا على سائر الأنحـاء جواً من الرعب لم يعرف له التاريخ نظيراً ،

اللهم إلا أيام مزدك في فارس، والقرامطة في العراق والحجاز، والثورة البلشفية في روسية، ثم الثورة الثقافية في صين ماوتسي تونغ.

يقول الصديق الفاضل: لقد وُضعت أجهزة الدولة كلها تحت تصرف الشيوعيين، فلم يحل بينهم وبين ما يشتهون، فهم يقتحمون الدور، ويجرّون الرجال إلى القتل خنقاً أو سحلاً في الشوارع العامة، ويستخدمون لذلك سيارات الجيش وما شاؤوا من أسلحته وأدواته، ولما حاولوا أن يفعلوا ذلك في منطقة عملي واجهتهم بالرفض الصارم، وحجزتهم عن كل عدوان.

ويقول المترجم بهذه المناسبة: لم يكن عبد الكريم قاسم شيوعياً، ولكن كان مضطراً للاستعانة بهم، وبخاصة في تلك الأثناء التي اندلعت فيها ثورة الشواف بالموصل، فأطلق أيديهم يعملون ما يشاؤون دون حسيب ولا رقيب.. ولم يكن بوسعهم الصبر على موقفي منهم فاتصلوا به يستعدونه عليّ، فبعث إلى المنطقة بضابط يصلح لتحقيق رغباتهم، وما لبثوا أن تجمعوا حوله ليخطب فيهم داعياً إياهم إلى سحل كل ضابط ومدني يقف في طريقهم أو لا يؤيد ثورتهم، فكان عليّ أن أتدارك ما أمكن من الخطر، فدخلت على هذا الضابط أحذره مغبة تصرفه.. فلم يكن منه إلا أن اتصل بعبد الكريم قاسم طالباً إليه التدخل لإقصائي عن طريقهم. وهكذا تم لهم ما يشاؤون، وكان ذلك في الهزيع الأخير من إحدى ليالي رمضان، حيث وافتني ثلة من جنودهم فاعتقلتني، ثم حملتني في حراسة مشددة إلى السجن المخصص لأعداء الثورة في بغداد.. واستمر وجودي هناك مدى ثمانية عشر شهراً مشحونة بألوان من التعذيب الذي يُعجز الوصف.

رأيه في حركة الشواف:

وعلى ذكره لحركة الشواف رأينا أن نستطلع معلوماته عنها بعد أن كثرت فيها الأقاويل، ما بين متهم ومبرىء ومسوغ.. فكان من جوابه على ذلك

أن حركة الشواف مبرأة من كل دافع حزبي، لأن المخططين لها كانوا من العناصر العربية في الجيش العراقي ، وقد هالهم ما رأوه من زيغ المتسلطين وانحرافهم في تيار المجرمين الحاقدين، فاتفقوا على تصحيح الأوضاع ، وحددوا لذلك ساعة البدء ، بحيث تنطلق الحركة في كل مكان وفي آن واحد لتنفيذ المخطط المتفق عليه .. ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان ، إذ علم الشواف أن عدداً من ضباط الحركة في الموصل قد تقرر اعتقالهم، فلم يجدوا بدأ من التعجل في العمل، وهكذا سبقوا الموعد بأربع وعشرين ساعة ، وفوجىء إخوانهم بالأمر ، فلم يتمكنوا من القيام بأي تدبير . وبذلك قضي على الخطة ، ووقعت الواقعة التي ذهبت بخيرة عناصر الجيش بين سجين ومسرّح وقتيل .

العمل الأشق :

وعن عمله في التدريس يذكر من مجالاته فيها ، الكليات العسكرية ، وكليات الأركان ، والجامعات الأخرى في العراق وغيره .. ثم معهد الدراسات العربية العليا التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة .

ويقول عن التدريس إنه في تقديره أشق حق من العمل العسكري لمن يستشعر حقه ويريد أن يؤديه على الوجه الأكمل ، ويمثل لذلك بأن نصابه الأسبوعي في المؤسسات التي درس فيها لم يتجاوز الساعتين ، ومع ذلك كان تحضيراً لموضوع يستهلك من وقته أكثر من ثلاثين ساعة .

أما علاقته بطلابه فيحمد الله على أنها قائمة على المودة والتعاون ، فلا يذكر أي سبب حاد به عن هذا الطريق قط ، ولا يعرف بين طلابه الكثيرين واحداً لا يبادله التقدير والحب .

ومن ذكريات هذه المرحلة يعرض للحادث التالي :

يقول : ذات يوم كنت ألقي محاضرة في القاهرة عن نكبة الـ ١٩٦٧ م وأعدد أثناءها بعض مواطن الخطأ العسكري ، فاعترضني واحد من الاتحاد

الاشتراكي يقول : إنهـــا نكسة .. نكسة فقط .. وقد أصابت النكسة رسول الله نفسه في أحد .

فكان من ردي على هذا الرجل : إنها ليست نكسة .. بل هزيمة ، لا .. بل فضيحة لا مثيل لها في تاريخ الحروب . إن ما تسميه نكسة في أحد لم تكن من أخطاء القيادة ، بل من أخطاء الجنود ، ومع ذلك فقد قاد رسول الله ﷺ المسلمين لمطاردة المشركين في اليوم التالي حتى حمراء الأسد..فهل طاردت القيادة الحاضرة إسرائيل منذ ذلك اليوم ؟

وأعقب ذلك الرد ضجة بين الحضور سرعان ما أخرست ذلك المتزلف .

على أن في ذلك النقد الصريح لأخطاء القيادة ما يشد الذهن إلى موقف آخر للـواء لا يحسن أن تخلو منه هذه الترجمة ، وبخاصة أنه يتصل بصميم المعركة التي يعالج نتائجها بهذا النقد .

ففي كتابه « الأيام الحاسمة » يتحدث عن تنبيهات سبق أن وجهها إلى قادة دول المواجهة قبل الهجمة الشرسة ، التي أطاحت بسمعتهم وبكرامة شعوبهم عام ١٩٦٧م .

لقد بلغت به الدقة في رصد التطورات التي كانت تتمخض بها المنطقة آنذاك ، إلى حد أن يؤكد عزم إسرائيل على التحرك لإنزال ضربتها في اليوم نفسه الذي قررته وهو الخامس من حزيران . ونشر ذلك في جريدة « العرب » البغدادية يوم الأول من الشهر نفسه .. ولكن صيحته ذهبت مع الريح ، لأن الغرور والجهل قد أصما آذان المسئولين أثناءها فلم يسمعوا سوى صوت الشيطان الذي سبق أن غرر بأسلافهم يوم بدر ، حتى إذا نزلت بهم الكارثة ولى هارباً وهو يقول : « إني أرى ما لا ترون ... » .

وقد قـدر لهذا الألمعي خبرته حتى قدرها ذلك المؤلف الإسرائيلي الذي عرض لإنذار اللواء محمود بشأن تلك الحرب ، فقال عنـــه في كتابه

« الحرب بين العرب وإسرائيل » إنـه أكبر عقلية استراتيجية في العرب، ولكنه كالنبي في الصحراء .. لا يجد من يستفيد منه .

في التأليف :

ويذكر أن له من التآليف أربعة وتسعين كتاباً، يقسمها أربعة أصناف :

أ – كتب عسكرية فنية تدرس في الكليات الحربية وكليات الأركان .
ب – التاريخ العسكري الإسلامي .
ج – العسكرية السياسية .
د – اللغة العسكرية .

ويعتبر كتابه « الرسول القائد » أحب مؤلفاته إليه، ويقول إنـه أول كتاب له، وقد ظل قرابة العشرين من السنين بعده ويستعد له قبل أن يقدمه إلى النشر، وقد تُرجم إلى اللغة الإنجليزية والفرنسية وأكثر من لغة إسلامية .

وهو على الرغم من كثرة تواليفه لا يعد نفسه كاتباً محترفاً بل هاوياً فقط ! والذي أفهمه من هـذا الوصف أنه لا يكتب ما يريده الناس، بل ما يشعر بالحافز الذاتي إلى كتابته .

ونظرة واعية متأملة إلى موضوعات هذه الكتب، وإلى علاقتها بمصالح الفكر الإسلامي، وحاجة الجيل المعاصر إلى تدارسها .. تؤكد أن الهواية التي يشير إليها لا تعدو كونها تعبير المسلم الملتزم عن رغبته في التوجيه إلى التي هي أقوم .

ويلخص دوافعه إلى التأليف في الجانب التاريخي قائلاً : في الكلية الحربية لاحظت أن الأمثلة التي تعرض من تاريخ الحرب كلها أجنبية .. والأغرب من ذلك أن يكون معظمها عن القادة الذين فتحوا للاستعمار بلاد العرب والمسلمين . ولا حصيلة لذلك سوى تعميق الانبهار بهم في نفس الضابط، وغرس الإيمان

بتفوق أعداء أمته عليها في كل شيء .. وهناك كنت أتساءل : لِمَ لا نستمد هذه الأمثلة من تاريخنا وهو بها أغنى وأحفل ؟ ثم أدركت أن وراء ذلك أمرين : الجهل بماضي هـذه الأمة ورجالها . والثاني المنهج المخطط من قبل المستعمرين لسحق معنويات المسلمين .. ومن هنا جاءت رغبتي في إحياء هـذه المنسيات والكشف عن تلك المؤامرات ، فحزمت أمري على العمل بكل ما أمكنني لسد هذا الفراغ في مكتبتنا العسكرية .

وعن بواعثه لإخراج كتبه المعروفة عن « طبقات القـادة » يقول : عندما كنت في سجن بغداد سألت العديد من الضباط عن القادة الذين فتحوا بلادهم ، فلم أسمع جواباً سديداً ، بل لم أسمع جواباً قط ، ومن هنا وجدتني مدفوعاً إلى تيسير هذه المعلومات الأساسية بالكتب المناسبة .

ومنذ العام ١٩٦٧م توقف — — عن الكتابة في هـذا الجانب من التاريخ ، لينصرف إلى الجوانب الأخرى التي كشفت نكبة ذلك العـام عن مسيس الحاجة إليها في صفوف العسكريين ، وبخاصة أنـه يعتبر جهل العرب بالعدو الذي حاربوه كان السبب الأكبر في هزيمتهم أمامه . وهكذا أكب منذئذ على الكتابة في الدراسات العسكرية ، فكان من ذلك « الوجيز في العسكرية الإسرائيلية » و « العسكرية الإسرائيلية » و « حقيقة إسرائيل » و « دراسات في الوحدة العسكرية » و « أهداف إسرائيل التوسعية في البلاد العربية » و « طريق النصر في معركة الثار » و « الأيام الحاسمة قبل معركة المصير وبعدها » وما إليها .

وتقوده دراساته وخبراته العملية والنظرية في المجال العسكري إلى وجوب العناية بتوحيد المصطلحات العسكرية في الجيوش العربية ، فدعا إلى تكوين لجنة عامة من ذوي التخصص ، تتفرغ لوضع معجم عسكري موحّد —بالكسر— واستجيب لدعوته فتألفت اللجنة ، واختير ممثلا المجمع اللغوي المصري فيها ورئيساً لها ، وعن هذه اللجنة صدر المعجم العسكري الموحد في أربعة أجزاء ،

إنجليزي عربي وبالعكس ، وفرنسي عربي وبالعكس . وكان لهـذا الصنيع مردود عال ، إذ قدم للجيوش العربية واحداً من أهم الوشائج الممهدة لوحدتها . هذا فضلاً عما في هذه الأعمال من دلالات على اهتمام المترجم بخدمة اللغة التي درج على حبها منذ نعومة أظفاره . وحسبنا أن نشير من ذلك بوجه خاص إلى ذلك المجهود الكبير الذي اقتضاه تتبع كلمات القرآن الكريم لاستخراج ما يتصل منها بالمصطلحات العسكرية . وفي هـذا ألف الجزأين من كتابه « المصطلحات العسكرية في القرآن الكريم » وكذلك عني باستخراج ما انطوى عليه كتاب ابن سِيدَه «المخصص» من هذه الأصول التي لا يستغني عنها من يهمه صيانة العربية من غزو اللغات الأجنبية .

مستقبل الجيل :

ونصل من الاستطلاع إلى الفقرة الثانية عشرة، لنستمع إلى رأيه في مستقبل الجيل الذي يسهم في خدمته مع إخوانه رجال الفكر والدعوة ، فيأتينا جوابه مكثفاً في هذه الكلمات .

يقول سيادته : إن قوى هائلة تعمل على تحطيم هذا الجيل، وتفتيت قدراته، وكانت من قبل مقصورة على العدو الخارجي ، أما اليوم فقد وجدت لهـا مرتكزات لا تحصى في الداخل . وهو لا يفرق بإزاء هذه القوى مـا بين قطر وآخر من ديار المسلمين ، بل يعتبر المحنة متشابهة فيها جميعاً .

ويقول : إن أفكاره حول هـذا الموضوع مبثوثة في العديد من مقالاته ومصنفاته ، ويخص بالذكر منهـا كتابه « بين العقيدة والقيـادة » و « الإسلام والنصر » وفي كل من العنوانين صورة بليغة التعبير عن وجهة نظره في هذه الناحية ، وتركيز دقيق على ارتباط مستقبل هـذا الجيل صعوداً أو هبوطاً بمدى التزامه هداية الإسلام ، أو إعراضه عنها .

مهمة العلماء :

وبمثل ذلك الإيجاز البليغ يصوغ سيادته الجواب على أخرى فقرات الاستطلاع ، وهو يحدد مهمة العلماء ومدى إمكاناتهم في ضبط مسيرة الجيل ، والعمل على تحقيق المجتمع الإسلامي المتكامل .

يقول فضيلته : لكي يتمكن العالم الإسلامي من النهوض بكل هذا العبء لا مندوحة له عن شروط ثلاثة : سعة الأفق العلمي التي تمكن من فهم عصره وما يعتوره من مشكلات ، وما تتطلبه من الحلول في ضوء الإسلام .. ثم الإخلاص لله بحيث لا يخاف في الحق لومة لائم ، والثالثة الحفاظ على كرامة العلم ، فلا يمتهنها بالحاجة لغير الله .

ففي رأيه أن عالماً يستكمل هذه العناصر لا بد أن يكون موضع التقدير والأسوة للشباب الذين يتعذر عليهم أن يستسلموا لغير الحقائق .

ويؤكد على هذا الرأي قائلاً : إن المسلمين اليوم في حاجة ماسة إلى قادة كخالد والمثنى و ... إلا أن حاجتهم إلى العلماء العاملين أمسّ وأشد .

هناك أزمة ثقة بين الشيوخ والشباب ، ومرد هذه الأزمة إلى فقدان عنصر القدوة الصالحة في معظم الذين يعدون في الشيوخ ، ويظنون أن كل ما عليهم هو أن يحسنوا عرض الموعظة السطحية ، ولو كان سلوكهم الشخصي أبعد ما يكون عما يدعون إليه .

لمحات من شعره :

وحتى الآن كانت الصورة البارزة للمترجم أنه الرجل العسكري المثقف ، الذي وقف قلمه على هذا الجانب من تخصصه في كل ما كتب وألف وحاضر ، وهو اتجاه لا ينتظر معه أي نزوع نحو الشعر ، وما يحفز إليه من هتافات الخيال

وتموجات العواطف. ولكن سيادة الأخ العزيز قد أبى إلا أن يجدد –ولو إلى حد– ذكرى الشعراء الفرسان الذين جمعوا بين صناعة الموت ورقة الأفئدة. لنستمع إليه يرسل هذه الزفرات في رثاء جدته :

أجهدتِ نفسك فاستريحي قليلاً	قد كان عبئك في الحياة ثقيلا
نزلت عليك مصائب الدنيا ولو	نزلت على جبل لخرّ مهيلا
وجد القنوط إلى الرجال سبيله	وإليك لم يجد القنوط سبيلا
ولرب فرد في سمو فَعاله	وعلوه خُلُقاً يعادل جيلا

إنها أبيات على قلتها تعكس ثقافة أديب متمكن كملت له الأداة، فهو يتذوق سر الحرف، ويحسن تأليف النغم المؤثر.. وتستجيب له القافية في عفوية لا تتوافر إلا للشعراء المتمرسين.

وفي فلسطين تسترد قواته مدينة جنين من قبضة العدو بعد تركيزه فيها، فكان لذلك أثره المشكور في نفوس أهليها، الذين قابلوا هذه المنة بالمودة البالغة. ولما حان موعد انصراف هذه القوات – إلى العراق – إثر وقف القتال المفروض شيعت جنين منقذيها بكل مظاهر الاعتراف بالجميل.

وفي أحد تلك الاحتفالات، وقد قُصد لإقامته في المقبرة التي ضمت شهداء تلك القوات، وقف اللواء الركن ليرد على تحية الأخوة بهذه النفثات اللاذعة :

هذي قبور الخالدين وقد قضوا	شهداء حق ينقذوا الأوطانا
المخلصون تسربلوا بقبورهم	والخائنون تسنموا البنيانا
لا تعذلوا جيش العراق وأهله	بلواكم ليست سوى بلوانا
أجنين يا بلد الكرام تجلدي	ما ضاع حق ضرجته دمانا

إني لأشهد أن أهلك قاوموا ... غزو اليهود وصاولوا العدوانا
فإذا نكبتِ فلست أول صارم ... بهظته أعباء الجهاد فلانا
مرج ابن عامرَ خضبته دماؤنا ... أيصير ملكاً لليهود مهانا !
إني لأعلم أن دين محمدٍ ... لا يرتضي للمسلمين هوانا
وهو الخلود لمن يموت مجاهدا ... ليس الخلود لمن يعيش جبانا

ومع أنها نظمت في وقت لا يتسع للتنقيح – كما يقول – فقد حفلت بصور مكثفة للواقع الرهيب الذي أحاط بقضية فلسطين ، ثم انتهى إلى انسحاب « الجيوش السبعة » لتدع العدو مطلق اليدين في الأرض الحبيبة يتصرف بها وببقايا أحفاد الفاتحين فيها كما يشاء .

شهادات غير مكتوبة :

وبعد فهذه خطوط عجلى حاولنا بها الدلالة على شخصية لم يعد في أوساط المثقفين من العرب والمسلمين من يجهل مكانتها وآثارها . وقد بقي علينا أن نختم هذه الخطوط بإشارة أخرى إلى المراكز الرسمية التي شغلها ولا يزال يشغل بعضها حتى اليوم .

أول هذه المراكز رتبته العسكرية التي أصبحت لقبه الذي لا يفارقه عند كل تعريف ، وهو أنه لواء ركن باستحقاق أكثر من عشرين سنة في الجيش العراقي ، ومميزات عملية لم يقترب منها كثيرون ممن أعطوا أنفسهم أو أعطوا مثل هذه الألقاب .

ثم تأتي مراكزه العلمية :

فهو عضو المجمع العلمي العراقي .

وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر .

ورئيس لجنة توحيد المصطلحات العسكرية للجيوش العربية في جامعة الدول العربية .

وقد اختير عضواً مؤسساً في مجلس رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة ، ثم عضواً في المجلس الأعلى العالمي للمساجد التابعة للرابطة .

وأخيراً لا ننسى أنه شغل المناصب الوزارية سبع مرات .

وليس هذا وذاك سوى شهادات غير مكتوبة تؤكد إجماع الأوساط المختلفة من عسكرية وعلمية ودولية وإسلامية على أن هذا الرجل موضع التقدير والإعجاب والثقة من الجميع ، وعلى سائر المستويات .



١٦

الشيخ محمود عبد الوهاب فايد

كان مولده يوم ١٩٢١/١١/٣٠م – كما تشهد بذلك وثيقة الميلاد – في قرية « دمينكه » من محافظة كفر الشيخ ، وهي قرية معروفة بهذا الاسم في « معجم ياقوت » و « مراصد الاطلاع » وأسرته مميزة بطلب العلم ونشره ، فوالده من الشيوخ المعروفين بالعلم والصلاح ، وجده الشيخ مبروك كان حجة في العلوم الدينية ، وقد خلّف – كما يقول المترجَم – مكتبة بخطه تضم صحيح البخاري وتعليقات عليه ، ومنها الشرح الصغير ، والشرح الكبير في فقه المالكية ، ومنها تفسير الجلالين ، وشرح ألفية السيوطي في النحو .. وغيرها . وأخوه الأكبر الشيخ محمد فايد مأذون القرية ، ويصفه الشيخ محمود بأنه معروف بتدينه وورعه واستمساكه بالسنّة في كل أمر . وأخوه الذي يليه هو الدكتور عبد الوهاب ، مدرس في كلية أصول الدين بالجامع الأزهر ، وله أخ آخر باسم محمد ، وهو أيضاً مدرس بوزارة التربية ، وكان حتى آخر العام الماضي ٩٥/٩٦هـ معاراً إلى المملكة السعودية ، ثم ابن عمه الشيخ محمد عبد الغني كان واعظاً بالأزهر ومن علمائه المعروفين بالصلاح ، وابن عمه الآخر عبدالله عبدالغني فايد متخرج في دار العلوم ومدرس في الثانويات .

وطبيعي أن أسرة تضم كل هذا النفر من أهل العلم والفضل لا بد أن تترك أثرها عميقاً في حياة المترجَم .

وقد شاء الله أن يُرزأ الشيخ بوالدته وهو في الرابعة من سنيه، فكان له ذلك الوالد بمثابة الأم والأب جميعاً . ولما نضجت فيه قابلية التعلم وجهه إلى القراءة والكتابة والحساب إلى جانب حفظ القرآن العظيم ، حتى إذا أتم حفظه ذاك ألحقه بمعهد دسوق الديني التابع للأزهر، وكان ذلك عام ١٩٣٣م وفي هذا المعهد استكمل دراسته الابتدائية حتى نال شهادتها خلال أربع سنوات ، وهي المدة المقررة لهذا المعهد .

ويلاحظ أن هذه الابتدائية غير الابتدائية التي نعرفها اليوم ، والتي تمتد ست سنوات حتى يتأهل الطالب للالتحاق بالسنة الإعدادية الأولى ، ذلك أن هذه السنوات الأربع قد سبقتها دراسة أخرى جادة زودته بمعلومات وافية إلى جانب استظهار القرآن الكريم ، الذي هو المرتكز الأساسي للثقافة الإسلامية ، التي ورثها الأزهر وغيره من المعاهد الإسلامية، واستمرت عليها طوال القرون، حتى امتدت إلى تلك المناهج أيدي العابثين ، والمهرجين من مدعي التجديد ، فمسخت الدراسة الابتدائية في ديار المسلمين جميعاً ، حتى أصبحت ضرباً من مكافحة الأمية، ليس وراءها رصيد من علم ولا ثقافة ولا من يحزنون . ولا ننس عمق المقررات التي كان الطالب يدرسها في ذلك النظام الابتدائي الأزهري ، وبخاصة في العربية والثقافة الإسلامية ، مما لا يتوافر مثله لحملة الثانوية في هذه الأيام .

ويحدثنا الشيخ عن بعض مشكلاته أثناء تلك الدراسة ، فيشير إلى ثورة قام بها طلاب المعهد للمطالبة بإصلاح الأزهر ، والظاهر أنه كان مسؤولاً عن بعض النشاط المميز في هذه الحركة ، فتقرر فصله ، ثم لم يلبث أن أعيد بعد أن نجحت تلك الحركة في تحقيق أهدافها كما يقول، وبحصوله على الشهادة الابتدائية هذه التحق بمعهد طنطا الثانوي ، وكانت مدة الدراسة فيه آنئذ خمس سنوات .

يقول الشيخ : أثناء دراستي في السنة الثانية في هذا المعهد تناهى إلى مسامع الطلاب أن كتاباً يدرّس في كلية الآداب بقرار من عميدها يتضمن مساساً برسول الله صلوات الله وسلامه عليه . فثار الطلبة معلنين استنكارهم ، وأضربوا عن الحضور ذلك اليوم . فبادر الشيخ إبراهيم الجبالي شيخ المعهد بفصل نفر منهم ، وكان لذلك الفصل أثره في نفوس الطلبة ، وفي نفسه خاصة ، فإذا هو يثير حمية زملائه لنصرة المفصولين فيلقي منظومة يحرضهم بها على التحرك لاستعادتهم ، ولا بأس أن نثبت هنا بعض هذه الأبيات لنتبين مدى استعداد هذا الفتى للعمل الخطابي أو (الثوري) على حد تعبيره :

أرى بالإنس إخواناً كراما ... لهم في الحق ألسنة تنادي
رأوا أن العميد أتى بسفر ... بـه ما لا يليق بذي الرشاد
فقاموا يعلنون أشد سخط ... ويبدون العداء لمن يعادي
فهل في مثل ذاك يليق فصل ... وهل إخوانكم مثل القتاد!

ثم ختمها بقوله :

فجدوا واطلبوا بطريق سلم ... رجوعهم وإلا باشتـــداد

وكانت العقوبة هـذه المرة أكبر من مجرد الفصل ، إذ جمعت بين الفصل والحبس ، فقد استعان شيخ المعهد برجال الأمن فاحتجزوه .. وشد مـا ثقل هذا السجن على الفتى ، فإذا هو يتململ ويترجم آلامه بأبيات أخرى وجهها إلى المراقب بالمعهد يستشفعه للإفراج عنه ، وفيها يقول للشيخ المراقب :

ماذا أقول وقد بلاني القاسي ... أأقول ناس أنت أم متناسي!
هلا ذهبت إلى المدير موضحاً ... له أمرنا حتى يخفف ياسي
أيليق بالعلم الشريف وربه ... أن ينجلي متحجر الإحساس

أحسبتمُ أني فعلت كبيرة	ونشرت مجهولاً أمام الناس!
فبلوتموني بالعقوبـــة والأذى	من غير تبصرة ولا قسطاس
فزنوا الأمور وقدروها قدرها	وابنوا لبيت العدل ُخمسَ أساس

وهكذا يسترسل الفتى السجين في عتاب يشتد إلى حد التقريع لشيخ المعهد والمسئولين معه ، وقد نسي أن الذين يوجه إليهم هذا الخطاب يستطيعون إذا شاؤوا أن يضموا مضمونه إلى مآخذه الأخرى ، فيكون سبباً إلى إطالة مكثه في القسم ، وحائلاً دون النظر في الصفح عنه وإعادته إلى الدراسة .. ولكن الفتى مطبوع على الصراحة ، فهو يشكو لأنه متألم ، وهو يؤنب لظنه أنه مظلوم يخاطب ظالميه . وسنرى أنها الخصائص التي لا تزايله حتى بعد أن أوغل في العقد السادس من عمره المبارك .

ثم إن في استخدامه المنظوم لمثل تلك المناسبات ملامح نفسية تؤكد أنه ذو فاعلية تبتغي تحقيق ذاتها عن طريق التأثير في الآخرين . ولا أراني مبالغاً إذا قلت إنها كذلك إحدى الصفات التي يحسها بداهة كل مخالط له حتى الآن إنه سريع الاستجابة لدواعي الكلام ، يدفعه إلى ذلك ثقة كبيرة بأفكاره وبمواهبه ، وهي ميزة تكاد تلابس معظم خريجي كليات الدعوة وأصول الدين من الأزهريين ، وإن تفاوتوا في حجم الموهبة وألوان الثقافة العامة .

أما طابع الإثارة في أفكاره فواضح من خلال صيغ التحريض، التي يحاول توكيدها بما يشبه البراهين المنطقية ، فهو يعرض التهم ثم يرد عليهـا ، ويحيطها أثنـاء ذلك بظلال من الفقرات الانشائية لتكون أكثر تحريكاً للمشاعر . ولا بأس أن يبلغ من التحريض حد الدعوة إلى ألوان الشدة إذا لم تنجح المحاولات السلمية ، كما يفعل بخاتمة الدالية ، حيث يبدو لك مفعماً بشعور القـائد الذي يخاطب جنوده ، لا الطالب الذي يلتمس من نظرائه مـا يريد . وهي نفسها

الظاهرة التي تريك إياه ، من خلال محاضراته ومقالاته ، وهو على أتم الثقة بأنه واحد من قادة الفكر ، الذين يقدمون لقرائهم ومستمعيهم مـا هم بحاجة إليه من التوجيه إلى أقوم سبيل .

الشيخ العنيد :

ولعل في الخبر الطريف الذي ننقله في ما يلي عن مجلة « التحرير » ما يساعد على استكمال الصورة التي نحاول إيضاحها للمترجَـم من خلال آثاره .

بعد عشر سنوات من تخرج الشيخ في كلية أصول الدين وفي العدد ١٨٥ من عام ١٩٥٦م تقول المجلة عن الشيخ محمود فايد : « إنه مناكف قديم.. كان الأول عند تخرجه في الأزهر، وكان المتبع أن يدعى الأوائل من الناجحين في كل سنة إلى حفلة يحضرها الملك السابق ، ويصافح فيها المتخرجين ، وأعطيت الأوامر إلى الجميع بأن ينحنوا عند مصافحته . ولكن هذا الشيخ العنيد أبى أن ينحني، وصافح مولانا وهو منتصب القـامة رافع الرأس .. وبسبب ذلك صدر الأمر بتعيينه في سوهاج بخلاف ما جرى عليه العرف من تعيين الأولين في القاهرة » .

أجل إنه الشيخ العنيد .. الذي طالما جرّ عليه عنادهُ وصراحته الأهوال وهو ثابت على ما يؤمن أنه الحق، لا يحني لباغ رأساً، ولا يغض عن ظالم طرفاً، ومن أجل ذلك كان نصيبه من البلاء في عهد أصحاب(التحرير) أضعاف ما لقيه في ظل الملك الغرير .

ولا يحسن بنا ، وقد أطلنا الوقوف مع بواكيره الشعرية ، أن نغفل الإشارة إلى أسلوبه التعبيري في هذه المنظومات وما تنطوي عليه من الدلالات . فأول ما نلاحظه هنا أنها محاولات مبتدىء لما تستقم له الأداة .. ولكنها مع ذلك تنبىء عن طموح ذكي يتطلع إلى مستوى مرموق ، ولا يستحيل معـه تحقيق المأمول . وما أدري إذا كان فضيلته سيتحفنا في النهاية بنماذج من شعره الذي بلغ مرحلة ملموسة من النضج في ما بعد .

شخصيات مؤثرة :

ولم يخصص الشيخ استطلاعنا الخامس بإجابة مستقلة ، بل أورد الكلام عن الرجال الذين أثروا في توجيهه مدرجاً في غيره من الحديث . وطبيعي أن يكون والده في مقدمة هؤلاء المسهمين في تكوينه الفكري . وكيف لا يكون له هذا الأثر وهو على المستوى الذي يصفه المترجَم من الفضل.. لقد رأيناه يحتضن ابنه بحنان الأم والأب جميعاً ، فيعوضه ما سلبه الموت من رحمة الأم . ولنستمع إلى المترجَم الآن يحدثنا عن بعض هذا الفضل .

يقول الشيخ : إنه كتب إلى والده يستشيره في ما يعتزمه من نقد لتصرفات شيخ الأزهر يومذاك ، بعد أن جرته (السياسة الثورية) إلى مواقف لا يرضى عنها الإسلام الذي يمثل أكبر معاقله، وهو يتوقع إذا نشر ما يريد في هذا الصدد أن يعاجَل بالنقل إلى قِنا ، فجاءه جواب الوالد غير بطيء ، لا يثبطه ولا يشجعه ، ولكن يرده إلى قلبه ليستفتيه في ما هو مقدم عليه ، دون أن يفكر في ما وراء ذلك من أذى بعضه النفي . يقول الوالد : « أنا لا يعنيني أن تنقل إلى قنا أو تبقى هنا – في القاهرة – إنما يعنيني فقط أن تلزم جانب الحق في كل ما تقول .. » وكأن ذلك الوالد يستوحي هنا عبارة ذات النطاقين وهي تذكر ابنها الصحابي الجليل بالتضحيات التي يستوجبها الحق .

وكأنما ألفى الابن في حكمة والده إشارة بلزوم الإقدام ، فإذا هو يرسل قنبلته التي كانت إيذاناً بمعركة ستتسع حتى تهز الأزهر كله – كما سنرى – ووقع المحذور الذي توقع فنقل إلى قنا ، ثم أحيل إلى مجلس التأديب بعد أن قطع راتبه . وقدم الوالد القاهرة لزيارة ولده أثناء ذلك ، وفي أحد المساجد يلتقي بصديق له يعطف على قضية الشيخ محمود ، فطلب هذا من الوالد أن يدعو للشيخ بالنصر على خصومه ، فلم يزد أن قال : اسمع يا حاج علي . إن كان محمود على الحق ، وهذا ما أعتقده ، فسينصره الله ، وإن كان على باطل فلا أحب إليّ من أن يلقى التأديب الذي يستحق .

وتطول صحبة الشيخ لهذا الوالد الصالح فيعمق أثره في كيانه ، ويزداد حباً لولده هذا على مر الأيام ، حتى ليسمعه يدعو له عقيب كل صلاة ، وقد وفق إلى مرافقته في الحج ، فلم ينس الدعاء له أيضاً في طوافه وسعيه وفي كل موقف من المشاعر المقدسة .

ويروي صديقنا عن ذلك الوالد أنه قال له وهو يداعبه ذات يوم : « أتعرف يا محمود لماذا نقلت إلى قنا ؟.. يا محمود .. إنك تدرس التفسير .. ولقد قالوا في تفسير سورة يوسف إنه قال : « ربّ السجن أحب إليّ » ، فدخل السجن ثم أنعم الله عليه ، ولو أنك أملت غير ذلك من فضل الله لحققه الله لك » .

يقول الشيخ : كان لهذا الدرس عميق الأثر في نفسي ، ولقد انتفعت به يوم أودعت السجن الحربي عام ١٩٦٤م فصليت ودعوت الله ألا يبقيني فيه أكثر من ذلك اليوم ، وجاء فرج الله فغادرت السجن بعد ليلة واحدة فقط .

ويذكر الشيخ من العلماء الذين يعتبرهم من المؤثرين في نفسه شيخ معهد دسوق الشيخ محمود الغمراوي ، والشيخ إبراهيم الجبالي شيخ معهد طنطا ، وذلك على الرغم مما لقيه على يدهما . لقد فصله الشيخ الغمراوي في المرحلة الابتدائية ، وفصله الشيخ الجبالي في القسم الثانوي ، ومع ذلك لم ينقم منهما لأنهما –كما يقول– كانا يغمرانه بالحب والتقدير ، وكان يعجبه فيهما مكانتهما العلمية والهيبة التي كانت لهما بين الناس وفي أوساط المثقفين .

ويعد من الشخصيات ذات الأثر البعيد في نفسه كذلك الشيخ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين ، ثم الشيخ حسن الهضيبي المرشد الثاني للإخوان ، ثم الأستاذ سيد قطب . ولكنه لا يوضح مدى صلته بهم ، وكنا نود لو يتبسط في هذا الجانب من حياته .

ولقد حدثنا الصديق العزيز ، حفظه الله ، بخبر حادثة جرت له مع الشهيد سيد قطب والشيخ محمد الأودن ، رحمهما الله ، إذ كان بين ثلاثتهم لقاء يتعلق

بشئون الدعوة ، سرعان ما انتهى إلى اعتقالهم ، فبقي الأثنان رهن الاعتقال . وخرج هو ، كما ذكر آنفاً ، وأرجو أن تتاح لي الفرصة لصياغة ذلك الحادث في قصة قصيرة ذات يوم .

علومه المفضلة :

وفي إيجاز واف يجيب على سؤالنا عن أحب العلوم إليه فيقول : « أحب العلوم إليّ تفسير كتاب‌الله، ودراسة سنّة رسول‌الله صلى‌الله‌عليه وسلم. ولا بدع فعلى الكتاب والسنّة يقوم الدين الصحيح البرىء من الشوائب ، وبهما تتحقق السعادة التامة في الدنيا والآخرة » .

وإيثار الشيخ لعلوم الكتاب والسنة لا يعني انفصامه عن العلوم الأخرى ، فقد تولى أثنـــاء حياته التدريسية تعليم المواد المختلفة ذات الصلة بهذه العلوم ، وبخاصة علوم اللغة والبلاغة والتوحيد والمنطق .

وطبيعي ذلك لأن من أبرز خصائص الشيخ أنه رجل دعوة يتصل بمختلف الجماهير عن طريق الخطابة والكتابة والموعظة ، وهي شئون تستدعي التضلع بكثير من العلوم .

معركة لا تنسى :

وهنا يجد الشيخ مجال الحديث متسعاً فيتحفنا بما لذ وطاب عن الأحداث التي عاصرها ولابسها . وقد ركز بوجه خاص على معركته مع الشيخ عبدالرحمن تاج شيخ الأزهر السابق ، وأحسن في ذلك ، لأنه يتيح لنا من خلال هذه المعركة أن ندرس الكثير من الأوضاع التي رافقت عهد الإرهاب والكبت ، فكان في هـذه المعركة متنفَّس لغير واحد من هؤلاء الذين فرض عليهم الصمت بإزاء الأهوال التي كانت تنيخ على صدور الناس .

كان عنوان المقال الذي افتتحت به المعركة قذيفة ذات رؤوس متعددة .

إنه « باسم الله والله أكبر ، فليستقل شيخ الأزهر » إنه إعلان حرب لا يراد لها أن تخمد إلا باستقالة شيخ الأزهر ولم يذكر الشيخ أين نشر المقال ، ولكن نرجح نشره في مجلة « الاعتصام » التي كانت أحد المنافذ الصغيرة التي تركتها السياسة الثورية متنفساً لأهل الإسلام .

وسرعان ما انتشر دوي القذيفة ، فإذا هو يهز الأزهر كله ، فيقابله الكثرة من الأزهريين بكل مظاهر الرضى والتأييد ، إذ وجدوا فيه تعبيراً عن رأيهم في الموضوع المثار . ومن هنا جاء نقله إلى معهد قنا ، ثم وقف راتبه وإحالته إلى مجلس للتأديب ، ألف بسرعة من الشيخ الحسيني سلطان وكيل الأزهر رئيساً ، والشيخ عبد اللطيف السبكي عضو يمين ، ثم تبع ذلك قرار جمهوري من قِبل الرئيس بتعيين الدكتور مصطفى الحفناوي لعضوية اليسار .

ولما انتشر الخبر تطوع بعض المحامين لاحتلال مقاعد الدفاع . ويسمي الشيخ من هؤلاء الأساتذة سليمان العقاد ، وعبد الحميد عبد المقصود ، ومحمد عيسى عطية خميس .

انتصار :

وفي اليوم الذي عين للجلسة الأولى حضر الشيخ مع محاميه ، فأصروا على ما كتب ، وأثبت في المحضر أن راتبه قد قطع قبل أن يدان . وطلب المحامون تأجيل الجلسة للاطلاع ، ولمس المحامون ما ينتويه رئيس المجلس ، فتباحثوا في الأمر وعلموا من الشيخ ما سبق أن كتبه عن هذا الرجل في مقال كشف عواره ، وطالب بتعزيره لأنه نسب إلى الرسول ﷺ ما لم يقله . وفي الجلسة التالية أجمع المحامون على مطالبة وكيل الأزهر بالتنحي عن رئاسة المجلس لأسباب لا يريدون الإفصاح عنها حرصاً على كرامته ، فرفض مطالبهم إلا بعد إبداء الأسباب ، فسجلوا في المحضر نص المقال المشار إليه قائلين : كيف ترئس مجلس تأديب تحاكم فيه رجلاً، طالب بتأديبك لكذبك على رسول الله ﷺ !..

وتكهرب الجو وأجلت الجلسة بعـد أن سجل المحامون طلبهم في مذكرة خطية . فما كان من فضيلة الوكيل الرئيس إلا أن كتب على ظهر المذكرة حكماً بفصل الشيخ المتهم قبل انعقاد المجلس ! وكان لذلك رد فعل سريـع ، إذ قابل الدكتور الحفناوي تصرف الرئيس بالاستنكار ، ثم أبلغ الخبر رئيس الجمهورية . وشاع النبأ، وأخفقت المحاكمة، وجاء المفاوضون يغرون الشيخ بمختلف العروض مقابل سكوته، فرفض كل عرض ، إلا أن يعود مدرساً كما كان في معهد منوف، وأن يعود كذلك زملاؤه الذين أيدوه إلى معاهدهم التي نقلوا منها . ولم يلبث المسئولون أن استجابوا لكل هذه المطالب ، وخرج الشيخ من المعركة رافع الرأس منتصراً . وجـاء المؤيدون يستقبلونه بالتهاني ، وفي مقدمتهم العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز ، رحمه الله ، الذي تلا على الشيخ قوله تعـالى : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمةَ الله عليكمْ إذْ همَّ قومٌ أن يبسطوا إليكم أيديَهم فكف أيديَهم عنكم واتقوا اللهَ وعلى الله فليتوكلِ المؤمنون » .

خلفيات المعركة :

ووجد شاعر الأزهر –كما يسميه الشيخ– الدكتور حسن جاد أستاذ الأدب بكلية اللغة العربية ، في هذه الأحداث روافد صالحات لإنشاء مسرحية شعرية صاغها ونشرها في العدد الرابع من مجلة « السيدات المسلمات » عـام ١٣٧٦هـ بعنوان « محكمة المجاذيب » وقد رمز فيهـا إلى الشيخ فايد باسم « عائد » وإلى الأزهر باسم « المعشر » .

يقول الشاعر الدكتور على لسان الوكيل الرئيس في تعليله للحكم الذي أصدره على الشيخ فايد :

من حيث إن (عائداً)	قد لام شيخ (المعشرِ)
وأعلن الحق جهـا	راً ونبـا بالمنكر
وراح يزري بالنفـا	ق وهو ليس بالزري

وضاق بالإلحاد والـ ـمجون في تهور
وبعد ما تلاه من دفاعه الموقر
فقد رأينا فصله من المحيط المعشري

ثم يقول على لسان الدكتور الحفناوي المستنكر لذلك الحكم :

أجيبوني أليس الدين حقاً فكيف جعلتموه هوى مطاعا
أيفصل من يقول الحق منكم ويكرم من يضيعه ضياعا
تسابقتم إلى الحكم اعتباطا ودبرتم نهايته سراعا
وزورتُكمْ فلم نسمع عليه مداولة ولم نسمع دفاعا

ثم يتبع ذلك على لسان الشيخ فايد بعد رفضه العروض المغرية :

معاذ الله لست أريد جاها وليس هوى المناصب من طباعي
فكفوا عن مساومتي بدنيا يباع الحق فيها كالمتاع
يمين الله لا ألقي سلاحا ولست بغمد يوماً يراعي

وقد اشترك في هذه المعركة أكثر من صحيفة ، فمجلة التحرير كتبت عنها في العدد ١٨٥-١٩٨ ، وجريدة المساء تناولت الموضوع في ٢٦ يناير ١٩٥٧ ، أما مجلة السيدات المسلمات فتابعت القضية في أعدادها الأربعة ربيع الآخر ورجب وشعبان ثم رمضان في عام ١٣٧٦ ، وكذلك شارك في الموضوع مجلتا صوت الإسلام والاعتصام .

ولا جرم أن اجتماع هذه الصحف كلها ، وأولئك المحامين الخمسة، على الخوض في هذه القضية إنما يصور ، كما أسلفنا ، أوضاعاً نفسية كبر ما يحيط بها من الضغط ، فهي تبحث عن منفذ تتنفس منه ، فما إن وجدته في هذه القضية حتى اتخذت منها وسيلة للتخفف مما تعانيه . وكانت القضية جديرة بالاهتمام لأنها تمثل عدواناً على مؤسسة إسلامية استطاعت أن تحتفظ باستقلالها طوال عشرة قرون،

حتى جاءها ذلك الحكم يريد تسخيرها لمآربه ، ولو أدى ذلك إلى طعن الإسلام في الصميم . ولقد استطاع ذلك الحكم الرهيب أن يحقق غير قليل من النجاح في هذا المعقل الخالد ، باستجراره بعض المسئولين فيه إلى الخضوع لأهوائه ، فكان لا بد من رد الفعل الذي ترجم غضب الجمهور المسلم من أهل العلم على ذلك العدوان وعلى الضالعين معه من المسئولين .

وأخيراً إن في هـذه المعركة صورة لا ينبغي أن تنسى من تلك الحقبة التي أريد بها خنق كل صوت يرتفع بكلمة (لا) ولو أدى ذلك إلى إزهاق الأرواح وإذلال الأمة ، ورفع الأبرياء على أعواد المشانق ، وشحن السجون بكل كريم من الأطهار الأحرار .

كلام دونه السهام :

والمؤرخ لحيـــاة الشيخ محمود فايد لا يستطيع إغفال شجاعته في مواجهة رئيس الجمهورية أثناء أخطر عهوده التي أغلقت الأبصار ، وكمت الأفواه ، وغلت الأيدي ، فلا يجرؤ امرؤ على الإشارة بله الكلمة ، إلا إذا كان من المغامرين الذين لا يبالون العواقب ، أو المؤمنين الذين لا يرجون لغير ربهم وقاراً .

لقد كشف الرئيس عن نواياه الخفية جميعاً حين أعلن حربه على بقايا النظام الإسلامي في مصر بإلغائه القضاء الشرعي ، ومصادرته حقوق الأفراد والجماعات في التملك والكرامة والعدالة وحرية الكلمة .. ولم يكن بد للجريح من التأوه ، فارتفعت بعض الأصوات الجريئة من أوساط العلمـاء ، تعلن حكم الشريعة في ما يجري من عدوان على مبادئها الأساسية ، وتذكّر الرئيس بمسئولياته تجـاه الإسلام والشعب الذي يحكمه . وطاش صواب الرجل بإزاء هذه المعارضة ، إذ كان يظن — ثقة بشهادات من حوله من بطانة الفساد — أن الإسلام قد انتهى بمحنة الإخوان المسلمين ، فلا موضع لكلمة (لا) أمام كل ما يأتيه وما يذره .. وانتهز إحدى المناسبات السياسية فراح يهدد ويوعد ، وخص معشر العلمـاء

بدفقة من السباب البليغ . وعلى طريقة الشيوعيين في التهوين من علماء الإسلام، جعل يتهم أصحاب العمائم باستغلال الدين في سبيل بطونهم وشهواتهم ، ولو أدى ذلك بهم إلى بيع الفتاوى بالفراخ.. دون أن يفرق في هيجته بين الذين ينافقونه والذين يعارضونه من المشايخ .

وكان مستحيلاً على مثل محمود فايد أن يدفن ثورته في قلبه بإزاء ذلك التهجم الضرير فكتب أهم مقالاته -كما يقول- في نقد ذلك الهذر، وحملت «الاعتصام» ذلك المقال الشافي للصدور في عدد ربيع الأول من عام ١٣٨١ .

لقد قدم لمقالته بعرض كلام الرئيس، ثم تجرد للرد عليه بصراحته التي لا يملك عنها انفكاكاً .

قال الشيخ موجهاً كلامه إلى الرجل ، الذي نسي، في غمرة الاعتداد بالقوة ، مسئوليته كرئيس دولة :

«.. هنا أحب أن أقف مع الرئيس وقفة قصيرة، ومن حقي أن أقف معه، فقد حدثنا سيادته عن عمر بن الخطاب ، وقد حفظنا عن تاريخ عمر أن امرأة استوقفته فوقف، وأطالت معه الحديث، وكان مما قالت : « لقد كنت من قبل عميراً ثم صرت عمر ، ثم أصبحت أمير المؤمنين ، فاتق الله وانهج سبيل الحق ، فبكى عمر حتى اخضلت لحيته ، فقال رفيقه : كفى يا أمة الله ، فقد أبكيت أمير المؤمنين . فنهره عمر وقال : لا خير فيكم إذا لم تقولوها ، ولا خير فينا إذا لم نتقبلها » وليسمح لي سيادة الرئيس أن أناقشه ، وأرجو ألا أتهم بأني أجير للرجعية ، فقد كنت ، وأنا من أصحاب العمائم ، من أرباب الأقلام المتواضعة ، التي لم تدخر وسعاً في محاربة الفساد ، في وقت اشتد فيه الضغط واستفحل فيه الاستبداد والإرهاب ،وكان نفر من الجيش ومن الجيش وحده هو الذي يحمي حمى الفاروق ، وكان نفر من الجيش ومن الجيش وحده هو الذي يأكل على مائدة ولي عهده الطفل والقاهرة تحترق .. فهل يجوز يا سيادة الرئيس

أن يذاع على العالم ، وبجميع اللغات ، ومن رئيس الجمهورية العربية نفسه ، مثل هذا الكلام !

لقد فاتك أن تعقب بأن كثيراً من ذوي العمائم كان لهم مواقف كريمة وغيرة مشكورة ، وإحساس مرهف .. وإنك لتعرف بعضهم ، ولبعضهم عليك فضل.. ومن فضل الله أن شعبنا فاضل واع ذكي أريب ، يعرف مقاييس الرجال ، ويميز الخبيث من الطيب .

وختاماً يكفي العلماء العاملين شرفاً وفخراً أن أحكم الحاكمين زكاهم ورفع قدرهم وخلد ذكرهم ، فقال سبحانه : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » ويكفيهم في المدح والثناء قول أفضل البشر : « العلماء ورثة الأنبياء » .

مناقشة تحليلية :

وإذا لم يكن بد من التعقيب على هذا البيان المبين فسأكتفي بتوجيه النظر إلى ناحيتين اثنتين منه . أما الأولى فالشجاعة التي تدفع صاحبها إلى المغامرة برأسه في سبيل الحق ، الذي أخذ الله العهد على أولي العلم بنصرته .. وبخاصة في ظل تسلط يحاسب على الخلجة ، ويقتل على الهمسة ، ويسجن كبار الرجال من صالحي العلماء مع الكلاب المفترسة في السجن الحربي.. ولعمر الحق إن البطل الذي يقتحم صفوف العدو الكمي ، ليس أحق بالتقدير من مؤمن يقف أمام سلطان فتاك ليقذف بوجهه كلمة الحق صريحة مجلجلة . ورحم الله شوقياً الذي يقول :

إن الشجاعة في الرجال مراتب   وأجلهن شجاعة الاراء

وأما الثانية ففي تلك الغمزات الجارحات التي يرمي بها مقاتل خصمه فلا يخطئها . أنعم النظر معي في هذه العبارات :

كان نفر من الجيش ، والجيش وحده ، هو الذي يحمي حمى الفاروق .

وكان نفر من الجيش، والجيش وحده ، هو الذي يأكل على مائدة ولي عهده الطفل ، والقاهرة تحترق .

وأنك لتعرف بعضهم .. ولبعضهم عليك فضل .

إن شعبنا شعب فاضل ذكي .. يعرف مقاييس الرجـال ، ويميز الخبيث من الطيب .

يكفي العلماء العاملين شرفاً وفخراً أن أحكم الحاكمين زكاهم و . . .

ويكفيهم في المدح والثناء قول أفضل البشر (العلماء ورثة الأنبياء) .

إن هنا لقذائف دونها صواريخ سام وهي تطارد فرائسها بقيادة الرادار .

وباء الطغيان :

ولعمر الله لا أستطيع أن أتصور مدى خيانة الأمة لأمانة الله ، لو لم يقيض لها من يحمل عنها عبء التصدي لذلك الطغيان الجارف ، فيقول لأصحابه مثل هذه الكلمات التي من شأنها أن تنهنه من سكرة الغرور ، وتقيم على المغرورين حجة الله !..

إن الطغيان السياسي كالوباء الزاحف ، يبدأ صغيراً محدوداً ، فإذا حوصر بالمحصنات الرادعات تقلص وتلاشى ، أما إذا أهمل شأنه وفسح له سبيل التكاثر لم يقف أثره عند حد ، ومضى يدمر كل شيء يصادفه ، ثم لا يلبث أن تتغلغل عدواه إلى ما حوله ثم ما بعده إلى غير نهاية.. وهذا ما حدث للطغيان الكمالي، يوم أقدم الدونمي أتاتورك على تقويض الخلافة ولم يجد قوة تردعه ، ولما اطمأن إلى سلامة الطريق انطلق يهدم كل قائم في بناء الإسلام ، حتى كاد يأتي عليه من القواعد في تركية المسلمة .. ولم يقف شره عند حدود تركية ، بل أخذ يتدفق إلى كل مكان من بلاد الإسلام يجد فيه استجابة من المضلَّلين والمضلِّلين ، وليست هذه الفتن ترسل شرورها هنا وهناك في ربوع الإسلام سوى بعض آثار

السكوت على عدوان ذلك الطاغية الدموي على حرمات الإسلام ، وما أظن مؤرخاً حصيفاً يدقق النظر في العلاقـة بين هذه الانفجارات الهدامة في ديار المسلمين إلا واجداً ارتباطها الوثيق بتلك المحنة الكبرى ، محنة تقويض الخلافة والعدوان على معالم الإسلام في دولة الخلافة . وهكذا تسري عدوى الوباء ، وباء الانتقاض على نظام الإسلام من ثورة إلى ثورة ، ومن بلد إلى بلد . وليس مقتل علماء الإسلام حرقاً وهم أحياء في مقديشو بأيدي عصابة الماركسيين في الصومال عام ١٣٩٤هـ إلا واحدة من ثمرات الطغيان الذي ساد أكبر بلد عربي، فمهد ولا يزال يمهد الطريق لكل محنة يتعرض لها الإسلام وأهله في الشرق العربي وما حوله . ومن هنا كان لهذه القلة من أحرار مصر الذين نصروا الله بأقلامهم في حدود طاقتهم ، فضل الرائد الذي يتقدم القافلة نحو الطريق القويم ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلاً .

نكسات الزيات :

ثم إن هذه المواجهة بين الرئيس والشيخ لم تكن الوحيدة والأخيرة ، وإن كانت أبرز المواجهات وأصرحها ، فكل مقالة كتبها بعد تكشف حقيقة المتسلطين ، كانت سهاماً مسددة إليهم ، وإن لم تذكرهم بأسمائهم ، لأنه لم يخط سطراً منها إلا في نصرة الإسلام ، وكل انتصار لهذا الدين إنما هو هجوم غير مباشر على أعدائه الهدامين .

ولعل غضب الشيخ على الأستاذ أحمد حسن الزيات – في عدد ربيع الأول عام ١٣٨٣ من مجلة الاعتصام – لا تنزل عن هـذا المستوى الذي طالعناه في حواره للرئيس ، بل إنهـا لامتداد لمضامينه ، لأنها منصبة على سياسة الرئيس نفسها .

لقد ناء عاتق الأستاذ الزيات تحت أعباء الشيخوخة ، فنسي ما ملأ بـه رسالته الطيبة الذكر من دعوة إلى الخير والفضائل والدين ، بل نسي ما رزأه

الحكم من ثروة لا تقدر بمال حين انتزع منه تلك المجلة، التي استمرت سنين طويلة مطمح أبصار الأحرار من عشاق البلاغة والأخلاق.. وكان ذلك، ويا للأسف، منذ أقامه ذلك الحكم رئيساً لتحرير مجلة الأزهر .

أجل ، لقد نسي الزيات الشيخ مآثر الزيات الكهل ، فسلك إلى مرضاة المتسلطين كل سبيل ، حتى لم يتورع أن يتخلى لهم عن دينه ، فيصف الوحدة التي ارتجلت ما بين مصر وسورية بأنها خير وأبقى من الوحدة التي بناها محمد رسول الله ﷺ .. فكان على كل حر أن يضج من الشتيمة ، ويتصدى لهذا الخرف المنحرف ليرده إلى الجادة .

وما كان مثل هذا الحدث ليفوت قلم الشيخ محمود ، الذي هو أبداً بالمرصاد لكل متعرض لمعقل الإسلام. وهكذا انطلق يفند ترهات الزيات، ويجلو لعينيه الحق الذي عميتا عنه .

وطبيعي أن الموقف من الحساسية بحيث لا يمكّن من الفصل بين تجديف الخرف المتزلف وسياسة الرئيس المتزلّف إليه ، لأن الموضوع قائم على المقارنة بين سياسة نبوية مخططة من فوق سبع سموات ، وسياسة مرسومة في موسكو وواشنطن ، ومدعومة بالمهرجين والمنافقين والمرتزقة ممن لا يعرفون من حقائق الوحي نقيراً ولا قطميراً .

ولم يكن الشيخ يجاهل ما يعرض له نفسه من عواقب هذه المواقف ، بل لا مندوحة له من أن يوطن نفسه لمواجهة أسوأ الاحتمالات .

نصان منافقان :

القنابل التي أطلقها الشيخ في وجه الزيات كثيرة «هائلة ومحرقة» ، ولا يغني الاجتزاء ببعض منها عن بعض.. وقد أعاد نشرها كاملة في كتابه الأخير «الحق» فليراجعها القارىء هناك إذا شاء . أما هنا فنكتفي من المعركة التي استغرقت

خمساً وأربعين صفحة من الكتاب ، بالفقرات التالية التي يكشف بها الشيخ عن غريزة النفاق في أعماق الزيات .

في أخريات أيام فاروق وبالضبط في ٢٥ مايو سنة ١٩٥٢ كتب الزيات في العدد ٩ من مجلة الأزهر ما نصه :

« باسم الله جل اسمه ، وعز حكمه .. منزل كتابه هدى ، ومرسل رسوله رحمة ، وبهدي صاحب الرسالة محمد صلوات الله عليه .. لسان الوحي ، ومنهاج الشرع ، ومعجزة البلاغة .. وبعطف صاحب الجلالة الفاروق.. ناصر الإسلام ، ومؤيد العروبة ، وحامي الأزهر ، أعز الله نصره ، وجمل بالعلوم والآداب عصره ... »

يقول الشيخ : هذا نص ما افتتح به الأديب مجلة الأزهر قبل طرد فاروق بشهرين .. فننشر إلى جانبه ما افتتح به عدد يوليو من مجلة الأزهر سنة ١٩٦٠ وهو يشيع فاروق نفسه :

« كان ملكاً على مصر قبل يوم ٢٣ يوليو ، وكان آية من آيات إبليس في الجرأة على دين الله ، وعلى حرم الناس .. بلغ من جرأته على الله أنه كان – كما حدثني أحد بطانته – إذا اضطرته رسوم الملك أن يشهد صلاة الجمعة خرج إليها من المضجع الحرام فصلاها من غير غسل ولا وضوء ، وأداها من غير فاتحة ولا تشهد ، وكان يقول إن أخوف ما أخافه أن يغلبني الضحك وأنا أتابع الإمام في هذه الحركات العجيبة !.. وبلغ من جرأته على المحرمات أنه كان يغتصب الزوجة ويقتل الزوج ويسرق الدولة ويسفه الحق ، ويأخذ الرشا .. ثم أملى له الغرور فتبجح وتوقح وطغى .. » .

وما أحسب رداً على مثل مفتريات الزيات أقتل ولا أصمى من المقارنة بين هذين النصين من كتابات الزيات في التملق للطاغيتين.. أما لماذا كل هذا النفاق.. فيقول الشيخ : لقد عاش الزيات هكذا طوال حياته ، يكتب ما يروج ، وينشر ما يجلب له النعمة والعافية .. وحسبه أنه ظفر في عهد فاروق بلقب

« صاحب العزة » وظفر في هذا العهد بأكرم جائزة » .. وقـد أصاب الأستاذ أحمد حسين في كلامه عن موقف المترجَم من نفاق الزيات إذ قال: « وقاد الشيخ الحملة ، وكتب كتابة من نار تحرق الكافرين .. لم يجامل ولم يلاين وإنما وصل إلى حد الهجوم السافر والتحدي لرئيس الدولة نفسه » .

ونصان مؤمنان :

وقد سبق أن عرضنا لبعض ما كتبه الشيخ في نقد الظُّلْمَة ، ونسمح لنفسنا أن نعرض هنا أيضاً أنموذجين آخرين مما كتبه في كلا العهدين ، لنرى إلى الفرق بين ما يكتبه أهل الإيمان لوجه الحق ، والمتاجرين بالأقلام ابتغاء الرزق .

من مقال نشره الشيخ في عدد « الاعتصام » لشهر ابريل قبل خروج فاروق يقول في وصف واقع المسلمين : « ملوكهم وحكامهم معنيون بمناصبهم ، همهم أن تسلم لهم ، ولو على أيدي الغاصبين ، يسالمون عداهم ، ويذلون رعاياهم ، يجمعون المال من دم الفلاحين وعرق الكادحين ، لينفقوه على ملذاتهم ، ويبعثروه على شهواتهم ، طوراً ينثرونه على موائد القمار ودور اللهو وكئوس الشراب ، وحيناً يبذلونه في مخاصرة النساء ، وسماع الغناء ، وما تتطلبه الليالي الحمراء .. والويل شر الويل لمن تسول له نفسه أن ينكر عليهم ، أو يزجي النصح إليهم ، فجزاؤه السجن ، وإن شئت فقل الإعدام » .

وفي « الاعتصام » نفسها يعقب على خطاب الرئيس عبد الناصر الذي ألقاه في الذكرى التاسعة للثورة ، وقـد جمع الكثير من الغث والسمين ، والوعد والوعيد .

يقول الشيخ: «في خطاب الرئيس .. فقرات تسترعي النظر ، وتثير الانتباه .. فقرات تتسم بالصراحة التي تدعو إلى الإعجاب والإكبار .. فقرات ينبغي أن نقف عندها ، ونتأمل فيها ، فهي جديرة بالتفكير والتقدير .. » .

وبعد أن يعرض الشيخ لبعض مآثر الإسلام في العدالة تذكيراً له بما غاب عنه ، يتابع : « فتلك صورة جميلة تجعلنا ننكر باسم الاسلام يا سيادة الرئيس هذه الأموال الباهظة التي تنفق في غير موضعها ، هذه المكافآت السخية التي تصرف من مال الدولة على الممثلين والممثلات ، والراقصين والراقصات ، والمغنين والمغنيات .. قلتَ يا سيادة الرئيس إنك تريد أن تطهر المجتمع من عوامل الحقد والأنانية والفساد والبغضاء ... ومقتضى هذا المنطق أن تقلّم أظافر أولئك المترفين ، وتقص أجنحة هؤلاء الذين لا يزالون يعيشون في عالم المريخ ، فيثيرون الحقد في نفوس المحرومين ، إذ يطلون عليهم من قصور فخمة ويمرون عليهم في عربات ضخمة ، تنطلق – من فرط السكر – بسرعة جنونية تكاد تعصف بهم وتودي بحياتهم » .

أجل ... إنها لنصان يرسمان الصورة المثلى لحملة الأقلام النظيفة التي تتوقع حساب الله على كل نبسة تقولها أو تكتبها ، وبهذه الأقلام تفخر الأمم ، وتسمو الهمم ، وشتان بين هؤلاء المؤمنين ، وأولئك المذبذبين ، الذين يصورهم قول الحريري على لسان أحدهم :

أنا الذي تعرفه يا حارثُ حدث ملوك فكهٌ منافثُ
أعمل ما لا تعمل الثالث طوراً أخو جِدٍّ وطوراً عابث
وتخلبي في كل صيد ضابث

وما كان أحوج صاحب « مجتمع الكفاية والعدل .. » أن يسمع مثل هذا النقد الحار يذكره بواقع (مجتمعه) على لسان القليلين أمثال محمود فايد .. جزاهم الله عن المظلومين والمحرومين والمضطهدين خير ما يستحقه الأحرار والمجاهدون .

بعد النكبة :

والحديث عن الأحداث التي عاركها الشيخ سيظل أبتر ما لم يتناول بعض مواقفه التي أعقبت نكبة عام ١٩٦٧ .

كانت تلك الهزيمة مبدأ تحول جديد في حياة مصر ، فعلى الرغم من كل التظاهرات التي اصطنعتها مراكز القوى في القاهرة وبيروت وغيرهما، لاستبقاء الرئيس المحطم في مركز القيـادة .. لم تستطع منع الألسن من الكلام في هذا الموضوع ، فانطلقت تعبر عن سخطها على المسئولين عن الكارثة ، وتعلن نقدها للعهد كله . وتحركت المراكز الثقافية للإسهام في تحديد التبعات ، واستعراض الوسائل الفضلى لمعالجة الواقع الرهيب . وفي إحدى المناسبات المتصلة بموضوع الساعة دعي الشيخ للمحاضرة في جامعة القاهرة وجمعية المحافظة على القرآن ، وبصراحته المألوفة مضى في تحديد أبعاد الهزيمة ، وتعيين مسئولية الرئيس(...) عنها . ولم يرق ذلك بقية مراكز القوة ، التي مـا تزال تحيط بالرئيس لدفع النقمة عن نفسها ، بوصفها الشريك الأكبر في هذه المسئولية .. فوجدت من مصلحتها تجميد نشاط الشيخ . وهكذا صدر القرار بإحالته إلى الاستيداع ، وقد قام بتبليغه ذلك القرار وكيل الأزهر ، الذي سارع إلى استخدام الهاتف في ذلك التبليغ ، بسبب عطلة يوم رأس السنة الهجرية ، وتم تبليغ معهد القاهرة – الذي يعمل فيه الشيخ – بذلك القرار هاتفياً أيضاً .

وكان ذلك بمثابة إنذار للشيخ بأنه تحت المراقبة السياسية . وهكذا لزم منزله في رعاية المخابرات التي جعلت ترصد كل حركة منه .

يقول الشيخ : لقد كانت هذه العزلة فرصة ربانية تفرغت فيها لتحقيق بعض الكتب وإنجاز بعض المؤلفات ، مما عـاد عليه برزق أوسع بكثير من الذي قطع عنه .

وقدم لزيارته أثناء هذه الخلوة المرصودة وكيل الأزهر يومئذ، وشيخه الأكبر هذه الأيام ، الدكتور عبد الحليم محمود ، ومعه مستشار رئيس الجمهورية الفريق

عبدالرحمن أمين، والوزير العراقي السابق اللواء محمود شيث خطاب . وتذاكروا فيما بينهم في وضع الشيخ ، ثم اقترحوا عليه أن يقدم التماساً بالعودة ، فامتنع وأصر .

ويروي الفريق عبد الرحمن أمين بحضر من إدارة الجمعية الشرعية أن الرئيس سأله بعيد صلاة عيد الفطر : « ألا يزال محمود فايد عضواً في الجمعية الشرعية ؟» فيجيب بالإيجاب ، ثم يذكر الشيخ بخير، فما كان من سيادة الرئيس إلا أن أشاح بوجهه استنكاراً لذلك الاطراء ، ثم سارع إلى مغادرة المسجد وهو يقول متهكماً : كلهم كذابون وأنت الصادق !

ولا حاجة إلى التساؤل عن هؤلاء الكذابين الذين تشير إليهم عبارة الرئيس.. إنهم بطانة السوء الذين يتوقف بقاؤهم في مراكز التأثير على استبعاد كل عنصر يتوسمون فيه أي ظاهرة من الخير أو الدعوة إلى الخير .. وهو واقع يؤكد ما ذهبنا إليه في تعقيبنا على اعترافات توفيق الحكيم التي نشرها بعنوان « عودة الوعي » فناقشناها بالمقال الذي نشرته مجلة « المجتمع » الكويتية تحت عنوان « طغيان فرد أم طغيان عهد » .

أين المعتبرون :

وهناك حادثة يحسن ألا يفوتنا ذكرها هنا ، ويصفها الشيخ بأنها من الوقائع العجيبة التي مرت به ، ذلك أن دولة شيوعية – لم يسمها – بعثت بفرقة راقصة للترفيه عن المصريين في رمضان ١٣٨٧هـ–١٩٦٧م ورأى المنحرفون أن يعدّ لها مكان في ميدان الجيش لتحيي الخامس والعشرين من رمضان .

وفي حفل عام أقامته الجمعية الشرعية في ذكرى بدر تكلم الشيخ فايد حول هذه الصفاقة فكان مما قاله : « أخزى الله هؤلاء السفهاء .. لقد بلغ بهم السخف أن يحيوا رمضان بالمنكرات.. وفي أي مكان ؟.. في ميدان الحسين بين مسجده وبين إدارة الأزهر ومشيخة الطرق الصوفية !.. يا لها من إهانة متعمدة توجّه

لعمّار هـذه المؤسسات الإسلامية !.. يا لهـا من إهانة توجّه إلى شهر القرآن !.. » .

وكان أحد المسئولين حاضراً ذلك الحفل فأبلغ النبأ السيد حسين الشافعي نائب رئيس الجمهورية فأصدر أمره بمنع الفرقة من تنفيذ ذلك المنكر .

وقد أثبتنا خبر هذه الرقاعة لما تحمله من خصائص العقلية المادية، التي لا ترى أقدر من الفجور على تحطيم الهمم .. وقد أصبحت طابع الجيل الضائع الذي غسل قلبه من معاني القيم الإسلامية ، فلا ينظر ولا يسمع ولا يحس إلا من خلال جوارح الكافرين . وقد ذكرنا في أحد كتبنا الأربعين ألف صورة من رسوم الراقصات والمغنيات التي وزعت .. قبيل « الزحف لتحرير فلسطين » عام ١٩٦٧ ...! ، ووعدت الجريدة المصرية ناشرة الخبر أن هنـاك مئة وستين ألف صورة أخرى لبقية الرقعاء ستوزع على أولئك المحاربين في خنادق القتال!.. ثم كانت النتيجة تلك الهزيمة التي مرغت بالهوان جباه العرب والمسلمين جميعاً إلا فرق المنتفعين .

وما أدري لماذا تذكرني هذه السخافات بمنظر تينك الصورتين الأخريين ، اللتين جاءني بهما ولدي أثناء حرب رمضان ١٣٩٣هـ على صفحات إحدى الصحف المصرية ، وهما تعرضان طيارين مصريين، وقد هما بدخول الطائرة، وبدا جلياً على خوذة كل منهما « لا إله إلا الله » .

إن جيش فريد الأطرش وعبد الوهاب وأم كلثوم وعبد الحليم حافظ وتحية كاريوكا لم يسجل في حربه تلك سوى مآثر الانهيار الذي وزعه خلال ساعات بين أسير في قيود اليهود ، وشريد على رمال البيد .

أما جيش « لا إله إلا الله » فقد مسح العار – خلال ساعات – عن جبـاه كل العرب والمسلمين بفضل الله رب العالمين .

ولكن .. أين الذين يفقهون ويعتبرون !

فيتو ثوري :

ولا يفوتنا أن نذكر من الأعمال الأخرى التي شغل بها عن مهنته الأساسية في مصر ، تعيينه رائداً دينياً لمدينة البعوث ، فكانت فرصة طيبة لروابط حية توثقت بينه وبين الطلاب الوافدين إلى الأزهر من أنحاء العالم الإسلامي، وأذكر أني التقيت ذات يوم خريجاً سورياً منهم، ولما استوضحته عن أقوى مشايخه أثراً في نفسه لم يتردد في تسمية الشيخ محمود فايد . ولم يكن هذا الخريج ليعلم أن الشيخ زميل لي عزيز في الجامعة الإسلامية .

ولقــد رضي ولاة الأمر في الأزهر عن نشاط الشيخ في عمله الجديد ، ولم يحجبوا عنه تقديرهم ، إلا أن السياسة لم تلبث أن أبدت قلقها من ذلك النشاط، وطلبت من وكيل الأزهر تنحيته . وبعد مطال طويل اضطر الوكيل إلى مصارحة الشيخ بالفيتو الذي شهر عليه ، فلم يسع الشيخ إلا قبول الواقع ، فقدم استقالته لفوره .

ولعل أكرم تعزية نالها الشيخ إثر استبعاده عن تلك الريادة خطاب وكيل الأزهر يومذاك – الدكتور محمد ماضي – الذي يقول له فيــه : « لا يسعني بهذه المناسبة إلا أن أقدم لكم شكر الأزهر وتقديره لجهودكم المثمرة التي بذلتموها لصالح طلاب البعوث الإسلامية ولصالح رسالة الأزهر ، وهي رسالة الإسلام ، في الفترة التي قمتم فيها بأعباء هذه المهمة .. كما نخطر فضيلتكم بأننا قد قررنا أن توضع صورة من خطابنا هذا في ملف خدمتكم .. »

ولا جرم أنها لفتة كريمة من الدكتور ماضي تنم عن ارتفاعه فوق أهواء السياسة .

في مجلس الشعب :

ونختم هذه الطائفة من صور النشاط الذي عرف عن المترجَم بالإشارة إلى تلك الصراحة المدوية التي أرسلها في مجلس الشعب المصري صيف العام ١٣٩٣هـ.

لقد دعي يومئذ للمشاركة في البحوث المثارة حول الأوضاع الجديدة بمصر ، وفي إحدى الجلسات الحافلة ألقى الشيخ كلمته التي استغرقت عدة صفحات ، صرح فيها بكل ما يراه ، وأكد على وجوب مناجزة إسرائيل قبل أن تستكمل قدراتها المرسومة ، التي يستحيل معها على العرب مواجهتها عسكرياً .

وكأن القدر كان يجري على لسان الشيخ ما يدور في رؤوس المخططين لحرب رمضان ، التي ما لبثت أن شبت فاكتسحت، بمعونة الله، خط بارليف . وقد نوه الأستاذ محمود أبو وافية بكلمة الشيخ تلك في مقال نشرته الأهرام يوم ٧٤/٢/٥ وقال في زيارة عجلى للمدينة المنورة : إن الرئيس السادات، اطلع على كلمة الشيخ فأيدها في حينها وعلق عليها بقوله : « هذه أصرح كلمة » .

مؤلفات الشيخ :

وعلى السؤال الخاص بمؤلفاته أجاب فضيلته أنه حقق كثيراً من كتب التراث الإسلامي ، منها « خلاصة تذهيب الكمال » أخرجه في ثلاثة مجلدات كبار بعد أن كان مجلداً واحداً ، وقد أفرد له مقدمة خاصة . وشارك في تحقيق (المغني) لابن قدامة و (أسد الغابة) و (مراقي الفلاح) و (الفرقان) لابن تيمية ، و (الجواب الكافي) لابن القيم . ومن مؤلفاته :

١ – كتاب (المنطق الواضح) في علم المنطق (في جزأين) .
٢ – (التربية في كتاب الله) .
٣ – (الإسلام والصحة) .
٤ – (الإسلام وأثره في نهضة الشعوب) .

ويعتبر الشيخ أهم مؤلفاته (الرسالة المحمدية وشواهدها) فقد نحا في هذا الكتاب نحواً جديداً في إثبات الرسالة المحمدية ، ونال استحسان كثير من كتّاب العصر – كما يقول – .

نماذج من أدبه :

ولعلنا أوقعنا الشيخ في حيرة عندما انتهى إلى هذه الفقرة من استطلاعنا ، وفيها نلتمس أن يتحفنا بمختارات من أحب مـا كتب إليه .. ذلك لأن مثل الشيخ لا يكتب إلا ما يحب وما يجب ، ولهذا قد يتعذر عليه التفريق بين نص وآخر من نثره . وفي ما أسلفنا من مقاطع ما يكفي للدلالة على طابعه الأزهري، الذي يؤثر وضوح الفكرة على تأنق الصياغة ، وهي السمة التي تطالعنا ملامحها أبداً في أسلوبه كاتباً وواعظاً ومحاضراً .

أما شعره فقد اختار لنا منه بعض المقاطع نقدمها في ما يلي كانموذج للتطور الذي صـار إليه بعد فترة القرزمة التي أسلفنا بعض شواهدها . ففي همزية له يخاطب أولي التأثير في مسيرة العالم الإسلامي فيقول :

يا قادة الإسلام جدوا وليكن	لـكمُ بأحمد أسوة حسناء
هل كان هذا الدين إلا دعوة	فيها على جذم الشرور قضاء
هبّوا لنصر الدين لا تتخاذلوا	إن التخاذل فتنة وبلاء
ولتحرسوا الوطن العزيز بقوة	حرساء يخشى بأسها الدخلاء
وخذوا بأسلحة الحياة فإنه	لم تحيَ يومـاً أمة عزلاء
لا تأمنوا روسيا وأمريكا فما	في النار للظمآن يرجى ماء

وبمناسبة ذكرى الإسراء والمعراج يوجه هذه الإهابة – من قصيدة طويلة – إلى المسلمين في كل مكان :

أيا أمة الإسلام هـذا رسولكم	أتاكم بدين من يواليـه ينصرُ
يشيّد للعـلم الصحيح معـاقلاً	ويكشف أسرار الوجود ويظهر
فما بال قومي قد تعاموا عن الهدى	وملوا حياة العلم حتى تأخروا

لقد كشف الأعداء أسرار خلقه | ونحن بهذا الكشف أولى وأجدرُ
أعدوا لهم ما تستطيعون من قوى | ولا تركنوا للجهل فهو مدمر
فإن تك إسرائيل أمسى بلاؤها | خطيراً فبلوى الجهل أدهى وأخطر

وفيها يقول :

فلسطين مسرى المصطفى غاب نجمها | وحل بها جند اليهود وعسكروا
وفي المسجد الأقصى يعيس عدونا | ونحن نغنّي في ابتهاج ونزمر
ونفتح للرقص المثير معاهداً | ونكشف سوآت الغواني وننشر

ولو اطلعت على هذه الأبيات قبل فراق الشيخ للعطلة الصيفية لاقترحت عليه أن يجعل بدل (نزمر) (نسكر) لأنها أشد انطباقاً على غفلاتنا .. ولقرأت عليه هذه العبارة التي أثبتُّها في ورقة الأحد ٩٦/٤/١٢ من مفكرتي : « مساء اليوم س ٩،٣٥ أذاع صوت أميركا تقريراً من مراسله في القاهرة : يتحدث فيه عن الأوضاع الفنية هناك فيقول : تخرج في معهد الباليه بمصر أربعون راقصاً وقد التحقوا - أو التحقن - بالفرقة الفنية » .

وهو خبر يسر الكثيرين أن يسمعوه لأنه بنظرهم أكبر دليل على التفوق الذي يشق لنا الطريق إلى منافسة أعرق السفهاء في العالم .. وكفى بذلك فخراً ونصراً !

والمهم أن في هذه النماذج صورة ملموسة من التطور الصاعد في صياغة الشيخ الشعرية ، فقد استقرت القافية في متنزّلها المناسب ، فلم تعد قلقة مقسورة كما لاحظناها في بواكيره الأولى ، واستقام له الأسلوب على مهيع البيان السليم ، فجاء شعره مانجساً بأفكاره الاصلاحية الواضحة .. ولكنه ظل حاملاً صفة الكاتب الذي يترجم عن عقله أكثر مما يترجم عن عاطفته وأخيلته .

الجيل والعلماء :

وكأن الشيخ موقن أنه في إجاباته السالفة قد استوفى ما نريده في هاتين الفقرتين ، لذلك اكتفى بقوله : « سألتني عن رأيي في مستقبل الجيل الإسلامي ، وما يمكن للعلماء أن يصنعوه في هذا السبيل ، فأقول : هـذا موضوع يطول شرحه وقد كتبنا حوله مقالات كثيرة ، وموجز ما كتبناه أن المجتمعات الإسلامية زحفت إليها مبادىء منحرفة شرقية وغربية ، وقد تسربت إلى الجيل الناشىء وتغلغلت في نفسه عن طريق أجهزة الإعلام المختلفة صحافة وإذاعة مسموعة ومرئية.. وواجب العلماء أن يتعرف بعضهم بعضاً في مؤتمرات إسلامية متوالية محلية ودولية ، ويدرسوا الخطط العملية التي تعيد للأمة الإسلامية وحدتها ، وتنمي قوتها ، وتحقق استقلالها وسيادتها ، وتدفع عنها كيد الكائدين ، وبطش المستبدين ، وعليهم بعد ذلك أن يقوموا بواجبهم داخل دولهم بحكمة وروية متوكلين على ربهم » .

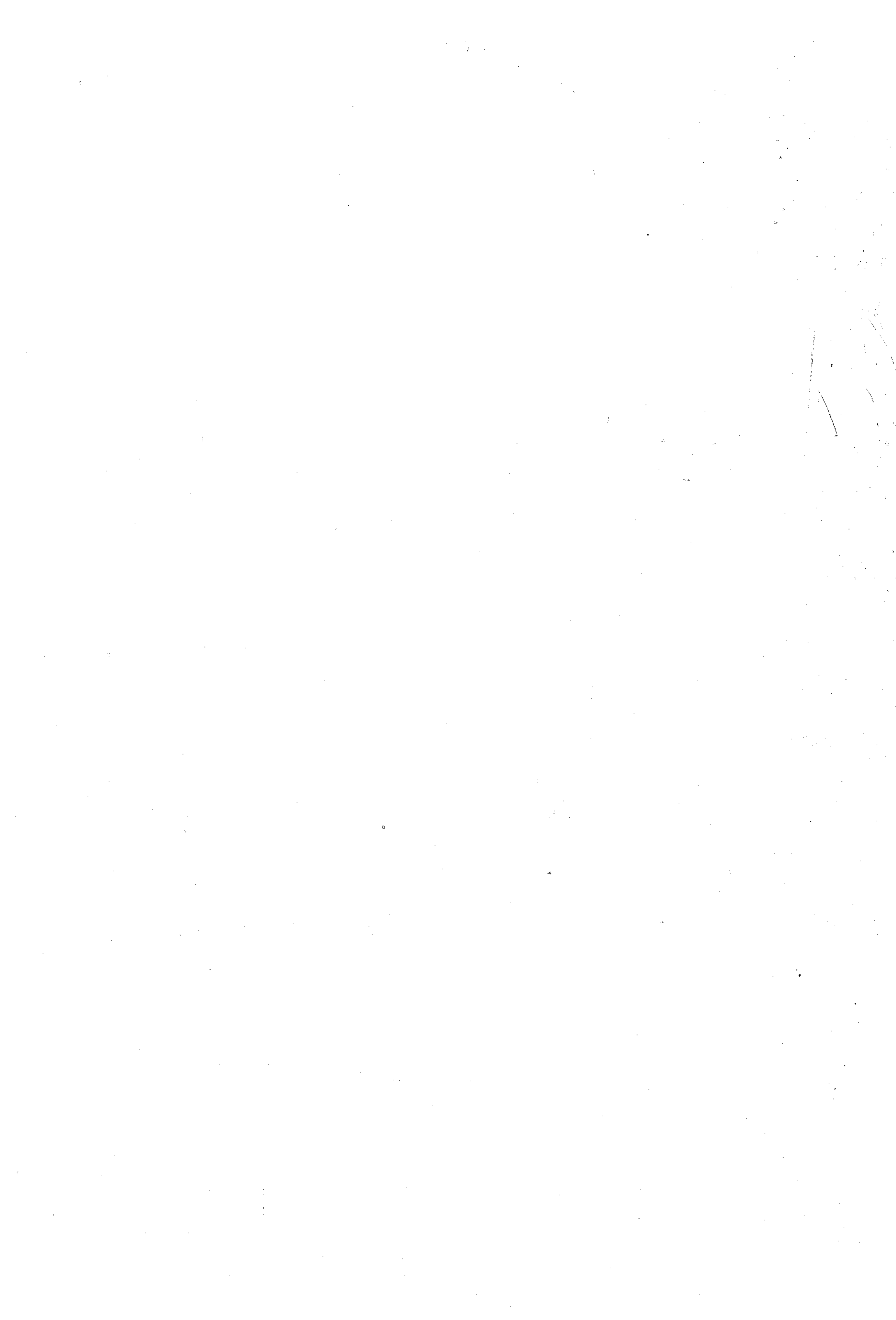
وقد سبق أن عرفنا وجهة نظر الشيخ من هذه الناحية ، وهي القدر الذي يكاد يكون مشتركاً بين معظم أصحاب الفضيلة المجيبين على أسئلتنا ، ونكرر هنا ما سبق لنا قوله ، وهو أن مجرد الدعوة التي تجمع العلماء في مؤتمرات إصلاحية يتضمن التجاهل لواقع هؤلاء ، وما يحيط بهم من عقبات وموانع تحول دون تلاقيهم .. وإذا أغرقنا في التفاؤل وتصورنا إمكان الاجتماع ، فمن لنا بتنفيذ ما يتفقون عليه من مقررات لا سبيل إلى التوفيق بينها وبين ما يواجهونه من أحكام !

ثم .. من يضمن للشيخ أن يكون المجتمعون كلهم من هذا الطراز الذي أخلص قلبه لله ، فراح يرد على أعداء الإسلام بمثل كلمة المغفور له محمد الخضر الحسين ، شيخ الأزهر الأسبق ، يوم جاءه موفد يساومه على دينه ، فأجابه : « قل للرئيس يكفيني من دنياكم كسرة خبز وكوب لبن وقد ضمنها لي الله . وهذه استقالتي تحت تصرفكم » .

ثم من يضمن لنا أيضاً أن يكون الشيخ محمود نفسه أحد هؤلاء المجتمعين – إذا قدر لهم الاجتماع – فيدوي صوته بكلمة الحق الذي لم يجامل فيه – على رأي الأستاذ أحمد حسين – لأنه – بتعبير الأستاذ محمد عبد الله السمان – من العلماء القلائل الذين يبحث عنهم الإسلام المغلوب على أمره وسط التحديات التي تحيط به من كل جانب، وتهب عليه من الشرق المادي الملحد، والغرب الصليبي المتعصب على السواء .. وتبحث عنهم قضايا الإسلام والمسلمين، التي قل أن تجد اليوم من يأخذ بيدها ... »

وإنني لأكتب هذه الكلمات ولا يزال في سمعي صوت مفتي اليمن الشمالي الشيخ محمد أحمد يعلن من إذاعة موسكو قبل أيام أن الإسلام على خير ما يرام في ظل الشيوعية – التي يعلن طواغيتها على العالم أنهم أعداء كل دين – وأن المسلمين في روسية الشيوعية أكثر الناس استمتاعاً بحرية الدين !..

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ...



١٧

الدكتور مصطفى حسني السباعي

أبلغُ القول في الرثاء الدموعُ فدعوها تَذُبْ عليه الضلوعُ
ليس كل امرىء يموت أبا حسان حتى يلام فيــه الجَزوع
راية من بنود ربكَ لولا الـ ـجهلُ لم تتخذ سواها الجموع
وحسام قد سله الله فالكفـ ـر هزيم من هوله وصريع
طُوبا فجــأة فمادت ديار بجنود الهدى وجُنّت ربوع
وسألنا ، ولم نصدق ،.. أحق؟! فإذا كل من هناك صديع
.. ولقد طالما ضرعنا إلى الله لدى الحجر والقلوب خشوع
ننشد البرء للجريح المفدى بعدما أيأس الأُساة فريعوا
واستجيب النداء ، فانحسم الدا ء وزالت مواجع وصدوع
وأراد الإله للفــارس المو موق غير الذي أراد الجميع
قــد سألنا له الشفاء سريعاً فأتى دونــه الحمام السريع
والمقادير في يــد الله غيب ضاع في تيهه الحكيم الضليع

●

قالوا : « كل شيء يبدأ صغيراً ثم يكبر ، إلا المصيبة فإنها تبدأ كبيرة ثم تصغر ... »

والواقع أن هذا هو الواقع في كل شيء ، وفي كل مصيبة ، إلا مصيبة برجل في زمن قل فيه الرجال ، واشتدت إليهم حاجة الرجال !

وهذه الأيام تتتابع على النبأ الفاجع فما يعتور أثره فتور ، ولو زعمنا ذلك لكذبتنا الدموع ، التي لا نستطيع نهنهتها كلما خطر في الجنان أبو حسان ، أو ذكر آثاره وأعماله لسان .

ويا لها من لحظة.. تلك التي تلقيت فيها النبأ الهائل!.. إذ دخلت عليّ ابنتي وأنا غارق في قراءة أخبار الصحابة من فاتحي العراق ، وهي واجفة راجفة تقول في نبرات خائفة : « هاتف من دمشق يقول إن السباعي قد مات ! » .

ولم أع ما أفعل... إلا أن أدور في مكتبي على غير هدى وأنا أبكي وأجأر: « اللهم رحمتك !.. » ولم أستطع أن أصدق الخبر .. وكيف أصدقه ، ولما يمض على لقائنا سوى أيام كنت خلالها مفعم الصدر أملاً بأن أبا حسانٍ على عتبة الشفاء !

ولا عجب .. فقد فوجئت من أبي حسان يوم لقائنا الأخير بمثل الطلعة القديمة ، التي عهدت إشراقتها المحببة قبيل الإصابة التي أثقلته بالألم المتواصل طوال سنوات الألم الأخيرة .

ولمح دهشتي وفرحتي بمنظره ، فقال : « لو رأيتني يا أبا غسان عقيب عودتي من البيت الحرام ومدينة الرسول ﷺ إذن لكانت دهشتك أبلغ.. لقد استعدت في جوار الكعبة المشرفة وفي بلد الرسول الأعظم نصف نشاطي الذي حبسني عنه المرض، ولقد ذهبت إلى الأرض المباركة ، وأنا كما رأيتني في مكة المكرمة ومنى أول وصولنا ، لا أستطيع الصلاة إلا على كرسي .. فما غادرت مكة حتى وجدتني أسعى إلى الحرم بنفسي ، ثم أقضي الصلاة بركوعها وسجودها وقعودها كعهدي أيام العافية.. ولهذا تراني أتهيأ للسفر إلى البلد الحرام لأتخذه لي مقاماً وسكناً ، أجدد بـه روحي • وأسعد بمناجاة الله في بلد خليله

وأحب أرض الله إلى رسوله .. ومن أجل ذلك قبلت عرض المعارف السعودية للتدريس هناك دون تردد » .

أجل .. هكذا تركت أبا حسان قبل أيام، فلما أفضت إليّ ابنتي بنبأ الموت ذهبت أجادل وأغالط « لعل الخبر عن السفر !.. لعل لاقط الهاتف لم يفرق بين « مات السباعي » .. و « سافر السباعي » !

وبعد ساعات أربع تحققنا من النبأ الصادع عن طريق حمص .. فلم يبق من مجال لأي جدال !

ووصلت دمشق ظهر اليوم التالي ، ولم أعرف مكان الجثمان إلا من انقطاع حركة المواصلات في شارع مدحة باشا . وسرعان ما ابتلعني موكب الجنازة العزيزة كقطرة الماء لامست السيل الهادر ، الذي ما لبث أن ملأ شارع الحميدية حتى قلب الجامع الأموي !.. وأبت دمشق الوفية المؤمنة أن تحمل السيارة جسد البطل الذي طالما هز منابرها وأثار عزائمها وحفز شبابها لاستعادة مكانتها في خدمة الإسلام ، وتحرير أرض الإسلام ، فإذا هي تتداول نعشه على الراح حتى المقبرة ، التي ضمت من قبله أجساد الأباة من صحابة محمد ﷺ وتابعيهم وتابعي تابعيهم من أعلام الهداة .

وفي غمرة الأنين والنشيج وانطلاقات الأصوات المؤمنة بشعارات السماء ، التي وقف الفقيد حياته الغالية على تركيزها وتحقيقها، والتي بذل في نصرتها آخر أنفاسه في لحظاته الأخيرة .. وجدتني أتساءل وأتذكر .

أتساءل عن السر الذي يحفز هذه السيول من الجموع على تحمل الحر والزحام طوال ساعات ، لا تفارق الموكب الحزين حتى تودع الثرى جثمان الرجل ، الذي زحفت لتشييعه من أنحاء القطر السوري، ومن كل بلد مجاور اتسع وقته وظروفه للمشاركة في هذا التشييع !

أتقديراً لعلم الفقيد .. وقد كان من العلم في المكان المرموق !

أتعظيماً لجاه ناله من الدنيا ؟ وقد كان له الجاه الذي يغبطه عليه الكثيرون من أهل الدنيا !

أم تزلفاً إلى قوم من الأحياء يبتغون لديهم المنفعة بهذه المشاركة ! ولكن كثيراً من العلماء الكبار يموتون كل يوم .. فما يكاد يحس بهم أحد .. وأكثر من هؤلاء أصحاب الجاه الذين تسنموا بالحق أو بالباطل أرفع المنازل ، ثم ذهبوا من هذه الدنيا أذلة لا يكاد يذكرهم أحد ، إلا عند تعداد السيئات .. وتوزيع اللعنات !

وأما المنفعة فهي أبعد الأشياء عن هـذه المناسبة .. بل لعل ضررها على المشارك فيها هو الشيء الطبيعي ، الذي لا ينبغي أن يتوقع سواه .

والحق الذي يحسه كل ذي ضمير ، ويدركه كل ذي تفكير ، هو أن هذه الآلاف المؤلفة إنما زحفت ونصبت وصبرت تمجيداً للفكرة التي دفع السباعي حياته كلها ثمناً لها ، وأذاب قلبه الكبير وقوداً لاستبقاء وَهجها ، في إخلاص لله لم يَشُبْه مطمع دنيوي ، وجهاد للحق لم يستهدف سوى تحرير الوطن الإسلامي من سلطان الطغيان أياً كان مصدره ، وتحريراً للفكر العربي والإسلامي من كل استعباد مهما يكن أثره ومؤثره .

والإخلاص لله ، والجهاد في سبيله ، كانا وما انفكا في تاريخ هذه الأمة مبعث العزة ، ومنطلق الخلود .. وصدق الفاروق أمير المؤمنين إذ يهتف في وجه أبي عبيدة أمين هذه الأمة « ... نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ، ومهما نبتغ العزة بغيره أذلنا الله » .

ألا فليت المخدوعين بمغريات الدنيا ، المتفانين على سكْرتها المسمومة ، يفطنون لهذه الحقيقة فيصونوا جباههم من تراب الهوان ، ويرتفعوا بأنفسهم ونواياهم وأعمالهم إلى المستوى الذي يفرضه الإيمان ، ليستحقوا مثل هذا المصير الذي انتهى إليه أبو حسان .

وغلبتني الذكرى .. وألفيت القلب المنكوب يتفتح عن مشاهد لا تنسى من حياة ذلك الحبيب .

تذكرت يوم عرفت الفقيد لأول مرة من خلال مقالة كتبها عن بدعة « أسبوع المشايخ » في حمص ، فوجدتني تلقاء روح تحترق غيرة على حقائق الإسلام أن تحجبها ظلمات عصور الضياع والانهيار .

ثم لقيته مرة ثانية في اللاذقية يخطب عقيب معاهدة ١٩٣٦ ، فإذا هو يجمع الأوصاف الثلاثة « خطيب منبر، وقائد عسكر، وواصف جؤذر » يتدفق بقوة لم أشهد مثلها من خطيب قبله.. يبدأ هادئاً حلواً جذاباً، حتى إذا باشر مفاصل الفكرة غمرته الحماسة فراح يدفع بسامعيه إلى الأعلى .. إلى الجو الذي أراد .. كأنه قائد يباشر المعركة ، ومسرعان ما يتحول سامعوه جنوداً يحصرون انتباههم في نطاق إشاراته .. وكأنما يراوده الإشفاق على سامعيه من عنف العاصفة ، فإذا هو يتحول من الشدة إلى الرقة ، وإذا هو يرسل النكتة تلو الأخرى ، في براعة موهوبة عجيبة لا تكاد تلامس أسماع القوم حتى ينطلقوا ضاحكين منتشين .

ثم لقيته للمرة الثالثة في دمشق ، وقد وصل لتوه من القاهرة ، وواكبه الآلاف من الشباب حتى الدار التي اتخذتها الجماعة للدعوة الانتخابية ، وإذا هو يتسنم المنبر الذي كأنما خلق له . ولأول مرة في ذلك اليوم تسمع دمشق صوت الإسلام يدوي بالمعاني الجديدة للانتخاب البرلماني ، الذي يريد الفقيد وإخوانه أن يكون وسيلة لتجديد رسالة دمشق التي بدأتها من أيام الفتوح الأولى ، بعد أن كان مفهوم الانتخاب لا يتجاوز تأييد فلان ، ونكاية فلان .. وتأمين أكبر قدر من المنافع أو الوعد بالمنافع لجنود الشيطان .

ثم جمعتني به حفلة أقامتها في طرابلس جمعية الشبان المسلمين ، فألقيت فيها أول كلمة كتبتها عن العدالة الاجتماعية في الإسلام ، وتكلم هو في الموضوع

فكانت خطبته المرتجلة تشقيقاً وتفريعاً ثم توكيداً للحقائق التي عرضتُ لها مؤيدة بأحداث التاريخ الإسلامي ، التي كانت براهين لها قاطعة في مجال التطبيق . ولا أزال أذكر محاولة بعض الناقمين من الإسلام يومئذ إثارة المنافسة بين محاضرتينا فخصص بالإطراء حديثي . وراح يدس في إطرائه السموم ، فقلت له : على رِسلِكْ .. إن أكن قد أحسنت حقاً فللسباعي الحق الأول بهذا الإطراء لأنه السابق إلى كشف هذه الجوانب المجهولة من فضائل الإسلام .

ثم جاءت معركة فلسطين سنة ١٩٤٨ ، وكانت خطب الفقيد العظيم هي الوقيد الذي حرك الهمم لبذل الأموال والنفوس ، يتنقل بين بلد وآخر ، يحث ويوضح ويذكّر ، فيترك في كل قلب دوياً ، وفي كل بلد نشاطاً قوياً . وقاد كتائب الجهاد في بطاح البلد المقدس، في عزيمة وإخلاص ليس الحديث عنهما شأن هذا الحديث . ولكن أذكر موقفاً له لا تستطيع الأحداث أن تزيله من مخيلتي، وكان ذلك عقيب الهدنة الأولى ، وقد عاد من ساحة المعركة ، ليتحدث إلى الشعب عن مصيرها وملابساتها وما وراءها من المؤامرات ، وانتصب السباعي يومئذ في ندوة (السنجقدار) وسط الآلاف المؤلفة من المستمعين المتلهفين لأنبائه. وانتشروا في الشوارع ، وفي المنازل والفنادق المطلة ، يرهفون أسماعهم إلى الرجل الذي وثقوا بصدقه ، لأنهم لم يجربوا عليه الكذب.. الرجل الذي يقود صفوة من أبنائهم ، الذين هجروا مدارسهم وجامعاتهم ومتاجرهم ووظائفهم للذياد عن وطن الإسلام ، الذي زرعه صحابة نبيهم ﷺ بجماجمهم وأشلائهم ودمائهم ، ورأيت الفارس المحارب يقف كالنمر الهائج في ثياب الميدان مسربلاً بغبار المعارك ، ثم يتدفق بالزئير المخيف .. يصف ويعنف ، ويكشف ، وينذر الناس بالخطر الذي تهيئه الخيانات وراء خطوط النار ، ويهيب بالشعوب العربية أن يكونوا حذرين وأن ينهضوا بكل قوام لإكراه حكوماتهم على تصحيح موقفها بإزاء المعركة .

أجل .. والله .. لقد قال لنا السباعي يومئذ كل شيء يجب أن يقوله

قائد باشر نار المعركة بنفسه وإخوانه ، وكشف لنا ستور المستقبل الرهيب الذي سنصير إليه ، إذا لم نسرع إلى الضغط على الحاكمين لتغيير خططهم المعدة بأيدي العدو .. المستقبل الرهيب الذي أصبح اليوم حاضراً نعيشه ، بعد أن كان أحاديث نسمعها ولا نكاد نصدقها .

وبلّغ البطل يومئذ رسالته ، ثم عاد إلى الجبهة ليواصل حماية الثغرة التي عهد بها إلى كتيبته ، وليسقي الأرض المقدسة بمزيد من الدم الطاهر ، الذي تسابق إخوانه لبذله في سبيل الله ، ليسجلوا للعالم المتآمر ، من وراء وأمام ويمين وشمال ، أن أرض الإسلام لن تعدم الأحرار ، الذين يقدمون أجسادهم في سبيلها طعاماً للحديد والنار .

●

وانتُخب فارس الميدان والمنبر نائباً عن دمشق .. وكم من نائب هو إحدى النوائب ، وكم من نائب لا عمل له سوى تحريك الرأس ورفع اليد وتكثير عدد الأصوات للجانب الذي هو أجدى له !. وكان انتخابه تشريفاً للنيابة إذ كان رجل الساعة في ذلك المجلس الذي كانت أولى مهامه وضع دستور البلاد .

وطبيعي أن يقود السباعي معركة القرآن تحت قبة البرلمان، وكانت معركة حامية الوطيس شغلت القطر السوري بأجمعه ، بل العالم الإسلامي الذي أخذ يرقب مصير الإسلام في عاصمته الثانية .

وقد أثبت أبو حسان يومئذ أنه النائب الذي يدرك أن مهمته في ذلك المجلس ليست إلا جزءاً من مهمته في كل بلد وقرية ، فشغل الجماهير وأثار العزائم وحشد القوى للضغط على دعاة العلمنة .. الذين حاولوا الوقوف في وجه التيار الإسلامي ، ليسبغوا على الدستور لون أفكارهم المجتلبة ، فما لبثوا أن باؤوا بالهزيمة، وانتصر دعاة الإسلام، الذين فرضوا على الدستور صبغة التشريع الذي أنزله الله لإنقاذ البشرية من لوثات الجاهليات الجديدة والقديمة .

ولقد كان القلم أحد أسلحته الجبارة في تلك المعركة ، به يرد على الصحف المنحرفة ، وبه يزيف دعاوى الزائفين ، الذين زعموا أنهم يحاربون (أسلمة) الدستور باسم القوانين . وكانت الجماهير المؤمنة ، وفي طليعتها المثقفون عشاق الأدب الرفيع ، تترقب مقالاته تلك في « المنار » لتتداولها في لهفة حارة ، حتى ليرتفع ثمن العدد الذي يحملها إلى خمسين ضعفاً .

●

وكان الفقيد العظيم أشد الناس بغضاً للانقلابات العسكرية ، لإيمانه أن السبيل الوحيدة للإصلاح ، أياً كان ، إنما هو الفكر الحر والمنطق العلمي المبني على الحجة المفحمة .. وهذا ما دفعه إلى استنفاد مجهوده في سبيل إقناع أديب الشيشكلي بإعادة الحياة البرلمانية إلى البلاد ، بعد تلك الاندفاعة الحمقاء التي قوض بها العهد الدستوري .

وتردد أياماً بين الشيشكلي والدواليبي المعتقل ، تحقيقاً لهذه الغاية ، ولكن النجاح كان مستحيلاً عليه ، لأن طموح الشيشكلي لم ينسجم مع الغاية التي يريدها الفقيد ، لذلك سرعان ما قلب له ظهر المجن ، وضمه إلى صديقه رئيس الوزراء الدكتور معروف في معتقل المزة ، وأعقب ذلك بمصادرة حرية الجماعة فأغلق مراكزها ، ووضع رجالها تحت مراقبة شديدة . وبعد مدة غير يسيرة أخرجه من المعتقل لمواجهته ، وقد حدثني أبو حسان، عليه رحمة الله ، بالبحث الذي دار بينهما يومذاك :

قال الشيشكلي: يؤسفني أيها الأستاذ أن تصدر عني إساءة نحوك، وأنا الذي أقدر جهادك ، وأثق بإخلاصك ومن معك .. وقد كان الأحرى بنا أن نأتلف بدلاً من أن نختصم ونختلف . ومع ذلك فإن المجال لا يزال أمامنا متسعاً لذلك فلننس الماضي ولنتعاون .

فقال أبو حسان: ولكن الذي وجدته منك أكد لي ألا سبيل إلى التلاقي .

قال الشيشكلي : ولم لا .. إنك تدعو إلى الإسلام ، وأنا والله مسلم يملأ قلبي الإيمان بالله ورسوله وكتابه ، فكيف لا يتم تلاقينا .

قال الفقيد : لعلك تفهم الإسلام عبادة وعقيدة وحسب ، أما نحن فالإسلام في مفهومنا نظام يشمل الحياة ويقدر لكل شيء حسابه، لأن الله يقول لنا:«ما فرطنا في الكتاب من شيء» ومعنى ذلك أننا لا نستطيع القبول بالواقع الذي تفرضه القوة ، ولا بد لنا من النضال بكل الوسائل المشروعة حتى نعيد إلى هذه الديار نظامها الإسلامي الذي به دخلت أمتنا التاريخ ، وبه تسنمت مركز القيادة العالمية من أوربة إلى أقصى الصين .

وهنا لم يبق متسع لاستمرار المحاولة ، فأعلن صاحب الانقلاب أسفه لإصرار السباعي على معارضته ، ونهض ليودعه وهو يقول : « إذن فنحن معذورون في اتخاذ كل ما نراه ضرورياً لحماية أهدافنا . ولكني آمل ألا نيأس من إمكان التلاقي في وقت آخر .. عندما تتضح لكم حقيقة أغراضي يا دكتور !.. »

وكان طبيعياً أن يفرض الحصار على تنقلات الفقيد ، وعلى داره ، التي أخذت تزدحم بالزائرين من مختلف أنحاء دمشق وغيرها . ثم رأى الشيشكلي أن دمشق لا تتسع له وللفقيد فأخرجه إلى لبنان ، حيث بقي في منفاه هذا إلى نهاية ذلك العهد .

وفي حياة الفقيد بلبنان ، مدة النفي، صور رائعة من جهاده وأخلاقه ، لا يحسن أن يغفلها الذين يتحدثون عن شخصية ذلك المجاهد الدؤوب ، والأبي الأنوف .

لقد عاش أيامه تلك في خدمة للإسلام لا تفتر ، فمن محاضرة ، إلى حديث ، إلى تأليف . ولقد حدثني عدد من المثقفين من مختلف الطوائف أن للسباعي الفضل الأكبر في تعريفهم حقائق الإسلام ، التي مـــا كانوا ليعلموا عنها من قبل شيئاً .

ومع ذلك فإن أسوأ ما لقيه السباعي في تلك الأيام وما وليها إنما جاءه عن طريق شباب كانوا أحق الناس ببره وحبه ، وكان ذلك يوم عاد إلى سورية ليستأنف نشاطه في خدمة الحق ، فإذا هو يواجه سلسلة من التدابير حيكت في غيابه للتسلط على الجماعة ! إنها محاولة انقلاب بدأت خفية وراء الستور ، ثم ما لبثت أن خرجت إلى الملأ تواكبها وتؤرثها تحريشات الصحف المشبوهة ، التي لم يعرف لها قط سابق اهتمام بقضايا الإسلام ، إلا عند مهاجمة دعاته ، والدعوة إلى عداته .

وأشهد .. لقد تحمل أبوحسان من ظلم هذه الفئة - سامحها الله - ما تنوء به كواهل العصبة أولي القوة . وحسبي أن أذكر مشهداً واحداً من هذه المأساة ، ولولا خشية الإساءة لمن لا نحب إيذاءهم من إخواننا الأحياء ، لوجدت متسعاً لعرض الكثير من هذه المشاهد ، التي لا أشك أنهـا كانت من العوامل التي انتهت به إلى الشلل .

حدث ذلك في دمشق ، وفي اجتماع ضم طائفة من قادة الجماعة ، بينهم من مصر الأستاذان أبو رقيق وحسن العشماوي ، ومن سوريـــة الأساتذة عصام العطار وعبد الكريم عثمان (رح) ، وحضر الاجتماع الأستاذ (فلان) عن الفئة (الأخرى) .

وُطرحت الأفكار بصراحة ، وفسح مجـال القول لمن شاء ، ووجد الأخ (فلان) الفرصة مواتية لتفجير ما حمل من ألغام ، فإذا هـو يقول في لهجة مضغوطة لم يستطع أن يلطفها : « هناك أسئلة تطلق ولا نعرف بماذا نجيب عليها .. أولاً .. مصروف الأستاذ السباعي أثناء وجوده في لبنان طوال

زمن النفي .. من أين أتى به ؟ ثم هناك مبلغ من المال كان قد قبضه من الأستاذ (أمين ...) قبل سفره إلى فرنسة لنوال الدكتوراه .. كيف تصرف بـه ؟ وبأي حق ؟ »

ووجمت الألسن ، وغامت الوجوه تحت غشاء الدهشة المرة ، إذ لم يكن أحد منا يتوقع أن تصل الخصومة في القوم إلى حد اتهام الرجل الذي وهب كل شيء في سبيل الدعوة .

ولكن وجهاً واحداً لم تزده هذه الجرأة إلا إشراقاً وابتساماً ، هو وجه السباعي ، الذي ظل محتفظاً بهدوئه واطمئنانه المألوف في مثل هذه المجالس الخاصة ، كأن شيئاً مؤسفاً لم يحدث ! وكان عليه أن يجيب ، فقـــال : « أما مصاريف المنفى فيخجلني أن أضطر لكشف الستر عن وضع لا يخص أحداً سواي ، وهو أنني كنت أقترضها من ابن عمي عبد السلام السباعي في بيروت ، حتى بلغت ديوني بسبب ذلك قرابة العشرين ألف ليرة . ولقد كان في وسعي أن أنجو من هذه الديون لو قبلت معونة أخ واحد من الكويت .. لقد بعث إليّ بالسيد رفعة الأيتوني يقول : « إنك موقوف عـن العمل »[٢] ولا مورد لك ولأسرتك ، وأن أخاك هذا كلفني أن أقدم إليك راتباً شهرياً ريثما تنكشف محنتك » .

ولكنني رجوت من السيد الأيتوني أن يرفع إلى الأخ الكويتي شكري على مروءته ، ويؤكد له أنني في غير حاجة إلى شيء من ذلك ، فألح وطلب إليّ أن أعد ذلـك من باب الاقتراض فقلت : إنني أقترض من ابن عمي ، ولا أحب أن أكون مديناً لغيره .

وهنا طلب الأستاذ عبد الكريم عثمان الإذن بالكلام والتفت إلى الأستاذ (فلان) يقول : أتذكر يوم كذا ... وكنا نتحدث عن الأستاذ السباعي فقلت لي : حقاً إن الرجل مظلوم .. وضربت لي مثلاً على ذلك بأنه قد تلقى من الدكتور (أمين ...) هبة باسم الدعوة فدفعها إليك بدوره لتنفقها على

مصالح الجماعة ، وقــد فعلت . ثم قلت : ومع ذلك فإن بعض الألسنة غير النظيفة تريد أن تتحرك بالباطل لتتهم الرجل بأنه استأثر بالهبة لنفسه !

وأطرق (فلان) .. وقد تذكر كل شيء ، ولكنه لم ينطق بحرف .. ثم انفض الاجتماع لصلاة الجمعة ، ففارقنا إلى غير رجعة !

●

واستأنف الفقيد جهاده ، كشأنه المعهود ، في نشاط لا يعرف الكلل .. وكانت طلائع المرض قــد بدأت تدهمه بين الحين والآخر ، فيرتفع ضغطه حتى يلزمه الفراش. ويلح على إخوانه بإعفائه من العمل لينصرف إلى معالجة طويلة . وقلت له ذات مرة وهو يصر على طلبه الإعفاء « إنني لواثق من الخطر الذي يتهدد صحتك ، ولكن هل بوسع العلاج أن يمد لحظة في أجلك المقرر !.. إنك ميت على كل حال وأنا أوثر لك أن تقضي شهيداً في قلب المعركة ، على أن تموت حتف أنفك على الفراش » .

وكان طبيعياً لجسد يسرف في إحراق وقوده ، أن ينطفىء أخيراً ، وفي سرعة . وهكذا وقع القدر، ونزل به الشلل الذي انتهى به إلى الانفجار.. فالانطفاء !..

ولا أزال أذكر يوم وقعت عيني عليه بعد الإصابة فلم أستطع تمالك دمعي ، فجعل يسليني بما يذكرنيه من حكمة الله ، وجمال التسليم إليه .

وقصّ عليّ ظروف المصيبة وما لابسها من لطف الله ، إذ كان في خلوة بعيدة عن الناس في فندق من(ضهور الشوير) بلبنان، حيث قضى أياماً في راحة لم يحلم بمثلها من زمان ، ولكنه فوجىء أخيراً بانقباض في صدره لم يستطع تفسيره ، ما لبث أن استحال إلى قلق عنيف ، فدعا بالنادل ، وطلب إليه أن يؤمن سفره عاجلاً إلى بيروت ومن ثم إلى دمشق . وهناك سأل أهله عن والديه وتفقد أسرته ، فوجد كل شيء كما يحب ، إلا أنه ما كاد يستريح قليلاً حتى

وقعت الفاجعة .. فإذا هو في قبضة الشلل !.. وكان ذلك آية من رحمة الله الذي لم يأذن بوقوعها في غرفته المنعزلة في (ضهور الشوير) .. ولو حدث له ذلك هناك لكان متعذراً أن يعلم به أحد قبل ساعات ، لأنـه موص خدم الفندق أن لا يدلوا عليه أحداً وألا يواجهوه إلا بطلب منه !

وقال لي أبو حسان وهو يمجد الله على عنايته : لا أشك في أن هذه الإصابة كانت خيراً لي وأوفر أجراً .. ذلك لأن مشاغل الدعوة والسياسة كانت تستهلك وقتي جميعاً ، فلا أجد متسعاً للتأليف الذي أريد ، أمـا اليوم فقد أتاحت لي المصيبة فرصة ما كنت لأتصورها ، وهاأنذا أكتب مـا لم أستطع كتابته من قبل ، وكل ما أتمناه هو أن يعينني ربي على تسجيل كل ما لدي من أفكار في خدمة دينه ، ونصرة شريعته .

وحقق الله لأبي حسان رجاءه ، فإذا هو يضم إلى التراث الإسلامي باقة من أنفس ذخائره ، التي أخرجها الفكر المؤمن خلال هذا القرن .

●

ويشاء الله أن ألقاه أثناء موسم الحج - لعام ١٣٨٢هـ - في مكة المكرمة ، ثم في منى . وشد مـا أحزنني منظره ، وقد بلغ منه الهزال والضعف مبلغاً كبيراً . وضبطت أعصابي وأنا أرقب شمعته التي خيل إليّ أنها على حافة النهاية . ثم خلوت لنفسي أبكيه وأدعو له ، وذكّرت رفاقي بحاله وسألتهم له الدعاء .. وأشهد، لقد سمعت ضراعاتهم تصّاعد من حول الكعبة، وفي الطريق إلى مدينة الرسول، وعلى مقربة من الضريح المبارك .. تسأل الله العافية للرجل الذي أحرق قلبه ، وأذاب وجوده في سبيله .

ومن هنا كان عظم الفرحة التي اعترتني ، وأنا أسمع إلى أنباء تقدمه الصحي عقيب عودته من الحرمين، ثم عندما كنت أنظر إليه وهو يتقدم نحوي بنشاطه الجديد يوم اللقاء الأخير !

ولقد تركته يومئذ ، وأنا كبير الرجاء بأن يتكرر بيننا هذا التلاقي في مكة المكرمة والمدينة المنورة ، إذ كان هو على أهبة السفر إلى مقر عمله الجديد في المسجد الحرام ، وكنت على أمل الانتقال إلى مدينة الحبيب ﷺ للعمل في جامعتها الإسلامية .

ولكن شاءت حكمة الله أن أتلقى خبر نعيه ، في الوقت الذي كنت أترقب نبأ سفره !

وهكذا قضي عليّ أن أحرم أنس أبي حسان ، وأنا أشد ما أكون رغبة فيه وشوقاً إليه !

ولكن ذكرى أبي حسان قلما تفارق خاطري.. إني لأذكره وأنا في الجامعة بين زملائي من علمائها الفضلاء ، ومع شبابها من جنود الإسلام ، الذين تعدهم للنهوض بأعباء الرسالة ، التي أسلم السباعي روحه وهو يجاهد لخدمتها ورفعتها .

أتذكره وأنا أفكر في مصيره الأخير فلا أجد مندوحة عن الربط بينه وبين الظروف التي رافقت إصابته .

لقد أكرم الله أبا حسان يوم الإصابة ، فألهب مشاعره حتى انطلق إلى دمشق ليتلقى قدر ربه في بيته ، بين عطف الزوج الوفية ، ولهفة الصغار الأحبة ، وحنان الأبوين الشفيقين .

ثم أكرم الله أهله ومحبيه وزوجه وبنيه ، فوافاه بالأجل المحتوم في فراشه ، وفي البلد الذي أحبه ، فأتيح لهم بذلك أن يمتعوا أبصارهم بمشهده الأخير ، على فراش الموت ، وفوق راحات الأوفياء من تلاميذه في الدعوة ، التي أعطاها وجوده ، وفي كلية الشريعة التي شاء الله أن يحقق وجودها بجهوده ، ليخرّج منها للإسلام صفوة جنوده !

وأخيراً ، إنها لكرامة ، أي كرامة ، أن تكون جنازة أبي حسان فرصة لإثارة الروح الإسلامي الذي توهم كثير من قصار النظر أنه قد اندثر !

ولا عجب ، فإن هذا الإسلام الذي أراد الله أن يكون أبداً مدرسة الأبطال ، قد جعل مصطفى السباعي بطلاً يرهف في حياته العزائم ، ويبدع في مماته العظائم .

وأعود إلى اللحظة الرهيبة ، التي تلقيت فيها النبأ الفاجع .

لقد كنت أطالع حياة الفاتحين من الصحابة في أرض العراق .

ووقفت ملياً عند نهاية البطل العظيم الذي بترت ساقه في ساحة المعركة ، فلم يقفه ذلك عن مواصلة النضال على الساق الأخرى حتى بترت هذه ، فإذا هو يتابع كفاحه زحفاً ، إلى أن وطئته الخيل وهو يضرب بسيفه في العدو !

وها نحن نتابع كفاح أبي حسان في مختلف مراحله ، وعلى اختلاف ميادينه ، فنراه مقدماً بكل مـــا يملك من سلاح وخبرة ، لا يعوقه عن ذلك سجن في (المية ومية) ولا اعتقال في غيره .. ولا نفي في لبنان ، ولا شلل من حقه أن يقعد الأبطال ، حتى يفاجئه الأجل وهو يوجه آخر طعناته إلى أعداء سنّة رسول الله وصحابته الأجلّة ، في مؤلفه الدامغ «السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي » .

فاللهم ارحم أبا حسان واغفر له ، واجزه عن دينك وكتابك خير ما تجزى العلماء العاملين .

اللهم قد روينا في السند الصحيح عن نبيك المصطفى ﷺ أن المرء مع من أحب ، فاحشره إليك مع صفوة خلقك ، واجمعنا به في مستقر رحمتك ، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً .

●

وبعد .. فهذه كلمات كتبتها قبل أربع عشرة سنة ، وأعيد فيهـا النظر الآن ، فألفيها كيومها الأول ، صورة حية للشعور الذي لا يزال يغمرني كلما عاودتني تلك الذكريات التي لا تنسى .

وأمسك القلم لأسجل ما يحسن أن يكون ترجمة صالحة لذلك الأخ الأثير فلا أكاد أجد مزيداً على ما أسلفت يومئذ ، اللهم إلا أن أقول :

إنه مصطفى بن حسني السباعي .. ولد عام ١٣٣٣ﻫ في حمص ، وفيها نشأ وترعرع وتلقى تعليمه حتى ما قبل الجامعة ، وأول المؤثرات في تكوينه الخلقي والفكري ، بيتـه ذو الطابع الديني والعلمي ، فقد كان والده الشيخ حسني خطيب الجامع الكبير في حمص ، وقد انتهت إليه هذه الخطابة عن آبائه وأجداده ، وامتازت أسرته بكثرة العدد والعلماء ، وقد عوده أبوه أن يصحبه إلى مجالس العلم وهو لما يتجاوز سن الحداثة ، ومنه تشرّب حب الخير وكره الاستعمار ، وشهد والده وهو يشارك في قتال الفرنسيين والمرتزقة من أعوانهم ، مع الشباب والمشايخ الذين أعادوا لحمص سيرة البسالة الإسلامية ، بما أوقعوا في قلوب العدو من الرعب ، وبما قدموا لدينهم ووطنهم من التضحيات ، فكانوا بذلك إحدى الحلقات المتممة لسلسلة البطولات ، التي شاركت في تسجيلها أيامئذ معظم المدن والجبال الشامية ، من حوران إلى أقصى الإسكندرون ، فلم يبق بلد من سورية لم يلمع فيه اسم أو أسماء مغاوير أحيوا في الأذهان ذكريات الفرسان الذين ملؤوا تاريخ الجهاد دوياً لا يخفت مدى الدهر .

دراستـــه :

بدأ حفظ القرآن الكريم قبل الالتحاق بالمدرسة ، ثم أقبل على الدراسة النظامية حتى أتم المرحلة الثانوية وهو في الخامسة عشرة ، ولم ينقطع أثناء ذلك عن مجالس المشايخ مع والده ، ودأب على المطالعة التي وسعت آفاق تفكيره ، حتى كان ينوب عن والده أحياناً في خطبة الجمعة ، فيفيض على جموع المصلين بكل ما يبعثهم على الإعجاب والانفعال .

ومن ثم شخص إلى مصر لاستكمال دراسته في كلية الشريعة ، واستمر في طريقه هذا إلى أن نال شهادة الدكتوراه في التشريع الإسلامي عام ١٣٦٨ﻫ

وكانت رسالته فيهـــا كتاب « السنّة ومكانتها ... » الذي أحرز إعجاب المشرفين والمناقشين . وقد سد يومئذ فراغاً كبيراً في مجال السنّة ، إذ كان تفنيداً علمياً قاهراً لأباطيل أبي رية ومن وراءه من المخدوعين والمضللين ، وقال عنه علاّمة الشام المغفور له الشيخ بهجة البيطار : (لو أن العمائم على مقدار العلم لكان من حق السباعي أن تملأ عمامته هذا المسجد بفضل هذا الكتاب) .

في التعليم :

بدأ عمله – قبل الدكتوراه – مدرساً للدين والعربية في بعض ثانويات حمص، وقد أقبل على ذلك المسلك بنشاط وإيمان ، إذ كان على أتم اليقين بأن إصلاح التعليم هو المنطلق الذي لا مندوحة عنه لكل مـــا يجول في قلبه من آمال في مستقبل الإسلام، ولما تحقق من قصور المناهج الرسمية ، وندرة النوعية المنشودة من المدرسين الواعين لحقائق الإسلام ، الناهضين بمسئولياتهم ، تحوّل من التعليم الرسمي إلى التعليم الخاص ، وأنشأ بالتعاون مع بعض العناصر الصالحة بدمشق (المعهـد العربي الإسلامي) الذي كان له الفضل في تخريج أفواج من الشباب المزود بالوعي والخلق ، ولم يكتف بذلك بل أحدث له فروعاً على شاكلته في عدد من المحافظات .

وشاء الله أن يتحول مرة ثانية من التعليم الخاص إلى التدريس الجامعي ، فعين أستاذاً في كلية الحقوق عام ١٩٥٠ ، وهناك يلتقي بالكثيرين من خريجي المعهد وغيرهم من الطلبة الجامعيين ، الذين وجدوا فيـه طرازاً جديداً من المدرسين لا يكتفي بالمحاضرات يلقيها ، بل لم يدع وسيلة تساعدهم على التقدم العلمي والتحرر العقلي إلا عمد إليهـا ، حتى أجمع الطلاب على تقديره وحبه ومتابعة حلقاته ومناقشاته بكل رغبة واجتهاد .

كلية الشريعة :-

وفي ضوء هـذه التجربة الجامعية ، مضافة إلى نجاحه وإخوانه في إسباغ اللون الإسلامي على دستور البلاد الجديد كما سيأتي، بدأ مساعيه الجبارة لإحداث كلية للشريعة في جامعة دمشق ، تزود البلاد بحاجتها من الفقهاء الصالحين الذين تتطلبهم المرحلة الجديدة . وتوج الله مساعيه وإخوانه بالتوفيق، فأنشئت الكلية وعهد إليه بعمادتها الأولى ، فانطلق بها في طريق النمو والعمل والتعميق ، حتى أصبحت على حداثة عهدها في طليعة الكليات تقدماً في ميدان العلم ، وتأثيراً في أوساط المجتمع ، وكان لها بمثابة الأب الحاني يقدم إليها كل يوم جديداً من التضحيات ، وقد كان لـ (قاعة البحث) التي أحدثها في هـذه الكلية أثر بعيد المدى في تفجير المواهب ، وتوسيع آفاق المعرفة لدى الطلاب ، الذين وجدوا فيها متعة جذابة تمدهم بزبدة التجارب العلمية ، وتفسح له مجالاً جديداً لبنـاء هذه العقول والنفوس المتفتحة لكل خير ، حتى إنه لم يكن بقادر على إغفال أي موعد له معها ، مهما يشتد عليه الألم الذي شاء الله ألا يزايله منذ ألم به .

الموسوعة :

ورأى من ضروريات العمل، لتوسعة سلطان الفقه الإسلامي، تيسير السبل الكفيلة بتقريبه من متناول القانونيين والعاملين في نطـاق التنظيمات القضائية والحقوقية ، ومن هنا انبثق اتجاهه وإخوانه ، من المشاركين في هـذا المضمار إلى تكوين « موسوعة الفقه الإسلامي » فبدأ العمل فيها داخل كلية الشريعة ، ولكن المشروع أكبر من طاقة الكلية والجامعة ، ولا بد له من مساندة دولية تتعهده بالمخصصات المالية اللازمة ، وكانت الوحدة قد جمعت بين مصر وسورية، فسكنت التحركات السياسية ، وتوقع الناس عهداً جديداً من الخير ينعم بـه الإقليمان ، وتناسى إخوان سورية جراحهم التي أنزلها الحكم السابق ورجالها في مصر ، فتقدم السباعي باقتراح إلى جمال عبد الناصر يدعوه إلى تبني أمر الموسوعة، على اعتبارها من أهم الأعمال التي يستطيع تحقيقهـا ، واستجاب للاقتراح أول

الأمر ، وألفت اللجنة المختارة وأتمت بعض الخطوات المبدئية في المشروع ، ثم توقف العمل الذي لم يشأ الله إتمامه لأمر هو أعلم بـه ، ومن ثم انتقل إلى الكويت ، حيث تراوح المشروع وما يزال يتراوح بين مضي وتوقف، وقد بدت تباشير استئنافه في عزيمة جادة وإمكانيات علمية .

في أتون السياسة :

وفي عام ١٩٤٩ بعد انحسار ظلمات الانتداب الفرنسي عن سماء سورية لم يكن بد من تنظيم قواعد الدولة ، بإقامة المؤسسات الدستورية الضرورية ، فاقتضى ذلك إجراء انتخابات تقدم البلاد بهـا ممثليها لوضع قانونها الأساسي ، وكان على رجال العمل الإسلامي في دمشق ألا يغيبوا عن هذه المناسبة ، التي كان لهم الفضل الأكبر في قيادة البلاد إليها ، فقرروا خوض الغمرة بطائفة من الرجال الموثوقين، ليشاركوا في توجيه المستقبل ضمن الخط الإسلامي، وقدر الله النجاح لهؤلاء بالكثرة من الأصوات ، وفي مقدمتهم الرجل الذي عرفته سورية كلها من خلال نشاطه الذي حرك الخامد من العقول والضمائر .

وسرعان ما لمع نجم الفقيد داخل المجلس التأسيسي كما كان خارجه ، فاختير نائباً لرئيسه ، وكان أحد التسعة الذين عهد إليهم بوضع مسودة الدستور .

وكان على النواب الإسلاميين أن يخوضوا معركة حامية لتوكيد المقاصد الإسلامية في ذلك الدستور ، على وجه يحفظ للشام طابعها الموروث منـذ عهد النبوة . وقد زاد المهمة تعقيداً قلة عدد هؤلاء بالنسبة إلى مجموعة النواب ، إذ كان المهيمن على مسرح الانتخاب نواب من اتجاهات أخرى، يضاف إلى ذلك فقدان الوعي الإسلامي الصحيح من أوساط العامة ، الذين لا يملكون القدرة على تصور النتائج ، التي تخطط لهـا الأيدي الخفية من وراء ألف ستار ، فهم مأخوذون بالدعايات الصارخة التي تجعل (الوطنية) الظاهرية هي المقياس الأمثل لتقديم الأشخاص ، دون بحث عمن وعما خلفهم من التيارات .

وشملت المعركة البلاد كلها لا المجلس وحده ، وقد قادها السباعي وإخوانه من التجمع الإسلامي بشجاعة قاهرة وعزيمة باهرة ، حتى تمكنوا من استبعاد الطابع العلماني عن الدستور ، وتثبيت اللون الإسلامي على معظم أحكامه الأساسية .

في الصحافة :

وكانت الصحافة إحدى أهم الركائز التي أحسن السباعي استخدامها في تلك المعركة ، فعن طريق (المنار) — جريدة الدعوة يومئذ — كان يحرك الجماهير بالكشف عن محاذير المسلك غير الإسلامي ، وبافتتاحياته البليغة بل الساحرة كان يناقش المساندين لتجريد الدستور من اللون الإسلامي ، باسم العلوم الدستورية ، فيرد بالحجج القانونية ، التي لا ترد دعاواهم الباطلة التي توهم الجاهلين وأنصاف المتعلمين بصحة مزاعمهم ، فتأتي هذه الافتتاحيات لتحيل ما بنوه في الهواء هباء منثوراً ، وتستقطب كل يوم أفواجاً من المؤيدين للاتجاه الإسلامي ، بعد أن كانوا من المعارضين له ، أو المترددين بشأنه ، حتى ليرتفع ثمن العدد الواحد بسبب هذه الافتتاحية إلى أضعاف أضعاف ثمنه .

ولم يقف نشاطه الصحفي عند معركة الدستور وحدها ، بل استمر مرافقاً له حتى اللحظات الأخيرة من حياته ، إذ كان موقناً بأن الصحافة — إلى جانب المدرسة — أفعل الوسائل في الإصلاح والإفساد ، وإذن فلا بد للفكر الإسلامي من صحافة تدافع وتهاجم وتنشر الوعي بين الجماهير ، التي هي هدف التيارات الهدامة جميعاً ، ويجب أن تكون القاعدة الأساسية لكل عمل إسلامي صحيح . ومن هنا كان اهتمامه بهذا الجانب من وسائل الإعلام ، فأنشأ (المنار) يومية عام ١٩٤٧ ثم (الشهاب) شهرية ، التي استمر صدورها حتى عام ١٩٥٨ الذي تمت فيه الوحدة بين القطرين ، فتوقف نشاط الجماعات وما لها من وسائل النشر . ومنذ توقفت مجلة (المسلمون) في مصر شرع في تجديد إصدارها من دمشق

على نفس الخطة التي عرفت لهـا من قبل ، ثم حولها إلى (حضارة الإسلام) الشهرية التي ظل قائماً عليهـا حتى توفاه الله ، ولا تزال حتى الساعة مواصلة صدورها وجهادها في خدمة الإسلام ، برئاسة أخيه في الدعوة الدكتور محمد أديب الصالح الأستاذ في جامعة دمشق .

في المعتقلات :

والسياسة بالنسبة إلى مثل شخصية السباعي جزء لا يتجزأ من الحياة ، لأنهـا العمل الذي يتولى الجانب الأكبر من قيادة المجتمع ، فلا سبيل إلى عزله عن مجال المصلحين ، إذ لا سبيل إلى تحديد منطقة كل من المصلح الاجتماعي والقائد السياسي في حياة الشعوب . وهكذا بدأ الفقيد نشاطه السياسي مطلع شبابه ، أيام كان يرسل خطبه الأولى من على منبر الجامع الكبير في حمص بلد ابن الوليد، ثم مضى يحمل قسطه في عملية النضال ضد الاحتلال الفرنسي ووسائله المختلفة ، فقاوم مدارس التبشير بالمنشورات الدامغة ، وشارك في التظاهرات الوطنية لمكافحة الاستعمار . وفي مصر شارك في إثارة الوسط الأزهري ضد الاحتلال الإنجليزي ، وأثنـاء الحرب العالمية الثانية عمل مع المؤيدين لثورة رشيد عالي الكيلاني لتحرير العراق من الإنجليز . وقد أدى بـه ذلك إلى عدد من الاعتقالات ، ففي عام ١٩٣١ سيق إلى سجون الفرنسيين بتهمة مسئوليته عن منشورات وزعت في سورية احتجاجاً على سياستهم في المغرب ، وفي عام ١٩٣٢ اعتقل ثانية في سورية بسبب إحدى الخطب المثيرة ، وفي عام ١٩٣٤ اعتقله الإنجليز في مصر ، وعام ١٩٤٠ أعاد الإنجليز اعتقاله في قضية رشيد عالي ثم أبعدوه إلى فلسطين واحتجزوه في معتقل (صرفند) وفي سنة ١٩٤١ اعتقله الفرنسيون مرة أخرى وجعلوا ينقلونـه بين سجون حمص وبيروت والمية ومية وقلعة راشيا ، حيث بقي سنتين ونصف السنة معرضـاً لأصناف النكال .

السباعي وفلسطين

وكانت الأحداث تتتابع بقوة مفزعة في قلب فلسطين ، وكلها تشير إلى النهاية المخططة من قبل الاستعمار وأعوانه . ولم يكن ليفوت الفقيد أبعاد المؤامرة بالنسبة إلى أقطار العرب ومستقبل الإسلام كله . ولم يجد سبيلاً للقيام بالواجب نحوها إلا الإقبال على جماهير المسلمين يفتح أعينها على الكارثة القريبة ، فراح يتجول في المدن السورية موضحاً منبهاً ، آخذاً عليها المواثيق المغلظة لنصرتها ، وكان ذلك عام ١٩٤٣ والبلاد السورية تحت كابوس الأحكام العرفية ، فلم يعبأ بعواقب ما يفعل . واستمر على ذلك في حماية ربه حتى ألهب المشاعر وشحذ العزائم ، وهيأ الجو للمعركة الفاصلة .. حتى إذا دوّى نفير الجهاد عام ١٩٤٨ نهض لاستجابة الداعي يقود كتائب الإيمان إلى قلب فلسطين ، واختار مجال عملها منطقة القدس ، حيث حققت أروع البطولات في قتال لم تشهد شوارع بيت المقدس له مثيلاً قط ، حتى استخلصت من العدو أجزاء كانت الأيدي المجرمة تتفانى في الحفاظ عليها ، ولم يتوقف ذلك الجهاد الرهيب إلا بعد أن توقفت الحرب كلها بخضوع الحكومات العربية للهدنة المفروضة ، وإكراهها المجاهدين على التراجع عن الأرض الحبيبة .

نضال لم يتوقف :

ولكن سكوت الرصاص لم يمنع السباعي من مواصلة طريق الواجب ، فعاد من جهاد البندقية إلى جهاد البيان ، ومضى يكشف للناس ستور المؤامرة الكبيرة ، والمخططين لها والضالعين معهم . وما زال يكافح في هذه السبيل حتى استطاع إقناع المسئولين بإدخال القضية الفلسطينية كمادة دراسية في مناهج التعليم ، كي تظل الأجيال على ذكر منها ومن الوعي للابساتها وأبعادها ، وراح في الوقت نفسه يعقد البحوث حولها بصورة مستمرة في مجلة (حضارة الإسلام) التي لا تبرح حتى الساعة تتابع طريقه في موضوع (الدرة المغتصبة) .

في قتال الفرنسيين :

وكان العام ١٩٤٥ موعد الحسم التاريخي للقضية السورية مع فرنسة بعد أن نقضت هذه عهدها ، ومزقت معاهدة الاستقلال التي عقدتهـا مع ممثلي الشعب السوري في باريس عام ١٩٣٦ فتحركت البلاد تطالب بجلاء المحتل ، ورد هذا على ذلك بوحشية تجاوزت كل جرائمه السابقة . ومن هنا كان لا بد من اللجوء إلى السلاح مرة أخرى ، فانطلقت القوى الشعبية لقتاله في كل بلد .

وكان لفقيدنا الغالي جولات مذكورات في هذه المناسبة، إذ وجد فيها المجال الذي طالما سعى إليه. وعرف مما خبره في حرب اليهود كيف يجعل من ضرباته للعدو ومن معـه من المرتزقة مفاجآت مرعبة تزلزل الأرض تحت أقدامهم ، حتى أتم الله فضله بطرد الأعداد الذين لم يلبثوا أن :

خرجوا في مواكب العار يحدو هم هتاف الهوان والإزدراءِ
وعلى الشام من طيوف مآسيـ ـهم بقـايا الآلام بعد الوباء

في ميادين الدعوة :

أدرك الفقيد مبكراً أن طبيعة العمل الإسلامي قائمة على التعاون ، وهذا ما حداه إلى تأسيس وقيادة العديد من الحركات الإسلامية في سورية ، وأكد اهتمامه بهذا الجانب اتصاله بحركة (الإخوان المسلمين) بمصر تحت قيادة الإمام حسن البنا . إذ وجد في تنظيماتها المحكمة المجال الذي يتطلع إليه ، فـما لبث أن ارتبط بها ، وشارك في أنشطتها المختلفة ، ومن ثم عمد إلى مد هذا النشاط المنظم إلى سورية ، فأنشأ بالتعاون مع إخوانه الجناح السوري لجماعة الإخوان المصرية عام ١٩٤٥ واختير مراقباً عاماً له .

وسرعان ما استقطبت هذه المنظمة ذوي الاتجاه الإسلامي ، فإذا هي بعد قليل تحتل المرتبة العليا في توعية الجماهير وشحذ كفاياتها ، ولما زحفت كتائب الإخوان لنجدة فلسطين كان التعاون على أتمه بين الأصل والفرع ، سواء

في جبهات القتال أو في ميادين التدريب ، ولما أوقع فاروق غدرته في ظهور الإخوان ، وقام رئيس وزرائه إبراهيم عبد الهادي باغتيال الإمام البنا ، كان لا مندوحة لها من القضاء على نشاط رفيقه المختار مصطفى السباعي بالاغتيال أو بالاعتقال ، استكمالاً للمخطط المرسوم ، للتخلص من الجماعة التي يعتبر وجودها الخطر الأكبر على استمرار اسرائيل . ولكن الله شاء غير ما أرادوا فعجزت وسائلهم عن الوصول إليه ، وانطلق يقود التظاهرات الهائلة تملأ شوارع دمشق لنصرة إخوان مصر ، كلما نزلت بهم نكبة ، أو تحرك الطغيان لينزل بهم ضربة .

القناة والعدوان الثلاثي :

والسباعي الذي بايع الله على الإسلام لا يستطيع تجاهل قضاياه حيثما كانت ، ومهما كانت الظروف التي تحيط بها ، وليس بوسعه التفريق بين قطر وآخر من بلاد الإسلام في هذا المضمار ، لذلك كان في مقدمة المناضلين لمصلحة مصر يوم دعا الواجب إلى ذلك . ففي عام ١٩٥٢ ألقي في السجن لمدة أربعة أشهر بسبب تحركه الشعبي لمؤازرة المقاتلين للإنجليز في معركة القناة . وفي سنة ١٩٥٦ كان البركان المتدفق بالحمم أيام العدوان الثلاثي على مصر ، وبمساعيه وتحريضه استحالت الجامعة بدمشق معسكراً للتدريب ، ضم بين جناحيه الأساتذة والطلاب على سواء . وقد أعلن وإخوانه تأييدهم المطلق لرجال الثورة في موقفهم من أعداء مصر ، ناسياً كل ما أنزله النظام السابق من نكال في قادة الدعوة وشبابها .

السباعي والشيشكلي :

ويوم قام الزعيم أديب الشيشكلي بانقلابه على الحكومة القانونية بسورية تقدم للتوسط بينه وبين رئيسها السجين الدكتور معروف الدواليبي ، وجهد لاقناع الشيشكلي بتصحيح موقفه ، حتى إذا استيأس من ذلك عالنه بالعداء

فضمه إلى صديقه الدواليبي في سجن المزة . ثم بعد مدة أفرج عنه واستدعاه ، وجعل يحاوره معتذراً إليه عما أسلفه نحوه ، محاولاً إقناعه بالتعاون معه على اعتبار أنه مسلم لا يريد بالإسلام إلا خيراً . ولكن الفقيد كان أكبر من محاولة الشيشكلي ، فأفهمه أن الإسلام يقتضيه أن ينسحب من الحكم ويتركه للهيئات الدستورية ، ولا مكان للتعاون بينهما إلا على هذا الأساس ، فسقط في يد العسكري ، وأبلغه تصميمه على البقاء ، وعلى إلزامه بيته . ثم رأى أن سورية لا تتسع للاثنين فأمر بإخراجه منفياً إلى لبنان .

موقف لا ينسى :

ويأبى اندفاع الفقيد الانحصار في جانب من الأرض ، فكانت رحلاته إلى كراتشي سنة ١٩٥١ وأوربة سنة ١٩٥٦ وموسكو سنة ١٩٥٧ وفي كل منها كان له آثاره في الأفكار ، وفي خدمة الدعوة ، ونقف من هذه الزاوية على مؤتمر بحمدون [١] سنة ١٩٥٤ بخاصة .

لقد دعت إلى هذا المؤتمر طائفة من رجال العلم والسياسة الأميركيين باسم (المؤتمر الإسلامي المسيحي) وكان الهدف الأبعد لهم هو تأريث العصبية الدينية ضد الشيوعية ، بوصفها عدوة الأديان جميعاً . وبعد تردد رأى دعاة الإسلام في دمشق حضور المؤتمر لقطع الطريق على المستغلين .

وفي بحمدون دار نقاش طويل عريض حول الدين والإلحاد والماركسية ، وكاد الأمر يتحول لمصلحة السياسة الأميركية ، فطلب وفد دمشق الكلام . وقدم السباعي لإيضاح رأيه ، فتلا عليهم كلمة جامعة مانعة في الموضوع ، كان لها أكبر الأثر في الأوساط الأميركية والإسلامية . إذ أوضحت للأعضاء الأميركيين أن عداء الإسلام للماركسية لا يمكن أن يُنسي المسلمين عدوانهم

---

(١) أحد المصايف اللبنانية بين بيروت ودمشق .

على فلسطين، وتشريدهم أهلها لتوطين شذاذ الآفاق من يهود العالم ، بالتعاون أو التنافس مع الاتحاد السوفييتي نفسه !

وهكذا استطاعت صراحة السباعي أن ترد الأميركيين إلى بعض الوعي ، فيعلنوا اعترافهم بظلم قومهم ، ويعدوا بأنهم سيعملون على توعية شعوبهم بهذه الحقيقة .

وإيمان فوق الخوف :

ومن مآثره البطولية رحمه الله ذلك الموقف العجيب الذي واجه بـه حكم الإعدام ، الذي أصدر على شقيق له أيام رئاسة نور الدين الأتاسي على سورية .

لقد وزعت في المدن السورية منشورات تدعو إلى الإضراب إعلاناً لمعارضة التسلط ، وخرج الناس يومئذ في حمص إلى الأسواق ليروا مدى استجابة الناس لهذه الدعوة . ووقف ذلك الفتى السباعي أمام حانوته بجوار الجامع الكبير منتظراً مـــاذا يجب أن يعمل ، أيفتح الناس فيفتح ، أم يضربون فيضرب معهم !

وصدرت الأوامر العسكرية بسحق المحاولة دون رحمة ، وحمل الفتى في من حمل إلى السجن، ومن ثم حكم عليه مع آخرين بالموت . ولكن الله لم يقدّر تنفيذ الحكم فحال بين المحكومين وإعدامهم .

وحدثني الأخ الفقيد، وكان المحكومون يتوقعون حبل المشنقة يومئذ، فقال: هذا الطاغية — نور الدين الأتاسي — يريد مني أن أزوره لأشفع لأخي .. وهيهات له ذلك !

أجل .. لقد كان إعدام أخيـه يومئذ أقرب إلى قبوله من التفريط بعزة الإسلام أمام الطغيان . ولن يستغرب ذلك من رجل كمصطفى السباعي مطمئن القلب بالإيمان أن الخلق كلهم لو اجتمعوا على أمر لم يستطيعوه إذا لم يسبق به قدر الله .

مؤلفاته أثناء المرض :

ولعل ملابسات مرضه لا تقل عظمة عن هذه البطولة . فقد شاء الله ، جلت حكمته ، أن يصاب بالشلل الجانبي ، وأن يعاني من ذلك ما تنوء به العزائم طوال سنوات ثمان ، لم يفتر خلالها عن التسبيح بحمد ربه والصبر على ما قدر له ، وعلى الرغم من الآلام المبرحة المتصلة ، لم يكف عن نشاطه في خدمة الكلمة المؤمنة مدرساً ومحاضراً ومؤلفاً ، حتى أسلم روحه لبارئه عام ١٩٦٤ .

وحسبنا أن نشير من عشرات مؤلفاته إلى كتبه الثلاثة «اشتراكية الإسلام» و «المرأة بين الفقه والقانون» و «هكذا علمتني الحياة» التي كتبها في ظل المرض والألم . وكان الأول والثاني منها محاضرات ألقيت على طلاب كلية الشريعة ، ثم جمعت في هذين الكتابين .

أما الثاني والثالث فلم يختلف على روعتها وسدادهما قارئان من المسلمين ، بخلاف الأول الذي قيل فيه الكثير ، وصنف في نقده أكثر من كتاب ، فليس حسناً أن نمر بذكره دون كلمة في تقييمه [1] .

من أجل الإنصاف :

لقد شاء بعض ذوي الأغراض من مدعي العلم استغلال الخلاف القائم بشأن هذا السفر ، فراح ينفث ذات صدره في منشورات لا يراد بها وجه الله ، وكان من ردود الفعل لذلك ندوة أقيمت في الجامعة السورية ، تحدث فيها عدد من العلماء مؤيدين للكتاب ومؤلفه ، مفندين ادعاءات خصومه ، مفرقين بين أهل العلم منهم وأهل الأهواء .

وكذلك كان لحكام مصر في ذلك الوقت نصيبهم من هذا ، إذ رأوا في عنوان الكتاب ما يمنحهم مجالاً واسعاً للاستغلال ، فأخرجوا منه مئات الألوف

---

(١) نصر على صحة استعمال التقييم أسوة بقولهم (عيّد ونيّف) وكلاهما واوي الأصل

من النسخ في طبعة صغيرة ، وزعت على القوات المسلحة، وفي مختلف الأوساط، وأطلقوا لإذاعاتهم العنان تقتطف منه ما يتفق مع أهواء الحكام ، وما يوهم السذج بأن الإسلام هو تلك التصرفات التي يعالجون بها أمور الناس تحت ستار (الاشتراكية) في مجتمع (الكفاية والعدل) !

وقد أثار هذا الاستغلال سخط المؤلف في حينه، فوجه إلى القائمين به تقريعاً لاذعاً قرأه الألوف في الصحف السورية ، ولا بد أنهم اطلعوا عليه ، وإن لم يرتدعوا به .

أما نحن فنقول : إن قارىء الكتاب في روية وتجرد لا يجد أي صلة بين مضمونه وأي من المذاهب الاشتراكية المعروفة في العالم ، وليس له صلة بالاشتراكية خارج نطاق العنوان، الذي كان ضرباً من المشاكلة اللفظية، كالذي نقرؤه في قوله تعالى : « ومكروا ومكر الله » وقوله عز من قائل : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم.. » وشتان بين المكرين والاعتداءين ، فإذا كان مكر الكافر احتيالاً على الحق لصرف الناس عنه ، فهو من الله رد له بما يبطله ، وإذا كان اعتداء الظالم تجاوزاً على الحق ، فهو من المؤمنين المعدول دفع له بما يحقق الأمن ويمحق البغي . وإنما اختار له ذلك العنوان اجتذاباً لأذهان الجيل ، الذي زينت له الاشتراكية حتى باتت في نظره هي الحلم السعيد ، فكل حديث عن عدالة الإسلام وتفوقه على المحاولات البشرية ، لا يجد أذناً مصغية إذا لم يحمل إشارة إلى ذلك الإطار السحري . أما مضمون الكتاب فبحث علمي في الحياة الإنسانية ، وما يحيط بها من مشكلات للفرد والمجتمع ، وما أنزل الله من الحلول لكل معضلة منها ، على الوجه الضامن للتوازن ، المحقق للمصلحة والأمن ، وعلى صورة من الدقة لا تحلم ببعضها عقول المفكرين في سائر العصور ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

والسباعي في كتابه هذا يعالج الأوضاع البشرية على ضوء الشريعة الإسلامية بعقلية العالم المجتهد الذي يحاول استنباط الحل من منابع الوحي دون تعصب لمذهب بعينه، وينقب في صفحات التاريخ عن المثل التطبيقية التي برز هذا الحل من خلالها، وما أحسب ناقداً بقادر على أن يدل على حكم واحد قال به المؤلف لا يعتمد فيه على أصل من الكتاب أو السنّة أو التطبيق السليم من عصور السيادة الشرعية، وقولنا هذا لا يعني أننا ندعي له العصمة من الخطأ، بل نقول بأن كل خطأ صدر منه أثناء ذلك لا يعدو حدود الاجتهاد، الذي يؤجر صاحبه على كل حال إن شاء الله. ولعل أكبر أخطائه تلك يتمثل في العنوان الذي وجد فيه المضللون كل مسوغات الاستغلال.

إيضاح لا بد منه:

بقيت كلمة أخيرة حول موقفه (المتطور) من جمال عبد الناصر، فقد أخذ عليه بعض إخوانه القدامى مهادنته للرجل، منذ العدوان الثلاثي إلى نهاية عهد الوحدة بين الإقليمين.. وهو حكم لا مسوغ له إلا عند الذين يعيشون خارج نطاق الأحداث، وإلا فأي عذر للسباعي لو حكّم بواعث النقمة من رجال الثورة فخذلهم وهم في قلب المعركة دفاعاً عن مصر العزيزة!

أما مسالمته القوم بعد الوحدة فعلى أساس الأمل الذي راود كل مسلم بأن يبدؤوا عهداً جديداً من الاعتدال الذي توجبه عليهم إسلامية الشعب السوري، الذي لم يتنكر لإسلامه قط، على الرغم من كل المحاولات الهدامة التي افتعلها المعارضون للإسلام.

ولا ننسى مع ذلك أن تلك الوحدة كانت بالنسبة إلى الأوضاع السورية آنئذ عملية إنقاذ أشبه شيء بجراحة تجري لمريض لا سبيل إلى تخليصه من أوجاعه إلا بشق بطنه أو كشف دماغه.

فالشيوعية الحمراء تنيخ بكلا كلها على صدور الناس ، وتخترع لهم كل يوم مسرحية تنشر الرعب في كل مكان .. والحزبية الصماء تنافس الشيطان في التضليل ، فتمزق البرلمان ، وتسوق كثرته إلى تجمع تعبث به الأيدي الملوثة ، وإلى جانب هذا وذاك تقوم المحاكم العرفية باسم الشعب ، للتخلص من كل العناصر التي تتوسم فيها بقية من الأنفة والكرامة . وبذلك وُضعَت البلاد على شفا بجزرة أهلية يقتل فيها الأخ أخاه والولد أباه ، فكان ارتماء الجميع في أحضان الثورة المصرية ، على عجرها وبجرها ، أهون الشرين وأيسر المحنتين على الشعب السوري ، الذي أصبح ذلك المريض الذي لا مناص من شق بطنه أو كشف دماغه .

وفي حال كهذه يكون من أسخف السخف أن يقف الساعي أو غيره في وجــه السيل الجارف ، بدلاً من العمل على تنظيم مجاريه ، بالحكمة والموعظة الحسنة .

وهكذا كان موقف الفقيد من سلطان عبد الناصر في سورية أول الأمر ، حتى تحقق له أن الرجل مدفوع في منزلق لا يستطيع فيه التماسك ولا نية له بالعودة عنه .

رؤيته الإسلامية :

ولئن سبق قدر الله فحالت وفاة الفقيد دون الوقوف على آرائه في مستقبل الجيل وواجب العلماء ، إن في آثاره التي خلفها لمستدركاً كما يمدنا بالمزيد من ذلك ، فليس ثمة كتاب أو مقالة أو خاطرة أنتجها قلمه إلا وهي حافلة بما يؤكد أنها أماليّ مفكر درس تاريخ أمته ، وأوضاع جيله ، واستوعب الخطوط الكبرى لواقع العالم المعاصر ، ورصد ذلك كله من خلال الرؤية الإسلامية التي تنظر إلى الأشياء بنور الله .. فهو طبيب من الطراز النادر ، يشخص الداء كما هو ، ثم يصف له الدواء كما يجب . ولذلك تعددت جوانب جهاده ، ومحاولاته الإصلاحية ، ووسائله إلى تحقيقها .

موقفه من البدع :

لقد كافح البدع في الدين لأنهـا عناصر دخيلة تسللت إلى فهوم الناس ، فأفسدت عليهم تصورهم للحق ، فكانت كالإضافات التي يضمها الجاهل إلى وصفة الطبيب الحاذق ، تبطل صلاحيتها ولا تنفع المريض بشيء . وقد حدثناك عن عمله في إبطال بدعة (خميس المشايخ) وما أدى إليه من رفع كابوس الدجالين عن صدور المخدوعين .

وبين يدي الآن الحلقة الثانية (من أحاديث الدعوة) التي كان يبثها عن طريق الإذاعة ، وتوزع على جماهير الشعب في كراريس مطبوعة ، وقد خص هذه الحلقة بالكلام عن (ليلة النصف من شعبان) وفيهـا يقول عن دعائها المشهور : « وإذن فهذا الدعاء من صنع المئات المتأخرة .. وهو من الناحية الشرعية غير جائز ، ففيه الزعم بأن ليلة النصف من شعبان هي التي يفرق فيها كل أمر حكيم ، وهذا زعم باطل باتفاق جمهور العلماء . وفي هذا الدعاء نسبة المحو والإثبات إلى الله في أم الكتاب ، وهو محال عليه ، وعلم الله لا يتبدل ولا يتغير ، ومن زعم غير ذلك فقد نسب إليه الجهل أو التردد ، وكلاهما على الله محال » .

ولا شك أن مكافحة البدع هو أول طريق الإصلاح للجيل المسلم ، الذي لا أمل له بالنصر إلا عن طريق الالتزام بحقائق الإسلام ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالوقوف عند حدود ما شرع الله وبلغ رسوله ﷺ . وفي هذا يقول ، غفر الله له ، في مقدمة هذه الحلقة : « فإن الله لا يقبل من الدين إلا ما كان خالصاً له ، ولا يقبل من العبادة إلا ما أمر بها ، وما أهلك أهل الديانات إلا تزيدهم فيها ، وابتداعهم ما لم يأذن به الله » .

لكي ينجح المصلحون :

ومما يدخل في تحديد مهام العلماء نحو مجتمعاتهم ، والخصائص التي لا مندوحة لهم عن التسلح بها لتمكينهم من التأثير في حياة الناس ، قوله بعد أن يحصر

معنى الحياة بكونها (فكرة وعقيدة) : « وأجدر النـاس بالحياة الكريمة هم أرباب العقائد ، فهم الذين يتذوقون السعادة في غير مـا يألفه الناس من معاني السعادة، إن السعادة عندهم قد تكون سجناً ، وقد تكون حرماناً، وقد تكون تشرداً ، وقد تكون عذاباً، وقد تكون موتاً . ففي السجن والحرمان والتشرد والعذاب سعادتهم ولذتهم وهناءة نفوسهم ، وإن كان الناس يرون ذلك كله بلاء وشقاء ، وبذلك كان المصلحون يعيشون في مجتمعاتهم وكأنهم غرباء عنها ، إنهم ليخالطون الناس ويؤاكلونهم ويمازحونهم ويعاملونهم ، ولكن المقاييس التي يقيسون بها الغنى والفقر والعطاء والحرمان والسعادة والشقاء غير المقاييس التي يعرفها الآخرون ، وما رأينا مصلحاً في قومه قـد سلم من ألسنة المعاصرين واستهزائهم .. » [1]

كأنه يصف نفسه :

والعارفون لأخلاق الفقيد المتتبعون لمسارح جهاده وصلابة عزيمته في الحق ، وما لقيه من العنت والآلام ، ومن إساءات الذين كان من أحق الناس ببرهم ، يدركون أنه بتحديده هذه المعالم إنما ينطلق من خلال تجاربه الذاتية ومميزاته الخلقية ، وهو ما تلمحه صريحاً في بعض شعره ، وبخاصة الذي أرسله مع أنفاسه الأخيرة ، كقوله في قصيدة يصف بها أصناف الناس ومسلكه بينهم :

هم الناس بين اثنين: صيدٍ تشوقهم	معارك في ساح الهدى وصعالكِ
دعيني أعيش العمر في غربة الهوى	ففي الحق محرابي وفيه مناسكي
وفي النصح لذاتي وفي الخير ثروتي	وفي العلم محرابي وفيه سبائكي

وفي حائيته الأخيرة يقول :

---

(١) « حضارة الاسلام » العدد الخاص بالفقيد لعام ١٣٨٤ هـ.

يا سهام الأقدار خلي ثلاثاً هي عندي وجه الحياة الصحيحُ
اتركي لي عقلي أفكر فيه وعيوني أرنو بها وأروح
ويدي تملأ الصحائف علماً وبلاغاً ، وبالشجون تبوح

ولقد استجاب الله رجاءه فلم يحجب نوره عن بصره ولا بصيرته ، وأمده بالعون فلم يشل قلمه عن الإنتاج الرشيد المفيد حتى لقي وجه ربه الرؤوف الرحيم.

واخيراً :

وكان من حق الفقيد أن نخص شعره ببعض الحديث ، فله في هذا الفن جولات موفقات ، وبخاصة في الجانب الديني والسياسي . وأذكر أنه أسمعني عقيب مغادرته سجن الشيشكلي قصيدة طويلة فيها من التوفيق الشيء الكثير ، وإن كان الغالب على منظومه طابع النثر الذي هو أداته المفضلة والأكثر استعمالاً. ولكننا نكتب هذه الأسطر وليس لدينا من شعره الكثير سوى القليل .

على أن إشارتنا لبعض أبياته الحائية تذكرنا ببعض الهفوات التي تعرض لها هناك عليه رحمات الله . ففي لحظات من طغيان الألم شط عن الخط فإذا هو يوجه شكواه إلى الحبيب ﷺ فيسأل أصفياءه أن يحملوه إليه وأن يطرحوه ببابه ، ثم يعرض أوجاعه على رسول الله ﷺ ثقة ببركته ، سائلاً إياه الدعاء الذي لا يرد .. إلا أنه يستدرك أخيراً فيحصر آماله بالله وحده قائلاً :

حسبي الله لا أريد سواه هو أنسي وفي حماه أريحُ
رب لولاك ما استطعت ثباتاً في مسيري ولا سمت بي روح

ومهما يقل في تأويل كلمات الفقيد فقد كان الأحب إلى قلوبنا أن يوجه مسألته كلها إلى الله وحده ، متوسلاً بطاعته لنبيه الأكرم ، وبتضحياته الكثيرة لإعلاء كلمته ، فذلك هو السبيل الأقوم .

وجزاه الله من واسع مغفرته خير ما يجزي العاملين المصلحين، إن رحمة الله قريب من المحسنين .

١٨

الدكتور مصطفى محمود

هو مصطفى كمال بن محمود حسين ، واشتهر في الوسط العلمي والأدبي باسم الدكتور مصطفى محمود .

وُلد في ١٩٢١/١٢/٢٧ في قرية شبين الكوم بالمنوفية من مصر ، من أسرة متوسطة ، كان أبوه موظفاً برتبة أمين سر للمديرية الغربية . ويغلب على الأسرة الطابع الإيماني ، وقد اختار لها الأخ الدكتور هذا الوصف لخصائص مميزة لها ، فهو يصف أباه بأنه ملتزم لشعائر الإسلام اليومية ، محافظ عليها ، مستغرق الوجود في معانيها حتى ليعده (من أهل الله) . ويزيد على ذلك اعتباره إياه أنموذجاً من الأولياء المستورين – على حد تعبيره – أما والدته فلا تختلف عن هذا الاتجاه ، إذ كانت كثيرة الاتصال بالقرآن ، تكثر من قراءته وتنطبع بروحه . وهكذا غلب على بيئته المنزلية ذلك الجو الروحي الذي سيترك آثاره عميقة في كيانه .

ولا يقف طويلاً على مسقط رأسه ، لأنه لم يلبث سوى أيام بعد ميلاده حتى انتقل مع أبويه إلى طنطا ، وبات عليه أن يتلقى مؤثرات هذه البيئة المميزة حتى سني المراهقة .

لقد فتح عينيه في طنطا على مقام البدوي ، تحج إليه وفود المؤمنين بـه من كل فج ، والنذور تساق إليـه بسخاء الواثقين بكراماته ، فلم يكن بوسعه التخلص من هذه الموحيات ، فأقبل كغيره على ترديد الأوراد وتقديس مشاهد الأولياء ، على الطريقة الاستسلامية التي لا تتسع لكلمة : لِمَ ؟

دراساتــه :

وعلى دأب الموروث من التقاليد يبدأ دراسته في الكتّاب حيث حفظ عدداً من قصار السور ، إلى جانب ما درب عليه من الخط والحساب .

وليست انطباعاته عن تلك الفترة مما يرضي إذ هو يشكو قسوة الشيخ التي جعلت حياته في الكـُتـّاب عبئاً لا يحتمل ، واضطرته إلى اللجوء للهروب منه كلما وجد إلى ذلك سبيلاً . ومن هنـــا كانت ملازمته للكتاب قصيرة العمر لا تتعدى بضعة أشهر ، انتقل بعدها إلى المدرسة الابتدائية ليبدأ مرحلتها وهو في السادسة من عمره .

ويستمر في الشكوى من طرائق التعليم لاشتراك الكتاب والمدرسة في شدة الضغط على الطفل ، وهو يعتبر هـذه الشدة سبب رسوبه في امتحان السنة الأولى .. بيد أنه لم يلبث أن تغلب على ضيقه بذلك الجو وجعل ينسجم معه شيئاً فشيئاً حتى أتم المرحلة الابتدائية ، وفسح له الطريق للالتحـاق بالقسم الثانوي ، الذي كانت سنواته الخمس تتصل بغير فاصل .

والظاهر أن دراسته الثانوية قد مضت في طريقها الطبيعي دون معوقات ، حتى إذا شارف نهايتها كان من المتفوقين ، وقد لاحت بوادر نبوغه بمـا جعل يكتبه في مجلة المدرسة ، وبما يؤلف من القصص والروايات ، وقد مارس أحياناً صياغـة الشعر الفصيح ، وأقبل على التجارب العلمية في المختبر الصغير ، الذي اتخذه لنفسه .. وعن طريق هذا النشاط المتعدد الجوانب أحرز عدداً من الجوائز التشجيعية .

في كلية الطب :

وقد أهّلته درجاته العالية في الثانوية للالتحاق بكلية الطب بالقاهرة ، وهنا وجد الجو المساعد لتنمية هواياته ، التي جمعت بين الفن والعلم ، والتي باشر التمرس بها منذ عهد الطفولة، إذ أقبل على الموسيقى وما إليها حتى تمكنت منه، وتمكن من استعمال بعض آلاتها . ولا ندري كيف تأتى له ذلك في ظل البيت الذي أرانا طابعه الديني. إلا أن يكون لذلك علاقة قريبة أو بعيدة بالجو الطرقي الذي كثيراً ما يستخدم الآلات لاستثارة الوجدانات .

مرحلة الرفض :

ويقول : إن ولعه بالمطالعات العلمية قد بدأ مع إحسانه القراءة ، حتى إذا شارف الثالثة عشرة من سنيه باشر الاتصال بمؤلفات شبلي شميل ، واسماعيل مظهر ، وسلامة موسى . وفي هذا الجو المشحون بالمؤثرات الغريبة بدأت مرحلة الرفض في حياته ، وقد ساعدت على تركيزه وإنمائه نزعات التمرد الذي تطلقه حوافز المراهقة ، ثم تلاقيه مع بعض الأقران الذين يعانون مثل تجربته العنيفة . وقد يخطر في البال أن لبعض المدرسين أثراً ما في هذا التوجيه إلا أنه ينفي ذلك ويؤكد أن ليس للمدرسة ولا للمدرسين أي يد فيه ، ولكننا لا نستبعد أن يكون لبعضهم أثر غير مباشر في الإعداد لهذا المسلك ، وذلك عن طريق عجزهم عن معالجة تلك المرحلة الثورية بما تقتضيه من الحكمة ، التي سبق أن أكد لنا فقدانها في المدرسة الابتدائية، ونتوقع أن يستمر الوضع على هذا النحو في القسم الثانوي أيضاً ، وهو واقع لا نزال نعانيه في معظم المدارس ، التي لا تكاد تتجاوز في عملها نطاق التلقين دون اهتمام بمشكلات النفوس . ولعل مما يضاف إلى هذه العوامل ما يذكره عن تسامح في البيت، يتيح لكل فرد منه أن يتخذ لنفسه المذهب الذي يشاء ، دون إكراه أو تثريب . على أنه ظل يواري أفكاره الجديدة عن والده وحده ، فلم يعلم شيئاً عن ذلك الرفض ، الذي لم يكن ليكتمه عن أحد سواه .

بواعث الشك :

ويحدد المترجم خصائص رفضه وتمرده ، فيقول : لقد كان شكاً حاداً ، ولكنه مقصور على موضوع النبوات والرسالات فقط . أمـا ما يتعلق بوجود الخالق تبارك اسمه فقد ظل في قلبه وعقله فوق كل ريب .

ثم يعود لتعليل البواعث الأولى لتلك الشكوك ، فيعتبر معظمها نوعـاً من رد الفعل لتلك المظاهر الشاذة ، الـتي كان يشاهدها من زوار ضريح البدوي وغيره في طنطا . ويعدد منها تقديس الأضرحة ، وما يستتبـع ذلك من دعاء الأولياء ، واللياذ بالجن ، والتحصن بالتمائم والاستشفاء بحفلات الزار .

والذي نقدره نحن – قياساً على الكثير ممـا واجهناه من الأحداث المماثلة في الشباب الرافض – أن مفهوم الفتى – آنذاك – عن الإسلام لم يكن ليمكنه من التفريق بين الأصيل والدخيل ، فاختلط عليه الأمر حتى استيقن أن الدين ليس إلا هذه الخزعبلات التي يساق إليها أولئك الغوغاء بإيحاء من المشايخ الذين يعتبرونهم مورد رزقهم ، ومرتكز نفوذهم ، فما يفتؤون يغذونهم بهاتيك المخدرات ليستمر سلطانهم عليهم ، ولو أدى ذلك إلى فصلهم نهائياً عن الله .

ومع أن الأخ الدكتور قد شارف مطالع الطريق إلى الحقيقة ، وتكشف له الكثير من الحجب التي كانت تحول دونها ، فاستعاد إيمانه بالكتاب والنبيين ، وأدرك مسافة الخلف ما بين الخرفين والمؤمنين ، فهو لا يزال في مسيس الحاجة إلى الاستزادة من قراءة الحديث الصحيح ، والاتصال بمؤلفات الصفوة من خدمة هذا العلم النبوي ، ليزداد قلبه إشراقاً بنور الوحي ، الذي لا يغني فيه القرآن عن الحديث ، ولا الحديث عن القرآن .

وقد قلنا له في أحد الاجتماعات بالمدينة المنورة : لقد أكثرت قبلاً من مجالسة الزائغين فأرهقوك بمـا حملوك من ضلالاتهم ، ثم ردك الله إلى ضيائه ، فوجدت نفسك بعد التيه الطويل ، والآن أدعوك للإكثار من العيش مع الله

في قرآنه الخالد ، والاستزادة ما استطعت من مجالسة رسوله في ظل حديثه الراشد، لتكمل لك سعادة الجمع بين كتاب الله وحكمة مصطفاه ، صلوات الله وسلامه عليه، ولا حقيقة إلا من ينبوعيها ، ولا إسلام إلا باجتماعها ، ولو أنكر ذلك الجاهلون ، وحاول التشكيك بتلازمهما الجاحدون والهدامون .

حب لم يخبُ :

ونعود إلى وصل ما انقطع من الكلام عن حياته الدراسية . يقول الدكتور: لقد مضى في خدمة هواياته مع دراسة الطب ، فزادت صلاته بالجوانب الفنية وبخاصة الموسيقى ، وزاد من اتصاله بالأدب الغربي فقرأ الكثير من المؤلفات الإنجليزية والمترجمات إليها ، فعنى من الإنجليز بأوسكار وايلد وبرنارد شو . ومن الفرنسيين بموباسان وغيره .. وكان أشدهم تأثيراً في نفسه أدباء الروس بما يمتازون به من طابع الواقعية والإنسانية .

وكان طبيعياً أن تثير هذه المطالعات حوافزه إلى الانتاج الأدبي ، فاستأنف تجاربه الكتابية ، ولكنها لم تبلغ المستوى الذي يرضي تطلعاته ، فطواها ولم يفسح لها السبيل إلى النشر .

ويقول : إنه كتب في هذه الغمرة إحدى القصص ، ثم لم يلبث أن أتلفها ، ثم لجأ إلى الله يسأله أن يشرح صدره ويحل العقدة المستعصية عليه ، كي ينطلق إلى الانتـــاج الذي يحب بالقوة التي يتمنى . وجعل يردد في ضراعة : رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي .. فما لبث أن استشعر الارتياح ، وهبت عليه نفحة من وراء الحس ، فبكى . ويقول في تفسير هذا البكاء أنه رعشة الحب الذي لم يخبُ في قلبه قط ، وهو ما بقي له حتى ذلك العهد من علاقة بالدين الذي انقطعت كل صلة بينه وبين شعائره .

وتظل تلك الجلوات الروحية تعاوده بين الحين والحين . وذات يوم من عامَ

١٩٤٨ وبعد عشرين سنة من ذلك اليوم ، وكان في إحدى مدن المغرب يلاحق رجال التصوف بحثاً عن الحقيقة – على تعبيره – يقول : أخذتني غفوة قصيرة، فرأيت مصحفاً مفتوحاً ، وكأن اصبعاً يوجه بصري منه إلى سورة (الانشراح) فأخذتني نشوة من الاطمئنان ، وانطبع في روعي أن عناية الله تلاحظني وتسدد خطاي .

ولا جرم أن استمرار صلته بالقرآن على هذا النحو من التوق الوجداني ، إنما يصور نوعاً من المراجعة لحساب هاتيك الشكوك ، التي كان يعتبرها حتى أمس القريب حقاً مشروعاً لا تعارض بينه وبين إيمانه الفطري بالله .. أما اليوم فقد أقبلت طلائع فجر جديد ، تشد وجوده كله باتجاه ذلك المَعين الأعلى ، لتفكك عن نفسه أغلال البيئة المزورة ، بيئة الأضرحة والنذور والتمائم والزارات ، التي طبعت في ذهنه الغض صوراً للدين أبعد ما تكون عن حقيقته .

غير أن الطريق لم يزل مغلفاً بالغموض ، فهو يسعى هنا ويسعى هناك . ويغلب عليه الفورة الداخلية فتقوده إلى التماس الري من كئوس أصحاب الطرق، ظناً منه أنهم أهل الكشف الذين تجاوزوا حدود المحسوسات والتخمينات إلى نطاق المشاهدات .

وقد ضاعف اهتمامه بهذا المسلك ما قرأه في كتب أسلافهم من حِكَم بعيدة الغور ، تلاقت مع الكثير من أشواقه ، مضافة إلى ألوان من (الشطح) كأنها إشارات ذاهل يطل على العالم المجهول الذي يتطلع هو إلى آفاقه .

ومع أن الأخ الفاضل قد صحح الكثير من أخطاء الماضي ، وتحرر نهائياً ، بحمد الله، من أصفاد الريب المرهقة، فما برح مأخوذاً بهذه النوازع التي لا تروي غليلاً ، ولا تقنع سؤولاً .

الوان التصوف :

قلت للدكتور – أثناء لقائنا في المدينة المنورة – : هذه التموجات الصوفية المادرة في أعماقك ليست هي المعالم الهادية إلى الحق الذي تتلهف إليه . إنها واحدة من مؤشرات الفطرة الموجهة إلى مصدر الخلق، وهي القدر المشترك بين البشر جميعاً ، يستوي بإزائها المؤمن والكافر .. يصغي أحدنا إلى هتافها فيتعهدها بالمراجعة والمذاكرة ، فتتوهج حتى تسيطر على كيانه ، ويغفلها آخر فيعاملها بالإعراض والتجاهل ، فتتصاغر وتتضاءل حتى تصبح نسياً منسياً .

إنها يا صديقي مجرد طاقة .. طاقة فقط .. إذا اكتنفتها الحكمة الراشدة تفجرت نوراً وحياة ، ولكنها الدمار والشقاء الاكبر عندما يتولى قيادها الخابطون في الظلمات .

ونظرة عجلى إلى وقائع هذه الطاقة في مسالك الناس، على اختلاف هوياتهم ومناطقهم ومفهوماتهم ، تريك العجاب من تباين الحصول . وهكذا تشاهد ألوان التصوف من نصراني ويهودي وإغريقي وبوذي وبرهمي ووجودي وقرمطي وباطني ، وما يسمى بالإسلامي، ثم ما لا يحصى من الأسماء والنحل والمذاهب .

وبكلمة وجيزة أقول : إن هذه الطاقة إحدى قوى النفس البشرية الخاضعة لمختلف المؤثرات ، ولا ضمان لخيريتها إلا بانسجامها مع قوانين الوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

بين التوزيع والتركيز

ويستأنف الدكتور الكلام عن دراسته فيقول : لقد استشرى الخلاف بينه وبين والدته في هذه المرحلة ، فهي تريد منه أن يركز نشاطه في حقل العلم وحده ، وأن يقصر همه على الطب الذي يجب أن يكون مهنته المفضلة . ولكنه يأبى الانصياع لهذه النصائح ، التي تقتضيه الانسلاخ من سائر هواياته الفنية .

ثم اضطر أخيراً إلى الاستجابة لها بعد مرض طويل ، جره إليه توزيعه لطاقاته على مختلف ألوان النشاط ، حتى انتهى إلى الاقتناع بوجوب الوقوف على الطب وحده ولو إلى حين .. وعاد إلى كنف والدته بعد أن باعد الخلاف بينهما وقتاً غير قصير . ومنذ ذلك اليوم فترت العلاقة بينه وبين الموسيقى بعد أن تمكنت من نفسه ، وهو يرد ذلك أيضاً إلى عمل العناية الإلهية التي إليها يعود الفضل في إنقاذه من ذلك اللهو .

على أن انكبابه على الدراسة العملية لم يقطعه عن مواصلة العمل العلمي ، وربما كان ذلك عائداً لما يراه من انتفاء التعارض بين النشاطين ، إذ أحس أن الطب كغيره من التخصصات العلمية العملية ، أحوج ما يكون إلى الخبرات المتعددة الجوانب . ولا جرم أن كل عمل ثقافي سيكون رافداً يمده بالتجارب الثرية ، وحين ينقطع الطبيب أو المهندس ومن في حكمهما عن الموارد الثقافية الأخرى ، فسيكون ذلك نذيراً بانفصالهما عن الحياة نفسها ، وإيذاناً بجفاف عقلي يسلخهما عن هويتهما البشرية .

ومن هنا جاء اهتمام الصديق بذلك النشاط الأدبي من ممارساته القديمة ، إلى جانب الدراسة الجامعية المركزة.. فكان يكتب في العديد من الصحف الكبرى كالمصري وأخبار اليوم وآخر ساعة . وعن طريق المرحوم العقاد اتصل بمجلة الرسالة ، إبان ارتفاعها الشاهق ، إذ أعجب ببعض ما قرأ له ، وبخاصة في ميدان القصة ، ففتح له أبوابها ، والتي لم تكن لتفتح أيامئذ إلا للكبار الذين رسخت أقدامهم في حلبة البلاغة .

ومع وفرة انتاجه الأدبي هذا لم يقصر في دراسته ولم يتخلف ، بل كان موضع تقدير الكبار من أساتيذه الذين أحاطوه بكل المشجعات ، ولا سيا بعد اطلاعهم على مقياس النبض الذي صنعه وأتقنه . ولما أحرز شهادة الكلية عام ١٩٥٢ لم يكتف بها ، بل واصل طريقه حتى أتم مرحلة التخصص في الأمراض الصدرية .

وهكذا وصل إلى نهاية المرحلة الدراسية طبيباً وأديباً ، يحمل في أعماقه بذور الحيرة الدافعة إلى البحث والتأمل والتفكير . وعلى الرغم من توجيه قواه للناحية العلمية، فقد أعطته الدراسة الطبية الضوء الذي يتعرف منه طريقه إلى المنهج العلمي .

ولعل في مقدمة هذا العطاء تلك النظرة الشمولية التي تريه ترابط الأحداث الكونية في وحدة تامة ، لا سبيل إلى معرفة الجزء الواحد منها إلا بالنظر إلى الكل ، كترابط الأعضاء والأجهزة في الجسم الحي ، لا يفهم واقع أحدها إلا في ظل المعرفة الواسعة للجسم كله ، بل ولماضي هذا الجسم في رحلته البعيدة والقريبة .

إلا أن الغريب في أمر الطبيب أنه لم يكد يتخرج في الطب حتى انصرف عنه إلى الأدب والفكر . ولعل كثيرين من قرائه ، والمستمتعين بأحاديثه خارج مصر، يظنونه كزميله نجيب محفوظ واحداً من دكاترة الفلسفة، وليس له أي علاقة بعلم الأمراض .

ضياع وندم :

ويحدثنا عن مؤلفاته فيذكر أن أولى بواكيره منها هي مجموعته القصصية « أكل عيش » وقد صدرت عام ١٩٥٤ وكان لنجاحها أثر غير يسير في تثبيت خطاه على طريق التأليف . ثم تلا تلك المجموعة كتابه الثاني « الله والإنسان » فكان طفرة واسعة ، قفزت به من معالجة الواقع الإنساني على صعيد الأحداث القصصية إلى محاولة التشكيك في كبرى اليقينيات .

لقد حشد في هذا الكتاب كل المشكلات العقلية التي خضّت وجوده ، فألقت به في صراع كاد يمزقه .. صراع بين قراءاته غير الناضجة ، وشواذ البيئة التي أفسدت تصوراته الفطرية عن الدين من ناحية ، وبين ضميره وبقايا إيمانه الراسخ القديم من ناحية أخرى .

وقد سبق أن نقلنا تصويره لتلك الشكوك بأنها منصبة على موضوع الرسالة والرسل دون أن يتطرق شيء منها إلى مقام الألوهة ، الذي يؤكد أنه ظل مسيطراً على عقله وقلبه جميعاً. ويدخل في ذلك موضوع القرآن نفسه ، الذي كان محل نزاع كبير بين تفكيره الذي ما كان يستطيع أثناءئذ تصور صدوره عن الله ، وبين وجدانه الذي كان على أتم الاطمئنان إلى ذلك .

وكان عليه أن يتحمل تبعة تلك المغامرة غير المأمونة ولا المقبولة ، فيتلقى سهام الغيُر من أهل العلم في كفاح لم يخمد حتى نهض الأزهر بواجبه فصودرت معظم نسخ الكتاب ، وقدم إلى محكمة أمن الدولة ، التي — لسبب مجهول — اختير قضاتها في هذه القضية من أهل التصوف .

ولقد عرف محاميه المتفلسف كيف يفيد من هذه الصفة ، فأعلن في مرافعته أن هذا الكتاب يسجل بداية متصوف لا تهجمات ملحد . وكانت النتيجة الاكتفاء بمصادرته ، والكف عن ملاحقة مؤلفه .

ولا شك أن لبراعة المحامي أثرها في هذه النتيجة ، لأن في (شطحات) المتصوفة متسعاً كبيراً لتأويل كل مزعم ، مهما يبلغ من الغرابة أو الزيغ ، على الوجه المقبول عند المأخوذين بهذه الشطحات .

ويرجع الدكتور إلى نفسه بعد سكون الزوبعة ليتولى هو محاكمة كتابه ، وسرعان ما انتهى إلى البت بأنه عمل متهور لا يرضى عنه قلبه ولا عقله ، لأنه خلا من أي حل مقبول لمشكلاته النفسية ، على حين ضاعف من الإشكالات الكثيرة التي حاول معالجتها .

يقول الدكتور : وكان ذلك بدء المرحلة الجادة في طلب الحقيقة ، ثم جاءت الكتب التالية خطوات متلاحقة في هذا الطريق .

نفحات الاستقرار :

ويكب على الفلسفة قديمها وحديثها ، يقرأ بنهم ولكن في تدبر -كما يقول- ووقف الكثير من جهده - كما يظهر - على علم النفس ، فلم يدع نظرية منه إلا قلبها ظهراً على بطن ، وبخاصة نظرية التحليل النفسي لفرويد .. ثم خرج من هذه المعمعة على يقين بأن الفلسفة على اختلاف مذاهبها ، لا تعدو كونها حجراً يلقى في بحيرة مجهولة، فيضاعف عكرتها ولا يرجع منها بصيد -على حد تعبيره- لقد زادته حيرة وتخبطاً ، ولكنها فاءت عليه ببعض الخير ، إذ أمكنته من الإحاطة بأخطاء الفرويدية والماركسية ، اللتين تحصران شخصية الإنسان في حظيرة البهائم ، فتجريان عليه كل الأحكام التي تخص الحيوان [1] .

وربما كان أكبر محاصيل هذه الرحلة الفكرية ما تكوّن لديه من رأي قاطع أن ليس في طوق العلم المادي تقديم الأجوبة المقنعة على أسئلة النفس المتعلقة بالدين .

ومن هنا يتحول إلى مباحث الأديان، ابتداء من الوثنيات الهندية، ومروراً بالديانات ذات الأصل السماوي ، إلى النحل والفرق المعاصرة (البابية والبهائية والقاديانية) . وقد عادت عليه هذه السياحة بكثير من الخير ، إذ وقفته من خلالها على الأصيل والدخيل ، وفتحت عينيه على الكثير من الأسرار الخلقية ، التي عملت عملها في إفساد العلاقة بين الخالق وعباده [2] ، ثم كانت نتيجة هذه السياحة رسو زورقه الحائر على شاطىء القرآن .

ومنذئذ بدأ يستروح نفحات الاستقرار ، إذ أصبح على أتم اليقين أنه في الطريق السوي .

---

(١) راجع الفصل الرابع «علم نفس قرآني» من كتابه «أسرار القرآن» .

(٢) إقرأ « التآمر على الأديان » من كتابه هذا .

قراءات إسلامية :

يقول لنا الدكتور : واستحكمت صلتي بالقرآن . وشرعت الاتصال كذلك بأيمة التفسير ، أستطلع مفهوماتهم في ما يواجهني من غرائبه، وكان أعمقهم تأثيراً فيّ سيد قطب «في ظلال القرآن» لما وفق إليه من معالجة للمشكلات المعاصرة، واستنباط للّطائف التي تمس أعماق النفس ، ثم ابن كثير في تفسيره الشهير ، لما عني به من اهتمام بالمأثور ، واستبعاد للروايات الضعيفة والدخيلة .

وكان طبيعياً أن يضم إلى عنايته بالتفسير مطالعات جديدة في كتب الكبار من أئمة التصوف، فقرأ للإمام أبي حامد الغزالي «الإحياء» و «المنقذ من الضلال» و « المضنون به على غير أهله » واغترف مـا استطاع من حكم ابن عطاء الله . وطالع عدداً من مؤلفاتهم الأخرى .

ويقول : كان إحياء الغزالي أبعدها تأثيراً ، إذ دفعه إلى البحث في موضوع التصوف ، فانتهى إلى الرأي بأن « التصوف هو البحر الذي تصب فيـه سائر الجداول .. » وقد أعجبني تشبيه التصوف بالبحر تصب فيه الجداول . وإنه لكذلك حقاً ، فهو كالبحر يتسع للجيف واللآلىء ، ويجمع بين الغثاء والجواهر . ولن يستطيع التمييز بين غثه وسمينه إلا الحذاق من أهل الفرقان، ولن يحسن استخلاص نفائسه سوى القادرين على الغوص إلى الأعماق .

ولقد كان من الخير للدكتور ولقرائه لو قيض له الاتصال ببعض أيمة الفكر الإسلامي من أهل الحديث كاتصـاله بأيمة التصوف ، ولو تيسر له ذلك لتم له التوازن الأكثر ضبطاً لمنهجه ، ولمـا أتعب نفسه في الركض وراء الطرقيين في المغرب وغيرها ، بعد أن رأى ما رأى من سلوك زملائهم في كنف البدوي وأصحاب المقامات الأخرى في طنطا وغير طنطا .

إن القليل الذي قرأه من مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية لا بد أنـه وجد سبيله إلى عقله وصحح بعض تصوراته ، وسيكون الخير أكمل وأكبر إذا أطال

صحبة هـذا الحبر وتلاميذ مدرسته من العدول المجددين ، الذين استعملهم الله لتطهير الدين من تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين .

وقد وعدنا الأخ الدكتور بذلك ، والله نسأل أن يعينه على تحقيق وعده ، ليكون نفع القراء به أعم ، وأجره عند الله أعظم .

مسالك غير مأمونة :

وكثيرون من قراء هذا المفكر أعجبوا به عن طريق كتابه « القرآن . محاولة لفهم عصري » وغير قليل من المعنيين بعلوم القرآن قد قابلوا محاولته هذه بالنقد والرد والإنكار . ولكل من الفريقين عذره .. فالأولون قد وجدوا فيه ضروباً من الإشارات تتلاقى مع أحدث مـا حققه الإنسان المعاصر في نطاق العلوم الطبيعية ، والآخرون قد هالتهم تلك الجرأة التي تدفع صاحبها إلى ربط المضمون القرآني بأفكار وتصورات قابلة للتبديل والتعديل ، وقد جربوا مثلها من قبل في أعمال الشيخ محمد عبده ، والسالكين سبيله من المبهورين بمكتشفات العقل الغربي ، فكانت النتيجة بلبلة لا نزال نعاني الكثير من عقابيلها وبخاصة في اضطرار هؤلاء — تحت تأثير ذلك المنهج — إلى صرف العديد من النصوص القرآنية عن ظواهرها إلى تأويلات مهزوزة لم تعط فيها الكلمة الأخيرة بعد .

هذا إلى آخرين أقبلوا على التصفيق لمغامرته من منطلق الحقد على علمـاء الإسلام ، الذين تخصصوا في دراسة علوم القرآن ، ورقفوا بالمرصـاد لكل انحراف عن سبيله .

والحق أن في (محاولة ...) الدكتور مسالك غير مأمونة ، لأنها تشبه أن تكون تحكماً في غيب لا تبلغه العقول ، ولم يسبق لأئمة التفسير فيه قول يؤنسه في هذه الوحشة .

إنه أحياناً ليلقي بالرأي الشخصي كأنه تقرير في قضية قـد فرغ منها ،

دون أن يكون له مستند من قول مأثور ، أو قياس على نظير ، واقل ما يقال في هذا أنه ضرب من التفسير بالرأي، الذي أجمع علماء القرآن على أنه أخطر ما يعامل به كتاب الله .

كنوز من الكتاب :

على أن هذا لا يعني إغلاق الأبواب دون ذوي العلم في المباحث الكونية بإزاء القرآن، ففي هذا الكتاب المعجز الكثير من الأسرار التي لا تكشف أستارها إلا لهذا النوع من الباحثين ، فمن حقهم أن يتأملوا فيها وأن يتدبروها وأن يمدونا من خبراتهم في هذا الجانب بما يزيدنا علماً على علم تحقيقاً لقوله تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » (٥٣/٤١) وحسبنا من أدلة ذلك قوله تقدس اسمه في موضوع الألوان : « ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك . إنما يخشى الله من عباده العلماء » (٣٥ – ٢٧/٢٦) فكل الناس يرون إلى هذه المعجزة اللونية مبثوثة في مختلف المخلوقات ، وجل ما يفيدون من هذا الوصف تذكرهم قدرة الله التي أخرجت من الماء الواحد ألواناً لا حصر لها ، فيزيدهم ذلك إيماناً وتمجيداً للعليم الحكيم .. ولكن علماء الكيمياء وإخوانهم هم المؤهلون لاستكشاف دقائق ذلك المصنع العجيب الذي سُخر بالقدرة الإلهية لإبراز هاتيك الأصباغ المختلفة ، فكأنهم هم المعنيون بذلك التكريم الخالد في هذا التذييل العظيم « إنما يخشى الله من عباده العلماء » وأذكر في هذا المقام حديثاً علمياً ألقاه علينا قبل أيام في المؤتمر العالمي للتعليم الإسلامي بمكة ، الطبيب المصري عبدالمنعم أبو الفضل حول قوله تعالى «يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث..» (٣٩ – ٦) وقد استعان لإيضاح ما يريد بالمصورات

الضوئية ، فإذا هو يكشف للسامعين ما لم يصل إليه علماء التفسير أجمعون ، وما لم يعرفه أكابر حذاق الطب إلا قبل وقت جد قريب .

وكم في كتاب ربنا من مثل هذه الكنوز التي تنتظر المكتشفين ليصرفوا إليها أبصار الغافلين ، وليسهموا بها في الدعوة إلى الدين المبين ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ولا خلاف على أن في كتاب الدكتور موضوع البحث نفائس من هذا الضرب اليقيني ، لو وقف عندها واستكثر منها ، لما وجد من أهل العلم بالقرآن إلا الشاكرين المقدرين .. ولكنه شط عن الخط فخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وشفيعه في ذلك نية غير متهمة إن شاء الله ، وإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى .

القرآن والداروينية :

ولقد قلنا للصديق العزيز أثناء لقائنا في طيبة المباركة : حبذا لو انصرفت إلى استنباط روائع الأسرار التي أودعها الله الجسم الحي من زاوية اختصاصك، إذن لأتحفتنا بطائفة من العجائب التي لا نفاد لها . إن فيلسوف المعرة مأخوذ بما سمع عن أجهزة الحياة في الأجسام ، فهو من أجل ذلك يقرّع الأطباء الذين يرونها ويحسونها ثم لا تدفعهم دفعاً إلى الإيمان ببارئها فيقول :

عجباً للطبيب يُلحد في الرحمن   من بعد درسه التشريحا !

فكيف إذا قيض لها الطبيب المؤمن مثلك ... إنها دون ريب ستكون إذ ذاك من أجلّ الخدمات للإيمان وللإنسان معاً ، ويومئذ لن تجد حاجة للخوض في نظريات لا تزال موضع الأخذ والرد بين أهلها ، كما فعلت في موضوع الداروينية ، التي لا تبرح تشد على ذهنك منذ طالعتها صغيراً في كتاب «النشوء والارتقاء» لذلك المغرور المحجوب الدكتور شبلي شميل .

وكان جواب الصديق يومئذ : إن الثابت من قضايا العلم هو وحده الذي يستشهد به للقرآن ، أما المتغيرات من نظريات العلماء فلم يعد يرضى وصلها بـه من قريب أو بعيد ، ولذلك يقف من الداروينية عنـد الجانب الذي أثبته التحقيق والمشاهدة .

ولكن هذا لم يكن بالجواب المقنع ، فالدكتور لا يزال حتى تلك اللحظة ، يربط بين قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » (١٢/٢٣) ونظرية دارون القائلة بنشوء الإنسان من خلال الأشكال الحيوانية الأخرى ، ولا دليل في الآيـة على ذلك ، وإنما تشير إلى أن الإنسان هو إحدى السلالات الحية التي صدرت كلها بأمره تعالى من الماء ، كما يقول سبحانه في الآية الأخرى: « والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ، ومنهم من يمشي على أربع » (٤٥/٢٤) وقـد قطع رسول الله ﷺ كل مراء في هذا الموضوع حين أخبر في الحديث الصحيح أن الله خلق آدم على صورته .. طوله ستون ذراعاً [١] .

فلا مجـال بعد هذا القول بتطور الإنسان من الخلية الأولى إلى العديد من الأنواع حتى انتهى إلى شكله الأخير حسب تقولات دارون وفرويد وماركس، بل الذي نؤمن به يقيناً أن آدم خلق من الطين على صورته المعروفة ابتداء ، فلم يتغير فيه شيء سوى تضاؤل الهيكل ، الذي سيعود إليه وسائر أبنائه يوم البعث، كما صح في الأثر الصحيح . ونرد كل ما خلف ذلك من أقاويل لا سند لها سوى التمحل والظن من راجين بالغيب . يقول ربنـا في أشباههم : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ، وما كنت متخذ المضلين عضداً » (٥١/١٨) .

ولو هو قد اكتفى بهذه الحقائق الحاسمة اتجنب الكثير من تلك المشوشات

---

(١) من حديث الشيخين .

التي لا تعدو نطـاق الأوهام ، ولأعفى نفسه وقراءه من ذلك التخمين الذي انتهى به إلى القول بآدمين اثنين ، على طريقة المعري الذي سبقه إلى مثل هذا التخليط حين يقول :

وما آدم في مذهب العقل واحد ولكنه عند العقول أوادم

« ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » .

وإن أملي لكبير بأن أخي الدكتور سيعيد النظر في بعض أفكاره المرتجلة على ضوء هذه الحقائق التي صحت من كتاب الله وشهادة رسوله ﷺ .

صوَر من الإعجاز القرآني :

وعودة الصديق الفاضل إلى ظلال القرآن ، بعـد ذلك الضياع الطويل ، تقتضينا أن نستطلع البواعث الكبرى التي فتحت قلبـه على حقائق الكتاب الخالد .

وراح يعدد لنـا صوَر الإعجاز القرآني التي أطل عليهـا من زاوية نظره الخاصة .

يبدأ بما يسميه «المعمار القرآني» ويريد به أسلوب النظم الذي أول ما يواجه به السمع والقلب فيهيئه للانفعال والخشوع ، قبل أن يبدأ التفكير عمله في المعاني، ثم يتحدث عن الجملة القرآنية وأثرها العجيب في نسج هذا الجو إذ تشعر الوجدان المتفتح أنـــه تلقاء شيء يتعذر تحديده ، وتفتقر إلى بعضه أبلغ العبارات البشرية .

ثم يتطرق إلى موضوع الأحكام التشريعية فيركز على وفائها بمقتضيات الحياة على وجه من التوازن لا يتأتى إلا من قبل خالق الحياة الذي لا يعزب عن علمه ماض ولا حاضر ولا مستقبل .

ويقف على ظاهرة « الصدق القرآني » فيقول : نحن البشر لا نعرف إلا الصدق النسبي في تقريراتنا العلمية جميعاً . ويريد بذلك أن أحكامنا على الأشياء لا تتجاوز الحاضر الذي يواجهنا منها ، أما الصدق في القرآن فهو المطلق الذي لا يعتريه تغير أبداً . ويمثل لذلك بتعبير القرآن عن الرياح بأنها (لواقح) فيرى أنها تحتمل العديد من التفسيرات المنطبقة على الواقع ، من ذلك أنها تنظم عملية التلاقح بين الذكورة والأنوثة في عالم النبات وأنها المؤلفة بين السالب والموجب في كهربة السحاب المؤدية إلى المطر ، وبذلك يلتقي في كلمة (لواقح) كل ضروب الصدق من المجاز إلى الحقيقة إلى العلم .

وحتى الأحداث التي تعتبر من الخوارق لا تخرج عن نطاق الممكنات في نظر العقل السليم ، فانتقال عرش سبأ من اليمن إلى فلسطين مثلاً يمكن النظر إليه على ضوء المشاهد من انتقال الصورة والصوت واجتياز المسافات الهائلة في مثل لمح الطرف عن طريق المسرعات المادية التي توصل الإنسان إلى استحداثها .

وعلى هذا الأساس يؤمن بحصول الإسراء والمعراج بالروح والجسد جميعاً . ويلحق بهذا في تقديره وجود الملائكة والجن من عالم الغيب ، وأثر كل من الفريقين في حياة البشر وفق المعلوم من أنباء الوحي . ومن أدلته على ذلك أحوال الذين يعملون في استحضار الأرواح ، فهم أدق صورة للوصف الوارد بشأن أمثالهم في القرآن العظيم حيث يقول سبحانه : « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً » (٧٢/٦) فهؤلاء المضللون غارقون من الرهق في غمرات لا يعرفها إلا الذي يراقب سلوكهم عن كثب .

ولعل بعض الغافلين عن هذه الحقائق لا يزال ، بحافز من عماه عما وراء المادة ، يرفض الكلام عن الجن والملائكة ، وكل حجته أنه

لا يشاهدهم بعيني رأسه ، في حين لا يستنكف عن الاعتراف بأن مـا لا يراه من الحقائق أكثر مما يشاهده بما لا يحصى .. وإلا فكيف يؤمن بوجود الأشعة الكونية والأثير والذرّة ومشتقاتهـا وهـو لا يدري من واقعها سوى آثارها .

وأخيراً يرى الدكتور من ظواهر الصدق الأسمى ذلك التطابق العجيب بين الإشارة القرآنية وأصح الكشوف العلمية .. ثم هذا السر الخفي الذي يربط ما بين الكلمة القرآنية والفطرة البشرية السوية ، فما أن تلامسها حتى تتفاعل معها ، على هذا النحو من العفوية ، التي يصف بها القرآن العظيم كيفية تلقي القلب المؤمن لذكر الله : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً » (٢/٨).

ما يرفضه وما يقره :

والناظر في قائمة المؤلفات المطبوعة من عمل الدكتور يلاحظ ظاهرة تساعده على تتبع مجاري حياته الفكرية ومواضع اضطرابها وانسجامها ، تلك هي إثباته تواريخ كل من هذه بجانبه ، فكتاب « الله والإنسان » وضع عام ١٩٥٥ ولم يسبقه سوى مجموعته القصصية « أكل عيش» ثم يأتي كتابه الفكري الآخر «إبليس» وكان تأليفه عام ٥٧/٥٨ وقد رأينا حكمه على الأول بأنه أصبح مقطوع الصلة تماماً باتجاهه العقلي ، وكذلك قضى في شأن الثاني، الذي حاول تفسير قصة إبليس على طريقة فاضل عباس المهداوي ، الذي أعلن في إحدى محاكماته الحمراء ألا وجود لذات اسمها إبليس ، وإنمـا هو رمز للنزغات الشريرة في النفس البشرية . ويقول الدكتور في تعليل رفضه لكتابيه هذين بأنهما كانا تعبيراً عن ذروة الشك ومتعاطفين مع الفكر المادي الذي كفر به، وقد صودر الأول ولن يطبع ثانية ، وصادرت أنا الثاني فلا أسمح بإعادة طبعه، وكل طبعة له ظهرت بعد الأولى فمن غارات السارقين في بيروت .

ويخص بالذكر من كتبه « لغز الموت » ويعتبره مدخله إلى الإيمان ، ثم « المستحيل » . ويقول إنه سجل التفاعل الصوفي الذي يرسم طليعة التغير الذي انتهى إليه . ثم « رأيت الله » وقد ضمنه دراسات ونماذج من أعمال يعتقد أنها تصور الخط الإسلامي الصحيح البريء من التشويش، ثم «من أسرار القرآن» وقد تكرم بإهدائي نسخة منه، فرغت لمطالعتها أثناء كتابتي هذا الفصل عنه ، وقد سجلت في آخره « كلمات رائعة في تعابير ساحرة متوهجة أحياناً ولم يخل من نقاط صالحة للمناقشة » ثم « الوجود والعدم » ويقول إنه آخر ما كتب حتى الآن، ويصف مضمونه بأنه إجابة على موضوع الجبر والاختيار في ضوء الإسلام ، وأنه أقرب كتبه إليه وأشدها تمثيلاً لأفكاره ومشاعره .

ويختتم الصديق هذا العرض بقوله: إنه يتحمل مسئولية كل ما كتبه، يستوي في ذلك ما يرفضه وما يقره ، لأنه إنما كتب كل أولئك تحت ضغط الواقع النفسي، فكله تصوير صادق لمراحله الفكرية .. لم يبتغ به شهرة ولا سمعة ، ولم تدفعه إلى شيء منه رغبة ولا رهبة . أما أنه يتحمل مسئولية ما يقر وما يرفض من هذه الكتب فذلك أيسر جوانب المسئولية ، لكن الأهم من ذلك هو ما تركه القسم المرفوض في بعض القلوب الهشة من جراح ليس من الميسور تضميدها مهما يرفع عقيرته بإنكارها . وأنا شخصياً كثيراً ما أتساءل : أتشمل مغفرة الله أصحاب البدع بمجرد توبتهم عنها ؟.. ثم لا أنسى مع ذلك أن الأمر إلى الله ومن أسمائه سبحانه الغفور الرحيم .

الطائف إلهية :

ويلخص رأيه في نفسه وأفكاره فيقول: إن الشكوك التي أحاطت بي، ورسمت صورها في بعض هذه الكتب إنما مردها إلى غواش حالت بين بصيرتي والرؤية الصحيحة . ويعترف بأن النقص العلمي أثره في التمكين

لهذه العوارض . ونحن نضيف إلى ذلك مـــا سبقت الإشارة إليه من عوامل البيئة القبورية في طنطا ، والتي كانت بمثابة الصدمة الأولى التي رجّت مداركه ، وفتحت في نفسه الثغرات لتتسلل منها أفكار المضللين من أمثال شبلي شميل وسلامة موسى وأضرابهما .. وإنها لغواش من شأنها أن تعزله عن الحقائق – كما يقول – ولو إلى حين .

وحين يتحدث عن عوامل النجاة من هاتيك الغمرات لا يجد لها من وصف سوى أنها ألطاف إلهية وصلته بحقائق القرآن فأخرجته من ظلمات الضياع إلى ساحة الضياء ، وبذلك أصبح ليس فقط من السامعين ، بل من الخابرين ، ومن أجل ذلك لا يفتأ كلما استحضر هذه النعمة يردد على نفسه : « الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله » .

تفاؤله بالمستقبل :

وحين نستطلعه رأيه في مستقبل الإسلام لا يستطيع إخفـاء تفاؤله بأن العصر القادم إسلامي لا محالة إن شاء الله . وحجته الأولى في ذلك مـا يلمسه من تعطش الشباب إلى حقائق هـذا الدين الإلهي المحفوظ ، وحماستهم الغريبة للتضحية بكل شيء في سبيله . ويرد ذلك إلى الإخفاق الذي صارت إليه كل التجارب التي مرت بالبشرية .

وهو في هذه النقطة يلتقي مع فضيلة الشيخ الغزالي في جوابـه عن هذا الاستطلاع . ويذكرني كلاهما برأي مماثل للداعية الراحل مالك بن نبي عليه رحمات الله ، إذ يرى في واحدة من أخريات محاضراته أن الثلث الأخير من القرن العشرين هو موعد الانطلاق العالمي للإسلام . ومستنده في هذا الاستنباط هو إفلاس النصرانية واليهودية كدينين من أصل سماوي ، والوثنية الشرقية كلها بوصفها إحدى بقـايا الفلسفات القديمة الكبرى ،

مضافاً إليهـــا تهافت الماركسية التي لم يعد لوجودها من مسوّغ سوى الإكراه، وهو في طريق الزوال أمام الانتفاضات البركانية، التي بدأت تزلزل عروش طواغيتها في كل مكان .

وقد حدث أن عقبت على آراء الصديق الفقيد، إثر إلقائه محاضراته في المدينة المنورة، وكان من رأيي يومئذ أن تساقط هـذه التيارات لا يعني حلول الإسلام مكانها على الوجه الحتم، لأن ذلك يقتضي توافر الدواعي الصـالحة لعرضه على الأمم الحائرة، وإبراز حلوله الناجحة لمشكلاتها التي عجزت المذاهب الفكرية جميعاً عن حلها، وكلا الأمرين بمثابة الحلقة المفقودة في بنيان الدعوة الإسلامية حسب واقعها الراهن، الذي أكثر ما تشكوه هو إعراض المسلمين أنفسهم عن هداية الإسلام، وانصراف حكامهم إلى محاربته وأهله بكل ما يملكونه من قوة .

ومـا أحكم وأوجع كلمة ذلك الطالب الألماني في الجامعة الإسلامية بالمدينة، الذي طُلب إليه أن يتحدث عن بواعث إسلامه فبـدأ كلامه بقوله : « الحمد لله على أن عرفت الإسلام قبل أن أعرف المسلمين ».

رؤية إسلامية :

وثمة ملامح غريبة في توقعات الأخ الدكتور يمكن تحديدها في مجريين:

أما الأول فهو ما يسميه بالمعطيات الإلهية، التي تتدفق على الأمـة العربية من ينابيع النفط والخامات التي بها تتحرك العقول والمصانع في العالم المتحضر كله . إنه يرى في هذه الفيوض الهائلة من الطاقات إرهاصاً بتغييرات ضخمة في مسار البشرية بعامة والإسلام بخاصة .

وأما ثاني المجريين فمتصل بالطلائع الخيرة التي أسلف الكلام عنها آنفاً، إذ يرى في توافرها وحماستها دعامة لإيمانه بفكرة المهدي المنتظر.. الفني

لا يعدو في مفهومه كونه واحداً من المؤمنين قد زود بالمواهب التي تؤهله لقيادة هذه الطلائع ، ومما يؤكد إيمانه هـذا ثقته بالعناية الربانية التي لا يتصور أنها تاركة القطيع البشري يتخبط إلى الأبـد في الظلمات ، محروماً من نور الإسلام الذي لا إنقاذ للإنسانية إلا به .

وقد لاحظ القارىء في أكثر من موضع من هذا العرض أن الدكتور شديد التعلق بالفتوحات الإلهية ، لا ينفك يتطلع إلى نفحاتها في كل مأزق يضيق عنه تدبير الإنسان . وقد يرد القارىء نزعته تلك ، مع إيمانه بفكرة المهدي، إلى مصادره الصوفية . ولكنها على كل حال رؤية إسلامية لها سندها من الآثار، ولها كذلك مسوغاتها من التصور الإسلامي الذي يملأ المسلم يقيناً مهما اشتد عليه الحدثان أنه ليس وحده في الميدان، إلا أن المحذور في هذا الاتجاه هو الإغراق فيه إلى حد تعطيل العمل ، اكتفاء بالأمل، وفي ذلك انصراف عن السنن الإلهي الماثل في قوله تعالى: « ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب . من يعمل سوءاً يُجْزَ به » (١٢٢/٤) .

تباشير مبشرة :

كل ما تقدم من حديث عن هذا المفكر تلخيص مركز لإجاباته على أسئلة ألقيناها عليه أثناء جلسة خاصة في مدينة رسول الله ﷺ .

واستكمالاً للصورة المنشودة أرى أن أضع بين يدي القـارىء بعض الانطباعات الـتي استخلصتها من كتابيه « حوار مع .. ملحد » و « من أسرار القرآن » ففي هذه الانطباعات من المؤشرات الفكرية ما لا يحسن استبعاده من عرض كهذا ، وليس من الإنصاف أن نحجبه عن هذا الأخ الذي قرأناه عن بعد فقدّرناه ، ثم لقيناه عن قرب فأحببناه في الله .

وقد آثرت الوقوف على هذين الكتابين بخاصة لما فيهما من نباشير تسجل له غير قليل من الاعتدال في أفكاره الحادة ، التي طلع بهـا على الناس في كتابه « محاولة لفهم عصري للقرآن » وأصر على كلمة (غير قليل) لأنه حتى الآن لم يستطع التحرر نهائياً من ذلك الشطط الذي بعد به ، في كثير من تضاعيف الكتابين ، عن روح القرآن ، وعن مدلولاته اللغوية والبيانية والغائية جميعاً .

وإنها لتباشير مبشرة بأن ساعة الانتظام الكامل مع خط النبوة قد أوشكت تغمر قلمه بأنوارها فلا يستطيع مفارقتها قيد أنملة إن شاء الله .

ولنمض الآن في الحديث عن الكتابين :

إن في هذين المؤلفين من الروائع ما يطرب القلب ويرضي اللب ، ولعل من ميزاتها أنها لم تخل من بعض الهفوات التي جرى بهـا يراعه انسياقاً مع الاجتهاد الشخصي ، أو تأثراً ببعض من وثق بتفوقهم من أهل الرياضات الروحية .

وسأبدأ من هذه الهفوات بما تضمنه أول الكتابين (حوار ...) مصحوباً كل منها بالملاحظات التي يرجى أن يكون فيها شيء من الذكرى التي تنفع المؤمنين بفضل الله .

أفكار تقتضي التصحيح :

١ – في ص ٣١ يتحدث عن أهل النار وموجبات عذابهم في تحليل رائع ، ولكنه سرعان ما يؤخذ بكلام أهل (الشطح) فيقرر قول ابن‌عربي « إن هؤلاء سيتعودون النار .. وتصبح بيئتهم الملائمة » ويؤكد ذلك في ص ٣٣ حيث يقول: « إن التعذيب في الآخرة ليس تجبراً من الله على عباده ، وإنما هو تطهير وتعريف وتقويم ورحمة » .

ولا شك أن في هـذا التقرير مجافاة لمفهوم العذاب في مصادر الوحي الذي يخبرنا أنهم « لا يخفف عنهم العذاب » (١٦٢/٢) و « كلما نضجت جلودهم بدلناهم

جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب » (٤/٥٥) فعذابهم مستمر ومتجدد أبداً ، وهو العقوبة العادلة التي اقتضتها جرائمهم إذ يدعون إلى الايمان فيكفرون . فلا مكان هنا لتطهير وتقويم وما إليهما من تعلات ، لأن ذلك من شأن الدنيا ، التي تنفع فيها التوبة والإصلاح ، وقد فوتوهما على أنفسهم فلا مطمع بتلاقيهما وقد قطع بذلك رب العزة إذ يقولون له: « ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل» فيزجرهم قائلاً : « أوَلَم نعمركم مـا يتذكّر فيه من تذكّر وجاءكم النذير .. فذوقوا فما للظالمين من نصير » (٣٥/٣٧) .

ولا مشاحة في أن هذا الشذوذ عن المعلوم بالضرورة من ينابيع الوحي ، إنما هو بقية من رواسب ما أسلف عن الموضوع نفسه في (محاولة ...) حيث يقطع « إن كل ما جاء عن الجنة والجحيم ما هو إلا ألوان من ضرب المثال وألوان من الرمز ... » ولكن هذا التقرير الصارم يخف كثيراً في كتابه « حوار ...» إذ يقول – ص ٣٢ – « ولا يجب أن يفهم من هـذا الكلام إننا ننكر العذاب الحسي ، ونقول بالعذاب المعنوي ... » ففي إقراره بالعذاب الحسي هنا صورة من المراجعة نتوقع أن تليها خطوات في طريق التصحيح .

تأثره بإقبال :

ويلوح لي أن الدكتور في هذا الجانب من أفكاره قد جمع إلى تأثره بابن عربي تأثره بالشاعر الإسلامي محمد إقبال (رح) عن طريق كتابه «تجديد الفكر الديني في الإسلام » الذي يبتدع فيـه ذلك الشاعر الكبير من عجائب التفاسير للجنة والنار ما لا أصل له ولا مستند من قرآن ولا حديث ، ولم يرو عن ثقة من أهل العلم أو السابقين الصالحين من رجال التصوف .. من ذلك قوله عن النـار إنها « تجربة للتقويم قـد تجعل النفس المتحجرة تحس مرة أخرى بنفحات حية من رضوان الله..» وذلك لأن الجنة والنار في تقديره الفلسفي حالتان لا مكانان

« فالنار هي إدراك أليم لإخفاق الإنسان ، أما الجنة فهي سعادة الفوز على قوى الانحلال » .

ويتأكد هذا التأثر والتأثير من التزام الدكتور مصطفى لبعض تعابير إقبال نفسها دون تعديل ، وكان جديراً ألا يتعرض لهذه التجربة لو تذكر أن إقبالاً مزدوج الشخصية ، فهو في شعره منتظم الخطى في الطريق السوي ، حتى إذا عمد إلى التفلسف اضطربت به الخطى وشط بعيداً عن المنطلق الإسلامي .

٢ - وفي ص ٦٣ يواجهنا بتلك (الشطحة) الأخرى وينقلها هذه المرة عن مخلط اسمه محمد بن عبد الجبار ، يزعم أن الله يقول له في حديث قدسي : « كيف تيأس مني وفي قلبك سفيري ومتحدثي ! » ومعلوم لدى الدكتور أن الحديث القدسي لا يكون إلا من وحي الله إلى رسوله ﷺ فكيف يخالف الإجماع ويقبل مثل هذه المزاعم التي تفتح على بسطاء المسلمين باباً من الدجل لا يغلق !.. ورحم الله الشيخ عبد القادر الجيلاني لموقفه العظيم من مثل هذه الترهات إذ سمع الشيطان يخاطبه باسم الله ، فلم يجد له جواباً أنسب من أن يقذفه بنعله .

٣ - ومثل هذه المخرقة ما ينقله في ص ٩٤ عن بعض هذه المصادر من هذر بارد يطلق عليه اسم « الحديث القدسي » أيضاً ، وفيه يقول عن لسان ربه - تعالى عن ذلك - « عبدي أطعني أجعلك ربانياً تقول للشيء كن فيكون » ويستدل على صحة هذا اللغو بالخوارق التي أجراها الله على يد عبده المسيح (ع) !.. وما أدري كيف فات الدكتور أنه قول مولّد من أفكار نصرانية تنسب إلى نبي الله عيسى (ع) أنه قال - في الإنجيل - « لو أن في قلوبكم ذرة من الإيمان وقلتم للجبل انتقل لانتقل » هذا فضلاً عن الظلمة التي تغشى هذه المفتريات فتنبىء عن تفاهتها وتهافتها .

ونكرور الإشارة هنا إلى تلاقيه مع إقبال أيضاً في التسليم بالأقوال المرجوجة دون معالجتها بالتحقيق كما فعل – إقبال – حين نقل عن لسان رسول الله ﷺ أنه قال عن نفسه : (أنا الدهر) مع أن العبارة جزء من حديث قدسي عن الله تبارك اسمه . تماماً كما قبل الدكتور مصطفى بالتسليم المطلق تسمية العبارتين السالفتين بالحديث القدسي .

ونكرور هنا التذكير بأنها بقايا من تعلقاته الصوفية التي تدفعه إلى الإيمان بكل ما يهرفون ولو كان ما يقولونه كذباً صراحاً على الله ورسوله ... لمجرد أنه وثق بهم فلم ير ضرورة لمناقشتهم في أي ادعاء !

ومن هنا جاء قبوله تفسيرهم كرمي الله بقلب المؤمن وعرشه بالعقل، ونعلّي موسى (ع) بالنفس والجسد ... وما إلى ذلك من غرائب حشيت بها محاولته تفسير القرآن العظيم بما يسميه الفهم العصري . وقد فاته – كما فات إقبالاً قبله – أن الله أنزل كتابه بلسان عربي مبين ، لا بطلاسم المشعوذين والمضللين .

٤ – وفي ص ٤٠ يقول : « وللفقير نصيب يؤخذ زكاة وإنفاقاً من ٢ ١/٢ ٪ إلى ٩٠ ٪ جبراً واختياراً . ومعلوم أن الزكوات مختلفة المقادير لكل نوع من المزكّيات نسبته الخاصة، وليس بينها ما يبلغ التسعين . فمن أين جاء بهذا الرقم الأخير ؟ وما دام واقعاً في قسم التطوع كان الأصح أن يطلقه بغير تحديد ، لأن المؤمن قد يتبرع بكل ما له عند وقوع الحوائج أو الجوائح كما فعل الصديق (رض) يوم العسرة .

٥ – في ص ١٢٥ يصف القرآن العظيم بأنه أتى على يد رجل بدوي في أمة متخلفة بعيدة عن نور الحضارات . وهو تكرار لما كتبه في (محاولة الفهم العصري) وقليل من التذكر لوقائع التاريخ تؤكد أن محمداً ﷺ لم يكن بدوياً قط ، وأن مكة في مقدمة مدن الحضارة في عصر البعثة ، إذ كانت عاصمة التجارة في جزيرة العرب ، وحسبنا دليلاً على أهميتها تسمية القرآن إياها

(أم القرى) وقد وصف رسول الله أثر البيئة في أخلاق أبنائها فقال : « من بدا جفا » فأين هو من البداوة . وهو الذي يقول ربه في مدحه : « وإنك لعلى خلق عظيم » — « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » .

٦ — وفي ص ٤٨ يقرر في شأن الأسرى أمرين : الفدية أو المن ، ونفي شرعية الاسترقاق وقد فاته — وبنت الشاطىء قبله — أن ثالث الأحكام من عمل السنّة ، وهي بيان لمجمل القرآن وقد أطبق المسلمون على ذلك منذ عهد النبي فأطلقوا ، وفَدَوا ، واسترقوا ، وقد تُرك للأئمة الخيار بين الثلاثة ليعملوا بما تقتضيه الظروف ومصلحة الأمة . ولا مناص من تقرير ذلك لأن الحكم في هذا الأمر وعلى هذه الوجوه الثلاثة من المحكمات القاطعات ، عملاً بقوله تعالى: « ما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » هذا إلى أن من غير المعقول أن يسترق العدو أسرى المسلمين ، ويرد المسلمون إليه أسراه مرفهين منعمين .

٧ — ويقول في ص ٩٤ « ونحن لا نعبده بأمر تكليف ، ولكننا نعبده لأننا عرفنا جماله وجلاله ... » وأقل ما في هذا أنه جنوح إلى التعليل الفلسفي لأسرار العبادات ، وهو مزلق خطر لأنه يعطي من لا يحسن النفاذ إلى هذه الأسرار بعض العذر في التهاون بها ، كما أنه يفتح الباب لمدعي (المعرفة) أنهم وصلوا إلى مقام الكشف فلم يعد بهم حاجة إليها .. والذي عليه أهل الحق أن العبادة تكليف يتساوى بإزائه الرسول وأي فرد من أمته ، ومع أن الله لم يخلق إنساً ولا جناً إلا لعبادته ، فهو لا يقبل من أحد عبادة إلا بما شرع وعلى الوجه الذي شرع ، وقد وصف نبيه زكريا والمؤمنين معه فقال « ويدعوننا رغباً ورهباً ٢١/ ٩٠ » ولو كانت العبادة مجرد استجابة لدواعي الجمال والجلال لما كان ثمة داع للرغب والرهب . ويقول لخاتم رسله ﷺ : « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر . إن قرآن الفجر كان مشهوداً ١٧/٧٨ » فإذا لم يكن هذا تكليفاً له ولأمته فكيف يكون التكليف !

٨ - وفي ص ٤٤/٤٥ يقول الدكتور : « وكل شيء في ديننــا يقبل التطوير ما عدا جوهر العقيدة وصلب الشريعة . وفيما عدا ذلك فالدين مفتوح للفكر والاجتهاد والإضافة والتطوير ...» والذي أراه أن العبارة تعوزها الدقــة . فهو يستثني جوهر العقيدة وصلب الشريعة من إمكان التطوير ثم لا يلبث أن يحكم بأن الدين مفتوح ليس فقط للتطوير بل للإضافة أيضاً ! ونحن نذكـّر الأخ الكريم بأن الدين هو مجموع الأصول التي أنزلها الله وبلـّغها رسوله . وقــد أخبر بكماله في آخر ما أوحى به إلى رسوله : « اليوم أكملت لكم دينَكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلامَ دينــاً ٥/٣ » . فكل محاولة للتطوير والإضافة على هذه الاصول فعدوان على الدين والحق وتشويه لمقاصده، وفي الحديث الصحيح: « من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد » أي مردود ، وإنمــا ينفسح مجال التطوير والإضافة في نطاق الاجتهــاد الذي هو من عمل الفقهاء ، والظاهر أن الموضوع قــد اختلط على الأخ فأطلق حكمه على الدين وهو يريــد مجرد الاجتهاد .

٩ - ومع أن الصديق ، سدد الله خطاه ، قد أعلن كفره بالفلسفة كمعيار لإدراك الحقائق فهو لم يستطع التحرر من مصطلحاتها المنافية للتوحيد . يقول في ص ٦٦ : « فلا شيء ثابت في الكون إلا الله . هو الصمد الصامد الساكن ، والكل في حركة حوله...» وهذا ما ذهب إليه فلاسفة الإغريق الذين اعتبروا الحركة من خصائص المحدَثات . وأخذ هو تعبيرهم دون انتباه إلى تناقضه مع منطوق القرآن والحديث .

فلقد أخبرنا ربنــا تبارك اسمه أن له مجيئاً وإتياناً فقال : « هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك ٦/١٥٨ » « وجاء ربك والملك صفاً صفاً ٨٩/٢٢ » ونبأنا أعلم الخلق به صلوات الله

وعلى المؤمن أن يسلم بذلك كله في اطمئنان تام ، دون أن يسمح لنفسه بأي وصف لكيفية مجيئه وإتيانه ونزوله سبحانه لأنه « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ٤٢/١١ » .

١٠ – وقد بقي من هذه المشكلات قضية (الحروف والاعداد) التي تناولها في كلا الكتابين، وخلاصتها أن أحد المتخصصين في شئون الكمبيوتر قد اكتشف سراً لم يسبق لأحد علم به ، عن العلاقة ما بين الحروف المقطعة من أوائل بعض السور ومواطن ورود كل منها في السورة المتصلة بها .

والحق أن الموضوع مما يسترعي الانتباه ويستدعي التحقيق ، ولكنا مع ذلك نتساءل : أي مصلحة للناس في دراسة هذه القضية والاشتغال بها ؟ وما الذي نخسره لو ظللنا على جهلنا بوقائعها ؟

إن بعض ما نخشاه من هذا الامر أن يتخذه بعض الفارغين والفاسدين مجالاً للعبث بكتاب الله ، فيأتي ذات يوم من يخترع المزاعم حول كل سورة ، وحول أنواع من الحروف في كل سورة ، فيكون ذلك سبباً لانصراف المخدوعين – وما أكثرهم – عن مقاصد القرآن العليا إلى التلاعب الذي لا مردود له سوى التعمية والتضليل . ولا ينبغي أن نختلف على أن ما وسع سلفنا من قبل جدير أن يسعنا من بعد [٢] .

نماذج من روائعه :

ونحن حين نعرض لهذه الفلتات من محتويات الكتابين إنما نفعل ذلك بدافع من الغيرة على مثل تلك الأعمال الباهرة التي وفق إليها أن يتخللها ما يسيء إليها

---

(١) من حديث صحيح متعدد الطرق والرواة . انظر فتاوي شيخ الإسلام بن تيمية ج ٣٨٨/٥ .

(٢) لقد وقع ما توقعناه وكان ذلك على يد الرجل نفسه – رشاد خليفة – الذي بدأ الكلام عن قضية (الحروف والأعداد) إذ ما كاد ينتشر خبر كشفه بين الناس حتى أخذته نشوة الغرور فإذا هو لاحق بمنكري السنة وزاعم من العلم بكتاب الله ما لا يقول به عاقل .. ولا حول ولا قوة إلا بالله ! ..

من أخبار يعوزها التدقيق ، أو اجتهادات مردها إلى الرأي في أمور لا صلاحية فيها لغير الوحي .

ولن يكون التعقيب مستوفياً عناصر الإنصاف إذا لم يحمل لقارئه بعض النماذج المقابلة في روائع الكتابين :

١ — في حواره مع ذلك العائد بالإلحاد من الغرب الضائع وأثناء الكلام عن بعض الحقائق التي ينكرها من عالم الغيب ، يقول له الأخ الدكتور مصطفى (ص ٦٨/٦٩) : « بل نحن في عصر يسهل فيه تماماً أن نصدق بأن هناك ملائكة لا تُرى ، وبأن الحقائق يمكن أن تلقى إلى الإنسان وحياً ، فهم يتكلمون اليوم عن أطباق طائرة تنزل على الأرض من كواكب بعيدة ، وأشعة غير منظورة تقتل ، وأمواج لاسلكية تحدد الأهداف وتضربها ، وصور تتحول إلى ذبذبات في الهواء ، ثم تُستقبَل في أجهزة صغيرة ، وأجهزة أخرى تصور الأشباح ، وعيون ترى في الظلام ، ورجل يمشي على القمر ، وسفينة تنزل على المريخ .. وعلى ضوء هذا كله يصبح وجود جبريل (ع) من الحقائق البديهية ...

وما أحسب ثمة عقلاً سليماً يقبل الجنوح إلى الشك في وجود الملائكة أو الجن بعد التأمل الواعي في هذه المكتشفات الكونية .

٢ — وفي الرد على مزاعم الملحد في نسبة القرآن إلى محمد ﷺ بقوله له (ص ٦٩) : « فإذا نظرنا إلى القرآن في حياد وموضوعية فسوف نستبعد تماماً أن يكون من تأليف محمد ﷺ أولاً لأنه لو كان هو مؤلفه لبث فيه همومه وأشجانه. ونحن نراه في عام واحد —بل في أسبوع واحد— يفقد زوجه خديجة وعمه أبا طالب ولا سند له من الناس غيرهما ، وفجيعته فيهما لا تقدر .. ومع ذلك لا يأتي لهما ذكر في القرآن.. وكذلك يموت ابنه إبراهيم ويبكيه ولا يرد له خبر فيه .. فالقرآن معزول تماماً عن الذات المحمدية ... » .

ويا لها من حجة قمينة بأن تضم إلى قائمة الدلائل القاطعة بإلهية الكتاب الذي « ما كان حديثاً يفترى... ١٢/١١١ » .

٣ – ويذكره الملحد بماضيه الذي ملأته الشكوك والانحرافات ، وما كتبه من كفريات سابقة في كتابه «الله والإنسان» ويستوضحه عن العوامل التي غيرت مساره فنقلته من النقيض إلى نقيضه .

ويأتي جواب الدكتور – ص ١٢٤/١٢٥ – مستخلصاً من خلال تأملاته في نظام الكون « ... رأيت العالم حولي كله محكماً دقيقاً منضبطاً لا مكان فيه للهزل ولا للعبث .. رأيت النجوم تجري في أفلاكها بقانون . ورأيت الحشرات الاجتماعية تتكلم، والنباتات ترى وتسمع وتحس... ورأيت الحيوانات لها أخلاق.. ورأيت المخ البشري عجيبة العجائب يتألف من عشرة آلاف مليون عضل عصبي تعمل كلها في وقت واحد في كمال معجز .. ولو حدث بها عطل هنا أو هناك لجاء في أثره الشلل والعمى والخرس والتخليط والهذيان . فما الذي يحفظ لهذه الآلة الهائلة سلامتها ؟ ومن الذي زودها بكل تلك الكمالات ؟!

أجل .. لقد رأيت الطبيعة بناء محكماً متكاملاً تستحيل فيه الصدفة والعشوائية بل كل شيء يكاد يصرخ : دبّرني مدبّر حكيم ، وخلقني مبدع قدير ... » .

وإنه للاستدلال الفطري الذي يقطع بكمال العناية الإلٰهية ، ويرفض كل ما يزعمه المضللون من الصدفة أو العبثية في هذا الوجود الشاهد لواجب الوجود، سبحانه .

٤ – ومما يثلج الصدور بخاصة في تقريرات هذا المفكر أنه ، على الرغم من تفاعله مع الأفكار الصوفية ، لم يسمح لها بالتسلل إلى مكان العقيدة من قلبه .

في الفصل الذي يسميه (علم نفس قرآني) من كتاب (أسرار القرآن) يتحدث عن آثار ذكر الله في حياة الإنسان فيقول (ص ٦٤/٦٥) « وذروة العلاج النفسي في الإسلام هي (الذكر) ذكر الله بالقلب واللسان والجوارح والسلوك والعمل . واستشعار الحضرة الإلهية على الدوام في كل قول وفعل .. وفي الذكر شفاء ووقاية وأمن وطمأنينة ، لأن الذكر يعيد الصلة المقطوعة بين العبد والرب ،

ويربط النفس بمنبعها ، ويرد الصنعة إلى صانعها ، إذ هو الأعلم بعيوبها والأقدر على علاجها .

وعلى ضوء ذلك يمضي في المقارنة بين هذا النوع من العلاج الرباني في الإسلام وبين ضلالات اليهوديين الخبيثين فرويد وماركس ، اللذين وقفا بتصور النفس البشرية عند حدود الآلية الحيوانية ، فانتهى بهما تصورهما هذا إلى اعتساف الأدلة وتزييف البراهين ، ومن ثم إلى إعطاء المفاسد الهدامة حق التدمير لكل الفضائل الإنسانية .

ولا ننسى البون الشاسع ما بين فهمه السوي للذكر كما هو في الكتاب والسنّة وبين صور الذكر البدعي الذي استحال على أيدي الطرقيين ضروباً من اللهو والرقص والأناشيد ، واللغو الذي لا يكاد يتصل من قريب أو بعيد باسم الله !

٥ — ومن هـذه الزاوية ينظر الدكتور، زاده الله هدى ، إلى موضوع (التوسل) فهو يرى (ص ٨٩) : « إن وسيلة كل إنسان عمله .. ولكن العمل الأمثل هو اتباع الرسول ﷺ واتخاذه قدوة في جميع الاعمال » .

ثم يقول ص٩٠/٩١ : « هذا هو المعنى الإسلامي للشفاعة والتوسل، وهو غير ما يجري في أضرحة الاولياء من تقبيل النحاس وإلقاء الخطب والصراخ الساذج من المكلومين : مدَد يا رفاعي — نظرة يا سيد — يدك معنا يا بدوي — همتك معنا يا قطب الرجال — أغثنا يا رسول الله — الشفا بيدك يا سيدي إبراهيم الدسوقي — يا ست زينب الامر أمرك !! وقـد نسي الكل التوجه إلى الله ، وتشبثوا بالقضبان يغمرونها بالدموع ، وضرب الفلاحون القادمون من أقاصي الريف خيامهم .. وترقص الغواني ، ويغني صاحب الربابة ، ويتحول السامر إلى سوق لبيع الأعراض أحياناً .. ومدد يا سيد .. » .

وهكذا يتفجر الاخ الفاضل سخطاً على هذه الجاهليات التي سلبته ذات يوم إيمانه كما تفعل بالكثيرين غيره ، دون أن تحرك ساكناً من(حماة الدين)الرسميين،

الذين وجدوا أخيراً في هذه الاوضاع مورداً جديداً يسوقهم إلى تزيينها وحراستها بدلاً من مكافحتها وملاحقة مجرميها .

والحق أن استقصاء هذه الروائع ، في ما يقدمه الصديق الكريم للفكر الإسلامي ، لأمر يستدعي الوقت الطويل ، والصفحات الأطول، ولكن حسبنا من الينبوع الثر كوب يدل على عذوبته .

وقد بقي من حق هذا المفكر عليّ أن أسجل له ما وجدته في خلقه من دماثة وبراءة ، أبعد ما تكون عن التكلف ، حتى لكأنه ، وهو يصف المؤمن الحق بأنه دائماً طلق الوجه مشرق البسمة متفائلاً، حمّاداً لربه في جميع الحالات، لا يسب الدهر ولا ينسب لربه نقصاً ولا قصوراً . . » . لكأنه في هذا الوصف إنما يصف نفسه هو .

ومما يضاعف تقديري لهذا الاخ الكريم ما لمسته من حبه للحق، واستعداده للرجوع عن كل ما يجافيه، وفي مقدمة ما أنتظره منه زيادة العناية بلغة العرب، ليزداد تذوقه الرفيع لبيان القرآن ، والتحرج من أية رواية لم يتيقن من صحة سندها ، ثم المزيد من عنايته بالحكمة النبوية على اعتبار أنها الدليل الذي لا مندوحة عن مصاحبته في التعرف إلى الكتاب الذي يهدي للتي هي أقوم .

وتبارك الله الذي هدانا وإياه ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

١٩

الشيخ منّاع القطّان

هو الشيخ مناع أبو محمد القطان .

ولد في شهر أكتوبر – ت ١ – عام خمسة وعشرين وتسعمئة وألف في قرية شنشور مركز أشمون من محافظة المنوفية بمصر ، وإلى قريته هذه ينسب الشيخ الشنشوري شارح (الرحبية) في علم الفرائض .

والشيخ مناع من أسرة كثيرة العدد متوسطة الثراء تعرف بآل القطان .

وفي هذه البيئة كان منشأ الشيخ، وهي كشأن البيئات القروية المصرية تمتاز بالمحافظة على الأعراف والتقاليد وترابط الأسر ، ومـا يتصل بذلك من حماية الأعراض والغيرة على حرمات الإسلام .

وقد بدأ حياته العلمية بحفظ القرآن الكريم في 'كتّاب القرية ، على دأب أمثاله من أبناء البيوت المحافظة في مصر أثناءئذ ، والتحق بمدرستها الابتدائية فأتم برامجها ولما يتجاوز الثانية عشرة . ثم التحق في شبين الكوم بالمعهد الديني التابع للأزهر ، فحصل منه على الشهادة الابتدائية ثم الثانوية بترتيب متقدم . ومن أبرز مشايخه في هذه الفترة الشيخ عبد الرزاق عفيفي –وسنترجم له إن شاء الله– والشيخ عبد المتعال سيف النصر ، والشيخ علي شلبي .

ومن ثم التحق بكلية أصول الدين في القاهرة، ومنها حصل على الشهادة العالية بتفوق ، والتحق بعدها بتخصص التدريس ، ونال الشهادة العالمية مع إجازة التدريس عام واحد وخمسين وتسعمئة وألف للميلاد .

ويذكر الشيخ من أساتيذه في هذه الفترة ، الشيخ محمد زيدان ، والدكتور محمد البهي ، والدكتور محمد يوسف موسى (رح) .

ويعدّ الشيخ مناع من الشخصيات التي أثرت فيه توجيهاً وتعليماً وتربيـة : والده خليل القطان ، ويصفه بالتقوى والكرم والحزم .. ثم الشيخ عبد الرزاق عفيفي ، فقد تلقى عنه وعاشره وجالسه ، وهو في بلده شنشور ، فكان يرافقه في البلد ، ويلازمه في تنقلاته ودروسه ثم شاء الله أن يصاحبه مدرساً في كلية الشريعة ، وفي المعهد العالي للقضاء بمدينة الرياض ، حيث لا يزالان معاً منذ سنة ١٣٧٢ هـ حتى يومنا هذا .

ثم يخص بالذكر الشيخ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين، فقد تعرّفه ، واستمع إلى دروسه ومحاضراته وتوجيهاته ، فلم يلبث أن انضم إلى الجماعة ، واستمر يعمل في صفوفها منذئذ .

ومن بين العلوم التي ثقفها الشيخ يرى التفسير وعلومه أحبها إليه ، لأنه يجد فيه - وهو المصدر الأول للتشريع الإسلامي- من الإعجاز التشريعي ما يكفل قيام الحضارة الفاضلة في كل عصر . وبدافع من هذا الإيثار يتولى تدريس التفسير وعلومه منذ تخرجه .

والقارىء لآثار الشيخ ، كتاباً أو مقـالاً أو حديثاً أو محاضرة ، لا يفوته إدراك هـذا الاتجاه ، لأن الإيحاءات القرآنية أشد العناصر بروزاً في هذه الآثار .

ويتأمل المترجَم في الأحداث التي عاصرها ، وتركت طابعهـا عميقاً في تكوينه الفكري والروحي فيقصرها على ما يأتي :

أ - اتصاله بجماعة الإخوان المسلمين وإسهامه في جهادهم .

ب - مشاركته في الحركة الوطنية التي قام بها الشعب المصري، وفي مقدمته الإخوان، ضد الاستعمار الإنجليزي سنة ١٩٤٦م والتي انتهت بالقضاء على معاهدة ١٩٣٦م .

جـ - مشاركته في حركة الجهاد بفلسطين عام ١٩٤٨م وذلك بتطوعه في سرايا الإخوان للعمل الفدائي ، في قتال اليهود الباغين .

د - الفترة التي قضاها في السجن حين حاربت حكومة إبراهيم عبد الهادي جماعة الإخوان ، فحلت تنظيماتها وصادرت ممتلكاتها واغتالت مرشدها العام الشهيد حسن البنا ، وأوقعت في أعضاء الجماعة مختلف أساليب التعذيب والإرهاب ، إذ كان أحد الذين اتهموا في قضايا الجماعة ، وزجوا في المعتقلات مع الفوج الأول من سجناء الإخوان بدءاً من عام ١٩٤٨م وما بعده .

هـ - مشاركته في حركة المقاومة السرية ضد الإنجليز في منطقة القناة سنتي ١٩٥١ و ١٩٥٢م .

ومعلوم أن تلك الأحداث كانت محور نشاط الشباب من جماعة الإخوان المسلمين ، تمرسوا خلالها بألوان من التربية الإسلامية ، التي توقظ الوعي وتوضح المفهومات الصحيحة، وتحقق التطبيق العلمي للمعاني العليا، التي تلهب في النفوس روح الجهاد الإسلامي ، للتخلص من القوى الاستعمارية على اختلاف ألوانها من شرقية وغربية ، وتوجه طاقات الشباب المؤمن إلى العمل على استعادة أمجاد الإسلام ، واستئناف الحياة الإسلامية القوية ، التي بها يتأكد الانتماء الحي لأمة القرآن .

وقد شاء الله أن يحرم الشيخ مناع من الإسهام في محنة الإخوان التي نزلت بها عام ١٩٥٤م في مصر، إذ كان أيامئذ مغترباً في المملكة العربية السعودية، حيث لا يزال حتى الآن .

أحداث في التدريس :

وحتى الآن لم نتلق جواباً على سؤالنا الثامن حول الأحداث التي قد تكون عرضت لأي من أصحاب الفضيلة أثناء عملهم في التدريس أو القضاء وما إلى ذلك ، فجواب الأستاذ مناع إذن هو الأول من نوعه حتى الآن .

يقول الأستاذ : إن أهم هذه الأحداث التي عرضت له في التدريس ما كان يواجهه من بعض الطلاب المنحرفين المخدوعين الذين يعرفون اتجاهه الإسلامي فكان يأخذهم بالحكمة والحذر .. ويقول : إن له مع هؤلاء نوادر طريفة .. إلا أنه لم يشر إلى أي من هذه النوادر بالتفصيل ، وكل ما يعلمنا به هو نتيجة أسلوبه الحكيم الحازم، إذ يرينا أنهم أكبروا فيه صموده واستمساكه بعقيدته حتى لانت عريكتهم له .

وفي ظننا أنه لا بد لكل مدرس إسلامي في هذه الأيام من مواجهة أمثال هذه المشكلات التي يشير إليها فضيلة الشيخ ، وهي أمر جد طبيعي ، لأنها تمثل مرحلة الصراع التي يمر بها الجيل، وبخاصة في الأقطار التي تسيطر عليها الاتجاهات غير الإسلامية ، إذ تعمل الدعايات الشيطانية عملها الدائب لزلزلة بقايا القيم في صدور الشباب، عن طريق المناهج الدراسية حيناً ، وعن طريق المدرس الزائغ حيناً آخر ، إلى العشرات في وسائل التخريب التي تنصبّ على الناس من كل صوب .

إن المدرس المستقيم الذي يستشعر المسئولية أمام ربه ودينه وأمته لن يكون سعيداً في مثل هذا الجو ، لأنه لا يستطيع كتمان الحقيقة التي تملأ كيانه، ولا يستطيع تأييد الباطل الذي يريد أن يلغي هذه الحقيقة ، فإذا قال الحق

أثار عليه أهل الباطل، وما أكثرهم في كل مكان، وبخاصة في الأوساط التعليمية، التي يركز عليها أصحاب السلطان من الذين حرموا نعمة الإيمان ، وحرموا في الوقت نفسه نعمة النظر في دلائل أهل الإيمان . وقـــد طالما عانينا من هذه المشكلات خلال عملنا في التدريس فصبرنا ما وسعنا الصبر ونصرنا الحق ما وسعنا النصر .

ولا جرم أن هـذا الضرب من محن المدرسين لم يعرفه أحد من أسلافهم ، أيام كان الإسلام هو الذي يسود المجتمع ، ويحكم الضمائر .

صوَر من نشاط الشيخ :

لقد شمل نشاط المترجَم ولا يزال يشمل جوانب متعددة في خدمة الإسلام والعلم ، ويعدد فضيلته بعضها ، فيخبرنا أنه كان عضواً في قسم الدعوة والإرشاد لجماعة الإخوان المسلمين ، مذ كان طالباً في المرحلة الثانوية ، فكان لا يفتأ يتجول في المدن والقرى للدعوة إلى الله في المساجد والأندية والحفلات ، كلما وجد إلى ذلك سبيلاً .

وقد انتخب رئيساً لاتحاد الطلبة في كلية أصول الدين ، فقام بالاشتراك مع إخوانه بحركة المطالبة بتجديد المناهج الأزهرية لتمكين الأزهر من النهوض بمسئوليته بإزاء الدعوة ، وحول هذا الموضوع نشر عدداً من المقالات في جريدة « الشهاب » جريدة الإخوان يومئذ .

ومنذ تخرجه اتخذ سبيله إلى التدريس ، فعمل في مصر إلى عـام ١٩٥٣ م حيث أعير إلى المملكة العربية السعودية للتدريس بالمعاهد العلمية التي استمر فيها إلى سنة ١٩٥٨ م ، ومن ثم انتقل للتدريس فى كلية الشريعة بالرياض ، ثم فى كلية اللغة العربية ، وحين افتتح المعهد العالى للقضاء عام ١٣٨٧ هـ أصبح عضواً فى مجلس المعهد ثم أميناً لسر المجلس ثم مديراً له ، إلى عضوية هيئة التدريس بدرجة أستاذ ، ثم مديراً للدراسات العليا بجامعة الإمام محمد بن سعود ..

يضاف إلى ذلك عضويته فى كل من مجلس جامعة الإمام والمجلس الأعلى لهذه الجامعة سابقاً .. ثم رئاسة اللجنة العلمية لكلية البنات ، وكذلك إشرافه على مواد التشريع الإسلامية بكلية قوى الأمن الداخلى ، ثم عضويته فى مجلس الإدارة لمدارس الرياض ..

وقد اختير فضيلته كذلك عضواً فى اللجنة الفرعية للتعليم بالمملكة العربية السعودية ، عندما صدر الأمر الملكى بتشكيلها ، لوضع السياسة التعليمية على الأسس التى تتطلبها منزلة المملكة فى العالم الإسلامى . ومن مهام هذه اللجنة النظر فى مناهج التعليم بمراحله المختلفة ، وصياغتها صياغة جديدة تنبثق من السياسة التعليمية العليا ، وتراعى أحدث النظريات والأساليب التربوية ، وقد اختارته هذه اللجنة الفرعية للتعليم مقرراً لها .

ومن أعماله العلمية الإشراف على رسائل الماجستير ، وقد بلغ عدد الرسائل التى أشرف عليها فى هذا القسم ، حتى موعد الطبعة الثالثة من هذا الكتاب ، ثلاثين رسالة ، وكذلك رسائل الدكتوراه التى بلغت عشراً ، إلى ست أخرى يقوم بالإشراف عليها فى هذه الأيام .. هذا إلى مشاركاته فى مناقشة خمسين من رسائل القسمين .

وقد كلف من قبل كل من جامعة الإمام محمد بن سعود وجامعة الملك سعود بالرياض ، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، وجامعة أم القرى بمكة المكرمة ، بتقييم عدد من بحوث أساتذتها المساعدين والمشاركين المقدمة للحصول على الترقيات .. كما أحيلت إليه من بعض الجامعات عدة مؤلفات لتقدير مدى صلاحيتها للنشر .

وفى ذلك كله معالم شاهدة بمكانة الشيخ الفكرية والثقة الكبرى التى يتمتع بها فى أرقى المؤسسات العلمية .

فى المؤتمرات والندوات :

ومما يتصل بهذا الجانب من نشاط الشيخ الفكرى مشاركاته فى الكثير من المؤتمرات والندوات ، نذكر منها :

١ ــ المؤتمر الأول لرابطة العالم الإسلامي .
٢ ــ المؤتمر الإسلامى العالمى فى كراتشى .
٣ ــ المؤتمر الإسلامى العالمى فى بغداد .
٤ ــ المؤتمر الإسلامى فى القدس .
٥ ــ مؤتمر المنظمات الإسلامية .
٦ ــ مؤتمر رسالة الجامعة ــ الرياض .
٧ ــ أسبوع الفقه الإسلامى ــ الرياض .
٨ ــ أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب ــ الرياض .
٩ ــ المؤتمر العالمى الأول للاقتصاد الإسلامى ــ مكة المكرمة .
١٠ ــ المؤتمر الجغرافى الإسلامى ــ الرياض .
١١ ــ ندوة رسالة المسجد ــ الرياض .
١٢ ــ مؤتمر الدعوة والدعاة ــ المدينة المنورة .
١٣ ــ مؤتمر مكافحة الجريمة ــ الرياض .
١٤ ــ ندوة مكافحة المخدرات ــ الرياض .
١٥ ــ مؤتمر الندوة العالمية للشباب المسلم ــ الرياض .
١٦ ــ ندوة انحراف الأحداث .

ولقد قدر لنا أن نشارك فى إحدى اللجان المنبثقة عن « مؤتمر رسالة الجامعة » الذى عقدته جامعة الرياض ــ الملك سعود ــ عام ١٣٩٤ هـ إذ كان الشيخ مناع هو الذى يرأس هذه اللجنة ، وكان له الأثر الطيب فى نشاطها ، وفى ما انتهت إليه من توصيات نافعة ، على الرغم من إلغاء بعضها عند الصياغة الأخيرة ، وبخاصة ما يتعلق منها بضرورة الحفاظ على سلامة العربية وآدابها .

فى نطاق التأليف

١ ــ مباحث فى علوم القرآن .

٢ ــ تفسير ايات الأحكام .
٣ ــ التشريع والفقه فى الإسلام تاريخاً ومنهّجاً .
٤ ــ الحديث والثقافة الإسلامية .
٥ ــ نظام الأسرة فى الإسلام .
٦ ــ الدعوة إلى الإسلام .
٧ ــ موقف الإسلام من الاشتراكية .
٨ ــ الإسلام رسالة الإصلاح .
٩ ــ الشريعة الإسلامية .
١٠ ــ رفع الحرج فى الشريعة الإسلامية .
١١ ــ وجوب تحكيم الشريعة الإسلامية .
١٢ ــ الحاجة إلى الرسل فى هداية البشرية .
١٣ ــ وهذه المؤلفات كلها قد طبعت وأعيد طبع بعضها ، وهناك مؤلفات ذكر فضيلته أنها معدة للنشر وسمَّى منها :

١ ــ مباحث فى علوم الحديث .
٢ ــ تاريخ التفسير ومناهج المفسرين .
٣ ــ الفِرَق الإسلامية .
٤ ــ العقيدة والمجتمع .
٥ ــ القضاء فى العهد النبوى والخلافة الراشدة .
٦ ــ الزواج بأجنبية .

ويقول الشيخ: إن أحب هذه الكتب إليه هو أولها «مباحث في علوم القرآن» ويعلل ذلك بأن أصول هذا الكتاب كانت باكورة تواليفه .

وهو تعليل معقول يثبت أثر الظروف النفسية في إيثار المؤلف بعض تآليفه على بعض ، ولكنه لا يثبت أرجحية المختار على سواه في التقدير المطلق . ونظرة مدققة في أسماء هذه الكتب تؤكد أنها على سواء في القيمة

الموضوعية ، إذ كل مباحثها من الضرب الذي تنطلق إليه حاجة الفكر المسلم في المرحلة الراهنة .

مستقبل الجيل الإسلامي :

ويرى فضيلة المترجِم أن ثمة تشابهاً كبيراً في أوضاع العالم الإسلامي على اختلاف دياره وأقطاره ، وأن التفاوت الذي يبدو في بعض أجزائه لا يعدو أن يكون تفاوتاً في العوامل المؤثرة فيه قوة وضعفاً ، أو في مدى قابليته للتأثر بها . ويوضح الشيخ رأيه قائلاً : إن التآمر الدولي الذي يحوكه خصوم الإسلام إنما يستهدف القضاء على كيان الأمة الإسلامية ومقومات شخصيتها حتى تظل نهب المطامع الغربية تارة والشرقية أخرى ، فلا يتحقق لها استقلال ذاتي ولا تنفض عن كاهلها غبار التبعية . والغزو الفكري يشق طريقه لتحقيق هذا الهدف بخطوات ثابتة ، ويقوم بتنفيذها أبناء جلدتنا باسم الحرية والتقدمية. وفي ظن الشيخ أن مستقبل الجيل الإسلامي الجديد سوف يكون أحسن حالاً من حاضره وعياً للإسلام وإدراكاً لمهمته وعملاً على النهوض بأمته .

أما لماذا و كيف . فيقول: لقد ذاق العالم الإسلامي مرارة الاستعمار الغربي، واكتوى بنار فساد المدنية الحديثة ردحاً من الدهر قاسى فيه ألواناً من المآسي أنهكت قواه ، وفرقت شمله وأشاعت فيه روح المروق والإباحية ، واستغلت مرافقه وخاماته وطاقاته، فرزح تحت نير الاستعباد مكبلاً بأغلاله . ثم بدأت صحوة العالم الإسلامي بعد هذه الكبوة تشع ببوارق الأمل . إلا أن هذا الأمل ما لبث طويلاً حتى تبدد شعاعه في الظلام الكثيف الذي ساقه الثوار المتحررون في مؤامرة جديدة ، ترفع شعار الكفاية والعدل ، وتخفي وراءها الشيوعية الدولية مغلفة بالحرية والاشتراكية والقومية ، وحيث ظن الناس أنهم نجوا من مخلب قط وقعوا بين فكي أسد . ويعرب الأستاذ عن تفاؤله بأن هذا الشعور يكمن اليوم بين جوانح الكثير منَ أبناء الأمة الإسلامية ، وستتاح له الفرصة قريباً للتعبير عن حاجاته ، ويومئذ تبدو بوادر اليقظة الواعية التي تنفض يدها

من الشرق والغرب، وتراجع رصيدها الإسلامي من تاريخ أمتنا المجيدة، فتتجدد في هذه الأمة بواعث الأمل وعوامل النهوض لبناء مجتمع إسلامي معاصر على مبادىء الإسلام وهدي شريعته، يقيم للإنسانية حضارة إسلامية فاضلة، تأخذ بيدها إلى سبيل الرشاد .

مسؤولية علماء الإسلام :

ويفيض الشيخ في الحديث عن هذا الجانب قائلاً : على يد علماء الإسلام الذين يدركون واقع أمتهم، ويفهمون حقيقة رسالتهم، ويقدرون أمانة الله في أعناقهم، على يد هؤلاء العلماء يقع العبء الثقيل في مسيرة الجيل، والوقوف في وجه التيارات الغازية، واستئناف حياة إسلامية صحيحة . ومن أجل تحقيق هذه الغاية يتقدم ديق إلى إخوانه العلماء بهذه التوصيات الأربع :

١ — أن يستشعروا خطورة المسئولية، وفداحة الخطب .. فإن الله قد أناط بهم ميراث النبوة من القيام بواجب الدعوة وهداية البشرية إلى الخير، وهي مسئولية جد خطيرة لا يحملها إلا أولئك الذين يتجردون لله من ذوي الإيمان الصادق والعزيمة القوية، التي تمضي في طريقها بثبات وصبر : « يا يحيى خذ الكتاب بقوة »، « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » .

والتخلي عن أداء تلك المهمة أو التقصير فيها لا ينكب الأمة في خطب تواسى فيه بالاستعاضة عنه، وإنما ينكبها في أغلى شيء لديها لا تجد له عوضاً .

إن الأمة قد ترزأ في اقتصادها، واحتلال أرضها، أو تخلف حياتها، ولكنها تظل أمة حية تنبض بمعاني القوة ما دامت معتصمة بدينها، مؤمنة بعقيدتها، واثقة بنصر الله لها . أما إذا فقدت الثقة والإيمان والدين فقد فقدت روحها، وأصبحت جثة هامدة لا حياة فيها، وذلك هو الرزء الذي لا تجدي فيه المواساة، ولا يستعاض عنه بشيء، فشعور علماء الإسلام بهذه الحقيقة هو بداية الطريق .

٢ – ومن شأن هذا الشعور أن يوقظ في نفوس العلماء ضرورة العمل الموحد ، وهذه هي الوصية الثانية : لقد كان علماء الإسلام على مر العصور والأجيال يختلفون في المسائل الفرعية الاجتهادية ، ولكن هذا الاختلاف لم يفسد ما بينهم من رابطة الجهاد ووشيجة قرابته ، فقد كانوا يوقنون بأنهم جميعاً جنود للإسلام في صف المعركة . فالمعركة واحدة وصفها واحد وغايتها واحدة ، وهي تحرير الإنسان من عبوديته لأخيه الإنسان حتى يصير عبداً خالصاً لله ، وتلك هي الحرية بالمفهوم الإسلامي: « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله » .

وإذا كانت الاتجاهات المعادية للإسلام تدفن كل خلاف بينها لتقف على قلب رجل واحد في حرب الإسلام ولتحطيم كيانه وتمزيق شمل أمته ، فكيف يسوغ لرجالات الإسلام أن يواجهوا هذا التكتل أشتاتاً متنافرين . والله تعالى يقول : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » .

٣ – ثم يأتي دور التخطيط للعمل المثمر الهادف – وهي الوصية الثالثة لقد تقدمت المعارف الإنسانية ، وكثرت فنونها وأصبح لكل فن شعبته الدراسية . ولكل شعبة أبحاثها ، فلعلم الاقتصاد مبادئه ونظرياته ، وللعلوم السياسية أسسها ومناهجها ، ولعلوم الاجتماع قواعدها وفلسفتها ، ولكل أمة منهج فكري تصدر عنه في تنظيم شئون حياتها فتصوغ معارفها في قالبه . وتقدمت كذلك وسائل الإعلام والنشر والتوجيه تقدماً معدوم النظير ، وأخذ أصحاب كل مبدأ بهذه الأساليب في نشر مبدئهم عن تخطيط مدروس .

فعلى رجال الحركة الإسلامية إذن أن يرتفعوا إلى هذا المستوى في الدراسة الواعية والأساليب المبتكرة ، للذود عن حياض الإسلام ، والقيام بواجب دعوته .

٤ – وتأتي بعد ذلك الوصية الرابعة في الدأب والمثابرة . إن العمل أياً كان نوعه أمر شاق على النفس ، ولكن الصبر عليه هو ضرورة الحياة الجادة النامية ،

وحين يتسرب اليأس إلى النفس يدركها الخور وتتراءى أمامها الحيـاة مخيفة مقفرة .

ونحن المسلمين أصحاب عقيدة تصلنا بالله تعالى، الذي بيده ملكوت السموات والأرض ، ومن هذه الصلة نستمد القوة المعنوية الدافعة ، التي تبدد سحب المخاوف ، وتقضي على عوامل اليأس ، وتبعث فينا روح الأمل الباسم المشرق من خلال البلاء والمحن «أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون!» «ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين » إنه لا بد للحركة الإسلامية من أن تجمع شتاتها ، وتحكم خطتها ، وتستفيد من طاقات أبنائها ، وتدأب على الكفاح المرير في خطة مدروسة محكمة .

ولن تغني عواطف الجماهير المسلمة شيئاً ما دامت ساذجة مخدّرة حتى تتحول هذه العواطف إلى فهم ، ويتحول الفهم إلى وعي ، ويتحول الوعي إلى تنظيم ، ويتحول التنظيم إلى جهاد . ولهذه المراحل منهاجها التربوي ، وسبيلها العلمي وصفّها المتراص «إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص» وفي وعد الله للمؤمنين العاملين ما يستنهض الهمم ويحفز العزائم ، ويستنفر قوى الإيمان للبذل والفداء « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدّلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً » .

مختارات من آثاره :

وعند الإجابة على هـذه الفقرة لم يعرض الشيخ لذكر الشعر . ولعل ذلك عائد إلى أنه لم يحاول ممارسته ، أو لم يجد فرصة لها ، لانصرافه مبكراً إلى الفكر العملي . وقد تفضل فاختار لنا المقاطع التالية من كتابه « الدعوة إلى الإسلام » .

يقول فضيلته : « وتفاوت الناس ، واختلاف طبائعهم وتباين أمزجتهم من الأمور التي يجب مراعاتها في الدعوة ، لتجد مسلكاً إلى القلوب يخالط شغافها

ويروي ظمأها ، وينمّي فيها عوامل الخير ويعصمها من مزالق الشر .

ولكل مجتمع آلامه وآماله التي تنبعث من صميم بيئته فهو يتطلع إلى مبضع يبرىء سقمه في لطف ويعيد إليه عافيته ، وما لم تلمس موعظة الداعية حقائق مشكلاته بسبر أغوارها وتشخيص علاجها صمّت آذانه عن الاستماع إليها . ولكل عصر مشكلاته التي تتجدد معه بتجدد الحياة وأفكارها ونظرة العقل البشري إليها، فالذي يخاطب عصره بمشكلات عصر آبائه وأجداده أو معضلات بيئة غير بيئته كالذي يصيح في واد ، أو ينفخ في رماد – والناس يحدث لهم من الأقضيات بقدر ما يستحدث من مبادىء وعقائد ومذاهب وأعمال ، وكان الإمام الشافعي رضي الله عنه يفتي في مصر بما لم يفت به في العراق ، حتى أصبحنا نقرأ في مذهبه : قال الإمام الشافعي في القديم ، وقال الإمام الشافعي في الحديث .

وقد عرّف أهل اللغة البلاغة بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال وقالوا : لكل مقام مقال ، ولهذا كان من الواجب على الداعية في منهج دعوته أن يراعي اختلاف المقام ومقتضيات الأحوال ، وإذا كان السابقون قد وقفوا في هذا عند اختلاف أضرب الخبر في التجريد والتوكيد ومواضع الإيجاز والإطناب والمساواة ، فإنه في منهج الداعية يتجاوز هـــذا إلى الإلمام بالعلوم النفسية والدراسات الاجتماعية ، حتى تأتي موعظته بليغة في كل موقف من مواقفه تتحسس النفوس ، وتتعرف مداخلها . وقد أشار القرآن الكريم إلى مراعاة هذا مع طبقات الناس من العالم الذي يتطلب الحكمة بالبرهان ، والعامي الذي تكفيه الكلمة العاطفية المثيرة المؤثرة ، إلى المجادل الذي يرفض الحق بالمكابرة ، يقول تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » (النحل : ١٢٥) وقد أصبح الصراع الفكري محتدماً في العالم المعاصر ولكل مبدأ شيعته بل دولته التي تتبناه وتدعو إليه ، وتنفق ببذخ في سبيل ذيوعــه ، وتطورت وسائل الإعلام وتمايزت بدراسة عالية خاصة ، واستطاع

أصحاب المبادىء أن يبثوها مطعمة في الأدب بالقصة والمقالة والقريض والفكاهة ، وفي التأليف بالكتاب العلمي والكتاب الروائي والرسالة الموجزة والبحث العميق ، وفي التمثيل على خشبة المسرح ، وفي التربية بأناشيد الناشئة وصفوف الدراسة ، وفي التوجيه الفكري بالبعثات العلمية والإرساليات التبشيرية . والدعوة الإسلامية تواجه هذا السبيل الفكري المتدفق بأمواجه العارمة فلا بد لها من تعبئة ترفعها إلى هذا المسترى ، مستندة إلى أحقيتها في الحياة ، وتكامل عناصرها للنهوض بالإنسانية ، كي تؤتي ثمارها بإذن الله . وإذا لم تتوافر لها تلك التعبئة فهيهات أن نبلغ بأمتنا إلى أملها المنشود في العزة والسؤدد والحضارة والمجد . وتاريخ الدعوة إلى الله في حياة الرسل يبين لنا منهجها السديد ، من رقة التعبير ، وإشراقة الديباجة ، وحسن العرض ، ولحن الخطاب ، وجميل الملاطفة . فقد تتابع على لسان نوح وهود وصالح من خطاب قومهم لتبليغ الدعوة : « إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون » (الشعراء ١٠٥) « إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون » (الشعراء ١٤١) ويستميلهم لوط بقوله : « ألا تتقون إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين » (الشعراء ١٦٠ - ١٦٣) . ويسترضيهم شعيب بالحسنى : « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت » (هود ٨٨) . وفي ملاينة موسى وهارون لطغيان فرعون رجاء تذكرته ، سبيل الدعوة السوي ، يقول تعالى : « اذهبا إلى فرعون إنه طغى . فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى » (طه : ٤٢ - ٤٣) . ويبين الله سبحانه وتعالى أثر هذا اللين لدى رسولنا ﷺ في التفاف القلوب حول رسالته فيقول : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » (آل عمران ١٥٩) . وأي أدب ألين عاطفة وعريكة من حكاية القرآن الكريم عنه في خطاب المشركين : « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين » (سبأ ٢٣) . فمتى يسمو منهج الدعوة إلى الإسلام في عصرنا الحاضر إلى ذلك المستوى الرفيع ؟ قل عسى أن يكون قريباً » .

٢٠

الدكتور يوسف القرضاوي

إنه يوسف عبد الله القرضاوي ، ويعرف في الأوساط الإسلامية والعلمية باسمه المختصر (يوسف القرضاوي) ويكنى أبا محمد بأكبر أبنائه متعه الله بصلاحهم ومتعهم بفضله .

ويحدد السجل الرسمي مولده بالتاسع من الشهر التاسع من عام ستة وعشرين وتسعمئة وألف للميلاد ، أي قبل خمسين سنة من كتابة هذه الأسطر ، وكانت ولادته في قرية (صفط تراب) من توابع المحلة الكبرى من أعمال المحافظة الغربية من القطر المصري ، ويصف الشيخ قريته هذه بأنها عريقة في القدم وقد شرفت بقبر آخر صحابي توفي في مصر ، هو عبد الله بن الحارث بن جَزء الزبيدي رضي الله عنه ، ويؤكد ذلك بما نص عليه ثقات المؤرخين كابن حجر في أخبار ذلك الصحابي الجليل .

ويصف أسرته كذلك بأنها متدينة رقيقة الحال ، يشتغل أفرادها من جهة أبيه بالزراعة إلى جانب بعض الحرف ، ومن جهة أمه يعملون بالتجارة ، وقد شاء الله أن يستأثر بوالده الذي لم ينجب سواه ، وهو في الثانية من سنيه ، ولكنه عوضه عن الوالد بعم كريم تولى كفالته ، وأحاطه من الرعاية بما يفتقد لدى الكثير من الآباء ، ووجد في أبناء هذا العم الفاضل خير ما يلقاه أخ

من أخوته البررة ، فنشأ في هذا الجو الصالح يعتبر العم أباً وأبناء العم إخوة ، وقد اتسعت دائرة هذا العطف حوله حتى كان موضع الرعاية من سائر أقاربه ، وفي ذلك يقول الشيخ : كأن هذا كان تعويضاً من القدر عن يتمي المبكر .

وفي الخامسة من عمره ألحق بأحد كتاتيب القرية الأربعة ليحفظ القرآن العظيم كما حفظه عمه من قبل ، حتى إذا وافته السابعة أدخل المدرسة الإلزامية التابعة لوزارة المعارف ليتلقى فيها المعارف العصرية : كالحساب ، والتقويم ، والتاريخ ، والصحة ، والأشياء ، فكان يجمع بين الكتّاب والمدرسة ، هذا في نوبة الصباح وتلك في نوبة المساء .

يقول الدكتور: « وقبل أن أبلغ العاشرة أكرمني الله فأتممت حفظ القرآن الكريم حفظاً لا أكاد أضيع منه حرفاً مع الإلمام بأحكام التجويد ، وإن أنس لا أنسَ ذلك الحفل المتواضع الذي أقيم لي كالعادة في الكتاب ، حيث وزعت الحلوى والشربات وأطلقت الزغاريد ، وقرأت فيه آخر لوح من الصحف كتبته بيدي من سورة « الضحى » إلى سورة « الناس » كنت أتلو كل سورة ثم أهلل بعدها وأكبر: لا إله إلا الله ، والله أكبر، ولله الحمد . والتلاميذ يكبرون معي، فكان حفلاً بهيجاً يتطلع إليه كل تلميذ في الكُتّاب .

ويتابع الشيخ قائلاً:«ومن يومها أصبحت في نظر أهل قريتي(الشيخ يوسف) وبسبب ما منّ الله به عليّ من حسن التلاوة كثيراً ما كانوا يقدمونني لأؤمهم في الصلاة وبخاصة الصلاة الجهرية . وهذا التشييخ المبكر حرمني فرص اللعب (الشقاوة) التي يستمتع بها أقراني من الصبية . وقبل المضي في تتبع الإجابات أجدني مشدوداً إلى النظر من هذه المنافذ التي تفتحها لي ذكريات الصديق .

إننا ههنا تلقاء صور حية من بقايا الحياة الإسلامية في هذه البقعة من الريف المصري . ففي قريته(صفط تراب) قبر صحابي، ولا بد أن يكون لهذا الصحابي موحياته العميقة في نفوس سكانها ، ولعل من ذلك إقبالهم على حفظ القرآن وتلاوته ، إذ كانت كتاتيبهم الأربعة كما يقول الشيخ تتنافس في تحفيظ القرآن ،

الذي اشتهرت به القرية ، كما اشتهرت بعدد من علماء الأزهر من أبنائها الذين هم موضع التجلة والاحترام من المجتمع كله .

ومجرد التنافس على تحفيظ القرآن دليل على أن الطابع الذي يسود القرية مستمد من هذه الروح، وأن التنافس على حفظه والتحقق بمعانيه هو الغالب على ذلك الجو ، وأنا لا أستطيع الفصل بين ذلك الجو وما يذكر الشيخ لبيت عمه من الخصائص الخلقية العالية ، فالوسط إذن إسلامي يحمل في ثناياه عبير الحب والتعاون والصفاء، وليست حفلة ختم القرآن وما اشتملت عليه من ألوان البهجة الروحية ، والفيض الشعوري ، إلا توكيداً لهذه المعاني التي كاد العالم الإسلامي ينقطع عنها نهائياً .

إنها لصور حبيبة من ذلك الماضي ، الذي كان العلم فيه مطلباً مقدساً لكل بيت مسلم .. يبدأ بحفظ كتاب الله واتقان قراءته ، ثم ينطلق في طريق الوحي ليشيع النور والخير والودّ الخالص في كل جانب من حياة الناس . فلا عجب إن استقبل ذلك الحفظ بمثل تلك الأحفال ، التي ترفع القلوب إلى هذه الآفاق ، وتثير التنافس الكريم على الفوز بأكبر حظ من روائها .

وأي نعمة أسعد من رؤية طفل في العاشرة من عمره ، قد طوى جوانحه على الكتاب الذي غيّر معالم التاريخ البشري ، وقدم إلى الإنسانية الضائعة الحضارة التي أضاءت ظلمات الأرض ، فأبصرت في نورها ما لم تحلم به قط من بواعث الأمن والطمأنينة والحرية والتقدم العقلي .

أجل.. لقد كان احتفال المجتمعات الإسلامية بمثل هذه المناسبات حتى الأمس القريب تعبيراً عفوياً عن إيمانهم بهذه الحقيقة ، حتى تسللت إلى هذه المجتمعات مفهومات الحضارات الوثنية ، فإذا هم يتجردون اليوم من هذه المشاعر شيئاً بعد شيء ، إذ أصبح العلم عندهم مجرد شهادات تؤهل أبناءهم للحصول على مغانم الدنيا ، ولو على أشلاء القيم التي ميز الله بها الجنس الآدمي .

والتفت معي إلى منظر ذلك الشيخ الصغير يقوم بإمامة المصلين، وقد آثروه بذلك تقديراً للكتاب الذي أوتمن عليه ، وتأثراً بما يتقن من تلاوته ، وما يزين هذه التلاوة من نغمة توجه المشاعر الخاشعة إلى مضامين الآيات الإلهية . ومن هنا من هذه الإيحاءات البالغة جاءت الحصانة التي أحاطت هـذا الصغير بجلال الشيوخ ، فحالت بينه وبين (الشقاوة) التي تستهوي أقرانه ممن لم يتح لهم مثل جوّه الوقور .

ولقد حدثنا أكثر من واحد من معارف الشيخ عن متعتهم بصلاة التراويح وراءه في قطر ، فإذا هو في الخمسين امتداد طبيعي لذلك الشيخ الأثير وهو في العاشرة من عمره الميمون ، ويشاء الله أن يحفظ على الشيخ خصائص هـــذه النشأة ، فتستمر خطـاه في الاتجاه نفسه ، لا يفارق سبيل القرآن الذي حمل أمانته منذ طفولته ، على الرغم من كل الأحداث التي واجهته والثقافات المختلفة التي واجهها .

إلى الازهر :

وفي أعقاب تخرجه في المدرسة الإلزامية ، بعد حفظ القرآن ، كان لا بد له وعلى الأصح لآله من أن يختاروا له الطريق الذي سيسلكه من الحياة .

أما هو فلم يكن أحب إليه من متابعة المسلك العلمي الذي اجتاز مرحلته الأولى، وراح يتطلع إلى ما وراءها ، وقد شاقه ما تحقق للمشايخ المرموقين أبناء قريته من مستوى أهّلهم لاحترام الناس، فودّ لو يتاح له مثل سبيلهم إلى الأزهر. إلا أن عمه لم يكن على مثل رأيه ، فهو على الرغم من حبه للعلم ، وحرصه على تشجيع ربيبه الذكي ، لا يرى ذلك من مصلحته لأن طريق العلم طويل طويل ، ومع طوله لا يضمن لصاحبه العيش المنشود ، هذا فضلاً عن أن انصرافه إلى طلب العلم يتطلب من النفقة ما تضيق عنه قدرتهم ، ولهذا حاول إقناعه بتعلم حرفة توفر له وسائل العيش من أقرب طريق . غير أن رغبة الفتى كانت أقوى من حجة عمه، فما زال يحاوره في ذلك، ويسهل له الأمر بما يظهر من استعداده

للاكتفاء بأقل القليل من النفقة ، حتى انشرح صدر عمــه لتحقيق أمنيته ، وساعده في ذلك أبناء عمه الذين أعلنوا استعدادهم للتضحية بكل شيء في سبيل تعليمه، وكان لوجود ابن عمة له طالباً في الأزهر أثر مشجع على ذلك لأنه سيرعاه هناك ويسكن معه .

وهكذا يسّر الله لهذا اليتيم الاندماج التام في جو العلم، فالتحق أولاً بمعهد طنطا الديني الابتدائي حيث قضى أربع سنوات ، انتقل بعدها إلى معهدها الثانوي الذي استمر فيه خمس سنوات ، ومن ثم رحل إلى القاهرة للدراسة العالية في الكليات .

وأثناء وجوده في المعهد الابتدائي أصيب بفقد والدته فتمت حلقة يتمه بفقد الأبوين جميعاً .

تفوق مستمر :

كانت دراسته الجامعية في كلية أصول الدين ، وفيها تخرج عام ٥٢ – ٥٣ م وكان ترتيبه الأول على مئة وثمانين، ثم تابع بقسم التخصص في كلية اللغة العربية على نظام السنتين ، فحصل على العالمية مع إجازة التدريس حائزاً المرتبة الأولى على خمسمئة طالب من كليات الأزهر الثلاث ، ثم في العام ١٩٥٧م التحق بمعهد البحوث والدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية ، فحصل منـه على دبلوم عال في شعبة اللغة والآداب .

في هذه الفترة نفسها كان التحاقه بقسم الدراسات العليا في شعبة التفسير والحديث من كلية أصول الدين ، فأتم سنواتها الثلاث بنجاح ١٩٦٠م على الرغم من صعوبة الامتحانات – أيامئذ – التي لم يثبت لها أحد سواه بعد السنة الأولى. ومن ثم شرع في إعداد أطروحته للدكتوراه عن « الزكاة في الإسلام » التي كان مقرراً أن ينتهي منها خلال سنتين ، إلا أن أقداراً غالبة حالت دون رغبته ، وجاءت عهود الأحداث الرهيبة في مصر فأخرت موعد حصوله على الدكتوراه إلى ما بعد ثلاثة عشر عاماً حتى صيف ١٩٧٣ م .

شخصيات لا ينساها :

يقول الشيخ : إن أعظم الشخصيات أثراً في حياتي الفكرية والروحية هي شخصية الشهيد العظيم حسن البنا، مؤسس كبرى الحركات الإسلامية الحديثة.. هذا مع أنني لم أعايشه كما عايشه غيري ، فقد كان رضي الله عنـــه في القاهرة وكنت في طنطا طالباً ، ولكني استمعت إليه في طنطا عدة مرات ، ورحلت وراءه إلى بعض البلاد لأراه وأستمع إليه ، كما قرأت تقريباً كل ما كتبه من رسائل ومقالات » .

ويصف الشيخ انطباعاته عن الإمام البنا فيقول : « كان رحمه الله في حديثه إذا تحدث ، وفي كتاباته إذا كتب، يمثل السهل الممتنع، ويؤثر في العقل والقلب معاً ، فهو معلم وواعظ بالفطرة الموهوبة والدربة المكتسبة جميعاً . أذكر أني استمعت إليه وأنا طالب في السنة الأولى من معهد طنطـا الابتدائي يتحدث بمناسبة الهجرة النبوية ، فوعيت كلامه على صغر سني ، وأكاد أحفظه من ذلك اليوم . كان واسع المعرفة ، غزير المادة ، أخرج مجلة « الشهاب » الشهرية وكان يحرر جلّ أبوابها بقلمه، فهو يكتب في«التفسير» و«العقائد» و«مصطلح الحديث» و « التاريخ الإسلامي » وفي أصول الإسلام كنظام اجتماعي .. كل ذلك بإجادة وأصالة رغم أنه لم يكن متفرغاً للعلم والبحث ، فقد كانت الدعوة ومتطلباتها تستغرق معظم وقته ولذلك كان من وصاياه « الواجبات أكثر من الأوقات ، فعاون غيرك على الانتفاع بوقته » .

إن استرسال الشيخ في الحديث عن أستاذه إنمـا هو صورة حية من إعجابه البالغ بشخصيته ، وشهادة كبيرة على التأثر بموحياتها ، وهو لا يكتفي بالإشارة إلى هذه الشخصية في عبارة جامعة ، بل يمضي في استقصاء خصائصها القيادية من خلال حضورها في ذهنه ، كما لو كان لا يزال يشاهدها ويتتبع ملامحها . لقد تأثر به كاتباً ومحدثاً وعالماً وواعظاً وبليغاً. وانتهى من ذلك إلى تحليل بعض توجيهاته الحكيمة فربط بينها وبين تجاربه الذاتية أحكم ربط .

ويتابع الشيخ حديثه عن الرجـــال الذين أثّروا في توجيهه فيذكر منهم الأستاذ البهي الخولي والشيخ محمد الغزالي ، على اعتبار أنهما من الممثلين لمدرسة الإخوان ، ويقرر جازماً أن تأثره بهذه المدرسة كان أقوى من تأثره بالدراسة الرسمية في الأزهر ومشايخه، على الرغم مما له ولهم من فضل لا ينكر في تكوينه العلمي، ثم يخص بالذكر من الشخصيات الأزهرية المغفور له الدكتور محمد عبدالله دراز ، واصفاً إياه بأنه كان نسيج وحده في غزارة علمه وأصالة تفكيره ، وفصاحة بيانه ، وقوة دينه وخلقه . والذين يعرفون المرحوم الشيخ دراز من خلال كتاباته ، وخاصة « فلسفة الأخلاق في الإسلام » يشاركون الدكتور القرضاوي في إثبات هذه الصفات كلها له ، ولا سيما أصالة التفكير التي مكنته من أن يتقصى مواطن الضعف في كل فلسفة أخلاقية دعا إليها البشر، مبرزاً تفوق الأخلاقية الإسلامية عليها جميعاً ، بالتزامها سبيل الفطرة والسداد الذي لا يعتريه الخطأ . ويعدد من أساتيذه الأزهريين الشيخ الأكبر محمود شلتوت الذي—يقول— كان له به صلة خاصة قبل أن يتولى مشيخة الأزهر وأثناءها ، وكذلك أستاذه الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الحالي ، فقد درّسه الفلسفة الإسلامية في كلية أصول الدين ، واستمرت صلاته به ولقاءاته إياه فيما بعد » .

ويستدرك الشيخ ليصرفنا عن الظن بتقليده من يعجب بهم فيقول : « من فضل الله عليّ أن إعجابي بشخص ما لم يجعلني أحاول تقليده ، أو تقمص شخصيته فأنا — ولله الحمد — لست نسخة من أحد سبقني ، بل قد تكون لي مآخذ فكرية أو سلوكية على بعض الشخصيات التي أحببتها أو أعجبت بها ، ولم يحل هذا بيني وبين الانتفاع بها » .

والشواهد التي تؤكد براءة صديقنا الفاضل من تقليد الأفاضل بارزة ملموسة في معظم كتاباته وبخاصة مؤلفاته الأخيرة ، التي يبدو فيها منقباً مجتهداً مبدعاً ولو خالف المشهور من آراء الرجال .

ويعرج في هذه الإجابة على بعض الشخصيات التي لم يلقها ، وكان لها عميق الأثر في وجوده ، فمنهم السيد محمد رشيد رضا الذي أعجبه فيه سعة الأفق في فهم الإسلام وفهم العصر الذي يعيش فيه ، وتجرده من العصبية والتقليد ، وحرصه على الرجوع إلى الكتاب والسنّة والاهتداء بمنهج السلف .

ثم يقول : « كنت مطلع حياتي من المعجبين بالإمام أبي حامد الغزالي ، إذ كان « إحياؤه » من أوائل الكتب التي قرأتها في صغري ، ثم قدر لي فيما بعد أن أطلع على بعض تراث شيخ الإسلام ابن تيمية فتحول إعجابي إليه ، وملك عليّ عقلي ونفسي ، وأصبح هو الشخصية الفكرية الأولى بنظري ، وكلما ازددت قراءة له وتعمقاً في كتاباته ازددت له إعجاباً وحباً ، ويأتي بعده تلميذه المحقق الإمام ابن القيم رحمهما الله ورضي عنهما ، ولكن لا يمنعني إعجابي الشديد بهما أن أخالفهما في بعض المسائل كما خالفا هما من قبلهما » .

وهكذا تتكامل إجابة الشيخ حفظه الله عن الرجال الذين تركوا أثرهم في توجيهه فإذا هم من قمم العلم الإسلامي ، وإن تفاوتت طرائقهم في خدمة الفكر والمجتمع الإسلاميين ، وقد أتاحت له صحبتهم وتتبع آثارهم أن يكون أكثر تحرراً في ما يأخذ ويذر ، فيتم بذلك انتفاعه بمختلف المدارس الفكرية التي عرفتها حضارة الإسلام .

وهنا لا يحسن بنا أن نغفل تلك المؤثرات الروحية والتربوية التي أفادها من نشأته الأولى في تلك القرية المتنافسة في تحفيظ القرآن ، ومن ذلك البيت الذي أظله بالرعاية التي لا يعرف الناس لها مثيلاً إلا في ظل الخلق الإسلامي الأصيل .

ولعمر الحق إن توافر هذه العناصر من حقها أن تأخذ بيد الإنسان إلى الجادة الراشدة ، ولا سيما إذا توافرت لهذا الإنسان الفطرة السليمة والموهبة المتأهبة للتفاعل مع عوامل الخير .

العلوم التي يؤثر :

يقول الدكتور : « الحقيقة إني أحب كل العلوم الإسلامية وما يخدمها من العلوم الأخرى ولهذا أحببت علوم العربية لأن اللغة العربية لسان الإسلام ووعاؤه ، وإجادتها شرط لفهم القرآن والسنّة والاجتهاد والاستنباط منها . ولقد وقفت في حياتي الدراسية مرتين لاختيار ما أتخصص فيه . أولاهما : بعد الشهادة الثانوية لاختيار أي الكليات أدخلها ، وكان الكثيرون ينصحونني بدخول كلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول (القاهرة فيما بعد) أو كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر ، بسبب ما عرفت به من قدرة في علوم العربية (نحو وصرف وبلاغة) وما عرف بي من اتجاه للأدب وإنشاء للشعر من عهد مبكر. ولكنني شخصياً آثرت كلية أصول الدين لأن علومها كانت أحب إلى نفسي ، ولأني درست في المرحلتين الابتدائية والثانوية بالأزهر من علوم العربية ما يكفيني لأواصل بعد ذلك وحدي . أما أصول الدين فهي كلية التفسير والحديث والعقائد والفلسفة والأخلاق والتاريخ الإسلامي ، وهذه موارد لا بد منها لتكوين العقلية الإسلامية فدخلتها على بركة الله وتخرجت فيها .

والوقفة الثانية ، بعد فتح قسم الدراسات العليا بكلية أصول الدين ١٩٥٧ م وقد كان فيه شعبتان : شعبة للتفسير والحديث وعلوم القرآن والسنّة ، وشعبة للعقيدة والفلسفة . وكان لكل منهما مزية عندي ، فمزية الأولى ظاهرة ، ومزية الثانية أنها وسيلة لمتابعة الفكر العالمي ، والفلسفات المعاصرة وجذورها في تاريخ الفكر ، والرد على أخطائها من وجهة النظر الإسلامية . وقد كنت حائزاً لشروط كلتا الشعبتين ، وإن كان مجموعي في علوم العقيدة والفلسفة أكبر نسبياً . وقد وقفت متردداً في الاختيار حتى لقيت أستاذي المرحوم الدكتور محمد يوسف موسى ، الذي شجعني على دخول شعبة التفسير والحديث وقال عن نفسه : «لقد كنت أستاذاً للفلسفة ثم انتهيت الآن إلى الشريعة ، فالشريعة هي الأساس

والغاية ، وعندك من الدراسات الفلسفية ما تستطيع أن تتابع بـــه الاطلاع والقراءة الحرة » .

وأنا الآن أقرأ في كل العلوم الإسلامية تفسيراً وحديثاً وفقهاً وأصولاً ، وتوحيداً وتاريخاً، وتصوفاً وأخلاقاً، وقد ظن بعض الناس – لاشتغالي بالنواحي الفقهية والأصولية – أنني خريج كلية الشريعة ، والواقع أنني ابن أصول الدين ، ولكن نزعة التحرر من التقليد والعصبية جعلتني أهتم بفقه الكتاب والسنة ، وأعنى بالمقارنة بين الأقوال والمذاهب ، وأرجع إلى أصول الأدلة ، وبخاصة أني اشتغلت بالفتوى من زمن غير قليل تحريراً ومشافهة [1] .

كما أني لا أقف في اطلاعي عند العلوم الإسلامية الخالصة ، فأنا حريص على أن آخذ بحظ في الاطلاع على الأدب والتاريخ والفلسفة والتربية وعلم النفس والاجتماع والاقتصاد ، ونحوها من العلوم الإنسانية ، ومكتبتي الخاصة تحتوي مراجع لكل هذه العلوم ، ولكنني أقرأها بحذر ، لأني أعلم أن الغزو الفكري قد أنشب فيها أظافره ، وهي – في اتجاهاتها الغالبة – غريبة المنزع والوجهة والصبغة ، هذا إلى اهتمامي بالقراءة في كتب الأديان والنحل المخالفة للإسلام ، والمذاهب العقائدية المعاصرة ، أو بما كتب عنها من جهة ناقديها . فهذا كله لازم لتكوين العالم المسلم المعاصر »

علوم وسموم :

لقد وجهنا النظر في مطالع هذه الترجمة إلى البذور الأولى في تربية هـــذه النفس ، ولاحظنا مراحل تكوينها العلمي الذي يشير بأجلى بيـانه إلى الاتجاه الذي انتهت إليه ، ولهذا لا نرى حاجة للتعقيب على ما حدده الشيخ حفظه الله من نوعية العلوم التي آثرها . إلا أن في عباراته الأخيرة مؤشرات ليست خاصة به وحده، بل هي محرضات لكل طالب علم إسلامي ألا يفصل نفسه عن عصره،

---

(١) بينت منهجي في الفتوى بتفصيل في مقدمة كتابي «هدى الإسلام» وهو تحت الطبع الآن.

ولا يحرم عقله الاتصال بما وراء معلوماته الإسلامية من منازع واتجاهات ، قد يكون في جهلها خطر كبير على أهل الإسلام وعلى الفكر الإسلامي .

بيد أن الاتصال بهذه المشارب الدخيلة يقتضي من المسلم أول كل شيء أن يكون على حصانة كافية من السموم التي تنطوي عليها . ونظرة عميقة إلى الفرق الإسلامية الزائفة تكشف لصاحبها تلك الحقيقة الكبيرة، وهي أن اقتحام هذه الميادين دون زاد من الحصانة الإسلامية هو الذي مكن لها من قلوب المخدوعين، وأن التاريخ – ويا للأسف – ليعيد نفسه هذه الأيام ، عن طريق الجيل الذي ألقي به في متاهات الغرب والشرق خالي الذهن والقلب من كل أثر لحقائق الإسلام .

أحداث عاصرها :

ويحدثنا الصديق عن أهم الأحداث التي عاصرها قائلاً :

« لقد قدّر الله لجيلنا أن يعاصر أحداثاً في غاية من العظم والأهمية . أما على المستوى المحلي والعالمي، فأولها : الحرب العالمية الثانية ، وما تركت من آثار في حياة الناس المادية والفكرية والأخلاقية، وما صحبها وتبعها في مصر والعالم العربي من يقظة ووثبة لطرد الاستعمار ، وبخاصة الاستعمار الإنجليزي في مصر ، وكذلك وضوح الخطر الإسرائيلي على فلسطين والبلاد العربية حتى تجسد في قيام إسرائيل. ودخول الجيوش العربية حرب فلسطين سنة ١٩٤٨م، ووقوع النكبة الأولى ، التي كانت نذيراً بسقوط الاتجاه اليميني الليبرالي الرأسمالي الديموقراطي بما وراءه من التراخي والتحلل والموالاة للغرب . ليحل محله الاتجاه الثوري الاشتراكي اليساري ، بلوازمه من الطغيان والإرهاب وكبت الحريات والولاء الدولي للشيوعية .

وقد انتهى هذا الاتجاه بنكبة ١٩٦٧م التي احتلت إسرائيل فيها ما بين

القنطرة والقنيطرة وسقوط القدس والمسجد الأقصى في يد اليهود ، كما فصلت ذلك في كتابي « الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا » .

وفي الحقيقة لم أكن في عزلة عن هذه الأحداث ، فقد شاركت فيها – منذ كنت طالباً في الابتدائي – بقلبي وأعصابي وعقلي ولساني، أنظم القصائد وألقي الخطب وأحرّض جماهير الطلاب ، وأشترك في قيادة التظاهرات ، وأتعرض لعصي الشرطة والمبيت في أقسام البوليس .

مع الإخوان :

ولعل الشيء الذي جعلني على صلة عميقة وحيّة ومباشرة بأحداث بلدي وقضايا وطني العربي والإسلامي هو : الاتصال المبكر بحركة الإخوان المسلمين ، فقد نقلتني من جو الشعر والأدب ، الذي كان هوايتي ، إلى جو الدعوة العامة ، ومن طريق الوعظ العام والدعوة والتدين الفردي ، إلى أفق الحركة الايجابية الشاملة ، التي تعمل على خلق تيار إسلامي عام وتكوين جيل يفهم الإسلام فهماً صحيحاً ويؤمن به ويجاهد في سبيله . وأزالت الحاجز الذي كان قائماً بين ذوي الثقافة الإسلامية ، ممن تعلموا في الأزهر والمعاهد الدينية ، وبين المثقفين ثقافة حديثة ممن تعلموا في المدارس العامة والجامعات المدنية .

وقد أدى انتمائي إلى دعوة الإخوان المسلمين إلى اعتقالي عدة مرات. أولها: اعتقالي سنة ١٩٤٩م نحو عشرة أشهر في عهد الملك فاروق ، وقد كنت طالباً في السنة الخامسة الثانوية . وقد ضاع عليّ امتحان الدور الأول للشهادة الثانوية ثم شاء الله أن أدرك الدور الثاني بعد الافراج عني عقب سقوط وزارة إبراهيم عبد الهادي ، وكان من إكرام الله وتعويضه لي أن حصلت على الترتيب الثاني بين الناجحين في الدورين من طلاب المعاهد الثانوية الأزهرية على مستوى القطر المصري، ثم كان اعتقالي في ٢ يناير ١٩٥٤م لمدة شهرين ونصف في عهد الثورة ، ثم في نوفمبر ١٩٥٤م ولمدة عشرين شهراً تقريباً ، ثم في يونيو ١٩٦٢ م نحو

خمسين يوماً قضيتها في سجن انفرادي في مبنى مخابرات الثورة ، وكان بجواري الأخ الداعية صديق العمر ورفيق السراء والضراء الدكتور أحمد العسّال . فقد اعتقلنا في وقت واحد ، وأفرج عنا معاً .

وقد كان من ثمرات هذا الاتصال أن :

صححت فهمي للإسلام ورسالته في الحياة ، وواجب دعاته في هـذا العصر نحو وطنهم الصغير ، ووطنهم الإسلامي الكبير .

وأصبحت مهتماً بأمر المسلمين جميعاً ، وبقضايا الإسلام الكبرى ، وبمؤامرات أعداء الإسلام ، ووسائلهم في الغزو والتدمير .

وحددت هدفي من الحياة ورسالتي فيها ، وهي الدعوة إلى الإسلام كله عقيدة وشريعة وديناً ودولة وحضارة وأمة ، ولا يعني هذا أني من المتعصبين للحركة على العمياء ، فلي على مسيرها ملاحظات سجلتها في كتابي « الحل الإسلامي فريضة وضرورة » ولكن الدعوة ذاتها لا غبار عليها .

وقد كان حل الإخوان المسلمين سنة ١٩٥٤م كما كان حظر النشاط العلني للدعوة دافعاً لي إلى تغيير محور نشاطي ، فقد منعت من العمل في التدريس والوعظ فدفعني هذا إلى التفرغ للبحث العلمي والكتابة .

محن فيها منح :

ففي سني الدعوة العلنية لم أكن أجد وقتاً كافياً للكتابة المركزة .

فلما منعت من هذا ، كان المنع منحة في صورة محنة ، فاتجهت إلى البحث والتأليف . فكان باكورة هذا الاتجاه هو كتاب « الحلال والحرام في الإسلام » سنة ١٩٦٠ م .

كما أن بقائي في المعتقل نحو عشرين شهراً بين عدد كبير من الإخوان في شتى المستويات أطلعني على أن هناك قصوراً في مجـال العلم الإسلامي والفقه الناضج

للإسلام . وأن كثيراً من القضايا يختلط فيها الخطأ بالصواب ، واليقين بالظن ، ولا بد من تحقيقها وتمحيصها . وهذا يحتاج إلى دراسة علمية وافية ، فلا بد من توجيه الوقت والجهد إليها ، وعلى هذا نويت وعقدت العزم ، متوكلا على الله .

في خدمة الدعوة :

وعن نشاط الدكتور في خدمة الإسلام يقدم إلينا الصور التالية :

أ ـ في المجال الجامعي حيث أعمل أستاذاً ورئيساً لقسم الدراسات الإسلامية بكلية التربية في قطر ، وذلك بعد أن عملت اثنتي عشرة سنة مديراً لمعهد قطر الديني الثانوي ، فأرسيت ـ ولله الحمد ـ بنيانه على قواعد جعلته نسيج وحده ، وأصبح مثـــلاً يحتذى ، في الجمع بين القديم والحديث، وتقريب علوم الدين والعربية وتيسيرها ، إلى جوار علوم العصر بحيث لا يحتاج إلى سنين اكثر من سني التعليم العام .

ب ـ في الميدان الشعبي ، عن طريق الخطابة والوعظ وإلقاء الدروس بالمساجد .

جـ ـ في المجـــال الإعلامي ، عن طريق البرامج التي أقدمها في الإذاعة والتلفزيون ، ومنها برنامج أسبوعي لمدة نصف ساعة في إذاعة قطر للرد على رسائل المواطنين واستفتاءاتهم، ومثله في التليفزيون ، وذلك بعد إنشاء الإذاعة والتليفزيون القطريين . هذا عدا برامج توجيهية أخرى أقدمها بين حين وآخر ، وبخاصة في شهر رمضان .

د ـ المحاضرات التي ادعى لإلقائها بتكليف من الجامعات والجمعيات والأندية والمؤسسات الثقافية وغيرهـــا في بلاد العرب والإسلام ، وأحياناً خارج العالم الإسلامي .

هـ ـ المشاركة في المؤتمرات والندوات الإسلامية العلمية في البلاد الإسلامية وغيرها مثل ندوة التشريع الإسلامي في ليبيا ، والمؤتمر التاريخي

الأول في بيروت ، والمهرجان التعليمي لندوة العلماء بالهند ، والمؤتمر العالمي الأول للاقتصاد الإسلامي بمكة المكرمة ، ومؤتمر الفقه الإسلامي بالرياض ، ومؤتمر الدعوة والدعاة بالمدينة المنورة ، ومؤتمر اتحاد الطلاب المسلمين في الولايات المتحدة وكندا وغيرها .

و ـ كتابة المقالات والبحوث في المجلات الإسلامية ، التي تصدر في أنحاء شتى من عالمنا الإسلامي .

ز ـ تأليفاً لكتب في مختلف مجالات الثقافة الإسلامية .

ونحن نقول: إن الذي يعرفه المسلمون عن خدمات الأستاذ القرضاوي للإسلام أوسع من أن تحصره أسطر كهذه ، بل لعل بين القراء من يعرف عن جوانب هذا النشاط ما لا يذكره هو نفسه عن نفسه . ومع ذلك فهو يقول : إني والله مقصر في حق ديني وأمتي ، وأسأله تعالى أن يغفر لي ما مضى ، ويصلح لي ما بقي .

نشاطه في التأليف :

كانت أول محاولة للتأليف عندي مسرحية شعرية عنوانها «يوسف الصدّيق» ترسمت فيها خطى أمير الشعراء أحمد شوقي في «مجنون ليلى» و«مصرع كليوبترا». وكنت وقتها طالباً بالسنة الأولى في المرحلة الثانوية (نظام السنوات الخمس) بالأزهر ، وكان الغالب على تلك المرحلة الأدب والشعر ، ثم شغلت بالخطابة والأحاديث والتنقل بين البلاد في قرى مصر ومدنها من الإسكندرية ودمياط إلى أسوان ، فكان سلاحي هو اللسان ، وقلما أستخدم القلم إلا في كتابة الأفكار والعناصر الرئيسية للموضوعات التي أتحدث فيها ، أعني إني كنت أكتب لنفسي فقط .

وفي أوائل الخمسينات حاولت أن أقهر الواقع الذي يستغرق وقتي ويعتصرني

اعتصاراً ، فكتبت بعض الرسائل لأدفع بها إلى المطبعة .. كان منها رسالة بعنوان « قطوف دانية من الكتاب والسنّة » وقد طبعت مرتين .

ثم أخرى بعنوان « رسالتك أيها المسلم » وقد دفعت بها إلى المطبعة ودفعتها المطبعة بالتالي إلى الرقابة في أواخر سنة ١٩٥٣م ، فرفضتها الرقابة ، ولم تردّها إليّ ، للأسف، ولم يكن عندي نسخة أخرى، وصدر قرار حل جماعة الإخوان المسلمين في يناير ١٩٥٤م فضاعت هذه الرسالة إلى اليوم . ومما ضاع في هذه المحنة أجزاء من كتاب سميته « نفحات الحكمة » كان مجموعة خطب منبرية سجلها بقلمه أحد إخواني ، ونقّحت بعضها ، ولم يظهر هذا الكتاب إلى الوجود .

ورسالة أخرى دفعت بها إلى المطبعة في ذلك الوقت ثم حدثت الظروف السابقة فاستعيدت من المطبعة قبل أن تضيع ، وعنوانها « رسالتكم يا شباب الأزهر » وهي عندي لم تنشر حتى اليوم .

أما عنصر التأليف الحقيقي فبدأ بعد أن خرجت من المعتقل سنة ١٩٥٦م ، حين حرمت عليّ حكومة الثورة أن أتصل بالجماهير عن طريق الخطابة أو التدريس ، فلم أجد أمامي إلا القلم أخاطب به الناس في صورة مقالات في مجلة « منبر الإسلام » و « مجلة الأزهر » وفي صورة كتب كان أولها « الحلال والحرام في الإسلام » .

وقد ظهر لي حتى الآن في عالم النشر أحد عشر كتاباً ، هي :

«الحلال والحرام في الإسلام» ، «العبادة في الإسلام» ، «مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام» ، «الناس والحق» ، «الإيمان والحياة» ، «فقه الزكاة» ، «عالم وطاغية» ، «درس النكبة الثانية» ، «شريعة الإسلام» ، «الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا » ، « الحل الإسلامي فريضة وضرورة » .

وقد اشتركت في تأليف أكثر من عشرين كتاباً مدرسياً لوزارة التربية في قطر مقررة في مدارسها .

وتحت الطبع عندي عدة كتب ، منها :

«شبهات المرتابين والمشككين في الحل الإسلامي» ، «أعداء الحل الإسلامي» ، «الصبر في القرآن» ، « غير المسلمين في المجتمع الإسلامي» ، « الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد» ، «هدى الإسلام» (مجموعة فتاوى وردود على أسئلة دينية) ، « الخصائص العامة للإسلام » ، «قضية التكفير بين الغلو والتقصير» ، «معـالم الاقتصاد الإسلامي » .

آثر كتبه عنده :

أما أي هذه المؤلفات أحب إليّ ، فإن كتب المؤلف أشبه بأولاده ، يصعب عليه أن يقول : هذا أحب إليّ من هذا ، وكلهم بضعة منه ، وإن كان لا بـد من الإجابة ، فأحبها إليّ اثنان «الحلال والحرام» لأنه أول كتاب حقيقي أدخل بـه عالم التأليف ، وإن كنت نشرت قبل ذلك رسالة سميتها « قطوف دانية من الكتاب والسنة » في أوائل الخمسينات ، كما نشرت مسرحية شعريـة في الأربعينات عنوانها « يوسف الصدّيق » كنت فيها مقلداً لشوقي في مسرحياته المعروفة – كما أسلفت – .

وقد بارك الله في هذا الكتاب ، وكتب له القبول في العالم الإسلامي كله ، وطبع بالعربية تسع مرات في القاهرة ودمشق وبيروت (غير الطبعات المسروقة) وترجم إلى أكثر من لغة ، منها التركية التي طبع فيها نحو أربع مرات ، ووزع منه عشرات الألوف. وقام بعض الطلاب في جامعة البنجاب (لاهور–باكستان) بدراسات حوله باللغة الأوردية حصلوا بها على الماجستير . وقال بعض فقهاء العصر (الأستاذ مصطفى الزرقا) إن اقتناءه واجب على كل أسرة مسلمة .

أما الكتاب الثاني فهو «فقه الزكاة» الذي اعتبره علماء الشريعة ، ورجال الاقتصاد على السواء ، فتحاً في بابه. وقال فيه الأستاذ محمد المبارك : «هو موسوعة فقهية في الزكاة ، استوعبت مسائلها القديمة والحديثة وأحكامها النصية والاجتهادية

على جميع المذاهب المدونة المعروفة .. مع ذكر الأدلة ومناقشتها ، وعرض لما حدث من قضايا ومسائل ، مع نظرات تحليلية عميقة ، وهو عمل تنوء بمثله المجامع الفقهية ويعتبر حدثاً هاماً في التأليف الفقهي .

وقد حضرت المؤتمر الأول للاقتصاد الإسلامي بمكة المكرمة (صفر ٩٦ هـ - فبراير ٧٦ م) فلقيني أكثر الحضور يثنون على الكتاب ، ويشكرونني عليه ، والشكر لله والتوفيق به أولاً وآخراً . واقترح بعضهم على المؤتمر أن يتبنى ترجمته إلى اللغات الأخرى .

بقي أن نعلم مصير هذا الاقتراح الذي من شأنه لو تحقق أن يقدم للعالم أكمل صورة عرفها حتى الآن - في رأينا - عن أسلوب الإسلام في بناء العدالة الاجتماعية وتوفير الطمأنينة والحياة الكريمة للإنسانية جميعاً .

نصوص اختارها :

لعل من الصعب أن يختار الكاتب بعض ما كتبه على أنه أحب إليه ، فإن كان ولا بد ، فإني أختار الفقرة التالية من كتابي « شريعة الإسلام » وكان أصله بحثاً ألقيته في « ندوة التشريع الإسلامي » في ليبيا الشقيقة ، إذ قامت فيها حركة لتعديل القوانين الوضعية بما يتفق مع مبادىء الشريعة الإسلامية . وتوهم بعض الناس أن بجرد هذه المحاولة تقيم الإسلام ومجتمع الإسلام على الأرض . وإنما اخترت هذه الفقرة لأنها تمثل الفكرة التي أتبناها في إصلاح المجتمع الإسلامي .

قلت : إن تطبيق الشريعة بحذافيرها وأخذها كلاً لا يتجزأ ضرورة لازمة لا يحل التفريط والتساهل فيها ، وأعني بالشريعة الإسلامية هنا الإسلام كله .. عقائده ، وتصوراته ، وشعائره ، وعباداته ، وأفكاره ، ومشاعره ، وأخلاقه ، وقيمه ، وآدابه ، وتقاليده ، وقوانينه ، وتشريعاته .

فهذه كلها مقومات المجتمع المسلم ، والتشريع - رغم أهميته - ليس إلا واحداً

منها . فلا تظنوا أيها الأخوة أننا بمجرد إصدار تشريعات إسلامية ، قد أقمنا المجتمع المسلم المنشود .

فالتشريعات وحدها لا تصنع أمة ، ما لم يسندها تغيير فكري ونفسي يجعل أبناء الأمة في مستوى تشريعاته الرفيعة ، وفي هذا يقول القرآن الكريم : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

إن علينا – لكي ينجح التشريع الإسلامي في حياتنا الجديدة – أن نهيء له الفرد المسلم ألذي يؤمن بعدالة هذا التشريع ويحتكم إليه راضياً مسلماً ، والقاضي المسلم الذي يؤمن بقدسية هذا التشريع ولا يتلاعب بنصوصه ، طمعاً في دنيا أو اتباعاً لهوى .. والسلطة التنفيذية المسلمة التي تقوم على حراسة هذا التشريع وتطبيقه بلا محاباة ولا مداهنة ولا وهن .

وبعبارة موجزة ، لا بد من إيجاد « الروح الإسلامية » وبناء الشخصية الإسلامية التي يقوم عليها عبء تطبيق الإسلام ، وهذه الشخصية تعني « العقلية الإسلامية » التي تفكر بمنطق الإسلام في الحكم على الأشياء والأحداث والأشخاص والمواقف ، كما تعني « النفسية الإسلامية » التي تكيف تعاملها مع من حولها وما حولها وفقاً لمنهج الإسلام . لا بد إذن أن نعمل على تربية الجيل المسلم الذي يحمل رسالة الإسلام فكرة واضحة في رأسه ، وعقيدة راسخة في قلبه ، وعبادة خالصة لربه ، وعملاً صالحاً يزكي به نفسه ، وينفع به غيره .

وبهذا الجيل الصالح يعود الإسلام حقيقة إلى قيادة الحياة من جديد . ولا يوجد هذا الجيل إلا التصميم على العودة إلى الإسلام كل الإسلام ، والتخلي عن فكرة الترقيع الجزئي الذي لا يجدي كثيراً في الوصول إلى الهدف المنشود .

إن جل القيم والأفكار والأنظمة والتقاليد التي تسود مجتمعنا اليوم إنما هي وليدة الاستعمار الدخيل ، الذي طارد – بالقوة والحيلة – القيم والأفكار والتقاليد الإسلامية الأصيلة .

ولا يتحرر مجتمعنا إلا بإحداث انقلاب فكري ونفسي شامل ، إحداث تغيير جذري في أخلاقيات المجتمع ومعنوياته كلها ، تغيير يردّ المجتمع إلى أصوله وإلى حقيقة ذاته التي نسيها حين نسي الله وشرعه « نسوا الله فأنساهم أنفسهم » .

وهذا التغيير المطلوب لا ينفع فيه أخذ أجزاء متفرقة من الإسلام ، لتكون بمثابة « قطع غيار » في « جهاز غير إسلامي » ، فتظل هذه القطع قلقة غير مستقرة ، رغم صلاحيتها في نفسها ، لأنها وضعت في نظام لا يلائمها ولا تلائمه .

لا بد أن نأخذ الإسلام كله كما أنزله الله وكما دعا إليه رسوله ، وكما فهمه الصحابة ومن تبعهم بإحسان،وبذلك ننتفع حقاً بثمراته المباركة في حياتنا كلها، الروحية والمادية ، الفردية والاجتماعية .

إن العقيدة الإسلامية لها أثرها في إحسان العبادة ، والعقيدة والعبادة لهما أثرهما في تكوين الأخلاق، والأخلاق لها أثرها في حراسة التشريع، والتشريع له أثره في حماية الدولة ورقيّها ، والدولة لها دورها في الحفاظ على العقائد والعبادات والأخلاق والتشريعات ، فكل هذه الأمور يؤثر بعضها في بعض ولا يستغني ببعضها عن بعض فلا بد من العناية بها جميعاً إذا أردنا أن نقيم حياة متكاملة متوازنة كما أمر الله .

من أجل ذلك حذر القرآن من التهاون في بعض ما أنزل الله من أحكام فقال : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم وأحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك» كما شدد النكير على بني إسرائيل الذين آمنوا ببعض أحكام كتابهم و كفروا ببعض فقال تعالى:«أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون » .

حوار حول هذه الأفكار :

لقد أحسن الدكتور – جزاه الله خيراً – الاختيار لهذه الأفكار المركزة المكثفة ، ففيها أنموذج بارع لمداركه التي تنطلق من نفس تعيش مأساة الإسلام، وتتحسس مواطن آماله وآلامه، وهي من الوضوح والصراحة بحيث لا تستدعي تفسيراً ولا تعقيباً ، غير أن ثمة نقطة أحب أن أدلي حولها ببعض الملاحظات .

لقد أشار، وفقه الله ، إلى آثار الاستعمار الدخيل في مطاردة القيم والأفكار والتقاليد الإسلامية الأصيلة بالقوة والحيلة .

وإنها لحقيقة لا نماريه فيها ، غير أن ثمة حقيقة أخرى لا تنفك عنها ، هي استعداد المجتمع الإسلامي لقبول هذا التأثير ، واستعداده قبل ذلك لقبول الاستعمار نفسه ، ونحن لو دققنا في الظروف التاريخية لتسلل هذا الاستعمار إلى ديار المسلمين على اختلافها ، لأدهشنا ما وصلوا إليه من انحلال يطمع بهم كل ذي طموح .. وأن لنا في واقع المسمين اليوم لضروباً من هده النماذج، تؤكد لنا أن ذوي «الأمزجة المنحرفة» لم يكن لهم أن يقتحموا حرم الحكم في تلك الربوع لو وجدوا أمامهم شعوباً تعيش حقائق الإسلام . وعلى هذا فليس من حقنا أن نلقي بالتبعة كلها على عاتق المستعمر الدخيل . وقد سبقنا الكاظمي إلى هذه الحقيقة عندما قال :

أنا لا ألوم (المستشار) إذا تجاوز أو تعدى
من شأنه أن يستبد وحقنا أن نستعدا

نماذج من منظومه :

وكان على الصديق الأثير أن يتخير لنا بعض منظومه ، ليساعدنا على إعطاء الصورة ، التي يحسن بنا أن نقدمها إلى قارىء هذه الترجمة عن مواهبه الفسيحة .

يقول الدكتور : أما شعري فقد ذهب أكثره في دوامة المحن المتلاحقة التي أصابت الإخوان المسلمين ، إذ كان الأقارب والأصدقاء يتخلصون مما عندهم من أوراق خشية أن تجرهم إلى السجون والمعتقلات . وبقي منـــه شيء قليل من قصيدتي « النونية » التي نظمتها في السجن الحربي خلال محنة ١٩٥٤ وهي أشبه بملحمة تسجل أحداث هذا السجن الرهيب . ومـما قلت في خواتيمها متحدياً جبروت الطغاة :

ضع في يديّ القيد ، ألهب أضلعي ... بالسوط ، ضع عنقي على السكينِ

لن تستطع حصار فكري ساعة ... أو نزع إيمـاني ونور يقيــني

فالنور في قلبي ، وقلبي في يَدَيْ ... ربي ، وربي ناصري ومعيــني

سأعيش معتصمـاً بحبل عقيدتي ... وأموت مبتسمـاً ، ليحيـا ديني

وحقاً إنها لملحمة ، بل أحق بصفة الملحمة من كثير من الطوال التي يسميها أصحابها ملاحم .. إنهـا سجل حي رهيب للصراع الذي شهدته مصر في ظل طغمة السجن الحربي .. يصوّر بالحروف وقـائع لا تستطيع الأيام أن تذهب بجدتها . وقد ضاعف من قيمتها الفنية ما تحتفظ بـه من حرارة لاذعة يحس القارىء تحت لفحها أنـه يشم رائحة المأساة ، ويشارك الشاعر المُعاني آلامه البالغة أقصى التوهج .

وقـد شاء الله أن أكون أنا الذي أتولى إعدادها للنشر قبل عشر سنوات ، مع غيرها من المنشورات التي ذكـّرت المسلمين بأولئك الأحرار الذين يقاسون أمر العذاب من أجل الإسلام ، والذين كادوا ينسونهم ، بل كادوا يصدقون فيهم كل ما تقذفه أقنية الأعلام الكذاب من مفتريات عاصفة مجنونة .. ولولا خشية الإطالة لأتحفنا القارىء بقاطع ومقاطع من هاتيك الروائع ، ولكن حسبه منها هذا الأنموذج الدالّ على أنه تلقاء شاعر مطبوع لو تفرغ للقريض لمـلأ القلوب والأسماع بالمدهش المعجب .

تفاؤل وتحذير :

ويحدثنا عن انطباعاته عن الشباب فيقول :

أنا مستبشر بمستقبل الجيل الإسلامي في مصر ، فبالرغم من المحن المتلاحقة والضربات الوحشية التي وجهت إلى شباب الدعوة الإسلامية هناك ، وبالرغم من وثوب الشيوعيين إلى أجهزة الإعلام والصحافة وغيرهـا من وسائل التوجيه والتأثير في العهد الناصري وذيوله ، لم يزل في مصر شباب يعيشون للإسلام ، ويتمنون أن يموتوا في سبيله .. تجد هؤلاء في كل مكان في المدن والقرى ، في المصانع والمدارس، وأكثر ما تجدهم في الجامعات المدنية ، وبخاصة كلياتها العلمية مثل الهندسة والطب ونحوها .

وكل ما أخافه على هذا الجيل أمران :

١ – ألا يجد من يوجهه من العلماء وقـادة الفكر المؤمنين الموثّقين ، فيميل يميناً أو شمالاً، تحت تأثير الغلاة الذين يستغلون الشعلة المتقدة للإحراق لا للإضاءة، وبذلك ينزلق إلى منعطفات خطيرة، قد تنحرف بمسيرته إلى العوج، أو تودي به في النهاية .

ولأجل هذا وضعت يدي على قلبي حينما قرأت عن جماعة «التكفير» في ناحية وأنصار «البرهانية» في ناحية أخرى . وهذا يضع على عاتق العلماء المستبصرين مسئولية ثقيلة نحو هؤلاء .

٢ – أن تتنبه القوى المعادية للإسلام إلى خطر هذا الجيل الإسلامي الناهض، فتعمل على تعويق مسيرته وتعطيله عن هدفه ، بجره إلى غير طريقه ، وإدخاله في ما لا يحسن الخروج منه . وبذلك يتمزق من داخله ، ويتفرق شذر مذر ، دون أن يحقق غاية ، أو يرفع راية .

على أن هناك أعداداً كبيرة من أبناء الجيل تعيش في فراغ ، تحاول أن تملأه بالعبث والمجون ، أو بالانسياق وراء التيارات .

أما الجيل الإسلامي في منطقة الخليج ، التي أعمل بها منذ خمسة عشر عاماً ففيه بذور طيبة ، وطلائع مؤمنة ، ولكنها قليلة بالنسبة إلى مجموع الجيل الناشىء ، الذي تحيط به فتن عارمة ، تضل العقول بالشبهات ، وتغوي القلوب بالشهوات ، يساعد على ذلك فراغ في الوقت والفكر والروح ، ومال يأتي بغير مشقة ، وينفق بغير حساب ، وخطط محبوكة تدبر للمنطقة التي يتدفق فيها ذهب العالم ونقده ، تريد تبديد ثروتها بتحطيم شبابها ، وعدتها في ذلك مدروسة معروفة : الكأس والمرأة .

ولا غرو أن تتركز الأنظار ، وتعمل القوى المختلفة من يهودية وماسونية وصليبية وشيوعية لغزو هذه المنطقه الثرية غزواً ثقافياً وأخلاقياً واجتماعياً ، مستعينة بالأقليات المتسللة والعميلة .

ومن هنا يجب على علماء الإسلام في المنطقة أن يتيقظوا لما يحاك لها ، ويتفطنوا للألغام التي تزرع لتدميرها ، وألا يعيشوا في عزلة عما حولهم ظانين أن الإسلام بخير ، بل عليهم أن يقاوموا الخطط الكافرة ، بخطط مؤمنة ، وأن يجتمعوا من أجل حقهم ، في مواجهة تجمع خصومهم من أجل باطلهم ، وإلا كانت العاقبة كما قال الله تعالى : « والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير » .

وعلى الأسرة مسئولية لا تنكر في حماية شبابها ، وعلى الدولة مسئولية أكبر في تطهير المجتمع من عوامل الفساد ومعاول الهدم و « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

وقد زرت عدداً من الأقطار في الوطن الإسلامي الكبير ، فوجدت الأجيال المسلمة فيها تعاني محنة مشتركة . إنها تعاني نفسياً من التناقض البعيد بين عقيدتها وواقعها ، بين ما يحسه ضميرها وما يعيشه مجتمعها .. بين الإسلام الذي تؤمن بوجوب تطبيقه ، وتحكيمه ، وبين الحياة البعيدة عن الإسلام في أكثر جوانبها . إنها محنة الفرد المسلم في مجتمع غير ملتزم بأحكام الإسلام .

ولهذا كان لا بد من العمل للعودة بالمجتمع إلى الإسلام، ليستأنف حياة إسلامية صحيحة، توجهها عقيدة الإسلام، وتحكمها شريعة الإسلام، وتسودها أخلاق الإسلام. وهذا العمل لا يثمر إلا إذا كان عملاً جماعياً منظماً مخططاً، كما بينت ذلك في القسم الأخير من كتابي «الحل الإسلامي فريضة وضرورة».

مهمة العلماء:

يستطيع علماء الإسلام المعاصرون أن يعملوا الشيء الكثير، لضبط مسيرة الجيل بأحكام الإسلام، وللوقوف في وجه التيارات الغازية، ولتحقيق قيام المجتمع الإسلامي المتكامل:

أ - فهم يستطيعون أن يجعلوا من المساجد التي يخطبون بها ويدرسون، مراكز إشعاع، ومحاور لنشاط إسلامي متعدد الألوان إذا هم وعوا رسالة المسجد وأعادوا لها مكانتها الأولى. ولا زال رواد المساجد - ولا سيما في أيام الجمع ورمضان - يمثلون أكثرية المواطنين في العالم الإسلامي.

ب - ويستطيعون أن يجوبوا البلاد فرادى ومثنى وثلاث ورباع، داعين إلى الإسلام، مذكرين به، ذابّين عنه، وخاصة في المناسبات الإسلامية كشهر رمضان وغيره، وأن ينتقلوا إلى الناس بدل أن ينتظروا انتقال الناس إليهم.

جـ - ويستطيعون أن يؤلفوا الرسائل والنشرات والكتب للتبصير بالإسلام، وإيجاد رأي عام واع يلتزم به ويناصر دعاته، ويقف في وجه أعدائه.

د - ويستطيعون أن يكونوا في مواقعهم رواداً ومصلحين اجتماعيين إلى جوار كونهم موجهين دينيين. ومعنى هذا أن يهتموا بأحوال المجتمع، والاتصال بأفراده وأسره وجماعاته ومؤسساته، والعمل على تفهم أوضاعه وأمراضه ومشكلاته الدينية والسلوكية والفكرية والاجتماعية

والاقتصادية والسياسية، وأن يسهموا في تشخيصها ووصف الدواء لها على هدي الكتاب والسنة .

هـ - ويستطيع العلماء بكل ما ذكرناه وبغيره أن يخلقوا من الشعب قوة إسلامية تطالب الحكام بالرجوع إليه ، وبإقامة الحدود ، والالتزام بتشريعه وتوجيهه ، بل تلزمهم به وتدفعهم إليه دفعاً . وخاصة في البلاد الديمقراطية التي لها حق اختيار ممثليها في البرلمان .

و - ويستطيع علماء الإسلام أن يعقدوا ما بين حين وآخر مؤتمرات إسلامية لها صبغة عالمية ، يلتقون فيها من كل بلد ، ليتدارسوا أوضاعهم ، ومواضع القوة لديهم ، ونقاط الضعف عندهم ، ومكامن الخطر التي يتربص بها عدوهم ، ليقدموا الحلول لأمتهم الكبرى ، ويضعوا أيدي زعمائها على الطريق الصحيح ، ويبصروا بمكامن الخطر ونقاط الضعف لتتلافى ، وينبهوا على مواطن القوة لتستغل .

ز - ويستطيع علماء الإسلام أن يعملوا على تكوين مجامع علمية متخصصة في شتى جوانب الثقافة الإسلامية مهمتها أن تقدم البحوث العميقة ، والدراسات المستفيضة التي تضع الحلول لمشكلات العصر ، وتنير الطريق لمن يريد العودة إلى الإسلام . على أن نناقش هذه البحوث ونمحصها لنصل من وراء ذلك إلى اجتهاد جماعي معتبر ، هو صورة « الإجماع » في عصرنا .

الوصايا العشر :

لكن علماء الإسلام المعاصرين لا يستطيعون أن يقوموا بما ذكرت إلا بشروط يجب أن يرعوها :

١ - أن يكون ولاؤهم لله سبحانه ولدينه وحده ، لا لقومية ولا لوطنية ولا لأنظمة ولا لأحزاب ولا لأشخاص إلا بمقدار اتصالها بالإسلام وقربها منه .

٢ – أن يجعلوا مستندهم في كل قضية الرجوع إلى كتاب الله وما صح من سنّة رسوله ، مهتدين بهدي السلف الصالح لهذه الأمة في فهمهم لروح الإسلام ، واتباعهم لمناهجه ، عاملين على تحرير الإسلام مما شابه وابتدع فيه – على مر القرون – من تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين .

٣ – أن يجهروا بكلمة الحق في وجوه الطغاة والمتألهين ، وأن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، لا يخافون في الله لومة لائم ، ولا سطوة ظالم ، كالذين وصفهم الله بقوله : « الذين يبلّغون رسالات الله ويخشونه ، ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً » .

٤ – أن يضعوا نصب أعينهم وصية النبي ﷺ لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما إلى اليمن وقال لهما : « يسّرا ولا تعسّرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا ولا تختلفا » .

فما أحوج العلماء والدعاة إلى هذه الوصية في كل وقت ، وما أشد حاجتهم إليها في عصرنا خاصة !

ومعنى هذا ، أن يكون شعارهم الرفق لا العنف ، والتساهل لا التشدد ، فإن الله يحب الرفق في الأمر كله ، وقد قال الله لخير خلقه : « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » .

والتساهل الذي أعنيه هو التساهل في الفروع والوسائل ، لا في الأصول والأهداف ... وعلى هذا الأساس يجب أن نعامل الناس .

يجب أن نعدّ كل مسلم أدى الفرائض واجتنب الكبائر في هذا العصر صديقاً لنا ، ونشعره بأنه منا ، وإن كان على بعض المكروهات والشبهات والصغائر التي لا يصر عليها . مع دعوتنا له بالحكمة والموعظة الحسنة أن يرتقي إلى ما هو أفضل .

ومن الخطأ والخطر أن نعادي هذا الصنف ونعتبره ضد الدين فيختطفه عدو الإسلام ، ويحتضنه ويجعل منه معولاً لهدم دينه وأمته .

٥ - أن يعرفوا عصرهم وعدوهم ومعركة وقتهم .. فلا يشغلوا أنفسهم وطلابهم وجمهورهم بمعارك جانبية أو فرعية أو تاريخية، غافلين عن معركة الوقت ومعركة المصير ، أعني معركة الإسلام والتيارات الغازية من الشرق والغرب ، تحمل إلى أبنائنا الإلحاد والتحلل، والاستخفاف بقيمنا وشرائعنا. فهذه التيارات الهدامة هي العدو الأكبر الذي ينبغي أن نوجه إليه جل اهتمامنا، وجل تفكيرنا، وجل سعينا، لنحفظ على أمتنا شخصيتها وأصالتها ونحميها من الذوبان والفناء في غيرها.

٦ - أن يتخذوا من قاعدة المنار الذهبية شعاراً لهم ودستوراً يتعاملون به فيما بينهم : نتعاون فيما اتفقنا عليه ، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه .

٧ - أن يتسلحوا بما استطاعوا من معارف العصر، فالإمام الغزالي ما استطاع أن يهزم الفلسفة، ويحيي علوم الدين ويبين تهافت الفلاسفة إلا بعد هضم الفلسفة، وأصبح فيها كأحد أساطينها .

وكذلك شيخ الإسلام ابن تيمية ، ما رد على كل الفئات المنحرفة وبيّن عوارها إلا بعد دراسة عقائدها وتعاليمها من كتبها ، دراسة واعية فاحصة ، حتى اليهودية والنصرانية ، ولهذا لم يكن إماماً في الشرعيات فحسب ، بل في العقليات أيضاً ، كما يدل على ذلك تراثه الغني . فلا غنى للعالِم في عصرنا عن دراسة الثقافة الحديثة - قدر الاستطاعة - كعلوم النفس والاجتماع والاقتصاد السياسي والأخلاق والفلسفة ومذاهبها وتاريخها .

٨ - على أن هـذا كله لا يتم إلا بتحررهم من الشعور بأنهم مجرد موظفين رسميين في معاهد الدولة ومدارسها وجوامعها، وليشعروا بأنهم أصحاب دعوة، ورجـال فكرة . ففرق بين الموظفين والدعاة ، فالأولون يعيشون بالإسلام ، يأكلون به ، والآخرون يعيشون للإسلام ويموتون في سبيله .

٩ - أن يترابطوا ويتواصلوا فيما بينهم - على مستوى العـالم الإسلامي - فعلماء المسلمين قوة كبيرة لها جمهورها وأتباعها وتأثيرها ، لو أنهم اتحدوا داخل كل بلد ، ثم حاولوا التنسيق والتعاون على المستوى الإسلامي العام .

إن أعداء الإسلام يعرفون الخلافات الصغيرة التي تفرق بين علماء المسلمين ، فهم لهذا يقوونها ويضخمونها ويعملون على إبقائها حية بارزة، ويستخدمونها عند اللزوم لضرب بعضهم ببعض .. موهمين فريقاً منهم أنهم معهم ضد خصومهم في الفكر، والحقيقة أنهم ضد الجميع، وعدو الجميع، وإنما هو التكتيك القذر الملعون.

وعلينا – نحن المسلمين – أن نكون أبصر منهم وأوعى، وأن نرد كيدهم في نحورهم.

١٠ – أن يقفوا إلى جانب كل حركة إسلامية سليمة الاتجاه ، تعمل على العودة بالإسلام إلى قيادة الحياة من جديد ، وصبغ المجتمع بصبغة الإسلام ، فعلى علماء الإسلام أن يشدوا أزرها ، ويأخذوا بأيديها ، ويسددوا خطاها ويمدوها بكل ما استطاعوا من قوة ، إن لم يكونوا هم في مقدمة صفوفها توجيهاً وعملاً وتضحية وبذلاً : « ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين » !

ملاحظات تستحق الانتباه :

وبعد ، فإن فضيلة الأخ في فقراته العشر يقدم لنا أفضل (ورقة عمل) لمعالجة واقع العالم الإسلامي، وإعداد المجتمع الصالح الذي نتطلع إليه. ولكن في بعض هذه الفقرات متسعاً كبيراً لتساؤلات لا بد أن تتحرك في صدور الكثيرين من قرائها ، ولا يحسن أن نمر بها دون أن نعقب عليها ببعض القول :

في الفقرات (أ – ب – و) « نظريات » تتجاوز نطاق الواقع ، وكأنها ضروب من الأحلام التي من شأنها التعويض عن المستحيل بتحقيق المتخيلات .

في الفقرة (أ) يكلف علماء الإسلام أن يجعلوا من المساجد مراكز إشعاع ومحاور لنشاط متعدد الألوان في توجيه روادها من المصلين الذين – في رأيه – لا يزالون يؤلفون كثرة المواطنين في العالم الإسلامي .

وهو تكليف بما فوق الإمكان، لأنه يتجاهل وجود السلطة القاهرة التي تهيمن على وضع المسجد ، ولا تسمح بالكلام فيه إلا لنوعية معينة من رجال الدين الذين كل منهم (يعدد أياماً ليقبض راتباً) .

وفي الفقرة(ب)يدعو العلماء لجوب البلاد لبث الدعوة ونشر الوعي الإسلامي. وهو أيضاً اقتراح خيالي يتصور هؤلاء العلماء مطلقي التصرف في خدمة الإسلام حيث شاءوا .. ولو خفض بصره إلى واقع الناس قليلاً لأبصر ركام العقبات التي تقام بوجوههم فتحول بينهم وبين الاتصال بأي جانب من العالم الإسلامي .

كذلك الأمر في الفقرتين(و- ز) فكأني به يفترض لعلماء الإسلام مثل النفوذ الذي كان لهم في دولة ابن تاشفين بالأندلس، فهو يحضهم على أن يخلقوا من الشعب قوة إسلامية تلزم الحكام إقامة الإسلام.. وأن يعقدوا المؤتمرات العالمية لتدارس أوضاع المسلمين، وللعمل على تكوين المجامع العلمية التي تقدم الحلول لمشكلات العصر.

وليس أجدر من الأستاذ القرضاوي بتقدير ظروف هؤلاء العلماء الذين حيل بينهم وبين ما يشتهون ، فلا إذاعة تستقبلهم ، ولا تلفاز يقبلهم ، ولا صحافة تحمل كلامهم إلا في حدود لا يكاد يحس بها أحد .. وليست مواكب شهدائهم ولا زمر سجنائهم دون محاكمة ، عن ذاكرته وعلمه ببعيد .

ثم إن (الامكانات) التي يتخيلها لهؤلاء العلماء توهم كأن الأستاذ يتصور العالم الإسلامي دائرة مغلقة لا نفوذ فيها لغير الإسلام، وقد نسي تدفق السموم عليه من كل صوب ، ولا سيما عن طريق تلك البعثات التي احتواها الغرب والشرق ، فربّاها على عينه، وجردها من كل احترام لدينها ومواريثها الروحية ، حتى إذا عادت إلى أهلها لم تجد أروح لقلبها من إعلان الحرب على كل مقدس في هذه الأمة!

ويلاحَظ أن فضيلة الأخ يلح في أكثر من موضع على أن يقف العلماء بجانب كل حركة إسلامية تتبين لهم سلامتها، وهو إلحاح ينطوي على تقريع كبير لأولئك المعممين الكبار، الذين سخرتهم السياسة الباغية لقلب الحقائق، وإصدار الفتاوى بإهدار دماء الدعاة إلى الإسلام، دونما ذنب جنوه سوى أن يقولوا : ربنا الله!..

وما أكثر هؤلاء في ديار المسلمين!.. وما أخطر ما جنوه على الإسلام من المحن التي لا تكاد تنتهي !..

فهرس العلماء المترجمين في الكتاب

البيان	الصفحة